تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلّامة

محمد الأمين بن عبد الله الأُرَمي العلوي الهرري الشافعي

المدرّس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

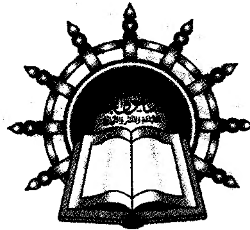
مكة المكرمة

المجلد الحادي والثلاثون

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م



دار طوق النجاة

بيروت - لبنان

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي جعل القرآن منهلاً عذباً للورود والصدور، وأنزله موعظةً وشفاءً لما في الصدور، جمع فيه علوم الأولين والآخرين، فلا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين، والصلاة والسلام علىٰ من أوحي إليه ذلك القرآن، من لوح الوجوب والأمر والشأن، سيدنا محمد الذي أجرىٰ من مسجله ما يحاكي السلسبيل والرحيق، وأفحم ببلاغته كل متكلم منطيق، وفسر الآيات في الأنفس والآفاق علىٰ مراد الله سبحان الملك الخلاق، وعلى آله وصحبه المقتبسين من مشكاة أنواره، المغترفين من بحار أسراره، ومن تبعهم بإحسان ممن تخلق بالقرآن في كل زمان.

أما بعد: فيقول العبد المعترف بذنبه وخطئه، المنادي لربه في عفوه وعطائه: إني لما فرغت من تفسير الجزء التاسع والعشرين من القرآن الكريم.. عزمت إن شاء الله تعالىٰ علىٰ الشروع في تفسير الجزء الثلاثين، وإن كان علم التفسير لا يقحم في معاركه كل ذمير، وإن كان أسداً، ولا يحمل لواءه كل أمير، وإن مات حسداً، وذلك أظهر من أن يورد عليه دليل، كالنيرين لغير كليل، ومع خطر ذاك فالأمد قصير، وفي العبد تقصير، وكم ترىٰ من نحرير كامل في التحرير والتقرير، قد أصابه سهم القضاء قبل بلوغ الأمل، وذلك بحلول ريب المنون والأجل، أو بتطاول يد الزمان، فإن الدنيا لا تصفو لشاربٍ وإن كانت ماء الحيوان، وأي وجود لا ينسج عليه عناكب الآفات والعاهات، وأي نعيم لا يكدره الدهر هيهات هيهات.

اللهم كما عودتني في الأول خيراً كثيراً، فيسر لي الأمر في الآخر تيسيراً، واجعل رقيمي هذا سبباً لبياض الوجه، كما تبيض وجوه أولئك، وامح مسودات أعمالي بحق كتابك الكريم، واجعل قراري في جنات النعيم، ولم أكن بدعائك رب شقياً، بكرة وعشياً، ما دمت حياً، فلك الحمد يا إلهي في الأولىٰ والأخرىٰ، علىٰ عنايتك الكبرىٰ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وأقول مستمداً من الله سبحانه التوفيق والهداية لأقوم الطريق:

سورة النبأ

سورة النبأ، وتسمىٰ سورة عمَّ، وسورة المعصرات، وسورة التساؤل، مكية عند الجميع[1]، نزلت بعد سورة المعارج، وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة عم يتساءلون بمكة، وأخرج ابن مردويه عن الزبير مثله. وهي أربعون آية، وقيل: إحدى وأربعون آية، وكلماتها مئة وثلاث وسبعون كلمة، وحروفها تسع مئة وسبعون حرفاً.

المناسبة: مناسبتها لما قبلها من وجوه[2]:

١ ـ اشتمالها علىٰ إثبات القدرة على البعث الذي ذكر في السورة السالفة أن الكافرين كذبوا به.

٢ ـ أن في هذه وما قبلها تأنيباً وتقريعاً للمكذبين، فهناك قال: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾، وهنا قال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾﴾.

٣ ـ أن في كل منهما وصف الجنة والنار، وما ينعم به المتقون، ويعذب به المكذبون.

٤ ـ أن في هذه تفصيل ما أجمل في تلك من يوم الفصل، فهناك قال: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾﴾ وهنا قال: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾﴾ إلىٰ آخر السورة.

وقال أبو حيان[3]: مناسبتها لما قبلها ظاهرة لما ذكر في ما قبله ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بعد الحديث الذي هو القرآن، وكانوا يتجادلون فيه ويتساءلون عنه.. قال: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾﴾.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال أبو عبد الله محمد بن حزم في «الناسخ والمنسوخ»: سورة النبأ محكم كلها، ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي. (٣) البحر المحيط.

تسميتها: سميت سورة النبأ، وسورة التساؤل؛ لذكر النبأ العظيم، أو التساؤل فيها.

فضلها: ومما ورد في فضلها[1]: ما روىٰ أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ عم يتساءلون.. سقاه الله برد الشراب يوم القيامة». وعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ﷺ: «تعلموا سورة ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢﴾، وتعلموا ﴿قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ۝١﴾، ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾، ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١﴾، ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١﴾، فإنكم لو تعلمون ما فيهن.. لعطلتم ما أنتم عليه وتعلمتموهن، وتقربوا إلىٰ الله بهن، إن الله يغفر بهن كل ذنب إلا الشرك بالله». ولكن فيه مقال.

وعن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ قال قلت: يا رسول الله، لقد أسرع إليك الشيب قال: «شيبتني هودٌ، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت»، وفيه إشارة إلىٰ أن من تعلم هذه السور، ينبغي له أن يتعلم معانيها أيضاً، إذ لا يحصل المقصود إلا به، وتصريح بأن الآخرة ومطالعة الوعيد يشيب الإنسان.

والله أعلم

* * *

---

(١) الخازن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا
سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ
سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا
سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦)
إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا
(١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢) لَابِثِينَ فِيهَا
أَحْقَابًا (٢٣) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ
كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا
فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا
(٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا (٣٥) جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ
الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا (٣٩) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا
قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (٤٠)﴾.

المناسبة

لما اختتم الله سبحانه وتعالى سورة المرسلات بذكر يوم القيامة، و وعيد المكذبين؛ حيث قال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)﴾.. افتتح هذه السورة بذكر النبأ العظيم، ويوم القيامة، ودلائل القدرة الربانية علىٰ البعث والنشور، والإعادة بعد الإبادة، والإحياء بعد الإماتة؛ ليقوم الناس لرب العالمين، فيلقىٰ كل منهم جزاء علمه.

وقد ذكر لهم من مظاهر قدرته أموراً تسعة يشاهدونها بأعينهم، لا يخفىٰ عليهم شيء منها:

١ ـ انبساط الأرض وتمهيدها لتصلح لسير الناس والأنعام.

٢ ـ ثبات الجبال صاعدة في الجو.

٣ ـ تنوع الآدميين إلى ذكور وإناث.

٤ ـ جعل النوم راحةً للإنسان من عناء الأعمال التي يزاولها عامة نهاره.

٥ ـ جعل الليل ساتراً للخلق.

٦ ـ جعل النهار وقتاً لشؤون الحياة والمعاش.

٧ ـ ارتفاع السموات فوقنا مع إحكام الوضع ودقة الصنع.

٨ ـ وجود الشمس المنيرة المتوهجة.

٩ ـ نزول المطر وما ينشأ عنه من النبات، فكل ذلك داع لهم أن يعترفوا أن من قدر علىٰ كل هذا.. فلا تعجزه إعادتهم إلى النشأة الآخرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما نبه عباده إلىٰ هذه الظواهر الباهرة، ولفت أنظارهم إلى آياته القاهرة.. أخذ يبين ما اختلفوا فيه ونازعوا في إمكان حصوله، وهو يوم الفصل، ويذكر لهم بعض ما يكون فيه، تخويفاً لهم من الاستمرار علىٰ التكذيب بعدما وضحت الأدلة، واستبان الحق، ثم أبان لهم أن هذا يوم شأن عظيم، وأمر الكائنات فيه علىٰ غير ما تعهدون، ثم ذكر منزلة المكذبين الذين جحدوا آيات الله واتخذوها هزواً، وأن جهنم مرجعهم الذي ينتهون إليه، وأنهم سيقيمون فيها أحقاباً طوالاً لا يجدون شيئاً من النعيم والراحة، ولا يذوقون فيها روحاً ينفس عنهم حر النار، ولا يذوقون من الشراب إلا الماء الحار، والصديد الذي يسيل من أجسادهم جزاء سيء أعمالهم، إذ هم كانوا لا ينظرون يوم الحساب، ومن ثم اقترفوا السيئات، وارتكبوا مختلف المعاصي، وكذبوا الدلائل التي أقامها الله تعالىٰ علىٰ صدق رسوله أشد التكذيب، وقد أحصىٰ الله كل شيء في كتاب علمه، فلم يغب عنه شيء صدر منهم، وسيوفيهم جزاء ما صنعوا، وستكون له كلمة الفصل، فيقول لهم ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين حال المكذبين.. أردفه ما يفوز به المتقون من الجنات التي وصفها ووصف ما فيها، وذكر أنها عطاء من الله تعالىٰ، وفي هذا استنهاض لعوالي الهمم بدعوتهم إلى المثابرة علىٰ أعمال الخير، وازديادهم من القربات والطاعات، كما أن فيها

إيلاماً لأنفس الضالين المكذبين.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ...﴾ إلىٰ آخرِ السورة، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أن يوم القيامة موعد للفصل بين الخلائق، وتنتهي به أيام الدنيا، وأن دار العذاب معدة للكافرين، وأن الفوز بالنعيم للمتقين.. أعقب ذلك بأن هذا يوم يقوم فيه جبريل والملائكة صفاً صفاً لا يتكلمون إلا إذا أذن لهم ربهم، وقالوا قولاً صحيحاً، ثم أتبعه بأن هذا اليوم حق لا ريب فيه، وأن الناس فيه فريقان: فريق بعيد من الله، ومرجعه إلىٰ النار، وفريق مآبه القرب من الله، ومنازل الكرامة، فمن كانت له مشيئة صادقة.. فليتخذ مآباً إلىٰ ربه، وليعمل عملاً صالحاً يقربه منه، ويحله محل كرامته.

ثم عاد إلىٰ تهديد المعاندين وتحذيرهم من عاقبة عنادهم، وأنهم يعلمون غداً ما قدمته أيديهم، ويرونه حاضراً لديهم، وحينئذٍ يندمون، ولات ساعة مندم، ويبلغ من أَمْرِهم أن يقولوا: ليتنا كنا تراباً لم نصب حظاً من الحياة.

أسباب النزول

لما بعث رسول الله ﷺ برسالة رب العالمين إلىٰ العرب خاصة، وإلى الناس كافةً، وأمرهم بتوحيد الله عزّ وجلّ، وصدع بأمر الله وبلغهم بالبعث والنشور بعد الموت، وتلا عليهم القرآن العظيم.. جعلوا يتساءلون بينهم، فكانوا كلما اجتمعوا في ناد من أنديتهم، أو ندوة من ندواتهم.. أخذوا يتحدثون في شأن محمد ﷺ ورسالته وما جاء به من ربه، ويسأل بعضهم بعضاً، ويسألون غيرهم عن طريق الإنكار عليه، ويتعجبون منه، ويقولون ما الذي أتىٰ به محمد، وهل هو ساحر، أم شاعر، أم كاهن، أم اعتراه بعض آلهتنا بسوء؟ فنزلت هذه السورة إنكاراً عليهم، وتعجيباً من تساؤلهم.

التفسير وأوجه القراءة

﴿عَمَّ﴾: أصله[1]: عن ما، أدغمت النون في الميم لاشتراكهما في الغنة،

---

(١) روح البيان.

فصار عما، ثم حذفت الألف كما في لِمَ وبِمَ وفيمَ وإلامَ وعلامَ، فإنها في الأصل: لما وبما وفيما وإلى ما وعلى ما؛ إما فرقاً بين الاستفهامية وغيرها، أو قصداً للخفة لكثرة استعمالها، وقد جاءت في العشر غير محذوفة، كما ذكره أبو البقاء، ومنه قول الشاعر:

عَلَىٰ مَا قَامَ يَشْتُمُنِيْ لَئِيْمٌ كَخِنْزِيْرٍ تَمَرَّغَ فِيْ رَمَادِ

ولكنه قليل لا يجوز إلا لضرورة، وما فيها من الإبهام للإيذان بفخامة شأن المسؤول عنه وهوله، وخروجه عن حدود الأجناس المعهودة، كأنه خفي جنسه، فيسأل عنه، فالاستفهام ليس علىٰ حقيقته، بل لمجرد التفخيم، فإن المسؤول عنه ليس بمجهول بالنسبة إلىٰ الله تعالى إذ لا تخفى عليه خافية، قال الزجاج: اللفظ لفظ استفهام، والمعنىٰ تفخيم القصة، كما تقول أي شيء تريد؟ إذا عظمت شأنه، وقرأ الجمهور[1]: ﴿عَمَّ﴾ بحذف الألف لما ذكرنا آنفاً، وقرأ أبي وابن مسعود وعكرمة وعيسى: ﴿عما﴾ بالألف، وهو أصل: عم، ولكنه قليل كما مر آنفاً، وقرأ الضحاك وابن كثير في رواية والبزي: ﴿عمه﴾ بهاء السكت عوضاً عن الألف إجراء للوصل مجرى الوقف لأن الأكثر في الوقف علىٰ ما الاستفهامية هو إلحاق هاء السكت إذا أضيف إليها نحو: مجيء مه، والاستفهام عن هذا فيه تفخيم وتهويل وتقرير وتعجيب، كما تقول أي رجل تريد؟ وزيد ما زيد؟ كأنه لما كان عديم النظير أو قليله خفي عليك جنسه، فأخذت تستفهم عنه، ثم جردت العبارة عن تفخيم الشيء، فجاء في القرآن، والمعنىٰ عن أي شيء عظيم يتساءلون.

﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾؛ أي أهل مكة، وكانوا يتساءلون عن البعث والحشر الجسماني ويتحدثون فيما بينهم، ويخوضون فيه إنكاراً واستهزاءً، لكن لا علىٰ طريق التساؤل عن حقيقته ومسماه، بل عن وقوعه الذي هو حال من أحواله، ووصف من أوصافه، فإن (ما) وإن وضعت لطلب حقائق الأشياء، ومسميات أسمائها، كما في قولك: ما المَلَك، وما الروح؟ لكنها قد يطلب بها الصفة والحال، تقول: ما زيد؟ فيقال عالم أو طبيب، وقيل: يتساءلون عن القرآن، وإنما كان عظيماً؛ لأنه ينبىء عن التوحيد وتصديق الرسول ووقوع البعث والنشور، قال الفراء: التساؤل هو أن يسأل بعضهم

---

(١) البحر المحيط.

بعضاً كالتقابل، وقد يستعمل أيضاً في أن يتحدثوا به، وإن لم يكن سؤال، قال الله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾ الآية، وهذا يدل على أنه التحدث. انتهىٰ.

وقرأ الجمهور: ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾، وقرأ عبد الله وابن جبير: ﴿يَسَّاءلون﴾ بغير تاء وشد السين، وأصله ﴿يتساءلون﴾ بالتاء، فأدغمت التاء في السين.

ثم ذكر سبحانه تساؤلهم عن ماذا، وبيَّنه فقال: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾ والنبأ: الخبر الذي له شأن وخطر، وهو جواب وبيان لشأن المسؤول عنه، كأنه قيل: عن أي شيء يتساءلون؟ هل أخبركم به ثم قيل بطريق الجواب: عن النبأ العظيم الخارج عن دائرة علوم الخلق يتساءلون علىٰ منهاج قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

والفائدة في أن يذكر السؤال ثم أن يذكر الجواب معه[1]: كون هذا الأسلوب أقرب إلىٰ التفهيم والإيضاح، فـ ﴿عَنِ﴾ متعلقة بما يدل عليه المذكور من مضمر حقه أن يقدر بعدها مسارعةً إلىٰ البيان، ومراعاة لترتيب السؤال، فإن الجار فيه مقدم علىٰ متعلقه.

وقيل: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾ استفهام آخر بمعنىٰ: أعن النبأ العظيم، أم عن غيره؟ إلا أنه حذف منه حرف الاستفهام لدلالة المذكور عليه، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾؛ أي: أهم الخالدون؟ ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾﴾ وصف النبأ بعد وصفه بـ﴿الْعَظِيمِ﴾ تأكيداً لخطره إثر تأكيد، وإشعاراً بمدار السؤال عنه، فهو متصف بالعُظم، ومتصف بوقوع الاختلاف فيه، و ﴿فِيهِ﴾ متعلق بـ ﴿مُخْتَلِفُونَ﴾ قدم عليه اهتماماً به ورعايةً للفواصل، وجعل الصلة جملة اسمية للدلالة علىٰ الثبات في الاختلاف فيه؛ أي هم راسخون في الاختلاف فيه، فمن جازم باستحالته يقول: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ ومن مقر يزعم أن آلهته تشفع له، كما قالوا ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾، ومن شاك يقول: ﴿مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾.

---

(١) روح البيان.

وفي «الشوكاني»: وقد استدل علىٰ أن ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ هو القرآن بقوله: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾ فإنهم اختلفوا في القرآن، فجعله بعضهم سحراً، وبعضهم شعراً، وبعضهم كهانةً، وبعضهم قال: هو أساطير الأولين، وأما البعث.. فقد اتفق الكفار إذا ذاك علىٰ إنكاره، ويمكن أن يقال: إنه قد وقع الاختلاف في البعث في الجملة، فصدق به المؤمنون، وكذب به الكافرون، فقد وقع الاختلاف فيه من هذه الحيثية، وإن لم يقع الاختلاف فيه بين الكفار أنفسهم علىٰ التسليم والتنزل. ومما يدل على أنه القرآن قوله سبحانه ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝٦٨﴾، ومما يدل على أنه البعث أنه أكثر ما كان يستنكره المشركون، وتأباه عقولهم السخيفة.

وقيل: إن الضمير في قوله: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يرجع إلىٰ المؤمنين والكفار؛ لأنهم جميعاً كانوا يتساءلون عنه، فأما المؤمن فيزداد يقيناً واستعداداً وبصيرةً في دينه، وأما الكافر فاستهزاءً وسخريةً، قال الرازي: ويحتمل أنهم يسألون الرسول، ويقولون: ما هذا الذي يعدنا به من أمر الآخرة؟

والمعنى[1]: أي عن أيِّ شيء يتساءل المشركون من أهل مكة وغيرهم فيما بينهم إنكاراً واستهزاءً، ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾ أي: عن الخبر العظيم الشأن الذي اختلفوا فيه يتساءلون، فقوله: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾ سؤال، وقوله: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ جواب، فالسائل والمجيب هو الله تعالىٰ، وإيراد الكلام بصورة السؤال والجواب أقرب إلىٰ التفهيم والإيضاح، وتثبيت الجواب في نفس السائل، كما مر. روي أن النبي ﷺ لما دعاهم إلىٰ التوحيد، وأخبرهم بالبعث بعد الموت، وتلا عليهم القرآن.. جعلوا يتساءلون فيما بينهم، فيقولون ماذا جاء به محمد ﷺ؟ ويسألون الرسول والمؤمنين عنه استهزاءً. وقيل: ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾: هو نبوة محمد ﷺ، وذلك لأنهم عجبوا إرسال الله محمداً إليهم.

ثم أخذ سبحانه يرد عليهم متوعداً لهم، فقال: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤﴾، فالكلام[2] فيه ردع كما يستفاد من ﴿كَلَّا﴾، ووعيد كما يستفاد من ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾؛ أي ليس أمر البعث مما ينكر أو يشك فيه، بحيث يتساءل عنه، سيعلمون أن ما يتساءلون عنه حق لا دافع له، واقع لا ريب فيه، مقطوع لا شك، وقيل: ﴿كَلَّا﴾ بمعنى حقاً سيعلمون

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

أي حقاً يعلم الكفار عاقبة تكذيبهم، ويعلم المؤمنون عاقبة تصديقهم.

والمعنىٰ: أي: ليس[1] الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون الذين ينكرون البعث بعد الموت، ثم توعدهم بأنهم سيعلمون إذا ما عاينوا بأنفسهم حقيقة ما كانوا ينكرون، وتنقطع عنهم الريبة حين يسأل كل عامل عما عمل، ويفصل بين الخلائق.

وقصارىٰ ذلك: فليزدجروا عما هم فيه، فإنهم سيعلمون عما قليل حقيقة الحال إذا حل بهم العذاب والنكال، وأن ما يتساءلون عنه ويضحكون منه حق لا شك فيه ولا ريب، ثم أكد هذا الوعيد بقوله: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ تكرير[2] للردع والوعيد للمبالغة في التأكيد والتشديد في الوعيد، و ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة علىٰ أن الوعيد الثاني أبلغ وأشد، يعني: أن ﴿ثُمَّ﴾ موضوعة للتراخي الزماني، وقد تستعمل مجازاً في التراخي الرتبي؛ أي: لتباعد ما بين المعطوفين في الشدة والفظاعة، وذلك لتشبيه التباعد الرتبي بالتراخي الزماني في الاشتمال علىٰ مطلق التباعد بين الأمرين، والمعنىٰ المجازي هو المراد هنا، لأن المقام مقام التشديد والتهديد، وذلك إنما يكون آكد بالحمل عليه، وبعضهم حملها علىٰ معناها الحقيقي فقال: سيعلمون حقيته عند النزع، ثم في يوم القيامة، ولا شك أن القيامة متراخية بحسب الزمان عن وقت النزع، فـ ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن التساؤل والاختلاف بالمعنيين المذكورين، و ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ وعيد لهم بطريق الاستئناف، وتعليل للردع، والسين للتقريب والتأكيد، وليس مفعوله ما ينبىء عنه المقام من وقوع ما يتساءلون عنه، ووقوع ما يختلفون فيه، بل هو عبارة عما يلاقون من فنون الدواهي والعقوبات، والتعبير عن لقائها بالعلم لوقوعه في معرض التساؤل والاختلاف، والتقدير: أي سيعلمون ما يحل بهم من فنون العقوبات.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ بياء الغيبة في الموضعين، وقرأ الحسن وأبو العالية وابن دينار وابن عامر في روايةٍ عنه بالفوقية علىٰ الخطاب في الموضعين، وقرأ الضحاك: الأول بالفوقية، والثاني بالتحتية، وقال الضحاك أيضاً: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤﴾

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

يعني: الكافرين عاقبة التكذيب ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ يعني: المؤمنين عاقبة تصديقهم، وقيل: بالعكس، وقيل هو وعيد بعد وعيد، وقيل: المعنى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤﴾ عند النزع ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ عند البعث، كما مر.

ثم شرع يبين عظيم قدرته، وآيات رحمته التي غفل عنها هؤلاء المنكرون مع أنها بين أعينهم في كل حين؛ ليعرفوا توحيده، ويؤمنوا بما جاء به رسوله، فقال:

١ ـ ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾ والاستفهام[١] للتقرير بمعنىٰ: جعلنا الأرض مهاداً، والمهاد: بمعنىٰ البساط والفراش، أي: ألم نجعل الأرض بساطاً ممهوداً، وفراشاً مفروشاً لكم، تتقلبون عليها كما يتقلب الرجل علىٰ بساطه وفراشه؛ أي: قدرتنا علىٰ هذه الأمور المذكورة أعظم من قدرتنا علىٰ الإعادة بالبعث، والمهاد: الوطاء والفراش، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ و ﴿مِهَٰدًا﴾: مفعول ثانٍ لـ ﴿جَعَلَ﴾ إن كان الجعل بمعنىٰ التصيير، وحال مقدرة إن كان بمعنىٰ الخلق، وجوز أن يكون جمع مهد، ككعاب وكعب، وجمعه لاختلاف أماكن الأرض من القرى والبلاد وغيرها، أو للتصرف فيها بأن يجعل بعضها مزارع، وبعضها مساكن إلى غير ذلك.

والجملة الاستفهامية مستأنفة مسوقة لتحقيق النبأ، والمتساءل عنه بتعداد بعض الشواهد الناطقة بحقيته إثر ما نبه عليها بما ذكر من الردع والوعيد، ومن هنا اتضح أن المتساءل عنه هو البعث لا القرآن، أو نبوة النبي ﷺ كما قيل، لأن هذا الدليل إنما يصلح للاستدلال به علىٰ البعث.

وقرأ الجمهور ﴿مِهَٰدًا﴾ قال ابن الشيخ: المهاد: مصدر ماهدت بمعنىٰ مهدت كسافرت بمعنىٰ: سفرت، أطلق على الأرض الممهودة. وقرأ مجاهد[٢] وعيسى وبعض الكوفيين: ﴿مهدا﴾ بفتح الميم وسكون الهاء، والمعنىٰ: أنها كالمهد للصبي، وهو ما يمهد له فينوم عليه تسمية للممهود بالمصدر، ولم ينسب ابن عطية عيسىٰ في هذه القراءة. وقال ابن خالويه: مهداً على التوحيد عند مجاهد وعيسى

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

الهمداني، وهو الحوفي، فاحتمل أن يكون قول ابن عطية وبعض الكوفيين كنايةً عن عيسىٰ الهمداني، وإذا أطلقوا عيسىٰ، أو قالوا: عيسى البصرة.. فهو عيسى ابن عمر الثقفي.

والمعنىٰ: أي فكيف تنكرون أو تشكون أيها الجاحدون في البعث والنشور، وقد رأيتم ما يدل عليه من قدرة الله التامة، وعلمه المحيط بكل شيء، وحكمته الباهرة التي تقتضي أن لا يكون ما خلق من الخلق عبثاً: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾.

فمن ينعم بهذه النعم لا يمكن أن يهملها ويتركها سدىً، انظروا إلىٰ الأرض التي جعلها الله لك ممهدةً وموطأة الأكناف للناس والدواب، يقيمون عليها، ويفترشونها، وينتفعون بها بخيراتها الظاهرة والباطنة، ويبنون القصور الشامخة والعمارات السامقة، وهي بين أيديهم ذليلة لا تستعصي حتىٰ علىٰ الطفل منهم يشقها كيف يشاء، وهي في ضخامتها وعظمتها، لكن الله الذي خلقها ذللها للناس ومهدها لهم، ووطأها وألانها بين أيديهم، وجعلها ساكنة ثابتة قارَّة لا تتحرك ولا تضطرب إلا بإذنه وقدرته تعالى، ألا ينظرون إلى عظمة هذه الأرض التي منها خلقوا، وفيها سيعودون، ومنها سيخرجون تارة أخرىٰ شاؤوا أم أبوا، ألا ينظرون إلىٰ أسرار التربة التي في الأرض، وما فيها من عجائب صنع الله تعالىٰ، ففي هذا التراب الذي تحت قدميك الحلو والحامض، والدم واللحم، والعظم والخبز، والقطن والصوف، وما يأكل الناس والدواب ويلبس، فسبحان الخالق العظيم الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً، واسمعوا قول الله سبحانه إذ يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ وأشباه ذلك من الآيات.

٢ - ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾؛ أي: وجعلنا الجبال لها كالأوتاد كي لا تميل بأهلها ولا تضطرب بسكانها، كما ترسى الخيام بالأوتاد، ولولاها لكانت دائمة الاضطراب لما في جوفها من المواد الدائمة الجيشان والمعادن المختلفة الأشكال والألوان، فلا تتم الحكمة في كونها مهاداً، فهو من باب التشبيه البليغ كما سيأتي، والأوتاد: جمع وتد، وهو ما يوتد ويحكم به المتزلزل المتحرك من اللوح وغيره.

فإن قيل[1]: أليست إرادة الله وقدرته كافيتين في التثبيت؟.

أجيب: بأنه نعم إلا أنه مسبب الأسباب، وذلك من كمال القدرة، وإطلاق كلمة الأرض علىٰ الكرة الأرضية اصطلاح أهل الهيئة، وليس معناها في اللغة إلا البسيط الممدود تحت أقدام المخلوقين المسمى بالبر، وهو قشر جامد علىٰ مائع مذاب، ولا بد أن يكون في معرض الميدان والاضطراب، ولولا أن الجبال أثقلته واشتبكت به أصولها، وهي من الأحجار الصلبة والصخور الجامدة.. لكانت الزلازل دائمة الحدوث، والخسف والشق وهلاك آلاف من النفوس في كل يوم متواترةً متكررةً، ولكن الحكمة الربانية اقتضت تصلب القشر الأرضي بالأحجار؛ لئلا تميد بأهلها، فسبحان الذي جعل الجبال أوتاداً، والأرض مهاداً، وسلكها ينابع وأنهاراً وسبلاً فجاجاً، جل جلاله وعز كماله.

٣ ـ ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ﴾ معطوف علىٰ المضارع المنفي بلم داخل في حكمه، فإنه في قوة: إنا جعلنا الأرض مهادا، أو علىٰ ما يقتضيه الاستفهام التقريري، فإنه في قوة أن يقال: قد جعلنا الأرض مهاداً. ﴿أَزْوَٰجًا﴾؛ أي: حال كونكم أصنافاً ذكراً وأنثىٰ ليسكن كل من الصنفين إلىٰ الآخر، وينتظم أمر المعاشرة والمعاش، ويتسنىٰ التناسل.

والمعنىٰ[2]: أي وجعلناكم أصنافاً ذكوراً وإناثاً ليتمتع كل منكم بالآخر، وليتم الائتناس، والتعاون علىٰ سعادة المعيشة، وحفظ الحياة بالإنسال والتوليد، وتكميلها بالتربية والتعليم قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ وقيل: معناه: وخلقناكم أشكالاً كل واحد شكل للآخر، وقيل: معنىٰ أصنافاً: أي: أسود وأبيض وأحمر وأصفر وصغيراً وكبيراً، إلى غير ذلك من وجوه الاختلاف بين بني آدم.

وقال بعضهم: معنىٰ الآية: وخلقناكم حال كونكم معروضين لأوصاف متقابلة، كل واحد منها مزدوج بما يقابله، كالفقر والغنىٰ، والصحة والمرض، والعلم والجهل، والقوة والضعف، والذكورة والأنوثة، والطول والقصر، إلى غير

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

ذلك، وبه يصح الابتلاء، فإن الفاضل يشتغل بالشكر، والمفضول بالصبر، ويعرف قدر النعمة عند الترقي من الصبر إلىٰ الشكر، وكل ذلك دليل على كمال القدرة، ونهاية الحكمة. ا هـ.

والمعنى الأول أقرب، فالله تبارك وتعالى يذكرنا بهذه القدرة العظيمة، وبهذه النعمة الجليلة، وهو أنه خلقنا أزواجاً لنتعاون على أمور الحياة، وليقوم الرجل بوظيفته من العمل والكسب والرعاية والحماية، ولتقوم المرأة بوظيفتها من التربية والتهذيب وشؤون المنزل وأمور الزوج والأطفال، ولتعاون الرجل في هذه الأمور التي خلقت لأجلها، ولولا التعاون بين الرجل والمرأة.. لاختل نظام الحياة، وعاش كل واحد منهما في شقاء وعناء، فسبحان الله الذي خلقنا أزواجاً، وجعل بيننا مودة ورحمة، وجعل كلاً منا سكناً لصاحبه، فله الحمد، وله الشكر، وله الثناء الحسن على ما أنعم وتكرم.

٤ ـ ﴿وَجَعَلْنَا﴾ أي: صيَّرنا ﴿نَوْمَكُمْ﴾ وهو استرخاء أعصاب الدماغ برطوبات البخار الصاعدة إليه، ولذا قل في أهل الرياضة لقلة الرطوبة ﴿سُبَاتًا﴾؛ أي: موتاً لأن النوم أحد الموتتين، ولكنه لم تفارقه الروح، أو كالموت، والمسبوت: الميت، من السبت، وهو: القطع؛ لأنه مقطوع عن الحركة، ومنه سمي يوم السبت؛ لأن الله تعالى ابتدأ بخلق السموات والأرض يوم الأحد، فخلقها في ستة أيام، فقطع عمله يوم السبت، فسمي بذلك، وقيل: معنى ﴿سُبَاتًا﴾؛ أي: راحةً لأبدانكم، قال الزجاج: السبات أن ينقطع عن الحركة والروح في بدنه؛ أي: جعلنا نومكم راحةً لكم، وقال ابن الأنباري: جعلنا نومكم قطعاً لأعمالكم، لأن أصل السبت: القطع، وهو ـ أي النوم ـ من نعم الله الكبرىٰ علىٰ الناس، فإن النوم بعض ساعات في اليوم يريح القوة من تعبها، وينشطها من كسلها، ويعيد إلىٰ الجسم ما فقد منه من نشاط، ولو لم يكن النوم موتاً، واليقظة بعثاً.. لم يتم هذا التجديد لقوىٰ الإنسان، بل يفقد الإنسان الطاقة علىٰ العمل، فالمرء قد يصبر علىٰ فقد الطعام والشراب أياماً، ولكنه لا يطيق الصبر على السهر، والسهر يفني الجسم ويبليه، فالله سبحانه جعل نومنا في الليل قطعاً للحركة، وإيقافاً للعمل، لتحصيل الراحة في فترة النوم من كثرة الترداد، والسعي في سحابة النهار، وإذا استرحنا في النوم.. فقد تجددت عزائمنا، ونشطت جوارحنا، وقويت أجسامنا، ونستأنف أعمالنا ونحن أقوى ما نكون، والنوم سلطان

يملكنا ولا نملكه، ويتحكم فينا، ولا نستطيع التحكم فيه.

والمعنىٰ: أي وجعلنا نومكم في الليل قطعاً للمتاعب التي تكابدونها في النهار سعياً في تحصيل أمور المعاش، فالمشاهد أن في نوم بعض ساعات الليل راحة للقوى من تعبها، ونشاطاً لها من كسلها، وإعادة لما فقد منها، ولولا ذلك لنفدت القوى وانقطع المرء عن العمل في شؤون الحياة المختلفة.

٥ - ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ﴾ الذي يقع فيه النوم ﴿لِبَاسًا﴾ يستركم بظلامه كما يستركم اللباس؛ أي: وجعلنا الليل بظلامه ساتراً للأجسام، ومغطياً لها كاللباس الذي يغطي الجسم ويستره، ووجه المنة في ذلك: أن ظلمته تستر الإنسان عن العيوب إذا أراد هرباً من عدو، أو إخفاء لما لا يحب أن يطلع عليه غيره، ولله در المتنبي:

وَكَمْ لِظَلَامِ ٱللَّيْلِ عِنْدَكَ مِنْ يَدٍ تُخَبِّرُ أَنَّ ٱلْمَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ

والمانوية: طائفة تعتقد أن الخير من النهار، والشر من الليل، وقال بعض أرباب المحبة:

ٱللَّيْلُ لِلْعَاشِقِيْنَ سِتْرٌ يَا لَيْتَ أَوْقَاتَهُ تَدُوْمُ

خصوصاً أهل الإحسان والطاعات الذين يحبون أن يخفوا عن الناس أعمالهم لتتجرد من الرياء، وتخلص لله سبحانه، وفي ظلام الليل فوائد كثيرة، وبالظلام ينام المرء نوماً عميقاً هادئاً يحفظ جسمه من التعب والنصب، ولولا هذا اللباس من الظلام.. لما نام الإنسان هذا المنام، ولما أصابه هذا الهدوء، ففي الظلام تستريح الأعصاب، ويستريح النظر، ويتجدد الفكر، وينمو العقل، ويتعمق المرء في التفكير الدقيق، فسبحان الذي جعل الليل لباساً، والنهار معاشاً.

٦ - ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾؛ أي: جعلناه وقتاً لتحصيل أسباب المعاش؛ لأن الناس يتقلبون فيه في حوائجهم ومكاسبهم.

والمعنى: أن الله سبحانه جعل لكم النهار مضيئاً لتسعوا فيما يقوم به معاشكم، وما قسمه الله لكم من الرزق، والله سبحانه جعل النهار مشرقاً نيراً مضيئاً، تبعث منه الحياة وتدب فيه أصولها؛ ليتمكن الناس من التصرف فيه، والذهاب للمعاش، والتكسب والتجارات والصناعات والزراعة وغيرها، فلله الفضل والمنّة، فلو جعل علينا الليل سرمداً إلىٰ يوم القيامة، فمن يأتينا بنهار غيره عزّ

وجلّ، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾.

والمعاش: مصدر بمعنىٰ العيش، وكل شيء يعاش به، ولا بد من تقدير مضاف؛ أي: وقت طلب معاش، كما سيأتي البحث عنه في مبحث التصريف.

٧ - ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ﴾؛ أي: خلقنا فوق رؤوسكم ﴿سَبْعًا﴾؛ أي: سبع سموات ﴿شِدَادًا﴾ جمع شديد؛ أي: غلاظاً قوية الخلق محكمة البناء لا يؤثر فيها مر الدهور، ولا كر العصور، ليس فيها تصدع ولا فطور، غلظ كل واحدة منها مسيرة خمس مئة عام، كما ورد في الحديث، والتعبير[1] عن خلقها بالبناء مبني علىٰ تنزيلها منزلة القباب المضروبة علىٰ الخلق.

٨ - ﴿وَجَعَلْنَا﴾؛ أي: أنشأنا وأبدعنا ﴿سِرَاجًا﴾ هو الشمس، والتعبير عنها بالسراج من روادف التعبير عن خلق السموات بالبناء، قال الراغب: السراج: الزاهر بفتيلة ودهن، ويعبر به عن كل شيء مضيء، ويقال للسراج مصباح. ﴿وَهَّاجًا﴾؛ أي: وقاداً متلألئاً، من وهجت النار إذا أضاءت، أو بالغاً في الحرارة من الوهج وهو الحر، وهو كما قال بعض المفسرين: ﴿سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾؛ أي: مضيئاً جامعاً بين النور والحرارة، وقال بعضهم: ﴿سِرَاجًا﴾؛ أي شمساً ﴿وَهَّاجًا﴾؛ أي حاراً مضطرم الاتقاد، وقال ابن عمر: الشمس في السماء الرابعة إلينا ظهرها، ولهيبها يضطرم علواً. كذا في «البحر».

قيل[2]: إن الشمس والقمر خلقا في بدء أمرهما من نور العرش، ويرجعان في القيامة إلىٰ نور العرش، وذلك فيما روىٰ عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ألا أحدثكم بما سمعت عن رسول الله ﷺ يقول في الشمس والقمر، وبدء خلقهما، ومصير أمرهما، قال: قلنا: بلىٰ يرحمك الله، فقال: إن رسول الله ﷺ، سئل عن ذلك، فقال: «إن الله تعالىٰ لما أبرز خلقه إحكاماً، ولم يبق من خلقه غير آدم، خلق شمسين من نور عرشه، فأما ما كان في سابق علمه أن يدعها شمساً، فإنه خلقها مثل الدنيا ما بين مشارقها ومغاربها، وما كان في سابق علمه أن يطمسها

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

ويحولها قمراً، فإنه خلقه دون الشمس في العظم، ولكن إنما يرىٰ صغرهما لشدة ارتفاعهما في السماء، وبعدهما من الأرض، فلو ترك الله الشمس والقمر كما كان خلقها في بدء أمرهما.. لم يعرف الليل من النهار، ولا النهار من الليل، ولا يدري الأجير متىٰ يعمل، ومتىٰ يأخذ أجره، ولا يدري الصائم متىٰ يصوم، ولا تدري المرأة متىٰ تعتد، ولا يدري المسلمون متىٰ وقت صلاتهم، ومتىٰ وقت حجهم، فكان الرب تعالى أنظر لعباده، وأرحم بهم، فأرسل جبريل، فأمر جناحه علىٰ وجه القمر، فطمس منه الضوء، وبقي فيه النور، فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ فالسواد الذي ترونه في القمر شبه الخطوط فيه، فهو أثر المحو».

قال: «فإذا قامت القيامة، وقضىٰ الله بين الناس؟ وميّز بين أهل الجنة والنار، ولم يدخلوهما بعد، يدعو الرب تعالىٰ الشمس والقمر، ويجاء بهما أسودين مكورين، قد وقفا في زلازل وبلابل ترعد فرائصهما من هول ذلك اليوم، ومخافة الرحمن، فإذا كانا حيال العرش.. خرا لله ساجدين، فيقولان: إلهنا، قد علمت طاعتنا لك، ودأبنا في عبادتك، وسرعتنا للمضيّ في أمرك أيام الدنيا، فلا تعذبنا بعبادة المشركين إيانا، فقد علمت أنا لم ندعهم إلى عبادتنا، ولم نذهل عن عبادتك، فيقول الرب: صدقتما، إني قد قضيت علىٰ نفسي أن أبدىء وأعيد، وإني معيدكما إلى ما أبدأتكما منه، فارجعا إلى ما خلقتكما منه، فيقولان: ربنا مم خلقتنا، فيقول: خلقتكما من نور عرشي، فارجعا إليه، قال: فتلمح من كل واحد منهما برقة تكاد تخطف الأبصار نوراً، فيختلطان بنور العرش، فذلك قوله تعالى: ﴿يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾». كذا في «كشف الأسرار».

وقال الشيخ في «الفتح المكي»: وأما الكواكب كلها فهي في جهنم مظلمة الأجرام، عظيمة الخلق، وكذلك الشمس والقمر، والطلوع والغروب لهما في جهنم دائماً. انتهىٰ.

يقول الفقير: لعل التوفيق بين هذا وبين الخبر السابق أن كلاً من الشمس والقمر حامل لشيئين: النورية، والحرارة، فما كان فيهما من قبيل النور.. فيتصل بالعرش من غير جرم؛ لأن الجرم لا يخلو من الغلظة والظلمة والكثافة، وما كان من قبيل النار والحرارة.. فيتصل بالنار مع جرمهما، فكل منهما يرجع إلىٰ أصله.

انتهىٰ من «روح البيان»، والحديث المذكور إن كان له أصل صحيح فمقبول، وإلا فلا.

وقد جعل الله سبحانه في هذه الكواكب سر الحياة[1]، فالحرارة والضوء يطردان الأمراض، وينعشان كل حي، ولا أدل على هذا مما نشاهد من فتك الأمراض بمن يكون بمنأى عن ضوئها وحرارتها، والجراثيم لا تتوالد إلا حيث يحتجب عنها السكان، ويبتعد عنها المكان.

٩ - ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ النون[2] للعظمة وللإشارة إلىٰ جمعية الذات، والأسماء والصفات. ﴿مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾، أي: من السحائب التي انعصرت واستدرت بالرياح، أي: شارفت أن تعصرها الرياح وتدرها فتمطر ولم تعصرها بعد، فالإنزال من المستعد لا من الواقع، وإلا فيلزم تحصيل الحاصل وهمزة أعصر للحينونة، و ﴿ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ اسم فاعل، يقال: أعصر الزرع: إذا حان له أن يحصد، وأعصرت الجارية؛ أي: حان لها أن تعصر الطبيعة رحمها فتحيض، وفي «المفردات»: المعصر: بكسر الصاد المرأة التي حاضت ودخلت في عصر شبابها. انتهىٰ. ولو لم تكن للحينونة.. لكان ينبغي أن يقرأ ﴿المعصَرات﴾ بفتح الصاد، علىٰ أنه اسم مفعول؛ لأن الرياح تعصرها، ويجوز أن يكون المراد من ﴿ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾: الرياح التي حان لها أن تعصر السحاب فتمطر، فهي أيضاً اسم فاعل، والهمزة للحينونة كذلك.

فإن قيل: لِمَ لم تجعل الهمزة للتعدية؟ قلنا: لأن الرياح عاصرة لا معصرة.

﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾ أي: ماءً منصباً بكثرة، والمراد: تتابع القطر حتىٰ يكثر الماء فيعظم النفع به، يقال: ثج الماء؛ أي: سال بكثرة وانصب، وثجه غيره؛ أي: أساله وصبه فهو لازم ومتعد، ومن الثاني: قوله ﷺ: «أفضل الحج العج والثج» أي: رفع الصوت بالتلبية، وصب دماء الهدي.

ولا معارضة بين ما هنا، وبين قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، فإن ابتداء المطر إن كان من السماء يكون الإنزال منها إلىٰ السحاب، ومنه إلى الأرض، وإلا فإنزاله منها باعتبار تكونه بأسباب سماوية من جملتها حرارة الشمس، فإنها تثير

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

وتصعد الأجزاء المائية من أعماق الأرض الرطبة، أو من البحار والأنهار إلى جو الهواء، فتنعقد سحاباً فتمطرنا، فالإنزال من المعصرات حقيقة، ومن السماء مجاز باعتبار السببية، والله مسبب الأسباب.

والمعنىٰ: أي وأنزلنا من السحاب والغيوم التي تتحلب بالمطر ماء كثير السيلان، عظيم الانصباب، ثم بين عظيم نفع الماء وجليل فائدته فقال: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ﴾؛ أي: بذلك الماء؛ أي: بسبب وصوله إلىٰ الأرض، واختلاطه بها وبما فيها، وهذه اللام لام المصلحة، لا لام الغرض، كما تقول المعتزلة.

﴿حَبًّا﴾ كثيراً يقتات به؛ أي: يكون قوتاً للإنسان، وهو ما يقوم به بدنه؛ كالحنطة والشعير والذرة والطيف ونحوها، ﴿وَنَبَاتًا﴾ كثيراً يعتلف به؛ أي يكون علفاً للدواب؛ كالحشيش والبرسيم ونحوهما، كما قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ﴾ وتقديم الحب مع تأخره عن النبات في الإخراج لأصالته وشرفه؛ لأن غالبه غذاء الناس. ﴿وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾؛ أي: بساتين ملتفّاً بعضها ببعض، لتشعب أغصانها، أي: أخرجناها ليتفكه بها الإنسان، والجنات: جمع جنة، والجنة في الأصل: هي السترة من مصدر جنه إذا ستره، تطلق علىٰ النخل والشجر المتكاثف المظلل بالتفاف أغصانه، وعلىٰ الأرض ذات الشجر.

قال الفراء: الجنة: ما فيه النخل، والفردوس: ما فيه الكرم، والمراد هنا: هو الأشجار لا الأرض، وقوله: ﴿أَلْفَافًا﴾؛ أي: ملتفةً تداخل بعضها في بعض، وهذا من محسنات الجنان، كما نرىٰ في بساتين الدنيا، قالوا: ولا واحد للألفاف كالأوزاع والأخياف، والأوزاع: بمعنىٰ الجماعات المتفرقة كالأخياف، فإنه أيضاً بمعنىٰ الجماعات المتفرقة المختلطة، ومنه الأخياف للإخوة من آباء شتىٰ، وأمهم واحدة، وقيل: جمع لف بكسر اللام ككن وأكنان، وقيل: جمع لفيف كشريف وأشراف، وقيل: جمع لف بضم اللام جمع لفاء كخضر وخضراء، فيكون ألفافاً جمع الجمع، وقيل: جمع ملتفة بحذف الزوائد.

والمعنىٰ: أي وأنزلنا من السحاب ماءً كثيراً، لنبدل بوساطته جدب الأرض

---

(١) روح البيان.

خصباً، فنخرج من الأرض حباً يقتات به الناس كالحنطة والشعير، ونباتاً تقتات به الدواب، وحدائق ذات أغصان ملتفة.

وقد جمع الله سبحانه في هذه الآية جميع أنواع ما تنبته الأرض، فإن ما يخرج منها؛ إما أن يكون ذا ساق، أو لا، والأول: إذا اجتمع بعضه إلىٰ بعض وكثر حتىٰ التف.. فهو الحديقة، والثاني: إما أن يكون له أكمام فيها حب، وإما أن يكون بغير ذلك، وهو النبات.

وقدم الحب لأنه غذاء أشرف أنواع الحيوان، وهو الإنسان، وأعقبه بذكر النبات؛ لأنه غذاء بقية أنواع الحيوان، وأخر الحدائق؛ لأنه مما يستغني عنها الكثير من الناس.

قال ابن الشيخ: قدم ذا الحب؛ لأنه هو الأصل في الغذاء، وثنىٰ بالنبات؛ لاحتياج سائر الحيوانات إليه، وأخرت الجنات لانعدام الحاجة الضرورية إلىٰ الفواكه.

واعلم: أن فيما ذكر من أفعاله تعالىٰ دلالةً علىٰ صحة البعث، وحقيته من وجوه ثلاثة:

الأول: باعتبار قدرته تعالى، فإن من قدر علىٰ إنشاء هذه الأفعال البديعة من غير مثال يحتذيه وقانون ينتحيه.. كان علىٰ الإعادة أقدر وأقوىٰ.

والثاني: باعتبار علمه وحكمته، فإن من أبدع هذه المصنوعات علىٰ نمط رائق مستتبع لغاية جليلة، ومنافع جميلة عائدة إلىٰ الخلق، يستحيل أن يفنيها بالكلية، ولا يجعل لها عاقبة باقية.

والثالث: باعتبار نفس الفعل، فإن اليقظة بعد النوم أنموذج للبعث بعد الموت، يشاهدونها كل يوم، وكذا إخراج الحب والنبات من الأرض الميتة، يعاينونه كل حين، كأنه قيل: ألم نفعل هذه الأفعال الآفاقية والأنفسية الدالة بفنون الدلالات علىٰ حقية البعث الموجبة للإيمان به، فمالكم تخوضون فيه إنكاراً، وتتساءلون عنه استهزاءً؟

ثم شرع في بيان ما يتساءلون عنه، فقال ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾، أي: إن اليوم الذي يفصل الله سبحانه فيه بين الخلائق، وبين السعداء والأشقياء باعتبار تفاوت

الهيئات والصور والأخلاق والأعمال وتناسبها، ﴿كَانَ﴾ في علمه وتقديره الأزلي، وإلا فثبوت الميقاتية ليوم الفصل غير مقيد بالزمان الماضي، لأنه أمر مقرر قبل حدوث الزمان ﴿مِيقَٰتًا﴾؛ أي: ميعاداً ومجمعاً ووقتاً لبعث الأولين والآخرين، وما يترتب عليه من الجزاء ثواباً وعقاباً، لا يكاد يتخطاه بالتقدم والتأخر، فالميقات وهو الوقت المؤقت؛ أي: المعين أخص من مطلق الوقت، فهو هنا زمان مقيد بكونه وقت ظهور ما وعد الله من البعث والجزاء. ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾، أو عطف بيان له، مفيد لزيادة تفخيمه وتهويله، ولا ضير في تأخر الفصل عن النفخ، فإنه زمان ممتد يقع في مبدئه النفخة، وفي بقيته الفصل ومباديه وآثاره، ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار أعني، والنفخ: نفخ الريح في الشيء، ومنه: نفخ الروح في النشأة الأولىٰ، كما قال تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾، ويقال: انتفخ بطنه، ومنه استعير انتفخ النبات إذا ارتفع، ورجل منفوخ؛ أي: سمين، و﴿ٱلصُّورِ﴾: القرن النوراني، والنافخ فيه إسرافيل عليه السلام، وقرأ أبو عياض ﴿في الصَّوَر﴾ بفتح الواو جمع صورة، أي: يرد الله الأرواح إلى الأبدان، والجمهور: بسكون الواو.

والمعنىٰ: إن يوم ينفخ في الصور نفخة ثانية للبعث حتىٰ تتصل الأرواح بالأجساد، وترجع بها إلى الحياة، كان ميقاتاً لجمع الأولين والآخرين، وقوله: ﴿فَتَأْتُونَ﴾ معطوف علىٰ جملة محذوفة ثقة، بدلالة الحال عليها، وإيذاناً بغاية سرعة الإتيان، كما في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾، أي: فضرب فانفلق، والتقدير هنا: يوم ينفخ في الصور فتبعثون من قبوركم، فتأتون إلىٰ الموقف عقيب ذلك من غير لبث أصلاً حال كونكم ﴿أَفْوَاجًا﴾؛ أي: زمراً زمراً، وجماعات جماعات مختلفة متباينة الأوضاع حسب اختلاف أعمالهم وتباينها، وهو جمع فوج، وهو جماعة من الناس، وفي المفردات: الجماعة: المارة المسرعة؛ أي: حال كونكم أمماً، كل أمة مع إمامها، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾.

وقوله: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ معطوف علىٰ ﴿يُنفَخُ﴾ بمعنىٰ تفتح، وصيغة الماضي للدلالة علىٰ تحقق الوقوع، أي: شقت وصدعت من هيبة الله تعالىٰ بعد أن كانت لا فطور فيها ﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾؛ أي: ذات أبواب كثيرة لنزول الملائكة نزولاً غير معتاد،

كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ وهو الغمام الذي ذكر في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: أمره وبأسه ﴿فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وقيل: المراد بالفتح الكشف بإزالتها من مكانها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾﴾ وبالأبواب الطرق والمسالك؛ أي: تكشط فيصير مكانها طرقاً لا يسدها شيء وقيل: تتقطع قطعاً صغاراً حتىٰ تكون كالألواح في الأبواب المعهودة، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿فتحت﴾ مخففاً، وقرأ الباقون بالتشديد.

وحاصل معنى الآيات: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾﴾؛ أي: إن يوم القيامة وقت وميعاد للأولين، والآخرين، يثابون فيه أو يعاقبون، ويتمايزون فيه، ويكونون مراتب ودرجاتٍ بحسب أعمالهم، قال تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾، وقد جعله حداً تنتهي عنده الدنيا، وتجتمع فيه الخلائق ليرى كل امرىء ما قدمت يداه، فيجازي المحسن بإحسانه، ويعاقب المسيء بإساءته، ثم بين هذا اليوم، وزاد في تفخيمه وتهويله، فقال: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ فتحيون وتبعثون من قبوركم، وتأتون إلى الموقف من غير تلبث، وإمام كل أمة رسولها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾.

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾؛ أي: وانشقت السماء وتصدعت، وجاء نحو هذا في آيات كثيرة، كقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾، وقوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾، وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ ذاك أنه يحصل اضطراب في نظام الكواكب، فيذهب التماسك بينها، ولا يكون فيما يسمىٰ سماء إلا مسالك وأبواب، لا يلتقي فيها شيء بشيء، وذلك هو خراب العالم العلوي، كما يخرب الكون السفلي ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ معطوف علىٰ ينفخ أيضاً؛ أي: وتسير الجبال عن أماكنها في الهواء، وتقلع عن مقارها. ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾؛ أي: فتكون هباءً منتشراً، يظن الناظر أنها سراب، والمسيِّر هو الله تعالىٰ، كما قال: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾؛ أي: وسيرت الجبال في الجو بتسيير الله تعالىٰ وتسخيره علىٰ هيئاتها بعد قلعها عن مقارها، وذلك بعد حشر الخلائق بعد النفخة الثانية، ليشاهدوها، ثم يفرقها في الهواء، وذلك قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ والسراب ما تراه نصف النهار كأنه ماء، قال الراغب: هو اللامع في المفازة كالماء، وذلك لِانسِرَابِهِ في مرأى العين أي ذهابه وجريانه، وكأن الجبال لا حقيقة لها، كالسراب لا حقيقة له، أي:

فصارت بتسييرها، مثل السراب؛ أي: شيئاً كلا شيء؛ لتفرق أجزائها، وانبثات جواهرها، كقوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾، أي: غباراً منتشراً، وهي وإن اندكت وانصدعت عند النفخة الأولىٰ، لكن تسييرها كالسحاب، وتسوية الأرض إنما يكونان بعد النفخة الثانية.

والمعنىٰ: أي إن الجبال لا تكون في ذلك اليوم علىٰ ثباتها المعروف، بل يذهب ما كان لها من قرار، وتعود كأنها سراب يرى من بعد، فإذا قربت منه لم تجد شيئاً لتفرق أجزائها، وانبثاث جواهرها.

والخلاصة: أنه سبحانه ذكر أحوال الجبال بوجوه مختلفة، ولكن يجمع بينها بأن تقول:

أول أحوالها: الاندكاك والانكسار، كما قال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤﴾.

وثانيتها: أن تصير كالعهن المنفوش، كما قال: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾.

وثالثتها: أن تصير كالهباء، وذلك بأن تتقطع وتتبدد بعد أن كانت كالعهن، كما قال: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾.

ورابعتها: أن تنسف وتقلع أصولها؛ لأنها مع الأحوال المتقدمة قارة في مواضعها، والأرض تحتها غير بارزة، فتنسف عنها بإرسال الرياح عليها، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾.

وخامستها: أن الرياح ترفعها عن وجه الأرض فتطيرها في الهواء كأنها غبار، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾؛ أي: تراها في رأي العين ساكنة في أماكنها، والحال أنها تمر مر السحاب التي تسيرها الرياح سيراً حثيثاً، وذلك أن الأجرام إذا تحركت نحواً من الإنحاء لا تكاد تتبين حركتها، وإن كانت في غاية السرعة لا سيما من بعيد.

وسادستها: أن تصير سراباً؛ أي لا شيء، كما في هذه الآية.

وبعد أن عدد وجوه إحسانه ودلائل قدرته علىٰ إرساله رسوله، وذكر أن يوم

الفصل بين الرسول ومعانديه سيكون يوم القيامة، وبين أهوال هذا اليوم وامتياز شؤونه وأحواله عن شؤون أيام الدنيا وأحوالها. . ذكر وعيد المكذبين، وما يلاقونه في ذلك اليوم، فقال:

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ﴾ دار العذاب ﴿كَانَتْ﴾ في حكم الله سبحانه وقضائه ﴿مِرْصَادًا﴾؛ أي: موضع رصد ورقوبة يرصد فيه، ويرقب خزنة النار الكفار ليعذبوهم فيها، فالمرصاد: اسم للمكان الذي يرصد فيه، كالمنهاج: اسم للمكان الذي ينهج فيه؛ أي: يسلك، قال الراغب: المرصاد: موضع الرصد كالمرصد، لكن يقال للمكان الذي اختص بالترصد والترقب، وقوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾ تنبيه علىٰ أن عليها مجاز الناس. انتهى. كأنه عمم المرصاد حيث إن الصراط محبس للأعداء وممر للأولياء، والأول أولىٰ؛ لأن الرصد في مثل ذلك المكان الهائل إنما هو للتعذيب، وهو للكفار والأشقياء. ﴿لِلطَّاغِينَ﴾ متعلق بمحذوف هو؛ إما نعت لـ ﴿مِرْصَادًا﴾ أي: مرصاداً كائناً للطاغين، وقوله تعالى: ﴿مَآبًا﴾ بدل منه؛ أي: مرجعاً يرجعون إليه لا محالة، وإما حال من ﴿مَآبًا﴾ قدمت عليه لكونه نكرة، ولو تأخرت. . لكانت صفة له، قالوا: الطاغي من طغىٰ في دينه بالكفر، وفي دنياه بالظلم، وهو في اللغة من جاوز الحد في العصيان، والمراد هنا: المشركون، لما دل عليه ما بعده من الآيات وعذابهم لا يتناهىٰ لكون اعتقادهم باطلاً، وكذا إذا لم يعتقدوا شيئاً أصلاً، وإن كان الاعتقاد صحيحاً كالمؤمن العاصي، فعذابه متناهٍ.

والمعنى: أن جهنم مكان يرتقب فيه خزنتها من يستحقها بسوء أعمالهم، وخبث عقيدته وفعاله.

روىٰ ابن جرير وابن المنذر عن الحسن أنه قال: لا يدخل أحد الجنة حتىٰ يجتاز النار، فإن كان معه جواز نجا، وإلا احتبس. ﴿لِلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: إنها مرجع للذين طغوا وتكبروا، ولم يستمعوا إلىٰ الداعي الذي جاءهم بالهدىٰ ونور الحق، وبعد أن ذكر أن جهنم مستقرهم بين مدة ذلك، فقال: ﴿لَّابِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ حال مقدرة من الضمير المستكن في ﴿لِلطَّاغِينَ﴾؛ أي: مقدرين اللبث فيها، واللبث: أن يستقر في المكان، ولا يكاد ينفك عنه، يقال: لبث بالمكان أقام به ملازماً له. ﴿أَحْقَابًا﴾ ظرف للبثهم، وهو جمع حقب، وهو ثمانون سنة أو أكثر، والدهر والسنة والسنون، والمراد منه: التأبيد؛ أي: حال كونهم لابثين فيها دهوراً متلاحقة يتبع

بعضها بعضاً، فكلما انقضىٰ زمن.. يتجدد لهم زمن آخر، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾، ثم بين أحوالهم فيها، فقال: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا﴾ جملة مستأنفة؛ أي: لا يحسون في جهنم ﴿بَرْدًا﴾ ينتفعون به، ويميلون إليه ﴿وَلَا شَرَابًا﴾ يزيل عطشهم ﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾؛ أي: ماءً حاراً بلغ النهاية في حره ﴿وَغَسَّاقًا﴾؛ أي: صديداً منتناً يسيل من جلودهم أي لا يذوقون في جهنم برداً يبرد حر السعير عنهم إلا غساق، ولا شراباً يرويهم من شدة العطش إلا الحميم، فهم لا يذوقون مع شدة الحر ما يكون فيه راحة من ريح باردة، أو ظل يمنع من نار، ولا يجدون شراباً يسكّن عطشهم، ويزيل الحرقة من بواطنهم، ولكن يجدون الماء الحار المغلي، وما يسيل من جلودهم من الصديد والقيح والعرق، وسائر الرطوبات المستقذرة.

والخلاصة[1]: أنهم لا يذوقون فيها شراباً إلا الحميم البالغ الغاية في السخونة، أو الصديد المنتن، ولا برداً إلا الماء الحار المغلي، قال أبو العالية: استثنى من البرد الحميم، ومن الشراب الغساق، وكذا قال الربيع بن أنس فهم لا يذوقون إلا من هذا وهذا؛ أي: الحميم والغساق، أما الحميم: فهو الحار الذي انتهى حره، وزاد عن درجة الغليان، فإن طلبوا الماء.. سقوا من هذا الحميم، فقطّع أمعاءهم، وصهر ما في بطونهم والجلود، وأما الغساق.. فهو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم، فهو لا يستطاع من برد ونتن، لا يواجه نتنه وقذارته، يقال: غسق الجرح إذا سال منه ماء أصفر، فهو القيح والصديد تعافه الأنفس، وتمجه الطباع، وهم يعاقبون بالشيء وضده، فالحميم: حار في منتهىٰ الحرارة، والغساق: بارد في أشد البرودة المؤلمة. روىٰ الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «لو أن دلواً من غساق يراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا»، ونقل ابن كثير في تفسير سورة صٓ عن كعب الأحبار قال: قال كعب: ﴿وَغَسَّاقًا﴾ عينٌ في جهنم، يسيل إليها حمة كل ذات حمة من حية وعقرب وغير ذلك، فيستنقع، فيؤتىٰ بالآدمي، فيغمس فيها غمسة واحدة فيخرج وقد سقط جلده ولحمه عن العظام، ويتعلق جلده ولحمه في كعبيه وعقبيه، ويجر لحمه كله كما يجر

---

(١) المراغي.

الرجل ثوبه. رواه ابن أبي حاتم، وقرأ أبو عمرو[1] والمنقري وابن يعمر: ﴿أن جهنم﴾ بفتح الهمزة، والجمهور: بكسرها، وقرأ عبد الله وعلقمة وزيد بن علي وابن وثاب وعمرو بن ميمون وعمرو بن شرحبيل وطلحة والأعمش وحمزة وقتيبة وسورة وروح: ﴿لَبِثِينَ﴾ بغير ألف بعد اللام، وقرأ الجمهور: بألف بعدها، والفرق بين القراءتين: أن فاعلاً يدل علىٰ من وجد منه الفعل ولو مرة، وفَعِلاً من شأنه ذلك، ولكن مع المبالغة، كحاذر وحذر.

فائدة: وقد ذكر الإمام الطبري في تفسيره «جامع البيان» خمسة أقوال في معنىٰ الأحقاب[2]:

أحدها: أن معنىٰ أحقاباً: لا انقطاع لها كلما مضىٰ حقب.. جاء بعده حقب آخر، والحقب: ثمانون سنة من سني الآخرة، قاله قتادة والربيع.

ثانيها: أن الأحقاب: ثلاث وأربعون حقباً، كل حقب سبعون خريفاً، كل خريف سبع مئة سنة، كل سنة ثلاث مئة وستون يوماً، كل يوم ألف سنة، قاله مجاهد.

ثالثها: أن الله تعالىٰ لم يذكر شيئاً إلا وجعل له مدة ينقطع إليها، ولم يجعل لأهل النار مدة، بل قال فيهم: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣﴾، فوالله ما هو إلا أنه إذا مضىٰ حقب دخل آخر، ثم آخر كذلك إلى أبد الآبدين، فليس للأحقاب عدة إلا الخلود في النار، ولكن قد ذكروا أن الحقب الواحد سبعون ألف سنة، كل يوم من تلك السنين ألف سنة مما نعده، قاله الحسن.

رابعها: أن مجاز الآية ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣﴾ لا يذوقون في تلك الأحقاب برداً ولا شراباً، إلا حميماً وغساقاً، ثم يلبثون فيها لا يذوقون فيها إلا الحميم والغساق من أنواع العذاب، فهذا توقيت لأنواع العذاب، لا لمكثهم في النار، فإنه أبدي، وهذا أحسن الأقوال بنظر المفسر؛ أعني: الطبري.

خامسها: أنه يعني به أهل التوحيد، قاله خالد بن معدان. وروى نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يخرج من النار من دخلها حتىٰ يمكث فيها

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الطبري.

أحقاباً، والحقب: بضع وستون سنة، والسنة ثلاث مئة وستون يوماً كألف سنة مما تعدون، فلا يتكلن أحد أن يخرج من النار». انتهىٰ.

والحاصل: أن الأحقاب يدل علىٰ التناهي، فهو وإن كان جمع قلة.. لكنه بمنزلة جمع الكثرة، وهو الحقوب، أو بمنزلة الأحقاب المعرف بلام الاستغراق، ولو كان فيه ما يدل على خروجهم منها، فدلالته من قبل المفهوم، فلا يعارض المنطوق الدال علىٰ خلود الكفار، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾؛ لأن المنطوق يرجح علىٰ المفهوم فلا يعارضه، وقال أبو حيان المدة منسوخة بقوله: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾. انتهىٰ. ويجوز[1] أن يكون ﴿أَحْقَابًا﴾ ليس بظرف أصلاً، بل هو حال من الضمير المستكن في ﴿لَّٰبِثِينَ﴾ بمعنىٰ: حقبين؛ أي: نكدين محرومين من الخير والبركة في السكون والحركة، علىٰ أن يكون جمع حقب ـ بفتح الحاء وكسر القاف ـ من حقب الرجل إذا حرم الرزق، وحقب العام: إذا قل خيره ومطره. وقوله ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾ تفسير لكدهم، ولا يتوهم حينئذٍ تناهي مدة لبثهم فيها حتىٰ يحتاج إلىٰ التوجيه السابق، هذا ما قالوه في هذا المقام، وقد أطالوا فيه بما لا يسع له هذا المختصر، وقوله: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ مصدر مؤكد لعامله المحذوف؛ أي: جوزوا بذلك جزاءً وفاقاً، أو جازيناهم بذلك جزاءً وفاقاً لأعمالهم وأخلاقهم كأنه نفس الوفاق مبالغة، أو ذا وفاق لها علىٰ حذف المضاف، أو جزاءً موافقاً لها، أو وافقها وفاقاً، فيكون ﴿وِفَاقًا﴾ مصدراً مؤكداً لفعله كـ﴿جزاء﴾، والجملة صفة الجزاء. وجه الموافقة بينهما: أنهم أتوا بمعصية عظيمة، وهي الكفر، فعوقبوا عقاباً عظيماً، وهو التعذيب بالنار، فكما أنه لا ذنب أعظم من الشرك، فكذا لا جزاء أقوىٰ من التعذيب بالنار، كما قال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَاۖ﴾ فتوافقا، وقيل: كان وفاقاً حيث لم يزد على قدر الاستحقاق، ولم ينقص عنه.

وقرأ الجمهور: ﴿وِفَاقًا﴾ بتخفيف الفاء. وأبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة بشدها من: وفقه، كذا قال سعدي المفتي.

اعلم: أن الكفار لما كان من نيتهم الاستمرار علىٰ الكفر، كما سيشير إليه

---

(١) روح البيان.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾ إذ معناه: أنهم كانوا مستمرين علىٰ الكفر مع توقع الحساب.. وافقه عدم تناهي العذاب واللبث فيها أحقاباً بعد أحقاب، ولما كانوا مبدلين التصديق الذي يروح النفس، ويثلج به الصدر بالتكذيب الذي هو ضده.. جوزوا بالحميم والغساق بدل ما يجعل للمؤمنين مما يروحهم من برد الجنة وشرابها.

وللمناسبة بين العلم والماء يعبر الماء في المنام بالعلم، وبعد أن بين علىٰ طريق الإجمال أن هذا الجزاء الذي أعد لهم كان وفق جرمهم.. فصل أنواع جرائمهم، فذكر أنها نوعان فقال:

١ - ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾ تعليل لاستحقاقهم الجزاء المذكور، وبيان لفساد قوتهم العملية؛ أي: كانوا ينكرون الآخرة ولا يخافون أن يحاسبوا بأعمالهم، فلذا كانوا يقدمون علىٰ جميع المنكرات، ولا يرغبون في شيء من الطاعات، وفسر الرجاء هنا: بالخوف، لأن الحساب من أصعب الأمور علىٰ الإنسان، والشيء الصعب لا يقال فيه إنه يرجىٰ، بل يقال: إنه يخاف ويخشى.

والمعنىٰ: أي إنهم فعلوا من القبائح ما فعلوا، واجترحوا من السيئات ما شاءت لهم أهواؤهم؛ لأنهم ما كانوا ينتظرون يوم الحساب، ولا يتوقعونه، ورغبة المرء في فعل الخيرات، وترك المحظورات، إنما تكون غالباً لاعتقاده أنه ينتفع بذلك في الآخرة، فمن كان منكراً لها لا يقدم علىٰ شيء مما يحسن عمله، ولا يحجم عن أمر مما يقبح.

٢ - ﴿وَكَذَّبُوا۟﴾ بيان لفساد قوتهم النظرية. ﴿بآياتنا﴾ الناطقة بذلك، وفي بعض التفاسير: بآياتنا القولية والفعلية الظاهرة على ألسنة الرسل وأيديهم. ﴿كِذَّابًا﴾؛ أي: تكذيباً مفرطاً، ولذلك كانوا مصرين علىٰ الكفر، وفنون المعاصي، فعوقبوا بأهول العقاب جزاءً وفاقاً، وفِعّالاً: من باب فعل المضعف شائع فيما بين الفصحاء، مطرد مثل: كلم كلاماً. قال في «الصحاح»: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾ هو أحد مصادر المشدد؛ لأن مصدره قد يجيء علىٰ تفعيل، مثل: التكليم، وعلى فعال، مثل:

---

(١) المراغي.

كِذّاب، وعلىٰ تفعلة، مثل: توصية، وعلىٰ مُفعَّل، مثل: ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾.

والمعنىٰ[1]: أي وكذبوا بجميع البراهين الدالة علىٰ التوحيد والنبوة والمعاد، وبجميع ما جاء في القرآن.

والخلاصة: أنهم أقدموا علىٰ جميع المنكرات، ولم يرعووا عن فعل السيئات، وأنكروا بقلوبهم الحق، واتبعوا الباطل.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿كِذَّابًا﴾ بتشديد الذال مصدر كذب المضعف، وهي لغة لبعض العرب يمانية يقولون، في مصدر فَعَّل: فِعَّالاً، وغيرهم يجعل مصدره علىٰ تفعيل، نحو: تكذيب، ومن تلك اللغة قول الشاعر:

لَقَدْ طَالَ مَا ثَبَّطْتَنِيْ عَنْ صَحَابَتِيْ   وَعَنْ حَاجَةٍ قِضَّاؤُهَا مِنْ شِفَائِيَا

ومن كلام أحدهم وهو يستفتي في الحج: الحلق أحب إليك أم القصار؟ يريد التقصير. وقرأ علي بن أبي طالب وعوف الأعرابي وأبو رجاء والأعمش وعيسى البصرة بخلاف عنه: ﴿كذاباً﴾ بتخفيف الذال، وذلك لغة اليمن؛ بأن يجعلوا مصدر كذب المخفف كذاباً بالتخفيف مثل؛ كتب كتاباً، فصار المصدر هنا من معنىٰ الفعل دون لفظه، مثل أعطيته عطاء، وقال الأعشىٰ:

فَصَدَّقْتُهَا وَكَذَّبْتُهَا   وَٱلْمَرْءُ يَنْفَعُهُ كِذَابُهْ

وقال الزمخشري: وهو مثل قوله: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾؛ يعني: وكذبوا بآياتنا، فكذبوا كذاباً، وقرأ عمر بن عبد العزيز: ﴿كُذَّابا﴾ بضم الكاف وتشديد الذال، فخرج علىٰ أنه جمع كاذب، وانتصب علىٰ الحال المؤكدة، أو علىٰ أنه مفرد صفة لمصدر محذوف؛ أي: تكذيباً كذاباً؛ أي: مفرطاً في التكذيب. وبعد أن بين فساد أحوالهم العملية والاعتقادية.. أرشد إلىٰ أنها في مقدارها وكيفيتها معلومة له تعالى، لا يغيب عنه شيء منها، فقال: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾؛ أي: وأحصينا كل شيء من الأشياء التي من جملتها أعمالهم، فانتصابه علىٰ الاشتغال بفعل محذوف وجوباً يفسره قوله: ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ أي: حفظناه وضبطناه. قرأ الجمهور[3]: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.
(٣) البحر المحيط.

بالنصب علىٰ الاشتغال؛ أي: وأحصينا كل شيء أحصيناه، وهو الراجح[1] لتقدم جملة فعلية، ولا يضره كون هذه الجملة معترضة كما سيجيء؛ لاعتراضها بين السبب والمسبب، أو لأن المقصود المهم هنا الإخبار عن الإحصاء، لا الإخبار عن كل شيء، وقرأ أبو السمال برفعه علىٰ الابتداء، وما بعده خبره، وانتصاب ﴿كِتَٰبًا﴾ علىٰ المصدرية، لأنه مصدر مؤكد لـ ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ من غير لفظه لما أن الإحصاء والكتابة من واد واحد؛ أي: يشتركان في معنىٰ الضبط، فكأنه قال: وكل شيء أحصيناه إحصاءً مساوياً في القوة والثبات بالعلم المقيد بالكتابة، أو كتبناه كتاباً، وأثبتناه إثباتاً. ويجوز أن يكون من الاحتباك، حذف فعل الثاني بقرينة الأول، ومصدر الأول بقرينة الثاني؛ أي: أحصيناه إحصاءً، وكتبناه كتاباً، ويجوز نصبه علىٰ الحال؛ أي: أحصينا كل شيء حال كونه مكتوباً في اللوح المحفوظ، أو في صحف الحفظة، وقيل: المراد به: العلم؛ لأن ما كتب كان أبعد من النسيان، والأول أولىٰ لقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، والجملة معترضة كما مر آنفاً، اعترض بها لتوكيد كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات، بأنهما محفوظان للمجازاة.

والمعنى[2]: أي إنا علمنا جميع ما عملوا علماً ثابتاً، لا يعتريه تغيير ولا تحريف، فلا يمكنهم أن يجحدوا شيئاً مما كانوا يصنعون في الحياة الدنيا حين يرون ما أعد لهم من أنواع العقوبات لأنا قد أحصينا ما فعلوه إحصاءً لا يزول منه شيء، ولا يغيب، وإن غاب عن أذهانهم ونسوه، كما قال تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾.

وإنما قيل: ﴿كِتَٰبًا﴾ دون أن يقال إحصاءً؛ لأن الكتابة هي السماوية في قوة العلم بالشيء، فإن من يريد أن يحصي كلام متكلم، حتىٰ لا يغيب منه شيء.. عمد إلىٰ كتابته، فكأنه تعالىٰ يقول: وكل شيء أحصيناه إحصاءً يساوي في ثباته وضبطه ما يكتب.

وبعد أن بين قبائح أفعالهم لكفرهم بالحساب، وتكذيبهم بالآيات.. رتب عليه هذا الجزاء، فقال: ﴿فَذُوقُوا۟﴾ ما أنتم فيه من العذاب الأليم ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ﴾ فوق عذابكم ﴿إِلَّا عَذَابًا﴾ من جنسه، كما قال: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ ذاك أن

---

(1) روح البيان. (2) المراغي.

فيها تقريعاً وتوبيخاً لهم في يوم الفصل، وغضباً من أرحم الراحمين، والفاء في ﴿فَذُوقُواْ﴾ سببية[1] دالة على أن الأمر بالذوق مسبب عن كفرهم بالحساب، وتكذيبهم بالآيات، ومعلل به، فيكون ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ إلخ جملةً معترضة، بين السبب ومسببه، تؤكد كل واحد من الطرفين؛ لأنه كما دل على كون معاصيهم مضبوطة مكتوبة.. يدل على أن ما يتفرع عليها من العذاب كائن لا محالة مقدر على حسب استحقاقهم، وفي الالتفات المنبىء عن التشديد في التهديد، وإيراد ﴿لَن﴾ المفيدة لكون ترك الزيادة من قبيل ما لا يدخل تحت الصحة من الدلالة على تبالغ الغضب ما لا يخفى.

وقد روي أن النبي ﷺ قال: «إنَّ هذه الآية أشد ما في القرآن على أهل النار»؛ أي: لأن فيها الإياس من الخروج، فكلما استغاثوا من نوع من العذاب.. أغيثوا بأشد منه، فتكون كل مرتبة منه متناهية في الشدة، وإن كانت مراتبه غير متناهية بحسب العدد والمدة، وهذا لا يعارض قوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لأن المراد بالمنفي التكلم باللطف والإكرام، لا بالقهر والجلال.

فإن قيل: هذه الزيادة إن كانت غير مستحقة.. كانت ظلماً، وإن كانت مستحقة.. كان تركها في أول الأمر إحساناً، والكريم لا يليق به الرجوع في إحسانه.

فالجواب: أنها مستحقة، ودوامها زيادة لثقل العذاب، وأيضاً ترك المستحق في بعض الأوقات لا يوجب الإبراء والإسقاط حتى يكون إيقاعه بعده رجوعاً في الإحسان، وأيضاً كانوا يزيدون كفرهم وتكذيبهم وأذيتهم لرسول الله ﷺ، وأصحابه رضي الله عنهم، فيزيد الله عذابهم لزيادة الاستحقاق، فلا ظلم.

فإن قيل: قوله: ﴿فَذُوقُواْ...﴾ إلخ تكرار؛ لأنه ذكر سابقاً أنهم لا يذوقون إلخ. قلنا: إنه تكرار لزيادة المبالغة في تقرير الدعوى، وهو كون العقاب جزاءً وفاقاً، وقوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾ شروع في بيان محاسن أحوال المؤمنين، وما أعده الله سبحانه لهم من الخير إثر بيان سوء أحوال الكافرين، وما أعد الله لهم؛

---

(١) روح البيان.

من الشر على ما هو العادة القرآنية، ووجه تقديم بيان حال الكفرة غني عن البيان؛ أي: إن للذين يتقون الكفر والقبائح التي هي من أعمال الكفرة مفازاً؛ أي: فوزاً وظفراً بمطالبهم، ونجاة من مكارههم، دل على هذا المعنى تفسيره بما بعده من قوله: ﴿حَدَآئِقَ﴾ إلخ، فالمفاز على هذا المعنى: مصدر ميمي، أو موضع فوز وظفر، على أنه اسم مكان.

فإن قيل: الخلاص من الهلاك أهم من الظفر باللذات[1]، فلِمَ أهمل الأهم، وذكر غير الأهم؟

قلنا: لأن الخلاص من الهلاك لا يستلزم الفوز بالنعيم، لكونه حاصلاً لأصحاب الأعراف مع أنهم غير فائزين بالنعيم، بخلاف الفوز بالنعيم، فإنه يستلزم الخلاص من الهلاك، فكان ذكره أولى، وقوله: ﴿حَدَآئِقَ﴾؛ أي: بساتين فيها أنواع الأشجار المثمرة، بدل من ﴿مَفَازًا﴾ بدل اشتمال، إن كان مصدراً ميمياً؛ لأن الفوز يدل عليه دلالة التزامية، أو بدل بعض، إن جعل اسم مكان، وهو جمع حديقة، وهي الروضة ذات الأشجار، وقيل: الحديقة كل بستان عليه حائط؛ أي: جدار، وفيه من النخل والثمار، وفي «المفردات»: الحديقة: قطعة من الأرض ذات ماء، سميت بذلك تشبيهاً بحدقة العين في الهيئة، وحصول الماء فيها.

﴿وَأَعْنَٰبًا﴾؛ أي: كروماً، وهو تخصيص بعد التعميم إظهاراً لفضلها جمع عنب، وهو ثمر الكرم، قال بعضهم: ذكر نفسها، ولم يذكر شجرها ـ وهو الكرم ـ لأن زيادة الشرف فيها لا في شجرها.

والمعنى: أي إن لمن اتقى محارم الله، وخاف عقابه فوزاً بالكرامة، والثواب العظيم، في جنات النعيم، ثم فسر هذا الفوز وفصله بقوله: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾﴾؛ أي: بساتين من النخيل والأعناب ومختلف الأشجار، لها أسوار محيطة بها، وفيها الأعناب اللذيذة الطعم، مما تشتهيه النفوس، وتقر به العيون، وقد أفردت بالذكر ـ وهو مما يكون في الحدائق ـ عناية بأمرها، كما جاء في قوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾، ثم وصف ما في الحدائق والجنات فقال:

---

(١) روح البيان.

﴿وَكَوَاعِبَ﴾؛ أي: نساء[1] أبكاراً، فلكت ثديهن؛ أي: استدارت وصارت كالكعب في النتوء، يقال: فلك ثدي الجارية تفليكاً؛ أي: استدار كفلكة المغزل، جمع كاعب، يقال: كعبت المرأة كعوباً ظهر ثديها، وارتفع ارتفاع الكعب، ويقال: لهن النواهد، جمع ناهد وناهدة، وهي المرأة كعب ثديها، وبدا للارتفاع. ﴿أَتْرَابًا﴾؛ أي: لداتٍ؛ أي: مستويات في السن، ولدة الرجل تربه وقرينه في السن والميلاد، والهاء عوض عن الواو الذاهبة من أوله لأنه من الولادة، والأتراب الأقران في السن، قال الراغب: أي: لدات ينشأن معاً تشبيهاً في التساوي والتماثل بالترائب التي هي ضلوع الصدر، ولوقوعهن علىٰ الأرض معاً.

والظاهر ما في تفسير «الزاهدي»: وهو كونهن بنات ست عشرة لكونها نصف سن الرجل، وأيضاً دل عليه الوصف بالكعوب، وهو ارتفاع ثديهن، والمراد: أنهن بالغات تمام كمال النساء في الحسن واللطافة، والصلاح للمصاحبة والمعاشرة، بحيث لا يكن في سن الصغر حتىٰ تضعف الشهوة لهن، ولا في سن الكبر حتى تنكسر الشهوة عنهن، بل رواء الشباب؛ أي: ماؤه جار فيهن، لم يشبن، ولم يتغير عن حد الحسن حسنهن.

وإنما ذكرن لأن بهن نظام الدنيا، ولطافة الآخرة من جهة التنعم الجسماني.

والمعنىٰ[2]: أي وحوراً كواعب لم تتدلى أثدائهن، وهن أبكار عرب أتراب، والتمتع بالنساء على هذه الشاكلة مما يتمثله المرء في الدنيا علىٰ نحو من اللذة، وإن كنا لا نعلم كنهه في الآخرة، وعلينا أن نؤمن به، وأنه تمتع يفوق ما هو مثله من لذات هذه الحياة، وأنه يشاكل أحوال العالم الأخروي.

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾؛ أي: كأساً مملوءة بالخمر، فدهاقاً بمعنىٰ: مدهقة، وصفت به الكأس للمبالغة في امتلائها، يقال: أدهق الحوض ودهقه: ملأه؛ أي: وكأساً من الخمر مترعة ملأىٰ متتابعةً علىٰ شاربها، والمراد بالكأس الإناء المعروف، ولا يسمىٰ بالكأس إلا إذا كان فيه الشراب ﴿لَّا يَسْمَعُونَ﴾؛ أي: المتقون ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الحدائق ﴿لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ واللغو: الباطل من الكلام،

---

(١) روح البيان.	(٢) المراغي.

والكذاب: الكذب؛ أي: لا ينطقون بلغو، وهو ما يلغىٰ ويطرح لعدم الفائدة فيه، ولا يكذب بعضهم بعضاً حتى يسمعوا شيئاً من ذلك، بخلاف حال أهل الدنيا في مجالسهم، لا سيما عند شربهم.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿كِذَّابًا﴾ بالتشديد، وقرأ الكسائي هنا بالتخفيف، ووافق الجماعة علىٰ التشديد في قوله: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾ المتقدم في هذه السورة للتصريح بفعله هناك، وقد قدمنا الخلاف في ﴿كِذَّابًا﴾، هل هو من مصادر التفعيل، أو من مصادر المفاعلة؟

والمعنىٰ: أي لا يجري بينهم حين يشربون لغو الكلام، ولا يكذب بعضهم بعضاً كما يجري بين الشرب في الدنيا لأنهم إذا شربوا لم تفتر أعصابهم، ولم تتغير عقولهم، كما قال تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ واللغو والتكذيب مما تألم له أنفس الصادقين المخلصين، ولما ذكر أنواع النعيم.. بين أن هذا جزاء لهم على ما عملوا، وتفضل منه سبحانه فقال: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾ مصدر مؤكد منصوب بمعنىٰ: إن للمتقين مفازاً فإنه في قوة أن يقال: جازى الله سبحانه المتقين على أعمالهم الصالحة بمفاز، وما بعده جزاءً عظيماً مضاعفاً كائناً من ربك علىٰ أن التنوين للتعظيم ﴿عَطَآءً﴾؛ أي: وأعطاهم الله ذلك عطاءً بلا مقابلة عمل تفضلاً وإحساناً منه تعالى عطاء ﴿حِسَابًا﴾؛ أي: كثيراً كافياً لهم صفة لـ﴿عَطَآءً﴾، بمعنىٰ: كافياً علىٰ أنه مصدر أقيم مقام الوصف؛ أي: محسباً.

والخلاصة: أي جازاهم الله سبحانه بما ذكر، وأعطاهموه بفضله وإحسانه عطاءً كافياً وافياً.

فإن قلت[2]: إن ذلك يقتضي أن الله تعالىٰ جعل الشيء الواحد جزاءً و عطاءً وهو غير ظاهر، لأن كونه جزاءً يستدعي ثبوت الاستحقاق، وكونه عطاءً يستدعي عدم الاستحقاق، فالجمع بينهما جمع بين المتنافيين.

قلت: ذلك الاستحقاق إنما يثبت بحكم الوعد، لا من حيث أن الطاعة توجب الثواب علىٰ الله، فذلك الثواب بالنظر إلى وعده تعالىٰ إياه بمقابلة الطاعة

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

يكون جزاءً، وبالنظر إلىٰ أنه لا يجب علىٰ الله لأحد شيء يكون تفضلاً وعطاء، وهذا الكلام في مقابلة قوله سابقاً: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ لأن جزاء المؤمنين من قبيل الفضل لتضاعفه، وجزاء الكافرين من قبيل العدل.

وقوله: ﴿عَطَآءً﴾ بدل من ﴿جَزَآءً﴾ بدل الكل؛ لأن العطاء والجزاء متحدان ذاتاً، وإن تغايرا في المفهوم، وفي جعله بدلاً من ﴿جَزَآءً﴾ نكتة لطيفة، وهي: أن بيان كونه عطاءً تفضلاً منه، هو المقصود، وبيان كونه جزاءً وسيلة إليه، فإن حق البدل أن يكون مقصوداً بالنسبة، وذكر المبدل منه وسيلةٌ إليه، وقال بعضهم: العطاء من الله موضع الفضل لا موضع الجزاء، فالجزاء على الأعمال، والفضل: موهبة الله يختص به الخواص من أهل وداده، وقيل: معنىٰ ﴿حِسَابًا﴾؛ أي[1]: جزاء وعطاء علىٰ حسب أعمالهم، بأن يجازي كل عملٍ بما وعد له من الأضعاف من عشرة وسبع مئة، وغير حساب، فما وعده الله تعالىٰ من المضاعفة داخل في الحسب؛ أي: المقدار؛ لأن الحسب ـ بفتح السين وسكونها ـ بمعنىٰ: القدر، والتقدير علىٰ هذا: عطاء بحساب، فحذف الجار ونصب الاسم؛ أي: عطاء بحسب وقدر ما وجب لهم في وعد الرب سبحانه، فإنه وعد للحسنة عشراً، ووعد لقوم سبع مئة، وقد وعد لقوم جزاءً بغير حساب؛ أي: لا نهاية له ولا مقدار، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وقال أبو عبيدة: ﴿حِسَابًا﴾؛ أي: كافياً. وقال ابن قتيبة: كثيراً، يقال: أحسبت فلاناً؛ أي: أكثرت له العطاء. وقال الزجاج: حساباً؛ أي: ما يكفيهم.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿حِسَابًا﴾ بكسر الحاء وفتح السين المخففة؛ أي: كافياً، وقرأ ابن قطيب وأبو هاشم: ﴿حسابا﴾ بكسر الحاء وتشديد السين، وهو مصدر مثل كذاب، أقيم مقام الصفة؛ أي: إعطاء محسباً؛ أي: كافياً، وقرأ ابن عباس والسراج: ﴿حسنا﴾ بالنون من الحسن، وحكى عنه المهدوي: ﴿حسبا﴾ بفتح الحاء وسكون السين، وبالباء نحو قولك: حسبك كذا؛ أي: كافيك. ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بدل من ﴿رَّبِّكَ﴾، والمراد: رب كل شيء وخالقه ومالكه ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ أي: مفيض الخير والجود علىٰ كل موجود بحسب حكمته، وبقدر استعداد

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

المرحوم، وهو بالجر: صفة للرب، وقيل: للأول، وأياً ما كان، ففي ذكر ربوبيته تعالىٰ للكل، ورحمته الواسعة إشعار بمدار الجزاء المذكور، قال الغاشاني: أي: ربهم المعطي ذلك العطاء هو الرحمن؛ لأن عطاياهم من النعم الظاهرة الجليلة دون الباطنة الدقيقة، فمشربه من اسم الرحمن دون غيره.

وقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾؛ أي: لا يملك أهل السموات والأرض ﴿مِنْهُ خِطَابًا﴾؛ أي: خطابه تعالىٰ في شيء ما، استئناف[1] مقرر لما أفادته الربوبية العامة من غاية العظمة والكبرياء، واستقلاله تعالى بما ذكر من الجزاء والعطاء، من غير أن يكون لأحد قدرة عليه، وضمير ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ لأهل السموات والأرض، و﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْهُ﴾ صلة للتأكيد علىٰ طريقة قولهم: بعت منك؛ أي: بعتك، يعني: أنه صلة خطاباً، قدم عليه فانقلب بياناً.

والمعنى: لا يملكون أن يخاطبوه تعالىٰ من تلقاء أنفسهم، كما ينبىء عنه لفظ الملك؛ إذ المملوك لا يستحق علىٰ مالكه شيئاً، خطاباً ما في شيء ما؛ لتفرده بالعظمة والكبرياء، وتوحده في ملكه بالأمر والنهي والخطاب، والمراد: نفي قدرتهم على أن يخاطبوه تعالى بشيء من نقص العذاب، وزيادة الثواب من غير إذنه علىٰ أبلغ وجه وآكده، كأنه قيل: لا يملكون أن يخاطبوه بما سبق من الثواب والعقاب، وبه يحصل الارتباط بين هذه الآية وبين ما قبلها من وعيد الكفار، ووعد المؤمنين، ويظهر منه أن نفي أن يملكوا خطابه لا ينافي الشفاعة بإذنه.

وقيل: إن الضمير[2] في قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ عائد علىٰ المشركين، قاله عطاء عن ابن عباس؛ أي: لا يخاطب المشركون الله، أما المؤمنون.. فيشفعون ويقبل الله ذلك منهم، وقيل: عائد علىٰ المؤمنين؛ أي: لا يملكون أن يخاطبوه في أمر من الأمور لعلمهم أن ما يفعله عدل منه، وقرأ عبد الله[3] وابن أبي إسحاق والأعمش وابن محيصن: وابن عامر وعاصم: ﴿رَبِّ﴾ و ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ بالجر، وقرأ الأعرج وأبو جعفر وشيبة وأبو عمرو والحرميان نافع وابن كثير برفعهما، وقرأ الأخوان حمزة والكسائي: ﴿رَبِّ﴾ بالجر، و ﴿الرحمن﴾ بالرفع، وهي قراءة الحسن وابن وثاب والأعمش وابن محيص بخلاف عنهما، فالجر علىٰ البدل من ﴿رَبِّكَ﴾، و ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) البحر المحيط.

صفة أو بدل من ﴿رَبِّ﴾، أو عطف بيان، وهل يكون بدلاً من ﴿رَبِّكَ﴾؟ فيه نظر؛ لأن البدل الظاهر أنه لا يتكرر، فيكون كالصفات والرفع علىٰ إضمار: هو رب، أو علىٰ الابتداء، وخبره ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾.

والمعنىٰ: أي إنه سبحانه وتعالى المالك لشؤونهما المدبر لأمورهما، ولا يملك أحد من أهلهما مخاطبته تعالىٰ بالشفاعة إلا بإذنه، ثم أكد هذا وقرره بقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ والظرف متعلق بقوله: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾؛ أي: لا يتكلم أهل السموات والأرض يوم يقوم الروح والملائكة صفاً؛ أي: حال كونهم مصطفين لكثرتهم صفاً واحداً، وقيل: هما صفان: الروح صف، والملائكة صف، وقيل: صفوف، وهو الأوفق لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ وقيامهم مما أمرهم الله به في أمر العباد، فانتصاب ﴿صَفًّا﴾ إما علىٰ الحال كما قدرنا، أو علىٰ المصدرية؛ أي: يصفون صفاً، وجملة ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ إما حال من فاعل ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ العائد إلىٰ أهل السموات والأرض، أو مستأنفة مقررة لما قبلها، وأخر[١] الملائكة هنا تعميماً بعد التخصيص، وأخر الروح في سورة القدر تخصيصاً بعد التعميم.

فالظاهر: أن الروح من جنس الملائكة، لكنه أعظم منهم خلقاً ورتبةً وشرفاً؛ إذ هو بمقابلة الروح الإنساني، كما أن الملائكة بمقابلة القوى الروحانية، ولا شك أن الروح أعظم من قواه التابعة؛ كالسلطان مع أمرائه وجنده ورعاياه، وتفسير الروح بجبريل ضعيف[٢]، وإن كان هو مشهوراً بكونه روح القدس، والروح الأمين؛ إذ كونه روحاً ليس بالنسبة إلىٰ ذاته، وإلا فالملائكة كلهم روحانيون، وإن كانوا أجساماً لطيفة غير الأرواح المهمية، وإنما بالنسبة إلىٰ كونه نافخ الروح، وحامل الوحي الذي هو كالروح في الأحياء، وقد اتفقوا علىٰ أن إسرافيل أعظم من جبريل ومن غيره، فلو كان أحد يقوم صفاً واحداً.. لكان هو إسرافيل دون جبريل، والله أعلم بمراده من ﴿ٱلرُّوحُ﴾.

وفي «الشوكاني»: واختلف في ﴿ٱلرُّوحُ﴾، وقيل: إنه ملك من الملائكة أعظم من السموات السبع، ومن الأرضين السبع، ومن الجبال، وقيل: هو جبريل، قاله الشعبي والضحاك وسعيد بن جبير، وقيل: الروح جند من جنود الله ليسوا ملائكة،

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

قاله أبو صالح ومجاهد، وقيل: هم أشراف الملائكة، قاله مقاتل بن حيان، وقيل: هم حفظة علىٰ الملائكة، قاله ابن أبي نجيح، وقيل: هم بنو آدم، قاله الحسن وقتادة، وقيل: هم أرواح بني آدم، تقوم صفاً، وتقوم الملائكة صفاً، وذلك بين النفختين قبل أن ترد إلىٰ الأجسام، قاله عطية العوفي، وقيل: إنه القرآن، قاله زيد بن أسلم. انتهى.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ يجوز أن يكون بدلاً من ضمير ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ العائد إلىٰ أهل السموات والأرض، الذين من جملتهم الروح والملائكة، وهو أرجح[1]؛ لكون الكلام غير موجب، والمستثنى منه مذكور، وفي مثله يختار البدل علىٰ الاستثناء، ويجوز أن يكون منصوباً على أصل الاستثناء.

والمعنىٰ: لا يشفعون لأحد إلا من أذن له الرحمن منهم بالشفاعة للخلق، أو لا يتكلمون إلا في حق من أذن الرحمن بالشفاعة فيه، ﴿و﴾ كان ذلك الشخص المشفوع له ممن ﴿قَالَ﴾ في الدنيا ﴿صَوَابًا﴾ أي: حقاً، قاله الضحاك ومجاهد، أو: لا إله إلا الله، قاله أبو صالح، وأصل الصواب السداد من القول والفعل، وقيل: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾، يعني: الملائكة والروح الذين قاموا صفاً هيبةً وإجلالاً إلا من أذن له الرحمن منهم في الشفاعة، وهم قد قالوا صواباً. قال الواحدي: فهم لا يتكلمون، يعني: الخلق كلهم، إلا من أذن له الرحمن، وهم المؤمنون والملائكة، وقال في الدنيا صواباً؛ أي: شهد بالتوحيد،، وعبارة «الروح»: وهذه الجملة مستأنفة مقررة لمضمون قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ ومؤكدة له علىٰ أن أهل السموات والأرض إذا لم يقدروا يومئذٍ علىٰ أن يتكلموا بشيء من جنس الكلام إلا من أذن الله له منهم في التكلم، وقال ذلك المأذون له قولاً صواباً؛ أي: حقاً صادقاً، أو واقعاً في محله من غير خطأ في قوله، فكيف يملكون خطاب رب العزة، مع كونه أخص من مطلق الكلام، وأعز منه مراماً، وقيل: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ﴾ إلخ منصوب علىٰ أصل الاستثناء.

والمعنىٰ: لا يتكلمون إلا في حق شخص أذن له الرحمن، وقال ذلك الشخص صواباً؛ أي: حقاً هو التوحيد، وكلمة الشهادة دون غيره من أهل الشرك،

---

(١) روح البيان.

فإنهم لم يقولوا في الدنيا صواباً، بل تفوهوا بكلمة الكفر والشرك. وإظهار ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾[1] في موضع الإضمار؛ للإيذان بأن مناط الإذن هو الرحمة البالغة، لا أن أحداً يستحقه عليه تعالى.

وحاصل المعنى[2]: أن الملائكة على جلالة أقدراهم، ورفيع درجاتهم، لا يستطيعون أن يتكلموا في هذا اليوم إجلالاً لربهم، ووقوفاً عند أقدارهم، إلا إذا أذن لهم ربهم، وقالوا قولاً صدقاً وصواباً، وفي الآية دلالة على أنهم مع قربهم من ربهم لا يستطيع أحد منهم أن يشفع لأحد، أو يطلب منحة إلا من بعد أن يأذن له ربه، ولا يأذن إلا لمن علم أنه سيجاب له؛ لأنه يقول الصواب، وإنما يكون الكلام ضرباً من التكريم لمن يؤذن له، ويختص به، ولا أثر له فيما أراده ألبتة. والملائكة مخلوقات غيبها الله سبحانه عنا، ولم يجعل لنا قدرة على رؤيتها، فعلينا أن نؤمن بها، وإن لم نرها، ونصدق بما جاء في كتابه من أوصافه غير باحثين عن حقيقتها، وبعد أن ذكر أحوال المكلفين في درجات الثواب والعقاب، وبين عظمة يوم القيامة.. أردف ذلك ببيان أن هذا اليوم حق لا ريب فيه، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾[3] إشارة إلى يوم قيامهم على الوجه المذكور، ومحله الرفع على الابتداء خبره ما بعده؛ أي: ذلك اليوم العظيم الذي يقوم فيه الروح والملائكة مصطفين غير قادرين هم ولا غيرهم على التكلم من الهيبة والجلال. ﴿الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾؛ أي: الثابت المتحقق لا محالة من غير صارف يلويه، ولا عاطف يثنيه، وذلك لأنه متحقق علماً، فلا بد أن يكون متحققاً وقوعاً، كالصباح بعد مضي الليل، وفيه إشارة إلى أنه واقع ثابت في جميع الأوقات والأحايين، ولكن لا يبصرون به لاشتغالهم بالنفس الملهية وهواها الشاغل، والفاء في قوله: ﴿فَمَن شَاءَ﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، ومفعول المشيئة محذوف لوقوعها شرطاً، وكون مفعولها مضمون الجزاء، وانتفاء الغرابة في تعلقه بها حسب القاعدة المستمرة، وقوله: ﴿اتَّخَذَ﴾ جواب الشرط، و ﴿إِلَىٰ رَبِّهِ﴾ متعلق بقوله: ﴿مَآبًا﴾؛ أي: مرجعاً، قدم عليه اهتماماً به، ورعاية للفواصل. وقال قتادة: ﴿مَآبًا﴾؛ أي: سبيلاً، وتعلق الجار والمجرور به لما فيه من معنى الاقتضاء والإيصال، والتقدير: إذا كان الأمر كما ذكر

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

من تحقق اليوم المذكور، ووقوعه بلا محالة، وأردتم بيان الأصلح لكم.. فأقول لكم: من شاء أن يتخذ مرجعاً إلى ثواب ربه الذي ذكر شأنه العظيم.. فعل ذلك بالإيمان والطاعة.

وفي «التأويلات النجمية»: ﴿مَئَابًا﴾؛ أي: مرجعاً؛ أي: رجوعاً من الدنيا إلىٰ الآخرة، ومن الآخرة إلىٰ رب الدنيا والآخرة لأنهما حرامانِ غير مقصودين عند أهل الله، بل غاية مقصودهم رضا ربهم، لا نعيمهما.

ومعنىٰ الآية[1]: أي ذلك اليوم متحقق لا ريب فيه، ولا مفر منه، وأنه يوم تبلىٰ فيه السرائر، وتنكشف فيه الضمائر، أما أيام الدنيا.. فأحوال الخلق فيها مكتوبة، وضمائرهم غير معلومة، فمن شاء اتخاذ مرجع حسن عند ربه.. عمل عملاً صالحاً يقربه من ربه، ويدنيه من كرامته وثوابه، ويباعد بينه وبين عقابه، ثم زاد في تخويف الكفار وإنذارهم، فقال: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ﴾؛ أي[2]: خوفناكم بما ذكر، في هذه السورة من الآيات الناطقة بالبعث، وبما بعده من الدواهي، أو بها وبسائر القوارع الواردة في القرآن، والخطاب لمشركي العرب وكفار قريش؛ لأنهم كانوا ينكرون البعث، وفي بعض التفاسير: الظاهر عموم الخطاب كعموم ﴿من﴾ لأن في إنذار كل طائفة فائدة لهم. ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾ هو عذاب الآخرة، وقربه لتحقق إتيانه حتماً، ولأنه قريب بالنسبة إليه تعالىٰ وممكن وإن رأوه بعيداً وغير ممكن، فسيرونه قريباً، لقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾، وقوله: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ﴾ بدل من ﴿عَذَابًا﴾، أو ظرف لمضمر هو صفة له؛ أي: عذاباً كائناً يوم ينظر المرء؛ أي: يشاهد ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من خير أو شر، وهو تثنية يد، أصله: يدان، سقطت نونها بالإضافة، و ﴿مَآ﴾؛ إما موصولة منصوبة بـ ﴿يَنظُرُ﴾؛ لأنه يتعدىٰ بنفسه وبإلىٰ، والعائد محذوف؛ أي: ما قدمته، أو استفهامية منصوبة بـ ﴿قَدَّمَتْ﴾ معلقة بـ ﴿يَنظُرُ﴾؛ أي: يوم ينظر المرء أيَّ شيء قدمت يداه، فالمرء عام للمؤمن والكافر؛ لأن كل أحد يرىٰ عمله في ذلك اليوم مثبتاً في صحيفة عمله، خيراً كان أو شراً، فيرجو المؤمن ثواب الله علىٰ صالح عمله، ويخاف الكافر عقاب الله علىٰ سيء عمله، وأما الكافر.. فكما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى﴾ وقيل:

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

المراد بالمرء: الكافر؛ لقوله: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ﴾، فيكون الكافر ظاهراً وضع موضع المضمر؛ لزيادة الذم؛ أي: يا قوم، فالمنادىٰ محذوف، ويجوز أن تكون ﴿يا﴾ لمحض التحسر، ولمجرد التنبيه من غير قصد إلىٰ تعيين المنبه، والمراد بالكافر: الجنس العام. ﴿كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ في الدنيا، فلم أخلق، ولم أكلف، وهو في محل رفع علىٰ أنه خبر ﴿ليت﴾، أو ليتني كنت تراباً في هذا اليوم، فلم أبعث؛ لما يرىٰ مما قد أعده الله له من أنواع العذاب، كقوله: ﴿لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾ إلىٰ قوله: ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾، وقيل: يحشر الله الحيوان، فيقتص للجمّاء من القرناء نطحتها؛ أي: قصاص المقابلة، لا قصاص التكليف، ثم يرده تراباً، فيود الكافر حاله، كما قال ﷺ: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتىٰ يقاد للشاة الجلحاء من القرناء». وهذا صريح في حشر البهائم، وإعادتها لقصاص المقابلة، لا للجزاء ثواباً وعقاباً.

وقيل: الكافر إبليس يرىٰ آدم وولده وثوابهم، فتمنىٰ أن يكون الشيء الذي احتقره حين قال: خلقتني من نار، وخلقته من طين، وقيل: تراباً؛ أي: متواضعاً لطاعة الله تعالىٰ، لا جباراً ولا متكبراً، وقيل: المراد بالكافر: أبو جهل، وقيل: أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي. قال مقاتل: نزل قوله تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ في أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ﴾ في أخيه الأسد بن عبد الأسد. وقيل: أبي بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، والأول أولىٰ اعتباراً بعموم اللفظ، ولا ينافيه خصوص السبب، كما تقدم غير مرة. وقرأ الجمهور: ﴿ٱلۡمَرۡءُ﴾ بفتح الميم، وابن أبي إسحاق بضمها، وضعفها أبو حاتم، ولا ينبغي أن تضعف؛ لأنها لغة قوم يتبعون حركة الميم لحركة الهمزة، فيقولون: مرؤ ومرأ ومرىء، علىٰ حسب الإعراب، وأما مؤمنو الجن.. فلهم ثواب وعقاب، فلا يعودون تراباً، وهو الأصح، فيكون مؤمنوهم مع مؤمني الإنس في الجنة، أو في الأعراف، ونعيمهم ما يناسب مقامهم، ويكون كفارهم مع كفار الإنس في النار، وعذابهم بما يلائم شأنهم.

ومعنىٰ الآية: أي هذا العذاب القريب يوم ينظر المرء ما صنعه في حياته الأولىٰ من الأعمال، فإن كان قد آمن بربه، وعمل عمل الأبرار.. فطوبىٰ له وحسن مآب، وإن كان قد كذب به وبرسوله.. فله الويل وأليم العذاب، ويقول الكافر من شدة ما يلقىٰ، ومن هول ما يرى: ﴿ليتني كنت تراباً﴾ يريد: ليتني لم أكن من

المكلفين، بل كنت حجراً أو تراباً، لا يجري عليه تكليف حتىٰ لا يعاقب هذا العقاب، وفي الآية إيماءٌ إلى ما يكون عليه المؤمنون من الاستبشار والسرور بما رأوه.

الإعراب

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾.

﴿عَمَّ﴾: ﴿عن﴾: حرف جر ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الجر بـ ﴿عن﴾ مبني بسكون علىٰ الألف المحذوفة فرقاً بينها وبين ما الموصولة، وقرىء: ﴿عما﴾ بإثبات الألف علىٰ الأصل، ولكنه قليل أو ضرورة، وعليه قول حسان بن ثابت:

عَلَىٰ مَا قَامَ يَشْتِمُنِيْ لَئِيْمٌ   كَخِنْزِيْرٍ تَمَرَّغَ فِيْ رَمَادِ

الجار والمجرور متعلق بـ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ و ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾: فعل وفاعل مرفوع بثبات النون، والجملة جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب، والاستفهام فيه لتفخيم الشأن، كأنه قال: عن أي شيء يتساءلون، كأنه لا نظير له، نظير قولهم: ما الغول؟ وما العنقاء؟؛ أي: أيُّ شيء من الأشياء هو. ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾: جار ومجرور وصفة متعلق بمحذوف دل عليه ما قبله؛ أي: يتساءلون عن النبأ العظيم، والجملة المحذوفة مستأنفة مسوقة لبيان ذلك الشيء المستفهم عنه.

﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل الجر، صفة ثانية لـ﴿لنبأ﴾ ﴿هُمْ﴾: مبتدأ ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ ﴿مُخْتَلِفُونَ﴾ و ﴿مُخْتَلِفُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة صلة الموصول.

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢﴾.

﴿كَلَّا﴾: حرف ردع وزجر للمتسائلين استهزاء ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾: ﴿السين﴾: حرف استقبال وتنفيس ﴿يعلمون﴾: فعل وفاعل مرفوع بالنون، ومفعوله محذوف تقديره: ما يحل بهم، والجملة مستأنفة ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب مع تراخ، ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤﴾: تأكيد لفظي للجملة التي قبلها، ولا يضر توسط حرف العطف؛ لأنه للتأكيد، والنحاة

يأبون ذلك إلا أن يكون عطفاً، وإن أفاد التأكيد، ويمكن أن يجاب عنه بأن ثمة تغايراً ملحوظاً، وهو: أن الوعيد الثاني أشد من الأول، وبهذا الاعتبار صار مغايراً لما قبله، ولذا عطف بـ ﴿ثُمَّ﴾. ﴿أَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾ للاستفهام التقريري ﴿لَمْ﴾: حرف جزم ﴿نَجْعَلِ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿ٱلْأَرْضَ﴾: مفعول أول لـ ﴿جعل﴾، ﴿مِهَٰدًا﴾: مفعول ثانٍ؛ لأن الجعل بمعنى التصيير، ويجوز أن يكون بمعنى الخلق، فيكون ﴿مِهَٰدًا﴾: حالاً مقدرة، ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾: معطوف على ﴿ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾، والجملة الفعلية مستأنفة. مسوقة لبيان قدرته تعالى على البعث، وإيراد الدلائل عليه، وذكر منها تسعة كما عددناها بالأرقام في مبحث التفسير، ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ما قبله؛ لأنه بمعنى: وجعلنا الأرض مهاداً ﴿أَزْوَٰجًا﴾: حال من المفعول، أي: متجانسين متشابهين ذكوراً وإناثاً، ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾: فعل وفاعل ومفعولان، معطوف على ما قبله أيضاً، ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠﴾: فعل وفاعل ومفعولان أيضاً، معطوف على ما سبق، ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾ معطوف أيضاً، وهي مماثلة لما قبلها، و ﴿مَعَاشًا﴾: مصدر ميمي بمعنى: المعيشة، وقد وقع هنا ظرفاً للزمان؛ أي: وقت معاش. ﴿وَبَنَيْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف أيضاً على سابقه، ﴿فَوْقَكُمْ﴾: ظرف مكان متعلق بـ ﴿بنينا﴾. ﴿سَبْعًا﴾: مفعول به؛ أي: سبع سموات ﴿شِدَادًا﴾ صفة لـ ﴿سَبْعًا﴾.

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥
وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ۝١٧ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨ وَفُتِحَتِ
ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝١٩ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ
مَـَٔابًا ۝٢٢﴾.

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف أيضاً. ﴿وَهَّاجًا﴾: صفة ﴿سِرَاجًا﴾، والجعل هنا بمعنى الخلق، ﴿وَأَنزَلْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف أيضاً ﴿مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾: متعلق بـ ﴿أَنزَلْنَا﴾، ﴿مَآءً﴾: مفعول به ﴿ثَجَّاجًا﴾: صفة له ﴿لِّنُخْرِجَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿نخرج﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، منصوب بأن مضمرة بعد لام كي ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿نخرج﴾، ﴿حَبًّا﴾: مفعول به لـ ﴿نخرج﴾، ﴿وَنَبَاتًا﴾: معطوف على ﴿حَبًّا﴾ ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾: معطوف على ﴿حَبًّا﴾ أيضاً، وعلامة نصبه الكسرة؛ لأنه من جمع المؤنث السالم، ﴿أَلْفَافًا﴾: صفة لـ ﴿جَنَّٰتٍ﴾؛ أي: بساتين ملتفة، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام،

والجار والمجرور متعلق بـ ﴿أَنزَلْنَا﴾ أيضاً؛ أي: أنزلنا منها ماء لإخراجنا به حباً... إلخ. ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾: ناصب واسمه ومضاف إليه ﴿كَانَ﴾: فعل ماضٍ ناقص، واسمه ضمير مستتر يعود علىٰ ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ ﴿مِيقَـٰتًا﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً واقعاً في جواب سؤال مقدر، كأن سائلاً سأل لما أقام الأدلة علىٰ البعث، فقال: ما وقت البعث؟ فأجاب بقوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ الخ. ﴿يَوْمَ يُنفَخُ﴾: بدل من ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾، وأجاز أبو البقاء أن يكون بدلاً من ﴿مِيقَـٰتًا﴾، أو منصوب بفعل محذوف تقديره: أعني. ﴿يُنفَخُ﴾ فعل مضارع مغير الصيغة ﴿فِى ٱلصُّورِ﴾: جار ومجرور في محل الرفع، نائب فاعل لـ ﴿يُنفَخُ﴾، وجملة ﴿يُنفَخُ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾. ﴿فَتَأْتُونَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿تأتون﴾: فعل مضارع مرفوع بالنون، والواو: فاعل، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿يُنفَخُ﴾. ﴿أَفْوَاجًا﴾: حال من فاعل ﴿تأتون﴾، ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾: فعل ونائب فاعل، معطوف علىٰ ﴿تأتون﴾، وعدل فيه إلىٰ المضي إشارة إلىٰ تحقق الوقوع، وقيل: الواو حالية، والجملة في محل النصب علىٰ الحال؛ أي: فتأتون والحال أن السماء قد فتحت، ﴿فَكَانَتْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿كانت﴾: فعل ماضٍ ناقص معطوف علىٰ ﴿فُتِحَتِ﴾، واسمها ضمير يعود علىٰ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾، ﴿أَبْوَٰبًا﴾: خبرها، ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾: فعل ونائب فاعل، معطوف على ﴿يُنفَخُ﴾، ﴿فَكَانَتْ﴾: فعل ماضٍ ناقص معطوف علىٰ ﴿سُيِّرَتِ﴾، واسمها ضمير يعود علىٰ ﴿ٱلْجِبَالُ﴾. ﴿سَرَابًا﴾: خبرها، ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة ﴿كَانَتْ﴾: فعل ماضٍ ناقص، واسمها ضمير يعود علىٰ ﴿جَهَنَّمَ﴾. ﴿مِرْصَادًا﴾: خبرها؛ أي: راصدة للمعذبين بها مترقبة لهم، أو مرصدة بمعنىٰ: معدة؛ فهو إما من رصد الثلاثي بمعنىٰ ترقب، وإما من أرصد الرباعي؛ أي: أعده ﴿لِّلطَّـٰغِينَ﴾ متعلق بـ ﴿مِرْصَادًا﴾، و ﴿مَـَٔابًا﴾: خبر ثانٍ لـ ﴿مِرْصَادًا﴾؛ أي: مثابة يثوبون إليها ويرجعون، ويجوز تعلق ﴿لِّلطَّـٰغِينَ﴾ بـ ﴿مَـَٔابًا﴾.

﴿لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

﴿لَّـٰبِثِينَ﴾: حال مقدرة من الضمير المستكن في ﴿لِّلطَّـٰغِينَ﴾، ﴿فِيهَآ﴾ متعلقان به

﴿أَحْقَابًا﴾: ظرف متعلق بـ ﴿لَّبِثِينَ﴾، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَذُوقُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿فِيهَآ﴾: متعلق بـ ﴿يَذُوقُونَ﴾. ﴿بَرْدًا﴾: مفعول به. ﴿وَلَا شَرَابًا﴾: معطوف على ﴿بَرْدًا﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من الضمير المستكن في ﴿لَّبِثِينَ﴾؛ أي: لابثين هم فيها حال كونهم غير ذائقين، فهي حال متداخلة، أو صفة لـ ﴿أَحْقَابًا﴾، وقيل: مستأنفة ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ ﴿حَمِيمًا﴾: بدل من ﴿شَرَابًا﴾؛ لأن الكلام غير موجب، ﴿وَغَسَّاقًا﴾: معطوف علىٰ ﴿حَمِيمًا﴾، وهذا أسهل مما سلكه المفسرون، فقد قال بعضهم: إنه استثناء منقطع، وعليه جرىٰ في «الكشاف» قال: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾ ينفس عنهم حر النار، ﴿وَلَا شَرَابًا﴾ يسكن عطشهم، ولكن يذوقون فيها حميماً، وتبعه الجلال، وقال أبو حيان: والظاهر أنه متصل من قوله: ﴿وَلَا شَرَابًا﴾. ﴿جَزَآءً﴾: مصدر منصوب بفعل محذوف تقديره: جوزوا بذلك جزاء، ﴿وِفَاقًا﴾: صفة لـ ﴿جَزَآءً﴾، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿كَانُوا۟﴾: خبره، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل قوله: ﴿جَزَآءً﴾. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ خبرها ﴿حِسَابًا﴾: مفعول ﴿يَرْجُونَ﴾؛ أي: محاسبة. ﴿وَكَذَّبُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الرفع معطوفة علىٰ جملة ﴿كَانُوا۟﴾ علىٰ كونها خبراً؛ لأن ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ جار ومجرور، متعلق بـ ﴿كَذَّبُوا۟﴾، ﴿كِذَّابًا﴾: مفعول مطلق منصوب بـ ﴿كَذَّبُوا۟﴾؛ أي: تكذيباً. ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾، ﴿الواو﴾: اعتراضية ﴿كل شيء﴾: منصوب علىٰ الاشتغال بفعل محذوف وجوباً يفسره المذكور بعده، تقديره: وأحصينا كل شيء أحصيناه ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل، ﴿كل شيء﴾: مفعول به، والجملة جملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين المسبب وسببه، فإن قوله الآتي ﴿فَذُوقُوا۟﴾ مسبب عن تكذيبهم، وفائدة الاعتراض تقرير ما ادعاه من قوله: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾. ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب ﴿كِتَٰبًا﴾: يجوز أن يكون مصدراً من معنىٰ ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾؛ أي: أحصيناه إحصاءاً؛ أي: كتبناه كتاباً؛ لأن أحصيناه بمعنىٰ: كتبنا؛ لالتقاء الإحصاء والكتابة في معنى الضبط والتحصيل، أو يكون مصدراً لـ ﴿أحصينا﴾، ويجوز أن يكون حالاً بمعنىٰ مكتوباً، ﴿فَذُوقُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة لقول محذوف علىٰ ﴿كَذَّبُوا۟﴾ تقديره: فقيل لهم: ذوقوا إلخ ﴿ذوقوا﴾ إلخ نائب فاعل محكي لقيل المحذوف، وجملة

القول المحذوف معطوفة على ﴿كَذَّبُوا۟﴾، وإن شئت قلت: ﴿ذوقوا﴾: فعل أمر وفاعل، والجملة في محل الرفع نائب فاعل لقيل، ومفعول الذوق محذوف، تقديره: فذوقوا جزاءكم، ومفعول به أوّل معطوف على ﴿ذوقوا﴾. ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ﴾ ناصب وفعل منصوب بالفتحة ومفعول به ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿عَذَابًا﴾: مفعول به ثانٍ.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾.

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: خبرها مقدم ﴿مَفَازًا﴾: اسمها مؤخر والجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان أحوال أهل الجنة، ﴿حَدَآئِقَ﴾: بدل من ﴿مَفَازًا﴾: بدل بعض من كل ﴿وَأَعْنَٰبًا﴾: معطوف على ﴿حَدَآئِقَ﴾ ﴿وَكَوَاعِبَ﴾: معطوف على ﴿حَدَآئِقَ﴾ أيضاً، ﴿أَتْرَابًا﴾: صفة لـ ﴿كواعب﴾، ﴿وَكَأْسًا﴾: معطوف على ﴿حَدَآئِقَ﴾ أيضاً، ﴿دِهَاقًا﴾: صفة لـ﴿كَأْسًا﴾، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يسمعون﴾: فعل وفاعل ﴿فِيهَا﴾، متعلق بـ ﴿يَسْمَعُونَ﴾، ﴿لَغْوًا﴾: مفعول به، ﴿وَلَا كِذَّٰبًا﴾: معطوف على ﴿لَغْوًا﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾، ﴿جَزَآءً﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف، تقديره: جزاهم الله بذلك جزاء، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾: صفة لـ ﴿جَزَآءً﴾، ﴿عَطَآءً﴾: بدل من ﴿جَزَآءً﴾، وفي هذا البدل سر لطيف، وهو الإلماع إلى أن ذلك تفضل وعطاء، و ﴿جَزَآءً﴾ مبني على الاستحقاق، و ﴿حِسَابًا﴾: نعت لـ ﴿عَطَآءً﴾، والمعنى: كافياً، فهو مصدر أقيم مقام الوصف، كما مر، أو باقٍ على مصدريته مبالغة، ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: بدل من ﴿رَّبِّكَ﴾. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿وَمَا﴾: اسم موصول في محل الجر معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿بَيْنَهُمَا﴾: ظرف مكان، متعلق بمحذوف صلة ﴿مَآ﴾، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بدل من ﴿رَّبِّ﴾، أو نعت له ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَمْلِكُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿مِنْهُ﴾ متعلق بـ ﴿يَمْلِكُونَ﴾، ﴿خِطَابًا﴾: مفعول به ﴿يَوْمَ﴾: ظرف متعلق بـ ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾، أو بـ ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾، ﴿يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾: فعل وفاعل، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: معطوف على ﴿ٱلرُّوحُ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر بإضافة الظرف إليه، ﴿صَفًّا﴾: حال من الفاعل، أي:

مصطفين، وجملة ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ تأكيد لقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾، أو مستأنفة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع بدل من الواو في ﴿يَتَكَلَّمُونَ﴾، أو في محل النصب علىٰ الاستثناء؛ لأن الكلام غير موجب ﴿أَذِنَ﴾: فعل ماضٍ ﴿لَهُ﴾: متعلق بـ ﴿أَذِنَ﴾. ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾: فاعل، والجملة صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، ﴿وَقَالَ﴾: فعل ماضٍ معطوف علىٰ ﴿أَذِنَ﴾، وفاعله ضمير مستتر يعود علىٰ ﴿مَنْ﴾، ﴿صَوَابًا﴾: صفة لمصدر محذوف؛ أي: قولاً صواباً.

﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ ﴿الْيَوْمُ﴾: بدل منه، ﴿الْحَقُّ﴾: خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة ﴿فَمَن﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصح عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا كان الأمر بهذه المثابة، وأردتم بيان ما هو الأصلح لكم.. فأقول لكم: ﴿من شاء﴾: ﴿من﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط أو الجواب أو هما، كما مَرَّ مراراً ﴿شَاءَ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم بـ﴿من﴾ الشرطية، علىٰ كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير مستتر فيه يعود علىٰ ﴿من﴾، ومفعول المشيئة محذوف، تقديره: فمن شاء اتخاذ مآبٍ إلىٰ ربه. ﴿اتَّخَذَ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم بـ ﴿من﴾ الشرطية علىٰ كونه جواباً لها، وفاعله ضمير مستتر يعود علىٰ ﴿من﴾ الشرطية، ﴿إِلَىٰ رَبِّهِ﴾: متعلق بـ ﴿مَآبًا﴾، و ﴿مَآبًا﴾: مفعول ﴿اتَّخَذَ﴾، وجملة ﴿من﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿أَنذَرْنَاكُمْ﴾ خبره، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة، ﴿أَنذَرْنَاكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به أول، و ﴿عَذَابًا﴾ مفعول به ثانٍ، ﴿قَرِيبًا﴾ صفة ﴿عَذَابًا﴾. ﴿يَوْمَ﴾: منصوب علىٰ الظرفية الزمانية، متعلق بمحذوف صفة لـ ﴿عَذَابًا﴾؛ أي: عذاباً قريباً كائناً ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ﴾، أو متعلق بـ ﴿عَذَابًا﴾، ﴿يَنظُرُ الْمَرْءُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ ﴿يَنظُرُ﴾. ﴿قَدَّمَتْ﴾: فعل ماضٍ، والتاء علامة تأنيث

الفاعل ﴿يَدَاهُ﴾: فاعل ومضاف إليه مرفوع بالألف؛ لأنه مثنىٰ، والجملة صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ﴾: فعل وفاعل، معطوف علىٰ ﴿يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ﴾ ﴿يَا﴾: حرف تنبيه، أو حرف نداء، والمنادىٰ محذوف؛ أي: يا هؤلاء القوم، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿يَقُولُ﴾، ﴿لَيْتَنِي﴾: ليت حرف تمنٍّ ونصب، والنون نون الوقاية؛ لأنها تقي حركة البناء الأصلي في الحرف، والياء ضمير المتكلم في محل النصب اسمها، ﴿كُنتُ تُرَابًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿ليت﴾ وجملة ﴿ليت﴾ في محل النصب مقول لـ ﴿يَقُولُ﴾. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿عَمَّ﴾ أصله: عن ما، والأصل في ﴿ما﴾ الاستفهامية أنها إذا جرت حذف ألفها، ما ذكره ابن مالك بقوله:

وَمَا فِي ٱلاسْتِفْهَامِ إِنْ جُرَّتْ حُذِفْ   أَلِفُهَا وَأَوْلِهَا ٱلْهَا إِنْ تَقِفْ

وقد وقف عليها ابن كثير في رواية البزي عنه بهاء السكت علىٰ خلاف عنه، وفي ذلك قال الشاطبي:

وَفِيمَهْ وَمِمَّهْ قِفْ وَعَمَّهْ لِمَهْ بِمَهْ   بِخُلْفٍ عَنِ ٱلْبَزِّيِّ وَٱدْفَعْ مُجَهِّلَا

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾؛ أي: عن أي شيء يسأل بعضهم بعضاً من التساؤل الذي يدل علىٰ المشاركة..

﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ﴾ والنبأ: الخبر الذي يعنىٰ به ويهتم بشأنه، والمراد به: خبر البعث من القبور، والعرض علىٰ مالك يوم الدين.

﴿كَلَّا﴾ كلمة تفيد رد ما تقدم من الكلام ونفيه. ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾: تأكيد لفظي لما قبله علىٰ ما قاله ابن مالك، ولا يضر توسط حرف العطف، والنحويون يمنعون هذا، ولا يسمونه إلا عطفاً، وإن أفاد التأكيد. اهـ «سمين».

وقيل: الأول عند النزع، والثاني: في القيامة. وقيل: الأول للبعث، والثاني: للجزاء. اهـ «بيضاوي». وقال زاده: ثم موضوعة للتراخي الزماني، وقد استعمل هنا للتراخي الرتبي تشبيهاً لتباعد الرتبة بتباعد الزمان. اهـ.

﴿مِهَٰدًا﴾ والمهاد ـ بكسر الميم ـ: البساط والفراش، وقال بعضهم: المهاد: مصدر ماهدت بمعنىٰ مهدت، كسافرت بمعنىٰ: سفرت، أطلق على الأرض الممهودة؛ أي: المبسوطة المفروشة كالمهد للصبي، ويجوز أن يكون جمع مهد، ككعاب جمع كعب، وجمعه لاختلاف أماكن الأرض من القرى، والبلدان والصحارىٰ والعمران، أو للتصرف فيها بأن جعل بعضها مزارع وبعضها مساكن إلىٰ غير ذلك.

وقرىء: ﴿مهداً﴾ علىٰ تشبيهها بمهد الصبي، وهو ما يمهد له فينوم عليه تسمية للممهود بالمصدر، ففي الكلام حينئذٍ تشبيه بليغ.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ جمع وتد، كأكتاف وكتف، وهو ما يدق في الأرض ليربط إليه الحبل الذي تشد به الخيمة، وقيل: هو ما يوتد ويحكم به المتزلزل المتحرك من اللوح وغيره.

﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨﴾؛ أي: أصنافاً ذكوراً وإناثاً، ليسكن كل من الصنفين إلىٰ الآخر، وينتظم أمر المعاشرة والمعاش، ويتسنىٰ التناسل، واحدها: زوج، ويطلق علىٰ الذكر والأنثى، ويقال لكل واحد من القرينين المزدوجين: حيواناً أو غيره؛ كالخف والنعل، ولا يقال للإثنين زوج، بل زوجان، ولذا كان الصواب أن يقال: قرضته بالمقراضين، وقصصته بالمقصين؛ لأنهما اثنان، لا بالمقراض وبالمقص، كذا قال الحريري في «درة الغواص»، وقال صاحب «القاموس»: يقال للاثنين: هما زوجان، وهما زوج. انتهىٰ. ولعله من قبيل الاكتفاء بأحد الشقين عن الآخر، وزوجة للمرأة لغة رديئة، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾، ويقال لكل ما يقترن بآخر مماثلاً له، أو مضاداً: زوج، ولذا قال بعضهم في الآية: وخلقناكم حال كونكم معروضين لأوصاف متقابلة، كل واحد منها مزدوج بما يقابله؛ كالفقر والغنىٰ، والصحة والمرض، والعلم والجهل، والقوة والضعف، والذكورة والأنوثة، والطول والقصر، إلى غير ذلك.

وبه يصح الابتلاء، فإن الفاضل يشتغل بالشكر، والمفضول بالصبر، ويعرف قدر النعمة عند الترقي من الصبر إلىٰ الشكر، وكل ذلك دليل علىٰ كمال القدرة ونهاية الحكمة.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ﴾ والنوم: استرخاء أعصاب الدماغ برطوبات البخار الصاعد إليه، ولذا قلَّ النوم في أهل رياضة النفس؛ لقلة الرطوبات فيهم. ﴿سُبَاتًا﴾؛ أي: راحةً أو موتاً؛ أي: كالموت، والمسبوت: الميت من السبت، وهو القطع؛ لأنه مقطوع عن الحركة، ومنه سمي يوم السبت؛ لأن الله تعالىٰ ابتدأ بخلق السموات والأرض يوم الأحد، فخلقها في ستة أيام، فقطع عمله يوم السبت، فسمي بذلك، وقيل: السبات ـ بضم السين ـ: قطع الحركة لتحصيل الراحة.

﴿وَجَعَلْنَا الَّيْلَ لِبَاسًا ⑩﴾؛ أي: كاللباس، واللباس: ما يلبسه الإنسان ليستر به جسمه ويغطيه.

﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ⑪﴾؛ أي: وقتاً لتحصيل أسباب المعاش والحياة، وهو مصدر ميمي من عاش يعيش عيشاً ومعاشاً ومعيشة وعيشة، وعلىٰ هذا لا بد من تقدير المضاف، ولذا قدروا لفظ الوقت، ويحتمل أن يكون اسم زمان علىٰ صيغة مفعل، فلا حاجة حينئذٍ إلى تقدير المضاف، وتفسيره بوقت معاش إبراز لمعنىٰ صيغة اسم الزمان، وتفصيل لمفهومها، وأصله: معيشاً بوزن: مفعل، نقلت حركة الياء إلىٰ العين، فسكنت، لكنها قلبت ألفاً. لتحركها في الأصل، وفتح ما قبلها في الحال.

﴿سَبْعًا شِدَادًا﴾؛ أي: سبع سموات قوية محكمة، لا فطور فيها، ولا تصدع.

﴿سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ والسراج: ما يضيء وينير، والوهاج: المتلألىء، والمراد به: الشمس.

﴿مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ والمعصرات: السحائب، والغيوم إذا أعصرت؛ أي: حان وقت أن تعصر الماء، فيسقط منها. ﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾؛ أي: كثير الانصباب عظيم السيلان، والمراد به: المطر، والثج: الانصباب بكثرة وشدة، ويقال: ثج الماء بنفسه؛ أي: انصب، وثججته أنا؛ أي: صببته ثجاً وثجوجاً، فيكون لازماً ومتعدياً، وفي «المختار»: ثج الماء والدم: سال، وبابه رد، ومطر ثجاجٌ؛ أي: منصب جداً، والثج أيضاً: سيلان دماء الهدي، وهو لازم، تقول منه ثج الدم يثج بالكسر ثجاً بالفتح.

﴿حَبًّا﴾ والحب: ما يقتات به الإنسان كالحنطة والشعير والذرة ونحوها من

المطعومات، والحب والحبة ـ يعني بالكسر ـ يقال في بزور الرياحين.

﴿وَنَبَاتًا﴾ والنبات: ما تقتات به الدواب من التبن والحشيش.

﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ والجنات: واحدها جنة، وهي الحديقة والبستان فيه الشجر أو النخل، والجنات الألفاف: الملتفة الأغصان لتقاربها، وطول أفنانها، ولا واحد لها؛ كالأوزاع والأخياف كما مر. وقيل: واحدها لف بكسر اللام وفتحها، وقال أبو عبيدة: واحدها لفيف كشريف وأشراف، والأوزاع والأخياف كلاهما بمعنىٰ الجماعات.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ هو يوم القيامة، سمي بذلك؛ لأن الله يفصل فيه بحكمه بين الخلائق ﴿كَانَ مِيقَٰتًا﴾؛ أي: حداً تنتهي عنده الدنيا، وأصله: موقاتاً بوزن مفعال، قلبت الواو لسكونها إثر كسرة.

﴿فِى ٱلصُّورِ﴾ والصور في الأصل: البوق الذي ينفخ فيه فيحدث صوتاً، وقد جرت عادة الناس إذا سمعوه أن يهرعوا إليه، ويجتمعوا عند النافخ.

﴿أَفْوَاجًا﴾ جمع فوج، وهو جماعة من الناس، وفي «المفردات»: الفوج: الجماعة المارة المسرعة.

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾؛ أي: انشقت وتصدعت من هيبة الله تعالىٰ بعد أن كانت لا فطور فيها.

﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾؛ أي: ذات أبواب كثيرة لنزول الملائكة.

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾؛ أي: زالت عن أماكنها وتفتت صخورها.

﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾؛ أي: كالسراب، فهي بعد تفتتها ترىٰ كأنها جبال، وليست بجبال، بل غباراً متراكماً، والسراب: ما تراه نصف النهار كأنه ماء، قال الراغب: هو اللامع في المفازة كالماء، وذلك لانسرابه في مرأىٰ العين؛ أي: ذهابه وجريانه، وتنعكس فيه البيوت والأشجار وغيرها، ويضرب به المثل في الكذب والخداع، يقال: هو أخدع من السراب، يعني: أنها تصير شيئاً كلا شيء، لتفرق أجزائها، وانبثاث جواهرها.

﴿كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ والمرصاد: اسم للمكان الذي يرصد فيه؛ كالمنهاج اسم

للمكان الذي ينهج فيه؛ أي: يسلك، قال الراغب: المرصاد: موضع الرصد كالمرصد، وهو هنا: موضع يرتقب فيه خزنتها المستحقين لها.

﴿لِلطَّٰغِينَ﴾؛ أي: للذين طغوا في مخالفة ربهم، ومعارضة أوامره. ﴿أَحْقَابًا﴾ جمع حقب بضمتين، وواحد الحقب: حقبة، وهي مدة مبهمة من الزمان.

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾ والبرد: برد الهواء، وقد يراد به: النوم، ومن أمثالهم: منع البرد البرد؛ أي: أصابه من شدة البرد ما منعه النوم.

﴿وَلَا شَرَابًا﴾؛ أي: شراباً يسكن عطشهم، ويزيل الحرقة عن بواطنهم.

﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾ وهو الماء الحار المغلي. ﴿وَغَسَّاقًا﴾؛ أي: قيحاً وصديداً وعرقاً دائم السيلان من أجسادهم. ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: موافقاً أعمالهم السيئة. ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ لا يتوقعون ﴿حِسَابًا﴾؛ أي: محاسبة على أعمالهم، أو ثواب حساب.

﴿كِذَّابًا﴾؛ أي: تكذيباً، وفعال من باب فعل المضاعف شائع فيما بين الفصحاء مطرد، مثل: كلم كلاماً.

﴿كِتَٰبًا﴾ مصدر مؤكد لـ ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ من غير لفظه كما مر.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾ مفازاً: مصدر ميمي من فاز الثلاثي، وأصله مفوز بوزن مفعل بفتح العين، نقلت حركة الواو إلىٰ الفاء فسكنت، ثم أبدلت ألفاً لتحركها أصالة، وفتح ما قبلها في الحال؛ أي: إن لهم فوزاً بالنعيم الدائم، والثواب الجسيم. ﴿حَدَآئِقَ﴾ جمع حديقة؛ أي: بساتين، فيها أنواع الثمر والحجر، والهمزة فيه مبدلة من الياء الواقع في الاسم المفرد المؤنث الواقعة ثالثاً حرف مد زائداً.

﴿وَأَعْنَٰبًا﴾ جمع: عنب، وهو ثمر الكرم.. ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ جمع كاعب، وهي التي نهض ثدياها وتكعبا. ﴿أَتْرَابًا﴾: جمع ترب، وهي التي سنها من سن صاحبتها. ﴿وَكَأْسًا﴾ والكأس: إناء من بلور للشراب. ﴿دِهَاقًا﴾؛ أي: ممتلئة، يقال: أدهق الحوض؛ أي: ملأه، قال خداش:

أَتَانَا عَامِرٌ يَبْغِيْ قِرَانَا ... فَأَتْرَعْنَا لَهُ كَأْساً دِهَاقَا

﴿لَغْوًا﴾ واللغو: الباطل من الكلام الذي يلغىٰ ولا يعتبر لعدم إفادته. ﴿وَلَا كِذَّٰبًا﴾؛ أي: تكذيباً. ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾ الهمزة فيه مبدلة من ياء، أصله: جزاي،

أبدلت ياؤه همزة لتطرفها إثر ألف زائدة. ﴿عَطَآءً﴾؛ أي: تفضلاً منه، وإحساناً، أصله: عطاو، أبدلت الواو همزة؛ لتطرفها إثر ألف زائدة. ﴿حِسَابًا﴾؛ أي: كافياً لهم، تقول: أعطاني فلان حتىٰ أحسبني؛ أي: حتىٰ كفاني بعطائه، قال الشاعر:

فَـلَـمَّـا حَـلَـلْـتُ بِـهِ ضَـمَّـنِـيْ فَـأَوْلَـىٰ جَـمِـيْـلاً وَأَعْـطَـىٰ حِـسَـابَـا

أي: أعطى ما كفىٰ. ﴿خِطَابًا﴾ الخطاب: المخاطبة والمكالمة. ﴿ٱلرُّوحُ﴾ جبريل عليه السلام، ﴿مَـَٔابًا﴾ المآب: المرجع. ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ﴾ الإنذار: الإخبار بالمكروه قبل وقوعه ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ﴾ والمرء: الإنسان ذكراً كان أو أنثى ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾؛ أي: ما صنعه في حياته الأولى.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإبهام في قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾ للإيذان بفخامة شأن المسؤول عنه وهوله، وخروجه عن حدود الأجناس المعهودة، كأنه خفي جنسه، فيسأل عنه، فالاستفهام ليس علىٰ حقيقته، بل لمجرد التفخيم، فإن المسؤول عنه ليس بمجهول بالنسبة إلى الله تعالىٰ؛ إذ لا يخفىٰ عليه خافية.

ومنها: ذكر السؤال أولاً بقوله: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾، ثم ذكر الجواب بقوله: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾: لأن هذا الأسلوب أقرب إلىٰ التفهيم والإيضاح.

ومنها: وصف النبأ بقوله: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾ بعد وصفه بالعظيم؛ تأكيداً لخطره إثر تأكيد، وإشعاراً بمدار التساؤل عنه.

ومنها: تقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ علىٰ عامله اهتماماً به، ورعايةً للفواصل.

ومنها: جعل الصلة فيه جملة اسمية للدلالة علىٰ الثبات؛ أي: هم راسخون في الاختلاف فيه.

ومنها: الإطناب بتكرار الجملة للوعيد والتهديد في قوله: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ للمبالغة في التأكيد والتشديد.

ومنها: الإتيان بـ ﴿ثُمَّ﴾ في الجملة الثانية، للدلالة علىٰ أن الوعيد الثاني أبلغ وأشد.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ أصل الكلام: جعلنا الأرض كالمهاد الذي يفترشه النائم، والجبال كالأوتاد التي تثبت الدعائم، فحذف أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً، ومثله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠﴾؛ أي: كاللباس في الستر والإخفاء، فوجه الشبه: الستر؛ لأن كلاً من اللباس والليل يستر المتلبس به؛ أي: يستركم عن العيون إذا أردتم النجاة بأنفسكم من عدو يلاحقكم، أو بياتاً له، إذا أردتم إنزال الوقيعة به في منأىٰ عن العيون، أو يعينكم علىٰ إخفاء ما لا ترغبون في أن يطلع عليه أحد.

ومنها: المقابلة اللطيفة بين: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠﴾ وبين: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾ قابل بين الليل والنهار، والراحة والعمل، وهو من المحسنات البديعية.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾؛ أي: كالأبواب في التشقق والانصداع، فحذفت الأداة ووجه الشبه، فصار بليغاً.

ومنها: التعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝١٩﴾ للدلالة علىٰ التحقق، وكذا قوله: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾؛ أي: كانت كالسراب الذي يرى نصف النهار كأنه ماء؛ أي: فصارت بتسييرها مثل السراب؛ أي: شيئاً كلا شيء.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝٢٣﴾؛ لأنه كناية عن التأبيد؛ أي: ماكثين فيها أبداً.

ومنها: الطباق بين ﴿بَرْدًا﴾ و﴿حَمِيمًا﴾.

ومنها: الأمر الذي يراد به الإهانة والتحقير في قوله: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾، وفيه أيضاً الالتفات من الغيبة إلىٰ الخطاب مبالغةً في التوبيخ والإهانة.

ومنها: التخصيص في قوله: ﴿وَأَعْنَٰبًا﴾ بعد التعميم في قوله: ﴿حَدَآئِقَ﴾ إظهاراً لفضلها علىٰ سائر الفواكه.

ومنها: ذكر العام بعد الخاص في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾، والروح هو جبريل داخل في الملائكة، فقد ذكر مرتين: مرة استقلالاً، ومرة في ضمن الملائكة تنبيهاً علىٰ جلالة قدره.

ومنها: إظهار ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ في موضع الإضمار في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ للإيذان، بأن مناط الإذن هو الرحمة البالغة، لا أن أحداً يستحقه عليه تعالى.

ومنها: تقديم المعمول على عامله في قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ اهتماماً به، ورعاية للفواصل.

ومنها: التعبير بالجزء عن الكل في قوله: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ إشعاراً بأن أكثر الأعمال تزوال بها.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة

تضمنت هذه السورة المقاصد التالية:

١ ـ سؤال المشركين عن البعث ورسالة محمد ﷺ.

٢ ـ تهديد المشركين على إنكارهم إياه.

٣ ـ إقامة الأدلة علىٰ إمكان حصوله.

٤ ـ أحداث يوم القيامة.

٥ ـ ما يلاقيه المكذبون من العذاب.

٦ ـ فوز المتقين بجنات النعيم.

٧ ـ إن هذا اليوم حق لا ريب فيه.

٨ ـ إنذار الكافرين بالعذاب الأليم، وتمنيهم في ذلك اليوم أن لو كانوا تراباً.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً(١).

* * *

(١) فرغنا من تسويد هذه السورة في تاريخ: ٢/ ٧/ ١٤١٦هـ. سنة ألف وأربع مئة وست عشرة هجرية.

سورة النازعات

سورة النازعات ـ وتسمى: سورة الساهرة، وسورة الطامة ـ مكية بلا خلاف، نزلت بعد سورة النبأ، وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة النازعات بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

وآيتها: ست أو خمس وأربعون آية، وكلماتها: مئة وثلاث وسبعون كلمةً، وحروفها: تسع مئة وثلاثة وخمسون حرفاً.

مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالىٰ أنذر الكفار في السورة السابقة بعذاب يوم القيامة، وهددهم بجهنم وساءت مصيراً، وأن عذابهم فيها جزاء موافق لتمردهم وتكذيبهم لرسوله محمد ﷺ. وأقسم في هذه السورة علىٰ أن البعث والنشور حق لا ريب فيه، وقد أقسم سبحانه في هذه السورة بأصناف من مخلوقاته علىٰ أن ما جاء به رسوله محمد ﷺ من حشر الناس، وعرضهم علىٰ ربهم لينال كل عامل جزاء عمله، حق لا ريب فيه، وأيضاً أن يوم ترجف الراجفة من مبادىء النبأ العظيم.

الناسخ والمنسوخ: وهذه السورة كلها محكمة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ، وسميت سورة النازعات؛ لذكر النازعات فيها.

والله أعلم

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤)
فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا
خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ
خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (١٥) إِذْ نَادَاهُ
رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ
رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣)
فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ (٢٥) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ (٢٦) أَأَنْتُمْ
أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ
ذَٰلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣) فَإِذَا
جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ
(٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ
الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣)
إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا
(٤٦)﴾.

المناسبة

قد تقدم لك بيان المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها، وقد بدأ الله سبحانه هذه السورة بالحلف بأصناف من مخلوقاته، إن ما جاء به رسوله ﷺ من أمر البعث، وعرض الخلائق علىٰ ربهم لينال كل عامل جزاء عمله، حق لا ريب فيه في يوم تعظم فيه الأهوال، وتضطرب القلوب، وتخشع الأبصار، ويعجب المبعوثون من عودتهم إلىٰ حياتهم الأولى بعد أن كانوا عظاماً نخرة، تمر فيها الرياح، ويتحققون أن صفقتهم كانت في الدنيا خاسرة؛ إذ إنهم أنكروا في الدنيا معادهم.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما حكىٰ عن كفار مكة إصرارهم على إنكار البعث، وتماديهم

في العتو والطغيان، واستهزاءهم بالرسول ﷺ، وكان ذلك يشق عليه، ويصعب على نفسه.. ذكر له قصص موسى مع فرعون طاغية مصر، وبين له أنه قد بلغ في الجبروت حداً لم يبلغه قومك، فقد ادعى الألوهية، وألب قومه علىٰ موسى، وكان موسىٰ مع هذا كله يتحمل المشاق العظام في دعوته إلىٰ الإيمان، ليكون ذلك تسليةً لرسوله ﷺ، عما يلاقيه من قومه من شديد العناد، وعظيم الإعراض، يرشد إلىٰ ذلك قوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾. وفي ذلك عبرة أخرىٰ لقومه، وهي أن فرعون مع أنه كان أقوى منهم شكيمة، وأشد شوكة، وأعظم سلطاناً، لما تمرد علىٰ موسى عليه السلام، وعصى أمر ربه.. أخذه الله نكال الآخرة والأولىٰ، ولم يعجزه أن يهلكه ويجعله لمن خلفه آيةً، فأنتم أيها القوم مهما عظمت حالكم، وقوي سلطانكم.. لم تبلغوا مبلغ فرعون، فأخذكم أهون على الله منه. وفي هذا تهديد لهم وإنذار بأنهم إن لم يؤمنوا بالله ورسوله.. فسيصيبهم مثل ما أصاب فرعون وقومه، كما قال في آية أخرى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما قص علىٰ المشركين قصص موسىٰ عليه السلام مع فرعون، وأومأ بهذا القصص إلىٰ أنهم لا يعجزون الذي أخذ فرعون ونكل به، وجعله عبرة للباقين، وسلىٰ به رسوله حتىٰ لا يحزن لتكذيب قومه له، وعدم إيمانهم بما جاءهم به.. أخذ يخاطب منكري البعث وينبههم إلىٰ أنه لا ينبغي لهم أن يجحدوه، فإن بعثهم هين إذا أضيف إلىٰ خلق السموات التي تدل بحسن نظامها وجلالها على حكمة مبدعها وعظيم قدرته وواسع حكمته وإلى خلق الأرض التي دحاها، وجعلها معدة للسكنىٰ، وهيأ فيها وسائل المعيشة للإنسان والحيوان، فأخرج منها الماء الذي به حياة كل شيء، وأنبت فيها النبات الذي به قوام الإنسان والحيوان.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله

---

(١) المراغي.

سبحانه لما بين[1] أنه قادر على نشر الأموات، كما قدر على خلق الأكوان.. بين صدق ما أوحى به إلىٰ نبيه من أن ذلك اليوم الذي فيه يقوم الناس لرب العالمين كائن لا بد منه، فإذا جاءت طامته الكبرىٰ التي تفوق كل طامة، حين تعرض الأعمال علىٰ العالمين، فيتذكر كل امرىء ما عمل، ويظهر الله الجحيم، وهي دار العذاب للعيان، فيراها كل ذي بصر، وفي ذلك اليوم يوزع الجزاء علىٰ العالمين؛ فأما من جاوز الحدود التي حدها الله سبحانه في شرائعه، وفضل لذائذ الدنيا علىٰ ثواب الآخرة.. فدار العذاب مستقره ومأواه، وأما من خاف مقامه بين يدي ربه في ذلك اليوم، وزجر نفسه عن هواها، فلم يجر وراء شهواتها.. فالجنة منزله ومأواه، جزاء ما قدمت يداه.

قوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنه لما كان المشركون يسألون الرسول عناداً واستهزاءً عن الساعة، ويطلبون إليه أن يعجل بها، كما يرشد إلى ذلك: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾، وربما سألوه عن تحديد وقتها، فكان النبي ﷺ يردد في نفسه ما يقولون، ويتمنىٰ لو أمكن أن يجيب عما يسألون، كما هو شأن الحريص علىٰ الهداية المجد في الإقناع.. نهاه الله سبحانه وتعالى عن تمني ما لا يرجى، وأبان له أنه لا حاجة لك إلىٰ ذلك، فإن علمها عند ربك، وإنما شأنك أن تنذر من يخافها فتنبهه من غفلته، حتىٰ يستعد لما يلقاه حينئذٍ.

أما هؤلاء المعاندون: فدعهم في غوايتهم، ولا تشغل نفسك بالجواب عما يسألون، فإذا جاء هذا اليوم.. خيل إليهم أنهم لم يلبثوا من يوم خلقوا إلىٰ يوم البعث إلا طرفاً من نهار أوله أو آخره، ولم يلبثوا نهاراً كاملاً لمفاجأتها لهم علىٰ غير استعداد لوقوعها.

أسباب النزول

قوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[2] سعيد بن منصور عن محمد بن كعب قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ

(١) المراغي. (٢) لباب النقول.

﴿فِي ٱلۡحَافِرَةِ ۝١٠﴾.. قال كفار قريش: لئن حيينا بعد الموت لنخسرن، فنزلت: ﴿تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ...﴾ إلىٰ آخر السورة سبب نزولها: ما أخرجه الحاكم وابن جرير عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يسأل عن الساعة، حتىٰ أنزل عليه قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ۝٤٢﴾... إلخ فانتهىٰ.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أن مشركي مكة سألوا النبي ﷺ، فقالوا: متى تقوم الساعة؟ استهزاءً منهم، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ۝٤٢﴾... إلى آخر السورة.

وأخرج الطبراني وابن جرير عن الطارق بن شهاب قال: كان رسول الله ﷺ يكثر ذكر الساعة، حتىٰ نزلت: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤﴾. وأخرج ابن أبي حاتم مثله عن عروة.

التفسير وأوجه القراءة

افتتح سبحانه وتعالى هذه السورة الكريمة بالقسم ببعض مخلوقاته إظهاراً لعظيم شأنها، وجليل قدرها، وإتقان صنعها ونظامها، وغزارة فوائدها في هذا الكون العظيم الفسيح، وهذه المخلوقات مهما عظمت.. فهي مسخرة ومسيرة لأمر بارئها، خاضعة لسلطانه وجبروته وعظمته وحكمه وعدله وأمره جَلَّ وعلا، والقسم بغير الله لا يجوز لأحد من خلق الله، أما بالنسبة إلىٰ الله تعالى.. فهو سبحانه يقسم بما شاء من مخلوقاته، لحكم عالية ومعان سامية يلفت النظر بها إلىٰ أهمية المقسم به من المخلوقات، لدلالتها على عظمة خالقها وبارئها وموجدها من العدم، وأنها مخلوقة له سبحانه وتعالى، فقال:

﴿وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرۡقٗا ۝١﴾: الواو للقسم[1]، والقسم يدل علىٰ عظم شأن المقسم به، ولله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته. تنبيهاً على ذلك العظم، كما مر آنفاً. و﴿النازعات﴾: جمع نازعة، بمعنىٰ طائفة من الملائكة نازعة، فأنث صفة الملائكة باعتبار كونهم طائفة، ثم جمعت تلك الصفة، فقيل: نازعات بمعنىٰ:

(١) روح البيان.

طوائف من الملائكة نازعات، وقس عليه ﴿الناشطات﴾ وما بعده، وإلا فكان الظاهر أن يقال: والنازعين، والناشطين مثلاً، والنزع: جذب الشيء من مقره بشدة، والغَرْق: مصدر معنوي لـ﴿النازعات﴾ بحذف الزوائد بمعنىٰ: الإغراق والغرق، وكذا الإغراق: الرسوب في الماء وفي البلاء، فهو مفعول مطلق لـ﴿النازعات﴾؛ لأنه نوع من النزع، فيكون شرطه موجوداً، وهو اتفاق المصدر مع عامله لفظاً أو معنىٰ، والإغراق في النزع: التوغل فيه، والبلوغ إلىٰ أقصىٰ درجاته، يقال: أغرق النازع في القوس إذا بلغ غاية المد حتىٰ انتهىٰ إلىٰ النصل. أقسم الله تعالىٰ بطوائف من الملائكة التي تنزع أرواح الكفار من أجسادهم إغراقاً في النزع؛ أي: نزعاً شديداً، فهم ينزعونها منهم معكوساً من الأنامل والأظفار، ومن تحت كل شعرة، كما تنزع الأشجار المتفرقة العروق في أطراف الأرض، وكما يسلخ جلد الحيوان وهو حي، وكما يضرب الإنسان ألف ضربة بالسيف، بل أشد، والملائكة، وهم ملك الموت وأعوانه من ملائكة العذاب يطعنونهم بحربة مسمومة بسم جهنم، والميت يظن أن بطنه قد مليء شوكاً، وكأن نفسه تخرج من ثقب إبرة، وكأن السماء انطبقت علىٰ الأرض، وهو بينهما، فإذا نزعت نفس الكافر.. فهي أشبه شيء بالزئبق علىٰ قدر النحلة، وعلىٰ صورة عمله تأخذها الزبانية، ويعذبونها في القبر، وفي السجين، وهو العذاب الروحاني، ثم إذا قامت القيامة.. انضم الجسماني إلىٰ الروحاني، كذا قالوا، ولا أصل له، ولكن يدل على هذا التشديد قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾.

فقوله[1]: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ①﴾ إشارة إلىٰ كيفية قبض أرواح الكفار بشهادة مدلول اللفظ، وجواب القسم محذوف دل عليه قوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ⑪﴾؛ لأن معناه: أنبعث إذ صرنا كذلك؟ والتقدير: أقسمت لكم أيها العباد بالملائكة التي تنزع وتقبض أرواح الكفار نزعاً شديداً، أو قبضاً عنيفاً لتبعثنَّ بعد الموت للمجازاة علىٰ أعمالكم. قال الإمام الطبري في «تفسيره»[2]: أقسم ربنا جل وعلا بـ﴿النازعات﴾، واختلف أهل التأويل فيها، وما هي، وما تنزع، فقال بعضهم: الملائكة التي تنزع نفوس بني آدم، والمنزوع نفوس الآدميين، وقال آخرون: بل هو

(١) روح البيان. (٢) الطبري.

الموت ينزع النفوس، وقال غيرهم: بل هي النجوم تنزع من أفق إلىٰ أفق؛ أي: تطلع وتغيب، ثم قال بعد ذكر أقوال أخرى: والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله تعالىٰ أقسم بالنازعات غرقاً، ولم يخصص نازعة دون نازعة، فكل نازعة غرقاً فداخلة في قسمه، ملكاً كان أو موتاً، أو نجماً، أو قوساً، أو غير ذلك.

والمعنىٰ: والنازعات إغراقاً، كما يغرق النازع في القوس، أي: والنازعات شدة، كما شدد النازع في القوس.

وقال الشوكاني[1]: أقسم سبحانه وتعالىٰ بهذه الأشياء التي ذكرها، وهي: الملائكة التي تنزع أرواح العباد عن أجسادهم، كما ينزع النازع في القوس، فيبلغ بها غاية المد، وكذا المراد بـ﴿الناشطات﴾، و﴿السابحات﴾، و﴿السابقات﴾، و﴿المدبرات﴾، يعني: الملائكة، والعطف مع اتحاد الكل لتنزيل التغاير الوصفي منزلة التغاير الذاتي، كما في قول الشاعر:

إِلَىٰ ٱلْمَلِكِ ٱلْقَرْمِ وَٱبْنِ ٱلْهُمَامْ وَلَيْثِ ٱلْكَتِيْبَةِ فِيْ ٱلْمُزْدَحَمْ

وهذا قول الجمهور من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم، وقال السدي: ﴿النازعات﴾: هي النفوس حين تغرق في الصدور.

وقال مجاهد: هي الموت ينزع النفس. وقال قتادة: هي النجوم تنزع من أفق إلىٰ أفق، من قولهم: نزع إليه إذا ذهب، أو من قولهم: نزعت بالحبل؛ أي: إنها تغرب وتغيب، وتطلع من أفق آخر، وبه قال أبو عبيدة والأخفش وابن كيسان، وقال عطاء وعكرمة: ﴿النازعات﴾: القسي، تنزع بالسهام، وإغراق النازع في القوس: أن يمده غاية المد حتى ينتهي به إلىٰ النصل، وقال يحيى بن سلام: الغزال تنزع بين الكلأ وتنفر، وقيل: أراد بالنازعات: الغزاة؛ أي: الرماة. انتهىٰ.

وقوله: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢﴾ قَسَم آخر معنىٰ[2] بطريق العطف، والنشط: جذب الشيء من مقره برفق ولين، ونصب ﴿نَشْطًا﴾ علىٰ المصدرية، أقسم الله سبحانه بطوائف من الملائكة التي تنشط أرواح المؤمنين؛ أي: تخرجها من أبدانهم

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.

برفق ولين، كما تنشط الدلو من البئر، يقال: نشط الدلو من البئر إذا أخرجها، وكما تنشط الشعرة من السمن، وكما تنسل القطرة من السقاء، وهم ملك الموت وأعوانه من ملائكة الرحمة، ونفس المؤمن وإن كانت تجذب من أطراف البنان، ورؤس الأصابع أيضاً، لكن لا يحس بالألم، كما يحس به الكافر، وأيضاً نفس المؤمن ليس لها شدة تعلق بالبدن، كنفس الكافر؛ لكونها منجبذةً إلىٰ عالم القدس، وإنما يشتد الأمر علىٰ أهل التعلق، دون أهل التجرد، خصوصاً إذا كان ممن مات بالاختيار قبل الموت، وأيضاً حين يجذبونها يدعونها أحياناً حتىٰ تستريح؛ وليس كذلك أرواح الكفار في قبضها، لكن ربما يتعرض الشيطان للمؤمن الضعيف اليقين، والقاصر في العمل إذا بلغ التراقي، فيأتيه في صورة أبيه وأمه وأخيه، أو صديقه، فيأمره باليهودية أو النصرانية أو نحوهما، كذا قالوا ولا أصل له، والميت يرى الملائكة حينئذٍ علىٰ صورة أعماله، حسنةً أو قبيحةً، فإذا أخذوا نفس المؤمن.. يلقونها في حرير الجنة، وهي علىٰ قدر النحلة، وعلىٰ صورة عمله، ما فقد شيء من عقله وعلمه المكتسب في الدنيا، دل عليه قوله تعالىٰ حكايةً عن حبيب النجار الشهيد في أنطاكية: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ فيعرجون بها إلىٰ الهواء، ويهيئون لها أسباب التنعم في قبره، وفي عليين، وهو النعيم الروحاني، ثم إذا قام الناس من قبورهم.. ازداد النعيم بانضمام الجسماني إلىٰ الروحاني.

فقوله: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾﴾ إشارة إلىٰ كيفية قبض أرواح المؤمنين بشهادة اللفظ ومدلوله أيضاً.

والمعنىٰ: وأقسمت لكم أيها العباد بالملائكة التي تقبض أرواح المؤمنين قبضاً برفق ولين.. لتبعثن بعد الموت للمجازاة.

فإن قيل: قد[1] ثبت أن النبي ﷺ، أخذ روحه الطيب ببعض شدة حتىٰ قال: «واكرباه»، وقال: «لا إله إلا الله، إن للموت سكرات، اللهم أعني علىٰ سكرات الموت»؛ أي: غمراته، وكان يدخل يده الشريفة في قدح فيه ماء، ثم يمسح وجهه المنور بالماء، ولما رأته فاطمة ـ رضي الله عنها ـ يغشاه الكرب.. قالت: واكرب

---

(١) روح البيان.

أبتاه، فقال لها النبي ﷺ: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم»، فإذا كان أمر النبي ﷺ حين انتقاله هكذا، فما وجه ما ذكر من الرفق واللين في قبض أرواح المؤمنين؟.

أجيب: بأن مزاجه الشريف كان أعدل الأمزجة، فأحس بالألم أكثر من غيره، إذ الخفيف على الأخف ثقيل، وأيضاً: يحتمل أن يبتليه الله بذلك ليدعو الله في أن يجعل لأمته سهلاً يسيراً، وأيضاً قد روي أنه طلب من الله أن يحمل عليه بعض صعوبة الموت تخفيفاً علىٰ أمته، فإنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، وأيضاً فيه تسلية أمته إذا وقع لأحد منهم شيء من ذلك الكرب عند الموت، وأيضاً لكي يحصل لمن شاهد من أهله، ومن غيرهم من المسلمين الثواب، لما يلحقهم عليه من المشقة، كما قيل بمثل ذلك في حكمة ما يشاهد من حال الأطفال عند الموت من الكرب الشديد، وأيضاً راحة الكمل في الشدة؛ لأنها من باب الترقي في العلوم والدرجات، وأقل الأمر للناقصين كفارة الذنوب، كذا قالوا، ولكن ما فيه نص.

وقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝٣﴾ قسم آخر معنىٰ أيضاً بطريق[1] العطف، والسبح: المر السريع، في الماء أو في الهواء، و ﴿سَبۡحٗا﴾ منصوب علىٰ المصدرية بـ﴿السابحات﴾، أقسم الله سبحانه وتعالىٰ بطوائف من الملائكة التي تسبح في مضيها؛ أي: تسرع فينزلون من السماء إلىٰ الأرض مسرعين، مشبهين في سرعة نزولهم بمن يسبح في الماء، وهذا من قبيل التعميم بعد التخصيص؛ لأن نزول الأولين إنما هو لقبض الأرواح مطلقاً، ونزول هؤلاء لعامة الأمور والأحوال.

والمعنىٰ: وأقسم لكم بالملائكة التي تسبح وتسرع في نزولها إلى الأرض.. لتبعثن بعد الموت.

وقوله: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤﴾ معطوف علىٰ ﴿السابحات﴾ بالفاء للدلالة علىٰ ترتب السبق على السبح بغير مهلة، فالموصوف واحد، ونصب ﴿سَبۡقٗا﴾ علىٰ المصدرية؛ أي: أقسم لكم بالملائكة التي تسبح وتسرع في النزول إلىٰ الأرض، وتسبق سبقاً إلىٰ ما أمروا به، ووكلوا عليه بلا مهلة؛ أي: يصلون إليه بسرعة، والسبق: كناية عن الإسراع فيما أمروا به، لأن السبق، وهو التقدم في السير من

---

(١) روح البيان.

لوازم الإسراع، فالسبق هنا لا يستلزم وجود المسبوق؛ إذ لا مسبوق هنا.

وفي «الشوكاني»: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ﴾: الملائكة، تسبح في الأبدان لإخراج الروح، كما يسبح الغواص في البحر لإخراج شيء منه، وقال مجاهد: ﴿السابحات﴾: الموت يسبح في نفوس بني آدم، وقيل: هي الخيل السابحة في الغزو، ومنه قول عنترة:

وَٱلْخَيْلُ تُعْلَمُ حِيْنَ تَسْـ ... ـبَحُ فِيْ حِيَاضِ ٱلْمَوْتِ سَبْحَا

وقال قتادة والحسن: هي النجوم تسبح في أفلاكها، كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، وقال عطاء: هي السفن تسبح في الماء، وقيل: هي أرواح المؤمنين تسبح شوقاً إلى الله. ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤﴾: هم الملائكة علىٰ قول الجمهور كما سلف، قال مسروق ومجاهد: تسبق الملائكة الشياطين بالوحي إلىٰ الأنبياء، وقال أبو روق: هي الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح، وقال مقاتل: هي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة، وقيل: غير ذلك من الأقوال المتلاطمة.

وقوله: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾[1] معطوف علىٰ ﴿السابقات﴾ بالفاء؛ للدلالة علىٰ ترتب التدبير على السبق بغير تراخ، والتدبير: التفكر في دبر الأمور وعواقبها، و ﴿أَمْرًا﴾: مفعول به لـ﴿لمدبرات﴾. قال الراغب: يعني: الملائكة الموكلين بتدبير الأمور. انتهىٰ؛ أي: التي تدبر أمراً من الأمور الدنيوية والأخروية للعباد، كما رسم لهم من غير تفريط ولا تقصير، والمقسم عليه محذوف لدلالة ما بعده عليه من ذكر القيامة.

والمعنىٰ: أقسم بالملائكة التي تدبر أمراً من أمور العباد، لتبعثن بعد الموت للمجازاة. وجه الدلالة: أن الموت يستدعي البعث للأجر والجزاء؛ لئلا يستمر الظلم والجور في الوجود: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، فكأن الله تعالىٰ يقول: إن الملائكة ينزلون لقبض الأرواح عند منتهىٰ الآجال، ثم ينجر الأمر إلىٰ البعث لما ذكر، فكان من شأن من يقر بالموت أن يقر بالبعث، فلذا جمع بين القسم بـ﴿النازعات﴾ وبين البعث الذي هو الجواب، وفي عنوان هذه السورة وجوه كثيرة

(١) روح البيان.

صفحنا عن ذكرها، واخترنا سوق «الكشاف» فإنه هو الذي يقتضيه جزالة التنزيل.

قال الجرجاني[1]: عطف ﴿السابقات﴾ بالفاء؛ لأنها مسببة من التي قبلها؛ أي: واللاتي يسبحن فيسبقن، تقول: قام فذهب، فهذا يوجب أن يكون القيام سبباً للذهاب، ولو قلت: قام وذهب بالواو.. لم يكن القيام سبباً للذهاب، قال الواحدي: وهذا غير مطرد في قوله: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝﴾؛ لأنه يبعد أن يجعل السبق سبباً للمتدبر. قال الرازي: ويمكن الجواب عما قاله الواحدي بأنها لما أمرت سبحت فسبقت فتدبرت ما أمرت بتدبيره، فتكون هذه أفعالاً يتصل بعضها ببعض، كقوله: قام زيد فذهب، ولما سبقوا في الطاعات وسارعوا إليها.. ظهرت أمانتهم، ففوض إليهم التدبير، ويجاب عنه بأن السبق لا يكون سبباً للتدبير، كسببية السبح للسبق والقيام للذهاب، ومجرد الاتصال لا يوجب السببية والمسببية، والأولىٰ أن يقال: العطف في ﴿المدبرات﴾ طوبق به ما قبله من عطف ﴿السابقات﴾ بالفاء، ولا يحتاج إلىٰ نكتة كما احتاج إليها ما قبله؛ لأن النكتة إنما تطلب لمخالفة اللاحق للسابق، لا لمطابقته وموافقته. ومعنىٰ تدبير الملائكة للأمر: نزولها بالحلال والحرام وتفصيلهما، والفاعل للتدبير في الحقيقة، وإن كان هو الله عزّ وجلّ، لكن لما نزلت الملائكة به وصفت به، وقيل: إن الملائكة لما أمرت بتدبير أهل الأرض في الرياح والأمطار وغير ذلك.. قيل لها: مدبرات. قال عبد الرحمن بن سابط: تدبير أمر الدنيا إلىٰ أربعة من الملائكة: جبريل، وميكائيل، وعزرائيل، وإسرافيل؛ فأما جبريل.. فموكل بالرياح والجنود، وأما ميكائيل: فموكل بالقطر والنبات، وأما عزرائيل: فموكل بقبض الأرواح، وأما إسرافيل: فهو ينزل بالأمر من الله عليهم، وليس في الملائكة أقرب منه.

وقوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝﴾ ظرف متعلق بجواب القسم المقدر، وهو: لتبعثن، أو باذكر مقدراً، والمراد بالرجفة: النفخة الأولىٰ التي ترجف عندها الأجرام الساكنة، كالأرض والجبال؛ أي: أقسمت لكم بالأمور السابقة، لتبعثن يا كفار مكة يوم ترجف الراجفة؛ أي: يوم تتحرك النفخة الأولىٰ لإماتة الأحياء حركة شديدة، وتزلزل زلزلة عظيمة من هول ذلك اليوم، أسند[2] إليها الرجف مجازاً على

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

طريق إسناد الفعل إلىٰ سببه، فإن حدوث تلك النفخة سبب لاضطراب الأجرام الساكنة من الرجفان، وهي شدة الاضطراب، ومنه: الرجفة للزلزلة، لما فيه من شدة الاضطراب وكثرة الانقلاب، وفيه إشعار بأن تغير السفلي مقدم علىٰ تغير العلوي، وإن لم يكن مقطوعاً.

وجملة قوله: ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ حال مقدرة من ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾ مصححة لوقوع اليوم ظرفاً للبعث، والمراد بـ﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾: النفخة الثانية لإحياء الأموات التي تردف الأولىٰ؛ أي: تجيء بعدها؛ لأن النفخة الثانية تجيء بعد الأولىٰ. يقال: ردفه - كسمعه ونصره - تبعه، كأردفه، وأردفته معه: أي: أركبته معه كما في «القاموس».

والمعنىٰ[1]: أي لتبعثن يوم النفخة الأولىٰ حال كون النفخة الثانية تابعةً لها، لا قبل ذلك، فإن اليوم عبارة عن الزمان الممتد الذي تقع فيه النفختان، وبينهما أربعون سنة، كما قال في «الكشاف»: لتبعثن في الوقت الواسع الذي تقع فيه النفختان، وهم يبعثون في بعض ذلك الوقت الواسع، وهو وقت النفخة الأخرىٰ. انتهى.

قال في «الإرشاد»[2]: واعتبار امتداده مع أن البعث لا يكون إلا عند النفخة الثانية لتهويل اليوم ببيان كونه موقعاً لداهيتين عظيمتين، لا يرقىٰ عند وقوع الأولىٰ حيٌّ إلا مات، ولا عند وقوع الثانية ميتٌ إلا بعث وقام.

والمعنىٰ: أي لتبعثن يوم تتحرك الأرض وتضطرب الجبال، ويسمع لها صوت عظيم، ويموت كل شيء عليها بأمر الله تبارك وتعالى، وسميت ﴿راجفة﴾ من الرجف: وهو الاضطراب الشديد؛ لأن بها يضطرب الأمر، ويختل النظام، وينتهي العالم إلىٰ نهايته. التي حددها له خالقه عزّ وجلّ، و﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾: صيحة عظيمة فيها تردد واضطراب، كالرعد إذا تمخض، وتكون النفخة الأولىٰ من صور إسرافيل ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾؛ لهول تلك النفخة الكبرىٰ ثم تتبعها ﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾؛ أي: النفخة الثانية التي تعقب النفخة الأولىٰ، وهي التي يبعث الله معها الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ

---

(1) روح البيان. (2) أبو السعود.

﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ فتضطرب الأرض لإحياء الموتىٰ، كما اضطربت في المرة الأولى لإماتة الأحياء، ويروى عن رسول الله ﷺ أن: «بين النفختين أربعين عاماً»، كما يروىٰ: أن في هذه الأربعين يمطر الله الأرض، ويصير ذلك الماء عليها كالنطف، وأن ذلك الماء سبب لإحياء الموتى، والله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، بيده الأمر وهو علىٰ كل شيء قدير.

وقوله: ﴿قُلُوبٌ﴾[1]: مبتدأ، وتنكيره يقوم مقام الوصف المخصص المجوز للابتداء بالنكرة، سواء حمل علىٰ التنويع، وإن لم يذكر النوع المقابل فإن المعنىٰ منسحب عليه، أو علىٰ التكثير، كما في قولهم: شَرٌّ أَهَرَّ ذَا نَابٍ. فإن التفخيم كما يكون بالكيفية.. يكون بالكمية أيضاً، كأنه قيل: قلوب كثيرة أو عاصية، كما قال في «التأويلات النجمية»: قلوب النفس المتمردة الشاردة النافرة عن الحق ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ تقع النفختان، وهو متعلق بقوله: ﴿وَاجِفَةٌ﴾ وهذا خبر المبتدأ؛ أي: شديدة الاضطراب من سوء أعمالهم وقبح أفعالهم، فإن الوجيف عبارة عن شدة اضطراب القلب وقلقه من الخوف والوجل، وعلم منه أن الواجفة ليست جميع القلوب، بل قلوب الكفار، فإن أهل الإيمان لا يخافون.

﴿أَبْصَٰرُهَا﴾؛ أي: أبصار أصحابها، كما دل عليه قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾، وإلا فالقلوب لا أبصار لها، وإنما أضاف الأبصار إلىٰ القلوب؛ لأنها محل الخوف وهو من صفاتها. ﴿خَٰشِعَةٌ﴾، أي: ذليلة من الخوف بسبب الإعراض عن الله، والإقبال علىٰ ما سواه، يترقبون أي شيء ينزل عليهم من الأمور العظام، وأسند الخشوع إليها مجازاً؛ لأن أثره يظهر فيها.

والخلاصة: أن الله سبحانه وتعالىٰ أقسم بالنازعات والناشطات والسابحات فالسابقات فالمدبرات.. لتبعثن بعد الموت، ولتنبؤن بما عملتم، ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً، وإنها لجنة أبداً أو نار أبداً. ويوم ترجف الراجفة تضطرب الأرض والجبال تتبعها الرادفة وتمور السماء موراً وتسير الجبال سيراً وتكون قلوب الكفار مضطربة قلقة خائفةً؛ لأنهم أبصروا ما كانوا ينكرون، ورأوا ما كانوا يوعدون، ولذا قال تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾﴾، فالقلوب

---

(١) روح البيان.

الواجفة هي القلقة المضطربة اضطراباً شديداً، والخائفة خوفاً عظيماً، فلا تهدأ ولا تسكن لما ترىٰ من هول يوم القيامة وعذاب الآخرة، وذلك بعد أن رأوا ما كان رسول الله ﷺ يذكره لهم ويحذرهم منه في الدنيا، ولكنهم أنكروا وكفروا ولم يؤمنوا به، فإذا جاء وعد الله سبحانه.. هلعت قلوبهم، وانشقت مرائرهم، واضطربت نفوسهم، وخشعت أبصارهم من هول ذلك المشهد العظيم.

قال عطاء: يريد أبصار من مات علىٰ غير الإسلام، أما أهل الإيمان.. فقد ثبت بالدليل أنهم لا يخافون إذا خاف الناس، بل يثبتهم الله تعالىٰ بالقول الثابت في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ونورهم يسعىٰ بين أيديهم وبأيمانهم. فالويل كل الويل لأولئك المكذبين بيوم الدين، وقد حكىٰ الله سبحانه عنهم أقوالاً ثلاثةً استبعدوا بها أمر البعث، واستهزؤوا فيها بالرسول والمؤمنين، فقال:

١ - ﴿يَقُولُونَ﴾ استئناف بياني؛ أي: يقول هؤلاء المكذبون بالبعث من مشركي قريش إذا قيل لهم إنكم مبعوثون من بعد الموت؛ أي: يقولون: الآن؟ منكرين له متعجبين منه ﴿أَءِنَّا﴾ نحن ﴿لَمَرْدُودُونَ﴾؛ أي: لمعادون بعد موتنا ﴿فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾؛ أي: إلى[1] الحافرة؛ أي: إلىٰ حالتنا الأولىٰ قبل الممات يعنون الحياة؛ أي: راجعون أحياءً كما كنا قبل مماتنا من قولهم: رجع فلان في حافرته؛ أي: في طريقته التي جاء فيها، فحفرها؛ أي: أثر فيها بمشيه، وتسميتها حافرة مع أنها محفورة، وإنما الحافر هو الماشي في تلك الطريقة، كقوله تعالى: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾؛ أي منسوبة إلىٰ الحفر والرضىٰ أو علىٰ تشبيه القابل بالفاعل؛ أي: في تعلق الحفر والرضا بكل منهما، فأطلق اسم الثاني على الأول للمشابهة، كما يقال: صام نهاره تشبيهاً لزمان الفعل بفاعله، وقال مجاهد والخليل بن أحمد: الحافرة: هي الأرض التي يحفر فيها القبور، ولذا قال في «التأويلات النجمية»: أي حافرة أجسادنا وقبور صدورنا، ومنه قول الشاعر:

آلَيْتُ لاَ أَنْسَاكُمُ فَاعْلَمُوْا   حَتَّىٰ يُرَدَّ النَّاسُ فِيْ الْحَافِرَةْ

والمعنىٰ عليه: أئنا لمردودون في قبورنا أحياءً، وقال ابن زيد: الحافرة:

---

(١) روح البيان.

النار، واستدل بقوله: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾، والاستفهام فيه للإنكار. وقرأ الجمهور: ﴿فِي ٱلْحَافِرَةِ﴾ بالألف، وقرأ أبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة: ﴿في الحفرة﴾ بغير ألف، قيل: هما بمعنىٰ واحد، وقيل: الحفرة هي الأرض المنتنة المتغيرة بأجساد موتاها، من قولهم: حفرت أسنانه إذا تآكلت وتغيرت.

٢ ـ ﴿أَءِذَا﴾ والعامل[١] في ﴿إذا﴾ مضمر يدل عليه ﴿مردودون﴾؛ أي: أئذا ﴿كُنَّا﴾ نحن ﴿عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾؛ أي: بالية، نرد ونبعث مع كونها أبعد شيء من الحياة، فهو تأكيد لإنكار الرد ونفيه بنسبته إلىٰ حالة منافية له، ظنوا أن من فساد البدن وتفرق أجزائه يلزم فساد ما هو الإنسان حقيقة، وليس كذلك، ولو سلم أن الإنسان هو هذا الهيكل المخصوص.. فلا نسلم امتناع إعادة المعدوم، فإن الله تعالى قادر على كل الممكنات، فيقدر على جمع الأجزاء العنصرية، وإعادة الحياة إليها؛ لأنها متميزة في علمه، وإن كانت غير متميزة في علم الخلق، كالماء مع اللبن، فإنهما وإن امتزجا، لكن أحدهما متميز عن الآخر في علم الله، وإن كان عقل الإنسان قاصراً عن إدراكه.

والنخر: البلىٰ، يقال: نخر العظم والخشب ـ بكسر العين ـ: إذا بلي واسترخىٰ، وصار بحيث لو مس لتفتت، ونخرة أبلغ من ناخرة؛ لكونها من صيغ المبالغة، أو صفة مشبهة دالة علىٰ الثبوت، ولذا اختارها الأكثر، والناخرة أشبه برؤوس الآي، اختارها البعض، وقيل: النخرة غير الناخرة؛ إذ النخرة بمعنىٰ البالية، وأما الناخرة.. فهي العظام الفارغة المجوفة التي يحصل فيها صوت من هبوب الريح من نخير النائم والمجنون، لا من النخر بمعنىٰ: البلىٰ. قال الراغب: النخير صوت من الأنف، وسمي خرق الأنف الذي يخرج منه النخير منخر، فالمنخران ثقبتا الأنف. وقرأ عمر[٢] وأبي وعبد الله وابن الزبير وابن عباس ومسروق ومجاهد والأخوان حمزة والكسائي وأبو بكر: ﴿ناخرة﴾ بألف، وقرأ أبو رجاء والحسن والأعرج وأبو جعفر وشيبة وابن جبير والنخعي وقتادة وابن وثاب وأيوب وأهل مكة وشبل وباقي السبعة: ﴿نَّخِرَةً﴾ بغير ألف، واختار[٣] القراءة الأولىٰ الفراء وابن جرير وأبو معاذ النحوي، واختار القراءة الثانية أبو عبيد وأبو

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط. (٣) الشوكاني.

حاتم. قال أبو عمرو بن العلاء: الناخرة: التي لم تنخر بعد، أي: لم تبل، ولا بد أن تنخر، وقيل: هما بمعنى، تقول العرب: نخر الشيء فهو ناخر ونخر، وطمع فهو طامع وطمع، ونحو ذلك. قال الأخفش: هما جميعاً لغتان، أيهما قرأت فحسن، وقرأ نافع[١] وابن عامر والكسائي: ﴿إذا كنا﴾ علىٰ الخبر. وقرأ الجمهور: ﴿أَءِذَا كُنَّا﴾ علىٰ الاستفهام، والمعنىٰ: أي: أنرد إلىٰ الحياة بعد أن نصير عظاماً بالية، لو لمست.. لتفتتت.

٣ - ﴿قَالُوا۟﴾ اختيار[٢] صيغة الماضي هنا للإيذان بأن صدور هذا الكفر منهم ليس بطريق الاستمرار، مثل كفرهم السابق المعبر عنه بالمضارع؛ أي: قالوا بطريق الاستهزاء بالحشر، ﴿تِلْكَ﴾ الردة والرجعة في الحافرة، وفيه إشعار بغاية بُعدها من الوقوع في اعتقادهم ﴿إِذًا﴾؛ أي: إن رددنا إلىٰ الحالة الأولىٰ، وصح ذلك ﴿كَرَّةٌ﴾ الكر: الرجوع، والكرة: المرة من الرجوع، والجمع: كرات. ﴿خَاسِرَةٌ﴾؛ أي: ذات خسران علىٰ إرادة النسبة من اسم الفاعل؛ أي: رجعة ذات خسران لما يقع علىٰ أصحابها من الخسران، أو خاسرة أصحابها علىٰ الإسناد المجازي؛ أي: علىٰ طريق إسناد الفعل إلىٰ ما يقاربه في الوجود، كقوله: تجارة رابحة، والربح: فعل أصحاب التجارة، وهي عقد المبادلة، والربح والتجارة متقاربان في الوجود وإلا فهم الخاسرون، والكرة مخسور فيها؛ أي: إن صحت تلك الكرة.. فنحن إذاً خاسرون لتكذيبنا بها، وهذا المعنى أفاده كلمة ﴿إِذًا﴾، فإنها حرف جواب وجزاء عند الجمهور، وإنما حمل قولهم هذا علىٰ الاستهزاء؛ لأنهم أبرزوا ما قطعوا بانتفائه واستحالته في صورة المشكوك المحتمل الوقوع.

والمعنىٰ[٣]: أي إن صح ما قلتم من البعث يوم القيامة بعد أن نصير عظاماً نخرةً.. فنحن إذاً خاسرون؛ لأنا كذبنا به، ولم نأخذ العدة له، فيا ويلنا في هذا اليوم، وهذا منهم استهزاء وتهكم اعتقاداً منهم أن ذلك لن يكون، وقيل: معنىٰ ﴿خَاسِرَةٌ﴾: كاذبة؛ أي: ليست بكائنة، كذا قال الحسن وغيره. وقال الربيع بن أنس: ﴿خَاسِرَةٌ﴾ علىٰ من كذب بها.

وقال قتادة ومحمد بن كعب: أي لئن رجعنا بعد الموت.. لنخسرن بالنار،

---

(١) البيضاوي. (٢) روح البيان. (٣) المراغي.

وإنما قالوا هذا لأنهم أوعدوا بالنار.

وقوله: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ جواب[1] من الله عن مقالتهم بالإنكار، وتعليل لما يدل عليه ما تقدم من استبعادهم لبعث العظام النخرة، وإحياء الأموات؛ أي: لا تستبعدوا تلك الكرة، ولا تحسبوها صعبة علىٰ الله سبحانه، فإنها سهلة هينة في قدرته تعالى، فإنما هي؛ أي: تلك الكرة والرجعة ﴿زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾؛ أي: صيحة واحدة؛ أي: حاصلة بصيحة واحدة لا تكرر، يسمعونها وهم في بطون الأرض، وهي النفخة الثانية كنفخ واحد في صور الناس؛ لإقامة القافلة، عبر عن الكرة بالزجرة تنبيهاً علىٰ كمال اتصالها بها، كأنها عينها يقال: زجر البعير إذا صاح. ﴿فَإِذَا هُم﴾؛ أي: فإذا الخلائق الذين قد ماتوا ودفنوا أحياء ﴿بِٱلسَّاهِرَةِ﴾؛ أي: علىٰ وجه الأرض. قال الواحدي[2]: المراد بالساهرة: وجه الأرض وظاهرها في قول الجميع. قال الفراء: سميت بهذا الاسم؛ لأن فيها نوم الحيوان وسهرهم، يقال: سهر إذا لم ينم، وقيل: لأنه يسهر في فلاتها خوفاً منها، فسميت بذلك. وقيل: أرض من فضة لم يعص الله سبحانه فيها، خلقها الله سبحانه حينئذٍ. وقيل: الساهرة: الأرض السابعة، يأتي بها الله سبحانه فيحاسب عليها الخلائق. وقال سفيان الثوري: الساهرة: أرض الشام. وفي الحديث: «بيت المقدس أرض المحشر والمنشر». وقال قتادة: هي جهنم؛ أي: فإذا هؤلاء الكفار في جهنم، وإنما قيل لها ساهرة؛ لأنهم لا ينامون فيها لاستمرار عذابهم.

و﴿إذا﴾ الفجائية تقيد[3] حدوث ما أنكروه بسرعة علىٰ فجأة؛ أي: فإذا هم فاجؤوا الحصول بها، وهو بيان لحضورهم الموقف عقب الكرة التي عبر عنها بالزجرة. وقيل: الساهرة: الأرض البيضاء المستوية، سميت بذلك؛ لأن السراب يجري فيها، من قولهم: عين ساهرة؛ أي: جارية الماء، وفي ضدها نائمة، يعني: أن بياض الأرض عبارة عن خلوها عن الماء والكلأ، شبّه جريان السراب فيها بجريان الماء عليها. فقيل لها: ساهرة. وفي «التأويلات النجمية»: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾؛ أي: فإذا هم بظهر أرض الحياة، كما كانوا قبله ببطن أرض الممات، وقال المولىٰ الفناري في تفسير الفاتحة: إن الناس إذا قاموا من قبورهم، وأراد الله

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

سبحانه أن يبدل الأرض غير الأرض. . تمد الأرض بإذن الله، ويكون المحشر عليها، فيكون الخلق عليه عندما يبدل الله الأرض كيف يشاء؛ إما بالصورة، وإما بأرض أخرىٰ ما هم عليها، تسمىٰ بالساهرة، فيمدها سبحانه مد الأديم، ويزيد في سعتها أضعاف ما كانت من أحد وعشرين جزءاً إلىٰ تسعة وتسعين جزءاً، حتىٰ لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً.

وحاصل المعنى[1]: ألا تستبعدوا ذلك وتظنوه عسيراً شاقاً علينا، فإنما هي صيحة واحدة، وهي النفخة الثانية التي يبعث الله بها الموتىٰ، فإذا الناس كلهم علىٰ سطح الأرض أحياء، ونحو الآية قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ۝١٥﴾.

وخلاصة هذا: لا تحسبوا أن هذه الرجعة عسيرة شاقة علينا، فما إعادتكم التي ظننتموها صعبة إلا أن نأمر ملكاً من ملائكتنا أن يصيح صيحة واحدة، فإذا أنتم جميعاً لدينا محضرون، لا يتخلف منكم أحد، ولا يستطيع التخلف إن أراد.

وقوله: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥﴾ كلام مستأنف مسوق لتسلية رسول الله ﷺ على تكذيب قومه بأن يصيبهم مثل ما أصاب من كان أقوىٰ منهم وأعظم، يعني: فرعون، ومعنى[2] هل أتاك: إن قدر أن هذا أول ما أتاه من حديثه يكون ترغيباً له في استماع حديثه، وحملاً له على طلب الإخبار، كأنه قيل: هل أتاك حديث موسى قبل هذا، أم أنا أخبرك به؟ كما قال الحسن رحمه الله تعالى: إعلام من الله لرسوله حديث موسى، كقول الرجل لصاحبه: هل بلغك ما لقي أهل البلد، وهو يعلم أنه لم يبلغه، وإنما قال ليخبره به. انتهى. وإن قدر إتيانه قبل هذا، وهو المتبادر من الإيجاز في الاقتصاص يكون تقريراً له؛ أي: حملاً له علىٰ الإقرار بأمر يعرفه قبل ذلك؛ أي: أليس قد أتاك حديثه، يعني: قد جاءك وبلغك حديثه عن قريب، كأنه لم يعلم بحديث موسىٰ، وأنه لم يأته بعد، وإلا لما كان يتحزن علىٰ إصرار الكفار علىٰ إنكار البعث، وعلىٰ استهزائهم به، بل يتسلىٰ بذلك، فـ ﴿هَلۡ﴾ بمعنىٰ قد المقربة للحكم إلى الحال، وهمزة الاستفهام قبلها محذوفة، وهي للتقرير، وزيد ليس لأنه أظهر دلالة علىٰ ذلك؛ لأنه مقدر في النظم، كأنه قيل: أليس قد أتاك

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

حديث موسى ﴿إِذْ نَادَىٰهُ﴾؛ أي: نادىٰ موسى وكلمه ﴿رَبُّهُۥ﴾ وخالقه ومالكه ظرف للحديث، والمناداة والنداء بمعنىً واحد، وفي «القاموس»: النداء: الصوت؛ أي: هل أتاك يا محمد حديث موسى وخبره الواقع حين ناداه؛ إذ المراد: خبره الحادث، فلا بد له من زمان يحدث فيه، لا ظرف للإتيان لاختلاف وقتي الإتيان والنداء؛ لأن الإتيان لم يقع في وقت النداء، أو مفعول لاذكر المقدر، وعليه وضع السجاوندي علامة الوقف اللازم علىٰ موسى، وقال: لأنه لو وصل.. صار ﴿إِذْ﴾ ظرفاً لإتيان الحديث، وهو محال. لعله لم يلتفت إلىٰ عمل حديث لكونه هنا اسماً بمعنىٰ الخبر مع وجود فعل قوي في العمل قبله، وبالجملة: لا يخلو عن إيهام، فالوجه الوقف، كما في بعض التفاسير. ﴿بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾؛ أي المبارك المطهر بتطهير الله عما لا يليق حين مكالمته مع كليمه، أو سمي مقدساً لوقوعه في حدود الأرض المقدسة المطهرة عن الشرك ونحوه، وأصل الوادي[1]: الموضع الذي يسيل فيه الماء، ومنه سمي المنفرج بين الجبلين: وادياً، والجمع: أودية، ويستعار للطريقة، كالمذهب والأسلوب، فيقال: فلان في وادٍ غير واديك. ﴿طُوًى﴾ بدل من ﴿الواد﴾ بدل كل من كل، أو عطف بيان، وهو بضم الطاء والتنوين تأويلاً له بالمكان، أو بغير تنوين تأويلاً له بالبقعة، وهو معدول من طاوٍ، كما عدل عمر عن عامر، قال الفراء: الصرف أحب إليّ من منعه إذا لم أجد في المعدول نظيراً له، أي: لم أجد اسماً من الوادي عدل عن جهته غير طوىٰ، وهو اسم للوادي الذي بين المدينة ومصر، وقيل: ﴿طُوًى﴾ معناه: يا رجل بالعبرانية، فكأنه قيل: يا رجل اذهب إلىٰ فرعون، وقيل: اسم وادٍ عند الطور بين: أيلة ومصر، وإنما سمي ﴿طُوًى﴾ لكثرة ما مشت عليه الأنبياء، وقيل: ﴿طُوًى﴾ معناه: يا رجل بالعبرانية، فكأنه قيل: يا رجل اذهب إلىٰ فرعون، وقيل: المعنىٰ: إن الوادي المقدس بورك فيه مرتين، والأول أولى.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بضم الطاء غير منون، وقرأ الباقون: بضم الطاء منوناً، وروى عن أبي عمرو بكسر الطاء.

وقوله: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: فقال له: اذهب إلىٰ فرعون، وقيل: هو

---

(١) روح البيان.

تفسير للنداء؛ أي: ناداه نداءً، هو قوله: اذهب، وقيل: هو علىٰ حذف أن المفسرة، ويؤيده قراءة ابن مسعود: ﴿أن اذهب﴾؛ لأن في النداء معنىٰ القول، قال الحسن[1]: وكان فرعون علجاً من همدان، وعنه أيضاً: كان من أصبهان، طوله أربعة أشبار، وهو أول من اتخذ القبقاب ليمشي فيه خوفاً من أن يمشي علىٰ لحيته، وقال مجاهد: كان أهل اصطخر.

وقرأ عبد الله: ﴿أن اذهب﴾؛ لأن في النداء معنىٰ القول كما مر آنفاً. وجملة قوله: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ تعليل للأمر بالذهاب، أو لوجوب الامتثال به، والطغيان: مجاوزة الحد؛ أي: طغىٰ على الخالق بأن كفر به، وطغىٰ على الخلق بأن تكبر عليهم واستعبدهم، فكما أن كمال العبودية لا يكون إلا بالصدق مع الحق، وحسن الخلق مع الخلق، فكذا كمال الطغيان يكون سوء المعاملة معهما. ﴿فَقُلْ﴾ له بعدما أتيته: ﴿هَل لَّكَ﴾ رغبة وتوجه ﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ بحذف إحدىٰ التائين من تتزكىٰ؛ أي: إلىٰ أن تتطهر من دنس الكفر والطغيان، ووسخ الكدورات البشرية، والقاذورات الطبيعية.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿تَزْكَى﴾ بالتخفيف، وقرأ نافع وابن كثير بتشديد الزاي علىٰ إدغام التاء في الزاي، قال أبو عمر بن العلاء: معنىٰ قراءة التخفيف: تكون زكيّاً مؤمناً، ومعنى قراءة التشديد: الصدقة. وفي الكلام مبتدأ مقدر يتعلق به ﴿إِلَىٰٓ﴾، والتقدير: هل لك رغبة، أو هل لك توجه، أو هل لك سبيل إلى التزكي؟ كما مر آنفاً. ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾؛ أي: وأرشدك إلىٰ معرفته فتعرفه، ففي النظم مضاف مقدر، وتقديم التزكية لتقدم التخلية علىٰ التحلية. ﴿فَتَخْشَىٰ﴾؛ إذ الخشية لا تكون إلا بعد معرفته، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾؛ أي: العلماء بالله، وجعل الخشية غاية للهداية، لأنها ملاك الأمر؛ لأن من خشي الله.. أتى منه كل خير، ومن أمن اجترأ علىٰ كل شر، كما قال النبي ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل» والإدلاج: السير أول الليل.

ثم إنه تعالىٰ[3] أمر موسى عليه السلام بأن يخاطبه بالاستفهام الذي معناه العرض، ليستدعيه بالتلطف في القول، ويستنزله بالمداراة من عتوه، وهذا ضرب تفصيل لقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤﴾ أما كونه ليناً..

---

(١) المراح. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

فلأنه في صورة العرض لا في صورة الأمر صريحاً، وليس فيه أيضاً ذكر نحو الشرك، والجهل والكفران من متعلقات التزكي، وأما اشتماله على بعض التفصيل فظاهر.

وحاصل معنىٰ الآيات: أي ألم يبلغك يا محمد حديث موسى مع فرعون وقومه، وقد أمره الله تعالىٰ بالتلطف في القول، واللين في الدعوة إلىٰ الحق؛ إقامة للحجة والوصول من أقرب محجة، كما جاء في سورة طه: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ وكان ذلك حين ناداه ربه بالوادي المطهر المبارك من طور سيناء من برية الشام بعد مضي وقت من الليل، فقال له: اذهب إلىٰ فرعون وعظه، فإنه تجاوز الحد، وتكبر علىٰ الله، وكفر به، وتجبر علىٰ بني إسرائيل، واستعبدهم حتىٰ بلغ من أمره أن ذبح أبناءهم، واستحيىٰ نساءهم، ثم طلب إلىٰ موسى أن يلين له القول؛ ليكون ذلك أنجع في الدعوى، فقال: فقل له هل ترغب إلىٰ أن تطهر نفسك من الآثام التي انغمست فيها، وتعمل بما أدلك عليه من طرق الخير، وتبعد عما أنت فيه من اجتراح السيئات، وتخشى عاقبة مخالفة أمر ربك، حتىٰ تأمن من عقابه إذا أديت ما ألزمك به من فرائضه، واجتنبت مما نهاك عنه من معاصيه.

ثم ذكر أنه لم يخضع للدليل والبرهان، ولم يقنع بما أدلىٰ إليه موسىٰ من حجة، فاضطر إلىٰ أن يظهر له دليلاً يراه ويشاهده، فقال: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ الفاء عاطفة علىٰ جمل قد طويت هنا تعويلاً علىٰ ذكرها في السور الأخرى، فإنه جرىٰ بينه وبين فرعون ما جرىٰ من المحاورات إلىٰ أن قال: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾، والتقدير: أي: فذهب موسىٰ إلىٰ فرعون بأمره تعالىٰ، فدعاه إلىٰ التوحيد والطاعة، وطلب فرعون منه المعجزة الدالة علىٰ صدقه في دعوته، فأراه موسىٰ الآية الكبرىٰ، والمعجزة العظمىٰ، والإراءة: إما من التبصير، أو من التعريف، فإن اللعين حين أبصرها.. عرفها، وادعاء سحريتها إنما كان إراءة منه، وإظهاراً للتجلد، ونسبتها إلىٰ موسى بالنظر إلىٰ الظاهر، كما أن نسبتها إلىٰ نون العظمة في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا﴾ بالنظر إلىٰ الحقيقة، والمراد بـ﴿ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾: قلب العصا حية، والصغرىٰ: غيره من معجزاته الباقية، وذلك أن

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

القلب المذكور كان المقدم على الكل في الإراءة، فينبغي أن يكون هو المراد على ما تقتضيه الفاء التعقيبية في قوله الآتي: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

والمعنى: أي فلما لم يقنع بالدليل القولي.. أظهر له آية كبرى ودليلاً يراه بعينه، وهو انقلاب العصا حية ﴿فـ﴾ مع ذلك ﴿كذب﴾ فرعون بموسى، وسمى معجزته سحراً عقيب رؤية الآية، من غير روية وتأمل، وطلب شاهد من عقل، وناصح من فكر وقلب؛ لغاية استكباره وتمرده ﴿وَعَصَىٰ﴾ الله سبحانه بالتمرد بعدما علم صحة الأمر، ووجوب الطاعة، أشد عصيان وأقبحه، حيث اجترأ على إنكار وجود رب العالمين رأساً. فدل العطف على أن الذي ترتب على إراءة الآية الكبرى هو التكذيب الذي يكون عصياناً لله تعالى، وهو التكذيب باللسان، مع حصول الجزم بأن من كذبه ممن يجب تصديقه، فأما تكذيب من لا يجب تصديقه.. فلا يكون عصياناً، ويجوز أن يراد: وعصى فرعون موسى فيما أمر به، إلا أن الأول أدخل في ذمه، وتقبيح حاله، وكان اللعين وقومه مأمورين بعبادته تعالى، وترك دعوى الربوبية، لا بإرسال بني إسرائيل من الأسر والقسر فقط.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾؛ أي: تولى عن الطاعة، وأعرض عن الإيمان، وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ على هذا معناها التراخي الزماني، إذ السعي في إبطال أمره يقتضي مهلة، أو انصرف عن المجلس. قال الراغب: ﴿أَدْبَرَ﴾؛ أي: أعرض وولى دبره حال كونه ﴿يَسْعَىٰ﴾؛ أي: يجتهد في معارضة الآية تمرداً وعناداً، لا اعتقاداً، بأنها يمكن معارضتها، وهو حال من فاعل ﴿أَدْبَرَ﴾ بمعنى: مسرعاً مجتهداً.

وقيل: أدبر هارباً من الحية حال كونه يسعى خوفاً منها.

والمعنى: أي فكذب فرعون موسى، ثم ولى معرضاً عما دعاه إليه من طاعة ربه وخشيته، وطفق يخب في المعاصي، ويضع غير متدبر في عاقبة أمره، ولا مفكر في غده. ﴿فَحَشَرَ﴾؛ أي: فجمع فرعون جنوده للقتال والمحاربة، أو جمع السحرة للمعارضة، لقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾؛ أي: ما يكاد به من السحرة وآلاتهم، أو جمع جميع الناس

---

(١) روح البيان.

ليشاهدوا ما يقع، أو جمعهم ليمنعوه من الحية ﴿فَنَادَىٰ﴾ بنفسه في المقام الذي اجتمعوا فيه معه، أو بواسطة المنادي ﴿فَقَالَ﴾ لهم بصوت عال، أو أمر من يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ أي: لا رب فوقي ولا إله، أو أنا وليكم وقائدكم الأعلىٰ من كل من يلي أمركم علىٰ أن تكون صيغة التفضيل، بالنسبة إلىٰ من كان تحت ولايته من الملوك والأمراء، قال عطاء: كان صنع لهم أصناماً صغاراً، وأمرهم بعبادتها، وقال: أنا رب أصنامكم، والأول أولىٰ؛ لقوله في آية أخرى: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، والظاهر أنه لم يرد بهذا القول أنه خالق السموات والأرض، والجبال والنبات والحيوان، فإن العلم بفساد ذلك ضروري، ومن شك فيه كان مجنوناً، ولو كان مجنوناً لما جاز من الله بعثة الرسول إليه، بل الرجل كان دهرياً منكراً للصانع والحشر والنشر، وكان يقول: ليس للعالم إله حتىٰ يكون له عليكم أمر ونهي، أو يبعث إليكم رسولاً، بل المربي لكم، والمحسن إليكم أنا لا غيري. قال بعضهم: كان ينبغي له عند ظهور ذله وعجزه بانقلاب العصا حية أن لا يقول ذلك القول، فكأنه صار في ذلك الوقت كالمعتوه الذي لا يدري ما يقول، يقول الفقير: بل الأظهر حمل الربوبية علىٰ الألوهية، كما مر؛ لأن تفسير قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ بكونه أعلىٰ من كل من يلي أمركم ليس فيه كثير جدوىٰ؛ إذ لا يقتضي ادعاء الرئاسة دعوىٰ الألوهية، كسائر الدهرية والمعطلة، فلأنهم لم يتعرضوا للألوهية، وإن كانوا رؤساء. تأمل هذا المقام، فإنه مما تزل فيه الأقدام.

قال بعضهم: لم يدع أحد من الخلائق من الكمال ما ادعاه الإنسان، فإنه ادَّعىٰ الربوبية وقال: أنا ربكم الأعلىٰ، وإبليس تبرأ منها، وقال: إني أخاف الله، فلم يدع مرتبة ليست له قط؛ أي: إنه علىٰ جناح واحد، وهو الجلال فقط، وكذا الملك، فإنه علىٰ الجمال المحض بخلاف الإنسان، فإنه مخلوق باليدين. انتهىٰ. قال في «أسئلة الحكم»: فإن قلت: ما الحكمة في أن إبليس قد لعن، ولم يدع الربوبية، وفرعون وأمثاله قد ادعوا الربوبية، ولم يلعنوا تعييناً وتخصيصاً، كما لعن إبليس؟.

قيل: لأن نية إبليس شر من نية هؤلاء، وقيل: لأنه أول من سن الخلاف والشقاق قولاً وفعلاً ونيةً، والخلق بعده ادعوا الربوبية، وسنوا البغي والخلاف بوسوسته، وإبليس واجه بمخالفته حضرة الرب تعالىٰ، وهم واجهوا الأنبياء

والوسائط، وتضرعوا تارة، واعترفوا بالذنوب عند المخلوق أخرىٰ، وإبليس لم يعترف ولم يتضرع، وهو أول من سن الكفر، فوزر الكفار بعده راجع إليه إلىٰ يوم القيامة، ومظهر الضلالة والغواية بذاته بغير واسطة.

ومعنىٰ الآية[1]: أي فجمع فرعون السحرة الذين هم تحت إمرته وسلطانه؛ كما جاء في قوله: ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ فقام فيهم يقول: أنا ربكم الأعلىٰ، فلا سلطان يعلو سلطاني، ولم يزل في عتوه حتىٰ تبع موسىٰ وقومه إلى البحر الأحمر [بحر القلزم] عند خروجهم من مصر، فأغرق فيه هو وجنوده، وإلى ذلك أشار سبحانه بقوله: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى بسبب ما ذكر، وعذبه ﴿نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾؛ أي: عذاب الآخرة، وعذاب الدنيا، والمراد بنكال الآخرة: عذاب النار، وبنكال الأولىٰ: عذاب الدنيا بالغرق، والنكال: اسم مصدر من نكل المضاعف بمعنىٰ التنكيل، كالسلام بمعنىٰ: التسليم، وهو التعذيب الذي ينكل من رآه أو سمعه، ويمنعه من تعاطي ما يفضي إليه، ومحله[2] النصب علىٰ أنه مصدر مؤكد، كوعد الله، كأنه قال: نكل الله به نكال الآخرة والأولى، وهو الإحراق في الآخرة، والإغراق في الدنيا، وأخذ مستعمل في معنىٰ مجازي، يعم الأخذ في الدنيا والآخرة، وإلا يلزم الجمع بين الحقيقة والمجاز؛ لأن الاستعمال في الأخذ الدنيوي حقيقة، وفي الآخرة مجاز لتحقق وقوعه، وإضافة النكال إلىٰ الدارين باعتبار وقوع نفس الآخذ فيهما، لا باعتبار أن ما فيه من معنىٰ المنع يكون فيهما، فإن ذلك لا يتصور في الآخرة، بل في الدنيا، فإن العقوبة الأخروية تنكل من سمعها، وتمنعه من تعاطي ما يؤدي إليها لا محالة.

ويجوز[3] أن يكون انتصابُ ﴿نَكَالَ﴾ علىٰ أنه مفعول له؛ أي: أخذه لأجل نكال، ويجوز أن يكون انتصابه بنزع الخافض؛ أي: بنكال، ورجح الزجاج: أنه مصدر مؤكد، قال: لأن معنىٰ أخذه الله: نكل الله به، فأخرج من معناه، لا من لفظه، وقال الفراء: أخذه الله أخذاً نكالاً؛ أي: للنكال، والنكال: اسم لما جعل نكالاً للغير؛ أي: عقوبةً له، يقال: نكل فلان بفلان إذا عاقبه، وقيل: المعنىٰ:

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.

فعاقبه الله بكلمته الآخرة، وهي قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وبكلمته الأولىٰ: وهي قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، وكان بينهما أربعون سنة علىٰ ما قيل، فالله تعالىٰ يمهل ولا يهمل، وقال السري[1]: العبد إذا تزيَّا بزي السيد صار نكالاً، ألا ترىٰ كيف ذكر الله في قصة فرعون لما ادعىٰ الربوبية، فأخذه الله... إلخ، كذبه كل شيء حتىٰ نفسه، وفي «الوسيط»: عن رسول الله ﷺ، قال موسى: يا رب، أمهلت فرعون أربع مئة سنة، ويقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، ويكذب بآياتك، ويجحد برسلك، فأوحىٰ الله إليه: كان حسن الخلق، سهل الحجاب، فأردت أن أكافئه؛ أي: مكافئة دنيوية، وكذا حسنات كل كافر، وأما المؤمن.. فأكثر ثوابه في الآخرة، ودلت الآية علىٰ أن فرعون مات كافراً، وفي «الفتوحات المكية»: فرعون ونمروذ مؤبدان في النار. انتهى. وغير هذا من أقوال بعضهم محمول على المباحثة، فصن لسانك عن الإطالة؛ فإنها من أشد ضلالة. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إن فيما ذكر من قصة فرعون وما فعل به ﴿لَعِبْرَةً﴾؛ أي: اعتباراً عظيماً، وعظةً بليغةً ﴿لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾؛ أي: لمن من شأنه أن يخشىٰ الله سبحانه، وهو من شأنه المعرفة، يعني: العارف بالله وشؤونه يخشىٰ، فلا يتمرد علىٰ الله، ولا على أنبيائه؛ خوفاً من نزول العذاب، والعاقل من وعظ بغيره.

والمعنىٰ[2]: أي إن فيما ذكر لموعظة لمن له عقل يتدبر به في عواقب الأمور ومصايرها، فينظر في حوادث الماضين، ويقيس بها أحوال الحاضرين ليتعظ بها.

وقوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ خطاب[3] لأهل مكة المنكرين للبعث بناءً علىٰ صعوبته في زعمهم بطريق التوبيخ والتبكيت بعد ما بين كمال سهولته بالنسبة إلىٰ قدرة الله تعالىٰ بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ فالشدة هنا بمعنىٰ: الصعوبة، لا بمعنىٰ: الصلابة؛ لأنها لا تلائم المقام؛ أي: أخلقكم بعد موتكم أشق وأصعب في تقديركم وزعمكم؟ وإلا فكلا الأمرين بالنسبة إلىٰ قدرة الله تعالى واحد. ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾؛ أي: أم خلق السماء بلا مادة علىٰ عظمها وقوة تأليفها، وانطوائها علىٰ البدائع التي تحار العقول في ملاحظة أدناها، وهو[4] استفهام تقرير ليقروا بأن خلق السماء أصعب،

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.
(٤) روح البيان.

فيلزمهم بأن يقول لهم: أيها السفهاء من قدر على الأصعب الأعسر.. كيف لا يقدر على إعادتكم وحشركم وهي أسهل وأيسر، فخلقكم على وجه الإعادة أولى بأن يكون مقدور الله، فكيف تنكرون ذلك، وقوله: ﴿ءَأَنتُمْ﴾ مبتدأ و ﴿أَشَدُّ﴾: خبره، و ﴿خَلْقًا﴾: تمييز، و ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾: عطف على ﴿أَنتُمْ﴾؛ وحذف خبره لدلالة خبر ﴿أَنتُمْ﴾ عليه؛ أي: أم السماء أشد خلقاً.

والمعنى[1]: أي أأنتم أيها الناس، وقد خلقتكم من ماء مهين ضعافاً عاجزين لا تملكون لأنفسكم نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياةً، أصعب إبداعاً وإنشاءً، أم هذه السماء التي ترون خلقها وبديع تركيبها وعظمة شأنها؟ إنكم لا تنازعون في أنها أشد منكم خلقاً، ومع ذلك لم نعجز عن إبداعها، فكيف تظنون أننا نعجز عن إعادتكم بعد موتكم، يرشد إلى ذلك قوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾، وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ وفي هذا من التقريع والتوبيخ ما لا يخفى، وبعد أن أشار إلى عظيم خلق السموات إجمالاً.. شرع يبين ذلك تفصيلاً، فقال: ﴿بَنَىٰهَا﴾؛ أي: بنى الله سبحانه وتعالى السماء، وركبها من أجزاء متفرقة، وهو استئناف وتفصيل لكيفية خلقها المستفاد من قوله: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ فيتم الكلام حينئذٍ عند قوله: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾، ويبتدأ من قوله: ﴿بَنَىٰهَا﴾، و ﴿أَمْ﴾، متصلة، وقال الكسائي والفراء والزجاج: تم الكلام عند قوله: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾؛ لأنه من صلة السماء، والتقدير: أم السماء التي بناها، فحذف التي، ومثل هذا الحذف جائز.

واستعمل البناء في موضع السقف، فإن السماء سقف مرفوع، والبناء إنما يستعمل في أسافل البناء لا في الأعالي، للإشارة إلى أنه وإن كان سقفاً.. لكنه في البعد عن الاختلال والانحلال كالبناء، فإن البناء أبعد عن تطرق الاختلال إليه بالنسبة إلى السقف، ومعنى بناها؛ أي: جعلها كالبناء المرتفع فوق الأرض، وقوله: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ بيان للبناء؛ أي: جعل مقدار ارتفاعها من الأرض، وذهابها إلى سمت العلو مديداً رفيعاً مسيرة خمس مئة عام، فإن امتداد الشيء إن أخذ من أسفله إلى أعلاه سُمي سمكاً، وإن أخذ من أعلاه إلى أسفله سُمي: عمقاً، وقال بعضهم:

---

(١) المراغي.

السمك الارتفاع الذي بين سطح السماء الأسفل الذي يلينا، وسطحها الأعلىٰ الذي يلي ما فوقها، فيكون المراد: ثخنها وغلظها وهي أيضاً تلك المسيرة، وقال البغوي: رفع سمكها؛ أي: سقفها، ومعنىٰ: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾؛ أي: فجعلها مستوية الخلق، معدلة الشكل لا تفاوت فيها ولا اعوجاج، ولا فطور ولا شقوق.

ومعنى: ﴿بَنَىٰهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾؛ أي: ضم أجزاءها[1] المتفرقة، وربطها بما يمسكها حتىٰ حصل عن جمعها بنية واحدة، فقد أبدع في خلق الكواكب، وجعل كل كوكب منها علىٰ نسبة من الآخر، وجعل لكل منها ما يمسكه في مداره، حتىٰ كان من مجموعها ما يشبه البناء، وهو ما نسميه بالسماء، وقد جعلها ذاهبة في العلو صعداً، وعدلها فوضع كل جزاء منها في موضعه الذي يتسحقه، ويحسن أن يكون فيه.

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾؛ أي: وجعل ليلها مظلماً بمغيب كواكبها ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾؛ أي: وأبرز نهارها، وعبر عن النهار بالضحىٰ؛ لأنه أشرف أوقاته وأطيبها، وفيه من انتعاش الأرواح ما ليس في سائرها، يقال: أغطشه الله إذا جعله مظلماً، وأغطش الليل: إذا صار مظلماً، فهو متعد ولازم، والأول هو المراد هنا؛ أي: جعله مظلماً ذاهب النور.

فإن قيل: الليل اسم لزمان الظلمة الحاصلة بسب غروب الشمس، فقوله: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾: يرجع معناه إلىٰ أنه جعل المظلم مظلماً، وهو بعيد، والجواب: معناه أن الظلمة الحاصلة في ذلك الزمان، إنما حصلت بتدبير الله وتقديره، فلا إشكال.

وعبارة «الروح»: قوله: ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾؛ أي: أبرز نهارها، عبر عنه بالضحىٰ، وهو ضوء الشمس، ووقت الضحىٰ هو الوقت الذي تشرق فيه الشمس، ويقوم سلطانها، لأنه أشرف أوقاتها وأطيبها، علىٰ تسمية المحل باسم أشرف ما حل فيه، فكان أحق بالذكر في مقام الامتنان، وهو السر في تأخير ذكره عن ذكر الليل، وفي التعبير عن إحداثه بالإخراج، فإن إضافة النور بعد الظلمة أتم في الإنعام، وأكمل في الإحسان.

وإضافة[2] الليل والضحىٰ إلى السماء لدوران حدوثهما علىٰ حركتها،

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

والإضافة يكفيها أدنى ملابسة المضاف إليه، ويجوز أن تكون إضافة الضحىٰ إليها بواسطة الشمس؛ أي: أبرز ضوء شمسها، بتقدير المضاف، والتعبير عنه بالضحى؛ لأنه وقت قيام سلطانها، وكمال إشراقها، وتعاقب الليل والنهار، واختلاف الفصول التابع لحركة بعض السيارات يهيء الأرض للسكنىٰ، ومن ثَمَّ قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: بألفي عام؛ أي: بعدما ذكر من بناء السموات، ورفع سمكها وتسويتها ﴿دَحَىٰهَآ﴾؛ أي: دحىٰ الأرض، وبسطها ومهدها لسكنىٰ أهلها، وتقلبهم في أقطارها، وقد كانت الأرض مخلوقة غير مدحوة قبل ذلك، فلا معارضة بين هذه الآية وبين ما تقدم في سورة فصلت من قوله تعالىٰ: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾، لأنه يمكن الجمع بينهما، بأنه سبحانه خلق الأرض غير مدحوة، ثم خلق السماء، ثم دحا الأرض، كما تقدم هنالك، فالآيتان ترشدان إلىٰ أن الله تعالىٰ خلق الأرض أولاً، ثم خلق السموات بعد ذلك، ثم عاد إلىٰ الأرض فمهدها ودحاها، فآية السجدة حكاية للخلق الأول ومبدئه، وهذه الآية حكاية للإصلاح الذي كان بعد الخلق.

وقال بعض أهل العلم[1]: إن ﴿بَعْدَ﴾ هنا بمعنىٰ: مع، كما في قوله تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ وقيل: ﴿بَعْدَ﴾ بمعنىٰ قبل، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾، أي: من قبل القرآن، ولكن الجمع الذي ذكرناها أولىٰ، وهو قول ابن عباس، وغير واحد من المفسرين، واختاره ابن جرير. وقرأ الجمهور[2] بنصب ﴿الأرض﴾ و﴿الجبال﴾ علىٰ الاشتغال، وقرأ الحسن وأبو حيوة وعمرو بن عبيد وابن أبي عبلة وأبو السمال وعمرو بن ميمون ونصر بن عاصم برفعهما علىٰ الابتداء، وقرأ عيسىٰ برفع ﴿الأرض﴾ فقط، ثم فسر التمهيد بما لا بد منه في تأتي سكناها من أمر المآكل والمشارب، وإمكان القرار عليها، فقال: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا﴾؛ أي: من الأرض، ﴿مَآءَهَا﴾ بأن فجر منها عيوناً، وأجرىٰ أنهاراً ﴿و﴾ أنبت منها ﴿مر عنها﴾، أي: رعيها بكسر أوله ونباتها الذي ترعاه الأنعام، وهو الكلأ،

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.

والمرعىٰ في الأصل: موضع الرعي بالفتح، نسب الماء والمرعىٰ إلىٰ الأرض من حيث إنهما منها يظهران، وتجريد الجملة عن العاطف، لأنها بيان وتفسير لـ ﴿دَحَنٰهَآ﴾، أو تكملة له، فإن السكنىٰ لا تتأتىٰ بمجرد البسط والتمهيد، بل لا بد من تسوية أمر المعاش من المآكل والمشارب والملابس حتماً.

والمعنىٰ[1]: أي فجّر منها العيون والينابيع والأنهار، وأنبت فيها النبات، سواء أكان قوتاً لبني آدم، كالحب والثمر، أم قوتاً للأنعام والماشية، كالعشب والحشيش. ﴿وَٱلْجِبَالَ﴾: منصوب بمضمر يفسره قوله: ﴿أَرْسَىٰهَا﴾؛ أي أثبتها وأثبت بها الأرض؛ لئلا تميد بأهلها، وهذا تحقيق للحق، وتنبيه علىٰ أن الرسو المنسوب إليها في مواضع كثيرة من التنزيل بالتعبير عنها بالرواسي، ليس من مقتضيات ذواتها، بل هو بإرسائه سبحانه وتعالى، ولولاه لما ثبتت في نفسها فضلاً عن إثباتها للأرض.

قيل: ولعل وجه تقديم ذكر الماء والمرعىٰ على إرساء الجبال مع تقدم الإرساء عليه؛ للاهتمام بأمر المآكل والمشارب، وقوله تعالى: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾[2] مفعول له لفعل محذوف بمعنىٰ تمتيعاً، والأنعام جمع نعم بفتحتين، وهي المال الراعية بمعنىٰ المواشي، وفي «الصحاح»: وأكثر ما يقع هذا الاسم علىٰ الإبل، والمراد هنا: ما يكون علماً للإبل والبقر والغنم، من الضأن والمعز، والتقدير: فعلنا ذلك تمتيعاً ومنفعةً لكم ولأنعامكم؛ لأن فائدة ما ذكر من البسط والتمهيد، وإخراج الماء والمرعىٰ واصلة إليهم، وإلى أنعامهم، فإن المراد بالمرعىٰ ما يعم ما يأكل الإنسان وغيره بناءً علىٰ استعارة الرعي لتناول المأكول علىٰ الإطلاق، كاستعارة المرسن للأنف، ولهذا قيل: دل الله تعالىٰ بذكر الماء والمرعى علىٰ عامة ما يرتفق به ويستمع، مما يخرج من الأرض حتى الملح فإنه من الماء، قال العتبي: هذا أي قوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾ من جوامع الكلم؛ حيث ذكر شيئين دالين علىٰ جمع ما أخرج من الأرض قوتاً ومتاعاً للأنام، من العشب والشجر، والحب والثمر، والملح والنار لأن النار من الشجر الأخضر، والملح من الماء، ونكتة الاستعارة: توبيخ المخاطبين المنكرين للبعث،

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

وإلحاقهم بالبهائم في التمتع بالدنيا، والذهول عن الآخرة.

وقيل: انتصاب ﴿مَتَٰعًا﴾ علىٰ المصدرية، أي: متعناكم بذلك تمتيعاً لكم ولأنعامكم، أفلا يكون خالقكم وواهبكم ما به تحيون، ورافع السماء فوقكم، وممهد الأرض تحتكم قادراً على بعثكم، وهل يليق به أن يترككم سدىٰ بعد أن دبر أمركم هذا التدبير المحكم، ووفر لكم هذا الخير الكثير.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ شروع[1] في بيان أحوال معادهم إثر بيان أحوال معاشهم، والفاء للدلالة علىٰ ترتب ما بعدها علىٰ ما قبلها عما قليل؛ كما ينبىء عنه لفظ المتاع، ويصح أن تكون فصيحةً. قال في «الصحاح»: كل شيء كثر حتىٰ علا وغلب، فقد طم، من باب رد، و ﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾: تأنيث الأكبر، من كبر بالضم بمعنىٰ عظم، لا من كبر بالكسر بمعنى أسن، و ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾: الداهية التي تعلو وتغلب كل الدواهي، فوصفها بالكبرىٰ يكون للتأكيد، والمراد بها: القيامة، لطمومها علىٰ كل هائلة، أو النفخة الثانية، فإنه يشاهد يوم القيامة من الآيات الهائلة الخارجة عن العادة ما ينسىٰ معه كل هائل، وعند النفخة الثانية تحشر الخلائق إلىٰ موقف القيامة، وخصت سورة النازعات بالطامة، وسورة عبس بالصاخة؛ لأن الطم إن كان بمعنىٰ النفخة الأولىٰ للإهلاك.. فهو قبل الصخ؛ أي: الصوت الشديد الذي يحيا له الناس حين يصيخون له، كما ينتبه النائم بالصوت الشديد، فهو بمعنىٰ النفخة الثانية، فجعل السابق للسورة السابقة، واللاحق للاحقة، وإن كان بمعنى النفخة الثانية.. فحسن الموقع في كلا الموضعين؛ لأن الطم ورد بعد قوله: ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾، والصخ بعد ما بين عدم إصاخة النبي ﷺ لابن أم مكتوم، وجواب ﴿إذا﴾ محذوف يدل عليه التفصيل المذكور، والتقدير: إذا عرفتم حال معاشكم، وأردتم بيان حال معادكم.. فأقول لكم: إذا جاء وقت وقوع الداهية العظمىٰ التي تطم وتغلب على سائر الطامات والدواهي.. يكون من عظائم الأمور ما لا يخطر في بال، ولم تره عين، ولم تسمع به أذن.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ منصوب[2] بأعني تذكيراً وبياناً للطامة الكبرى، و ﴿مَآ﴾ موصولة، وسعىٰ بمعنىٰ: عمل؛ أي: أعني بالطامة الكبرىٰ: يوم

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

يتذكر فيه كل أحد كائناً من كان ما عمله في الدنيا من خير أو شر، بأن يشاهده مدوناً في صحيفة أعماله، وقد نسيه من فرط الغفلة وطول الأمد، كما قال تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾، وقيل: ﴿يَوْمَ﴾ بدل من ﴿فَإِذَآ﴾ في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ﴾ بدل بعض من كل علىٰ تقدير الرابط، تقديره: فيوم يتذكر الإنسان فيه ما سعى، يكون من عظائم الأمور ما لا يخطر ببال، أو بدل كل من كل، فلا حاجة إلىٰ الرابط.

وقوله: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ معطوف علىٰ ﴿جَآءَتِ﴾؛ أي: أظهرن إظهاراً بيناً لا يخفىٰ علىٰ أحد بعد أن كانوا يسمعون بها، والمراد بها: مطلق النار المعبر عنها بجهنم، لا الدركة المخصوصة من الدركات السبع، ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾ كائناً من كان علىٰ ما يفيده ﴿من﴾؛ فإنه من ألفاظ العموم، روي أنه يكشف عنها فتتلظى، فيراها كل ذي بصر مؤمن أو كافر، ولا يعارضه قوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾؛ فإنه يدل علىٰ أنها لا تظهر للمؤمنين؛ لأنهم يرونها حين يمرون عليها مجاوزين الصراط لا لتعذيبهم، وقيل: للكافر فقط لأن المؤمن يقول: أين النار التي توعدنا بها، فيقال: مررتموها وهي خامدة.

والمعنىٰ: أي وإذا برزت الجحيم لمن يرى.. يكون من عظام الأمور ما لا يخطر ببال.

والفاء في قوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ إلخ استئنافية، والكلام بعدها مستأنف مسوق لبيان حال الناس في الدنيا، وجزائهم في الآخرة، وقيل: الجملة جواب ﴿إذا﴾ في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ مبنياً للمفعول مشدد الراء، وقرأ أبو نهيك وأبو السمال وهارون عن عمرو: ﴿وبرزت الجحيم﴾ مبنياً للفاعل مخففها، وقرأ الجمهور: ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾ بياء الغيبة التحتانية، وقرأت عائشة ومالك بن دينار وعكرمة وزيد بن علي: ﴿لمن ترى﴾ بتاء الغيبة؛ أي: لمن تراه الجحيم، أو بتاء الخطاب؛ أي: لمن تراه أنت يا محمد، وقرأ ابن مسعود: ﴿لمن رأى﴾ علىٰ صيغة الفعل الماضي.

ومعنىٰ الآيات: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ﴾؛ أي: فإذا[2] حل ذلك اليوم الذي تشيب من هوله الولدان، وتشاهد فيه النار، فينسىٰ المرء كل هول دونها.. فصل الله بين

---

(١) البحر المحيط والشوكاني. (٢) المراغي.

الخلائق، فأدخل الطائعين الأبرار الجنة، وأدخل المتمردين العصاة النار، وقد وصف هذا اليوم بوصفين:

١ - ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾؛ أي: أعني بذلك اليوم: حين يرىٰ الإنسان أعماله مدونة في كتابه، وكان قد نسيها، فتعاوده الذكرىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾.

٢ - ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾؛ أي: وأظهرت النار حتىٰ يراها كل ذي عينين، سواء منهم المؤمن والكافر، سوىٰ أنها تكون مقراً للكافرين، وينجي الله المؤمنين.

والخلاصة: إذا جاء ذلك اليوم.. فصل الله بين الخلائق، كما فصله بعد بقوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾﴾، أي: عتا وتمرد عن الطاعة، وتكبر عن الحق، وجاوز الحد في العصيان، كالنضر بن الحارث وأبيه الحارث، المشهورين بالغلو في الكفر والطغيان، ﴿وَءَاثَرَ﴾، أي: اختار ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: الفانية التي علىٰ جناح الفوات، فانهمك فيما متع به فيها، ولم يستعد للحياة الآخرة الأبدية بالإيمان والطاعة، ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ التي ذكر شأنها ﴿هِيَ﴾ لا غيرها، وهو ضمير فصل، أو مبتدأ ﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾؛ أي: مأواه، فلا يخرج من النار كما يخرج المؤمن العاصي، فالكلام في حق الكافر، لكن في موعظة وعبرة موقظة للمؤمن، والألف[1] واللام فيه عوض عن المضاف إليه كما أشرنا إليه؛ للعلم بأن صاحب المأوىٰ هو الطاغي، نظير قولك: غض الطرف؛ أي: طرفك، فإنه لا يغض الرجل طرف غيره، وذلك لأن الخبر إذا كان جملة لا بد فيها من ضمير يربطها بالمبتدأ، فسدت اللام مسد العائد لعدم الالتباس، فلا احتياج في مثل هذا المقام إلى الرابط.

والمعنىٰ: أنها منزله الذي ينزله، ومأواه الذي يأوي إليه لا غيرها؛ أي: فأما من تكبر وتجاوز الحد، وآثر الحياة الدنيا وشهواتها علىٰ ثواب الآخرة فالنار مثواه ومستقره، ثم ذكر القسم الثاني من القسمين، فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾؛ أي: قيامه بين يدي مالك أمره يوم الطامة الكبرىٰ، يوم يتذكر الإنسان ما سعىٰ، وذلك

---

(١) روح البيان.

لعلمه بالمبدأ والمعاد، فإن الخوف من القيام بين يديه للحساب لا بد أن يكون مسبوقاً بالعلم به تعالى، وفي بعض التفاسير: المقام؛ إما مصدر ميمي بمعنىٰ القيام، أو اسم مكان بمعنىٰ: موضع القيام؛ أي: المكان الذي عينه الله سبحانه لأن يقوم العباد فيه للحساب والجزاء. وقيل: المقام: مقحم للتأكيد، جعل الخوف مقابلاً للطغيان مع أن الظاهر مقابلته للانقياد والإطاعة بناءً علىٰ أن الخوف أول أسباب الإطاعة، ثم الرجاء، ثم المحبة، فالأول: للعوام، والثاني: للخواص، والثالث: لخواص الخواص.

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾؛ أي: زجرها عن الميل إلىٰ المعاصي والمحارم التي تشتهيها بحكم الجبلة البشرية، ولم يعتد بمتاع الحياة الدنيا وزهرتها، ولم يغتر بزخارفها وزينتها علماً منه بوخامة عاقبتها، و ﴿ٱلْهَوَىٰ﴾: ميلان النفس إلىٰ ما تشتهيه وتستلذه من غير داعية الشرع وفي الحديث: «إن أخوف ما أتخوف علىٰ أمتي الهوىٰ، وطول الأمل»؛ أما الهوى.. فيصد عن الحق، وأما طول الأمل.. فينسي الآخرة. ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ﴾ ونعيمها ﴿هِىَ﴾ لا غيرها ﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾ له؛ أي: المنزل الذي ينزله، والمكان الذي يأوي إليه، فنهي[1] النفس عن الهوى معناه: نهيها عن جميع الهوىٰ علىٰ أن اللام للاستغراق، وإلا فلا معنىٰ للحصر؛ لأن المؤمن الفاسق قد يدخل النار أولاً، ثم يدخل الجنة، فلا يصح في حقه الحصر، اللهم إلا أن يقال: معنى الحصر: أن الجنة هي المقام الذي لا يخرج عنه من دخل فيه.

وفي بعض التفاسير: المراد بالجنة: مطلق دار الثواب، فلا يخالف قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ فإن له جنتين بفضل الله تعالى في دار الثواب جنة النعيم بالنعم الجسمانية، وجنة التلذذ باللذات الروحانية. انتهى.

والمعنىٰ[2]: أي أما من حذر وقوفه بين يدي ربه يوم القيامة، وأدرك مقدار عظمته وقهره وغلبة جبروته وسطوته، وجنب نفسه عن الوقوع في محارمه.. فالجنة مثواه وقراره، وقد ذكر سبحانه من أوصاف السعداء شيئين يضادان أوصاف الأشقياء:

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

١ ـ فقوله: ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ يقابل قوله: ﴿طَغَىٰ﴾.

٢ ـ وقوله: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ يضاد قوله: ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾، وقد مدح الحكماء مخالفة الهوىٰ فقالوا إذا أردت الصواب.. فانظر هواك، فخالفه. وقال سهل: لا يسلم من الهوىٰ إلا الأنبياء وبعض الصديقين.

وقال عمران الميرتلي:

فَخَالِفْ هَوَاهَا وَٱعْصِهَا إِنَّ مَنْ يُطِعْ ... هَوَىٰ نَفْسِهِ تَنْزِعْ بِهِ كُلَّ مَنْزِعِ

وَمَنْ يُطِعِ ٱلنَّفْسَ ٱللَّجُوْجَةَ تُرْدِهِ ... وَتَرْمِ بِهِ فِيْ مَصْرَعٍ أَيِّ مَصْرَعِ

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾؛ أي: القيامة ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾؛ أي: إرساؤها؛ أي: إقامتها، يريدون: متىٰ يقيمها الله تعالىٰ ويثبتها ويكونها؟ فأيان[1]: ظرف زمان بمعنىٰ متىٰ، وأصله، أي آن ووقت، والمرسىٰ: مصدر بمعنىٰ الإرساء وهو الإثبات، وهو مبتدأ، وأيان خبره بتقدير المضاف إذ لا يخبر بالزمان عن الحدث، والتقدير: متىٰ وقت إرسائها؟ كان المشركون يسمعون أخبار القيامة وأوصافها الهائلة، مثل: أنها طامة كبرى، وصاخة، وقارعة، فيقولون علىٰ سبيل الاستهزاء: أيان مرساها؟

والمعنىٰ: يسألك أيها الرسول هؤلاء المكذبون بالبعث عن الساعة التي تبعث فيها الموتىٰ من قبورهم، متىٰ قيامها وظهورها.

وقوله: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾﴾ رد وإنكار لسؤال المشركين عنها، وأصل ﴿فِيمَ﴾: فيما، كما أن أصل ﴿عَمَّ﴾: عما، وقد سبق. و﴿ذكرى﴾: مصدر بمعنىٰ: الذكر، كالبشرىٰ بمعنىٰ البشارة؛ أي: في أي شيء أنت من أن تذكر لهم وقتها، وتعلمهم حتى يسألوك بيانها، كقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾؛ أي: ما أنت من ذكراها لهم، وتبيين وقتها في شيء؛ لأن ذلك فرع علمك به، وأنىٰ لك ذلك، وهو مما استأثر به بعلمه علام الغيوب، فقوله: ﴿مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ فيه حذف مضاف، وصلته محذوفة، وهي: لهم، والاستفهام للإنكار، و ﴿أَنتَ﴾: مبتدأ، و ﴿فِيمَ﴾ خبره قدم عليه، و ﴿مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ متعلق بما تعلق به الخبر.

---

(١) روح البيان.

والمعنىٰ: أي ما هذه الذكرى الدائمة لها، وما هذا الاهتمام الذي جعلك لا تألوا جهداً في السؤال عنها. روي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ لم يزل يذكر الساعة ويسأل عنها حتى نزلت هذه الآية.

وتلخيص المعنى[1]: لا تشغل نفسك بهذا الأمر، ولا تكلفها عناء البحث عنه، واستكناه أسراره، ومعرفة ما حجبه الله عن خلقه من شأنه.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَآ ﴿٤٤﴾﴾؛ أي: انتهاء علمها ليس لأحد منه شيء ما كائناً من كان، فلأي شيء يسألونك عنها؛ أي: إلى ربك يا محمد ينتهي علم الساعة، فلا يعلم وقت قيامها غيره تعالى، ولم يعطه لملك مقرب، ولا لنبي مرسل، وهو كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، فكيف يسألونك عنها ويطلبون منك، بيان وقت قيامها؟ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾؛ أي: وظيفتك الامتثال بما أمرت به من بيان اقترابها، وتفصيل ما فيها من فنون الأهوال، لا تعيين وقتها الذي لم يفوض إليك، فما لهم يسألونك عما ليس من وظائفك بيانه؛ أي: ما أنت إلا منذر لا يعلم وقتها، فهو من قصر الموصوف على الصفة، أو ما أنت منذر إلا من يخشاها، فهو من قصر الصفة علىٰ الموصوف.

وتخصيص ﴿من يخشى﴾ مع أنه مبعوث إلىٰ من يخشىٰ، ومن لا يخشىٰ؛ لأنهم هم المنتفعون به؛ أي: لا يؤثر الإنذار إلا فيهم، كقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ والجمهور على أن قوله: ﴿مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ من إضافة الصفة إلى معمولها للتخفيف علىٰ الأصل؛ لأن الأصل في الأسماء الإضافة، والعمل فيها إنما هو بالشبه، ومن قرأها بالتنوين اعتبر أن الأصل فيها الإعمال، والإضافة فيها إنما هي للتخفيف.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿مُنذِرُ مَن﴾ بالإضافة، وقرأ عمر بن عبد العزيز وأبو جعفر وشيبة وخالد الحذاء وابن هرمز وعيسى وطلحة وابن محيص وأبو عمرو في رواية وابن مقسم وحميد: ﴿منذرٌ﴾ بالتنوين. قال الفراء: والتنوين وتركه في ﴿مُنذِرُ﴾ صواب، كقوله: ﴿بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ وقال أبو علي الفارسي: يجوز أن تكون الإضافة

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

للماضي نحو: ضارب زيد أمس.

﴿كَأَنَّهُمْ﴾؛ أي: كأن منكريها من كفار مكة ﴿يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾؛ أي: يرون القيامة ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا﴾؛ أي: لم يمكثوا ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ والضحىٰ: اسم لما بين إشراق الشمس إلى استواء النهار، ثم هي عشي إلىٰ الغداة، كما في «كشف الأسرار». والجملة حال من الموصول، فإنه علىٰ تقدير الإضافة وعدمها، مفعول لـ ﴿مُنذِرُ﴾، كأنه قيل[1]: تنذرهم مشبهين يوم يرونها؛ أي: في الاعتقاد بمن لم يلبث بعد الإنذار بها إلا تلك المدة اليسيرة؛ أي: عشية يوم واحد، أو ضحاه، أي: آخر يوم أو أوله لا يوماً كاملاً علىٰ أن التنوين عوض عن المضاف إليه، فلما ترك اليوم.. أضيف ضحاه إلىٰ عشية، والضحىٰ والعشية لما كانا من يوم واحد.. تحققت بينهما ملابسة مصححة لإضافة أحدهما إلىٰ الآخر، فلذلك أضيف الضحىٰ إلى العشية.

فإن قيل: لِمَ لَمْ يقل عشية أو ضحى، وما فائدة الإضافة؟

قلنا: لو قيل لم يلبثوا إلا عشيةً أو ضحى.. احتمل أن يكون العشية من يوم، والضحىٰ من يوم آخر، فيتوهم استمرار اللبث من ذلك الزمان من اليوم الأول إلى الزمان الآخر من اليوم الآخر، وأما إذا قيل: عشية أو ضحاها. لم يحتمل ذلك ألبتة. قال في «الإرشاد»[2]: واعتبار كون اللبث في الدنيا، أو في القبور لا يقتضيه المقام، وإنما الذي يقتضيه، اعتبار كونه بعد الإنذار، أو بعد الوعيد تحقيقاً للإنذار، وردا لاستبطائهم. وعبارة «الشوكاني».

قوله: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾؛ أي: لم يقيموا في الدنيا إلا قدر آخر نهار أو أوله، أو قدر الضحىٰ الذي يلي تلك العشية، والمراد: تقليل مدة الدنيا، كما قال في آية أخرىٰ: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾، وقيل: لم يلبثوا في قبورهم إلا عشية أو ضحاها. انتهىٰ.

والمعنىٰ: أي: إن هذا اليوم الذي لجوا في إنكاره سيقع ألبتة، ويرونه بأعينهم، فإذا عاينوه حسبوا أنهم لم يلبثوا ولم يقيموا في الدنيا إلا ساعة من نهار، ثم انقضت.

---

(١) روح البيان. (٢) أبو السعود.

والخلاصة: أنهم ظنوا أنهم لم يلبثوا إلا عشية يوم، أو ضحىٰ تلك العشية، وتقول العرب: آتيك العشية أو غداتها، وآتيك الغداة أو عشيتها، والمراد: أنهم يستقصرون مدة لبثهم، ويزعمون أنهم لم يلبثوا إلا قدر آخر نهار أو أوله.

الإعراب

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ٧﴾.

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾: ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم ﴿النازعات﴾: مقسم به، مجرور بـ ﴿واو﴾ القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف وجوباً تقديره: أقسم بالنازعات، وجملة القسم مستأنفة استئنافاً نحوياً، ﴿غَرۡقٗا﴾: مفعول مطلق معنوي منصوب بـ ﴿النازعات﴾، ولكنه علىٰ حذف مضاف؛ أي: أقسم بالنازعات نزع إغراق وشدة، وهو مصدر حذف زوائده؛ أي: أقسم بالملائكة التي تنزع أرواح الكفار نزع إغراق وشدة، ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ﴾: معطوف على ﴿النازعات﴾ ﴿نَشۡطٗا﴾ منصوب بـ ﴿الناشطات﴾ علىٰ المفعولية المطلقة، ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ﴾: معطوف أيضاً علىٰ ﴿النازعات﴾ ﴿سَبۡحٗا﴾: منصوب علىٰ الفعولية المطلقة بـ ﴿السابحات﴾، ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة معطوف علىٰ ﴿السابحات﴾. ﴿سَبۡقٗا﴾: مفعول مطلق منصوب بـ ﴿السابقات﴾: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ﴾ معطوف علىٰ ﴿السابقات﴾. ﴿أَمۡرٗا﴾: مفعول به لـ ﴿المدبرات﴾، واختير الفاء في الأخيرين للدلالة علىٰ ترتب كل منهما علىٰ ما قبله بغير مهملة. وجواب القسم في هذه المذكورات محذوف جوازاً، تقديره: لتبعثن يا كفار مكة ﴿يَوۡمَ﴾ منصوب على الظرفية الزمانية متعلق بجواب القسم المحذوف ﴿تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يَوۡمَ﴾ ﴿تَتۡبَعُهَا﴾: فعل ومفعول به. ﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾: فاعل، والجملة في محل النصب حال من ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾؛ أي: حالة كون الراجفة تابعة إياها الرادفة.

﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ٨ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ٩﴾.

﴿قُلُوبٞ﴾: مبتدأ أول، ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾: ظرف مضاف إلى مثله متعلق بـ ﴿وَاجِفَةٌ﴾، و ﴿وَاجِفَةٌ﴾: صفة لـ ﴿قُلُوبٞ﴾، وهو المسوغ للابتداء بالنكرة، ﴿أَبۡصَٰرُهَا﴾: مبتدأ ثانٍ، ﴿خَٰشِعَةٞ﴾: خبره، وهو وخبره خبر للمبتدأ الأول، وفي الكلام حذف

مضاف؛ أي: أبصار أصحاب القلوب، ويجوز أن يكون ﴿قُلُوبٌ﴾ مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة وصفه بالصفة المحذوفة كما مرَّ؛ أي: قلوب كافرة أو عاصية. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: متعلق بـ ﴿وَاجِفَةٌ﴾، و ﴿وَاجِفَةٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة على كلا التقديرين مستأنفة، ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝٩﴾: مبتدأ وخبر، والجملة خبر ثانٍ لـ ﴿قُلُوبٌ﴾.

﴿يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝١٠ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ۝١١ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾.

﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هم يقولون، والجملة الاسمية في محل النصب حال من الضمير المستكن في ﴿خَاشِعَةٌ﴾، أو مستأنفة، ﴿أَإِنَّا﴾: ﴿الهمزة﴾ للاستفهام الإنكاري؛ لأنهم أنكروا الرد ونفوه ﴿إنا﴾: ناصب واسمه. ﴿لَمَرْدُودُونَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿مردودون﴾: خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول لـ ﴿يَقُولُونَ﴾، ﴿فِي الْحَافِرَةِ﴾: متعلق بـ ﴿مردودون﴾، و﴿في﴾ بمعنىٰ: إلىٰ، و ﴿الْحَافِرَةِ﴾: الأرض التي قبورهم فيها: ﴿أَإِذَا﴾: ﴿الهمزة﴾ للاستفهام الإنكاري مؤكدة للأولىٰ. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنىٰ الشرط متعلق بمحذوف دل عليه ﴿مردودون﴾، تقديره: أنرد ونبعث وقت كوننا عظاماً نخرة مع كوننا أبعد شيء من الحياة، والجملة المحذوفة في محل النصب مقول لـ ﴿يَقُولُونَ﴾. ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه ﴿عِظَامًا﴾ خبره ﴿نَخِرَةً﴾: صفة ﴿عِظَامًا﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل الجر مضاف إليه، لـ ﴿إذا﴾ ﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة مسوقة لحكاية كفر آخر متفرع علىٰ كفرهم السابق. ﴿تِلْكَ﴾: مبتدأ، والإشارة إلىٰ الرجعة في الحافرة، ﴿إِذًا﴾: حرف جواب وجزاء لا عمل لها جيء بها لإفادة تأكيد الرجعة الخاسرة، ﴿كَرَّةٌ﴾: خبر لـ ﴿تِلْكَ﴾. ﴿خَاسِرَةٌ﴾: نعت لـ ﴿كَرَّةٌ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا﴾، ﴿فَإِنَّمَا﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية لمحذوف تقديره: لا تستصعبوها علىٰ الله تعالى، ﴿إنما﴾: أداة حصر ﴿هِيَ﴾: مبتدأ ﴿زَجْرَةٌ﴾ خبر. ﴿وَاحِدَةٌ﴾: صفة ﴿زَجْرَةٌ﴾، والجملة الاسمية جملة معللة لذلك المحذوف، والجملة المحذوفة مستأنفة لا محل لها من الإعراب، والمعنىٰ: لا تحسبوا تلك الكرة صعبة علىٰ الله تعالى؛ لأنها سهلة هينة بقدرته تعالىٰ؛ لأنها حاصلة بزجرة واحدة، ونفخة

واحدة، ﴿فَإِذَآ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أنها بزجرة واحدة، وأردت بيان حالهم وقتئذٍ.. فأقول لك: إذا هم بالساهرة ﴿إذا﴾: فجائية حرف لا محل لها من الإعراب، ﴿هُم﴾: مبتدأ، ﴿بِٱلسَّاهِرَةِ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿هَلْ﴾: حرف استفهام للاستفهام التقريري، والمعنىٰ: أليس قد أتاك حديث موسىٰ ﴿أَتَىٰكَ﴾: فعل ماض، ومفعول به، ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾: فاعل، والجملة مستأنفة مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضىٰ من الزمان، متعلق بـ ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ لا بـ ﴿أَتَىٰكَ﴾ كما يتوهم لاختلاف وقتيهما، ﴿نَادَىٰهُ﴾: فعل ماض، ومفعول به، ﴿ربُّهُ﴾: فاعل، ﴿بِٱلْوَادِ﴾: ﴿الباء﴾: حرف جر ﴿الواد﴾: مجرور بالباء، وعلامة جره كسرة مقدرة علىٰ الياء المحذوفة لفظاً للتخلص من التقاء الساكنين، وحذفت في الخط تبعاً للفظ الجار والمجرور متعلق بـ ﴿نَادَىٰهُ﴾، ﴿ٱلْمُقَدَّسِ﴾: صفة للوادي ﴿طُوًى﴾: بدل من الوادي، وقرىء بالتنوين وتركه، قال الجوهري: وطوىٰ: اسم موضع بالشام، وتكسر طاؤه وتضم، ويصرف ولا يصرف، فمن صرفه.. جعله اسم واد ومكان، وجعله نكرة، ومن لم يصرفه.. جعله اسم بلدة وبقعة، وجعله معرفة. ﴿ٱذْهَبْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود علىٰ موسىٰ، ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾: متعلق بـ ﴿ٱذْهَبْ﴾، والجملة مقول لقول محذوف معطوف على ﴿نَادَىٰهُ﴾ تقديره: فقال: اذهب، ويجوز أن تكون جملة مفسرة للنداء، ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿طَغَىٰ﴾: خبره، وجملة ﴿إن﴾ جملة تعليلية مسوقة لتعليل الأمر بالذهاب لا محل لها من الإعراب ﴿فَقُلْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿قل﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر معطوف على ﴿ٱذْهَبْ﴾، ﴿هَل﴾: حرف استفهام معناه العرض، وهو الطلب برفق ولين ﴿لَّكَ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هل لك رغبة إلىٰ أن تزكى، ﴿إِلَىٰٓ﴾: حرف جر، وجملة ﴿أَن تَزَكَّىٰ﴾ مع أن المصدرية في تأويل مصدر مجرور بـ ﴿إلى﴾، تقديره: هل لك رغبة إلىٰ التزكية، الجار والمجرور متعلق بالمبتدأ المحذوف،

وأصل ﴿تَزَكَّىٰ﴾: تتزكىٰ؛ أي: تتطهر من الشرك، فحذفت إحدى التائين لكراهة اجتماع المثلين. ﴿وَأَهْدِيَكَ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود علىٰ موسى، ومفعول به معطوف على ﴿تَزَكَّىٰ﴾. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: متعلق بـ ﴿أهديك﴾، ﴿فَتَخْشَىٰ﴾: معطوف علىٰ ﴿أهديك﴾ جعل الخشية غاية للهداية؛ لأنها ملاك الأمر، وجماع التقوىٰ، ومتى خشي الإنسان ربه لم يصدر عنه إلا الخير ﴿فَأَرَىٰهُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة علىٰ محذوف تقديره: فذهب إليه.. فأراه، ﴿أراه﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود على ﴿مُوسَىٰ﴾، و ﴿الهاء﴾: مفعول أول لـ﴿أرى﴾، ﴿ٱلْآيَةَ﴾: مفعول ثانٍ له؛ لأن الرؤية بصرية تعدىٰ إلىٰ الثاني بالهمزة ﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾ صفة لـ﴿ٱلْآيَةَ﴾: ﴿فَكَذَّبَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿كذب﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود علىٰ ﴿فِرْعَوْنَ﴾ معطوف علىٰ لـ﴿أرى﴾، ﴿وَعَصَىٰ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر معطوف علىٰ ﴿كذب﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿أَدْبَرَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود على ﴿فِرْعَوْنَ﴾ معطوف على ﴿كذب﴾، وجملة ﴿يَسْعَىٰ﴾: حال من فاعل ﴿أَدْبَرَ﴾، ﴿فَحَشَرَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود علىٰ ﴿فِرْعَوْنَ﴾، معطوف علىٰ ﴿أَدْبَرَ﴾: ﴿فَنَادَىٰ﴾: معطوف علىٰ ﴿حشر﴾.

﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿فَقَالَ﴾: معطوف علىٰ ﴿نادى﴾. ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾ صفة لـ﴿رَبُّكُمُ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ﴾: فعل ماضٍ، ومفعول به مقدم، وفاعل مؤخر معطوف علىٰ ﴿قال﴾، ﴿نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾: مصدر معنوي لـ ﴿أخذ﴾ منصوب علىٰ المفعولية المطلقة؛ أي: أخذه أخذ نكال، ويجوز أن يكون مفعولاً لأجله؛ أي لأجل نكاله. قال الزمخشري: هو مصدر مؤكد لفعله المحذوف، كوعد الله وصبغة الله، كأنه قيل: نكل الله به نكال الآخرة والأولى: ﴿ٱلْءَاخِرَةِ﴾: مضاف إليه، ﴿وَٱلْأُولَىٰٓ﴾: معطوف عليه. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: خبرها مقدم. ﴿لَعِبْرَةً﴾، ﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿عبرة﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿لِّمَن﴾: جار ومجرور صفة لـ ﴿عبرة﴾، وجملة ﴿يَخْشَىٰ﴾ صلة لـ ﴿من﴾ الموصولة.

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا

﴿٢٩ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠﴾.

﴿ءَأَنتُمْ﴾: الهمزة للاستفهام التقريري التوبيخي، ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ، ﴿أَشَدُّ﴾: خبر. ﴿خَلْقًا﴾: تمييز محول عن المبتدأ، منصوب باسم التفضيل، والجملة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب ﴿أَمِ﴾: حرف عطف متصلة. ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾: معطوف علىٰ ﴿أَنتُمْ﴾، ويجوز أن تعرب ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾: مبتدأ، خبره محذوف تقديره: أم السماء أشد خلقاً. ﴿بَنَىٰهَا﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود علىٰ الله، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾؛ كأنه بيان لكيفية خلقها، ويجوز أن تكون مفسرة لا محل لها من الإعراب. ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود علىٰ الله، ومفعول به، والجملة بدل من جملة ﴿بَنَىٰهَا﴾ تابعة لها ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ معطوف علىٰ ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾، ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر ومفعول به معطوف علىٰ ﴿سواها﴾، ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف علىٰ ما قبله، ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: منصوب علىٰ الاشتغال بفعل محذوف وجوباً، يفسره ما بعده، تقديره: ودحىٰ الأرض، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾، ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾: ظرف مضاف متعلق بـ ﴿دَحَىٰهَآ﴾، وجملة ﴿دَحَىٰهَآ﴾ جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب.

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ٣١ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ٣٢ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ٣٣ فَإِذَا جَآءَتِ
ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ٣٤ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ٣٥ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ٣٦ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ
٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ
ٱلْهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ٤١﴾.

﴿أَخْرَجَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود على الله ﴿مِنْهَا﴾: متعلق بـ ﴿أَخْرَجَ﴾. ﴿مَآءَهَا﴾: مفعول به، ﴿وَمَرْعَىٰهَا﴾: معطوف على ﴿مَآءَهَا﴾، وجملة ﴿أَخْرَجَ﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿دَحَىٰهَآ﴾ بتقدير: قد؛ أي: والأرض دحاها حال كونه مخرجاً منها ماءها ومرعاها، وهذا قول الجمهور، ويجوز أن تكون الجملة مفسرة لما لا بد منه في تأتي سكناها، من تسوية أمر المأكل والمشرب، وإمكان القرار عليها. ﴿وَٱلْجِبَالَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ٱلْجِبَالَ﴾: منصوب علىٰ الاشتغال، بفعل محذوف وجوباً تقديره: وأرسىٰ الجبال، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا﴾، وجملة ﴿أَرْسَىٰهَا﴾ جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب ﴿مَتَٰعًا﴾: مفعول

لأجله لفعل محذوف تقديره: فعلنا ذلك تمتيعاً لكم، والجملة المحذوفة مستأنفة استئنافاً بيانياً، ويجوز أن يكون مفعولاً مطلقاً لفعل محذوف تقديره: متعناكم بها تمتيعاً، و ﴿لَكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿مَتَٰعًا﴾. ﴿وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾: معطوف علىٰ ﴿لَكُمْ﴾، ﴿فَإِذَا جَآءَتِ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أحوال معاشكم، وأردتم بيان أحوال معادكم.. فأقول لكم: ﴿إذا جاءت﴾ ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مضمن معنىٰ الشرط متعلق بالجواب المحذوف، ﴿جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ﴾: فعل وفاعل ﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾: صفة لـ ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها علىٰ كونها فعل شرط لها، وجواب ﴿إذا﴾ محذوف تقديره: يكون من عظائم الأمور ما لا يخطر ببال، وكان من عظائم الشؤون ما لم تره العيون، أو دخل أهل النار النار، وأهل الجنة الجنة، وجملة ﴿إذا﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ويجوز أن تكون الفاء استئنافية، ﴿يَوْمَ﴾: بدل من ﴿إذا﴾ بدل بعض من كل، أو بدل كل من كل، وجملة ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾: في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إذا﴾. ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾: فاعل. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به أو مصدرية، وجملة ﴿سَعَىٰ﴾: صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما سعاه في الدنيا، أو صلة لـ ﴿مَا﴾ المصدرية؛ أي: سعيه، ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾: فعل ونائب فاعل معطوف علىٰ ﴿يَتَذَكَّرُ﴾، ﴿لِمَن﴾: متعلق بـ ﴿برزت﴾، وجملة ﴿يَرَىٰ﴾ صلة لـ ﴿من﴾ الموصولة. ﴿فَأَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾ استئنافية، أو فصيحة، ﴿أما﴾: حرف شرط وتفصيل، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿طَغَىٰ﴾ صلة لـ ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿وَءَاثَرَ﴾: معطوف علىٰ ﴿طَغَىٰ﴾. ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾: مفعول به، ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة لـ ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾ ﴿فَإِنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أما﴾: واقعة في غير موضعها؛ لأن موضعها موضع ﴿أما﴾ ﴿إن﴾: حرف نصب ﴿ٱلْجَحِيمَ﴾: اسمها. ﴿هِىَ﴾: ضمير فصل أو مبتدأ. ﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾: خبرها، أو خبر المبتدأ، و ﴿أل﴾ في ﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾ عوض عن الضمير العائد علىٰ ﴿مَنْ﴾ الموصولة؛ أي: مأواه، أو العائد محذوف؛ أي: هي المأوىٰ له، والأول: مذهب الكوفيين، والثاني: مذهب البصريين، وجملة ﴿إن﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ في قوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾﴾، وجملة المبتدأ والخبر جواب ﴿أما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أما﴾ مستأنفة، أو مقول

لجواب إذا المقدرة على كون الفاء فصيحة، ﴿وَأَمَّا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿أَمَّا﴾: حرف شرط وتفصيل ﴿مَنْ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿خَافَ﴾ صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة: ﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ مفعول به، ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر، ومفعول به معطوف علىٰ ﴿خَافَ﴾. ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾: متعلق بـ﴿نهى﴾، ﴿فإنَّ﴾ ﴿الفاء﴾ رابطة لجواب ﴿أَمَّا﴾، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾: اسمها ﴿هِيَ﴾: ضمير فصل ﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾: خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، وجملة المبتدأ جواب ﴿أَمَّا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أَمَّا﴾ معطوفة علىٰ جملة ﴿أما﴾ الأولىٰ.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾: فعل مضارع وفاعل ومفعول به، مرفوع بالنون. ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾: متعلق بـ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ علىٰ كونه مفعولاً ثانياً، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لحكاية نوع آخر من تعنتهم ﴿أَيَّانَ﴾: اسم استفهام في محل النصب على الظرفية الزمانية مبني علىٰ الفتح لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً، لتضمنه معنىٰ همزة الاستفهام، وهو متعلق بمحذوف خبر مقدم ﴿مُرْسَىٰهَا﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية جملة مفسرة لسؤالهم عن الساعة لا محل لها من الإعراب؛ أي: متىٰ إرساؤها؛ أي: إقامتها وإثباتها. ﴿فِيمَ﴾: ﴿في﴾: حرف جر ﴿م﴾: اسم استفهام للاستفهام الإنكاري في محل الجر بـ ﴿في﴾ مبني بسكون علىٰ الألف المحذوفة فرقاً بينها وبين ﴿ما﴾ الموصولة، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم ﴿أَنتَ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾: متعلق بما تعلق به الخبر، والمعنىٰ: أنت في أي شيء من ذكراها، والجملة جملة إنشائية إنكارية لا محل لها من الإعراب، كأنها إنكار ورد لسؤالهم عن الساعة، وبيان لبطلان السؤال ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: خبر مقدم. ﴿مُنتَهَىٰهَآ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل الإنكار قبلها ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، ﴿أَنتَ﴾: مبتدأ ﴿مُنذِرُ﴾: خبر، والجملة مستأنفة، ﴿مُنذِرُ﴾: مضاف، و ﴿مَنْ﴾ الموصولة في محل الجر مضاف إليه، وجملة ﴿يَخْشَىٰهَا﴾ صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة، ﴿كَأَنَّهُمْ﴾: ﴿كأن﴾: حرف نصب وتشبيه، و ﴿الهاء﴾ ضمير الغائبين في محل النصب اسمها. ﴿يَوْمَ﴾: منصوب علىٰ الظرفية، متعلق بما في ﴿كأن﴾ من معنىٰ التشبيه، وجملة ﴿يَرَوْنَهَا﴾

في محل الجر بإضافة الظرف إليها، وجملة: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ في محل الرفع خبر ﴿كأن﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿عَشِيَّةً﴾: ظرف زمان متعلق بـ ﴿يَلْبَثُوٓا۟﴾، والتنوين فيه عوض عن المضاف إليه وهو يوم، ﴿أَوْ﴾ حرف عطف. ﴿ضُحَىٰهَا﴾: معطوف علىٰ ﴿عَشِيَّةً﴾، وجملة التشبيه في محل النصب حال من الموصول في قوله: ﴿مَن يَخْشَىٰهَا﴾؛ كأنه قيل: تنذرهم مشبهين يوم يرونها بمن لم يلبث إلا تلك المدة كما مر.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾؛ أي: الكواكب الجاريات علىٰ نظام معين في سيرها؛ كالشمس والقمر، يقال: نزعت الخيل إذا جرت.

﴿غَرْقًا﴾؛ أي: مغرقة، أي: مجدة مسرعة في جريها لتقطع مسافة فلكها حتى تصل إلى أقصى المغرب، وفي «القرطبي»: ﴿غَرْقًا﴾ بمعنىٰ: إغراقاً، وإغراق النازع في القوس: أن يبلغ غاية المد حتىٰ ينتهي إلىٰ النصل. وفي «القاموس»: يقال: أغرق: إذا استوفىٰ مدها، وذلك بأن ينتهي إلى العقب الذي عند النصل الملفوف عليه، والاستغراق: الاستيعاب. ا هـ.

﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾﴾؛ أي: الخارجات من برج إلى برج خروجاً، من قولهم: نشط النور إذا خرج. وفي «القاموس»: نشط ـ الدلو من باب ضرب ـ إذا نزعها بلا بكرة إذا كان متعدياً، وأما إذا كان لازماً كما هنا علىٰ هذا المعنىٰ المذكور، فهو من باب تعب. وفي «المصباح»: نشط في عمله ينشط من باب تعب خف وأسرع نشاطاً، وهو نشيط، ونشطت الحبل نشطاً من باب ضرب: عقدته بأنشوطة، والأنشوطة ـ بضم الهمزة ـ: ربطة دون العقدة، إذا مدت بأحد طرفيها انفتحت، وأنشطت الأنشوطة ـ بالألف ـ: حللتها، وأنشطت العقال: حللته، وأنشطت البعير من عقاله: أطلقته.

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾﴾؛ أي: السائرات في أفلاكها سيراً هادئاً لا اضطراب فيه ولا اختلال، وقد جعل مرورها في جوائها كالسبح في الماء، كما جاء في قوله: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾. وفي «المختار»: السباحة ـ بالكسر ـ: العوم، وقد سبح يسبح بالفتح، والسبح: الفراغ، والسبح أيضاً: التصرف في المعاش، وبابه:

قطع وقتل. ا هـ.

﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤﴾؛ أي: المسرعات عن غيرها في سبحها، فتتم دورتها حول ما تدور عليه في مدة أسرع مما يتم غيرها؛ كالقمر، فإنه يتم دورته في شهر قمري، والشمس تتم دورتها في سنة شمسية، وهكذا غيرها من السيارات السريعة، ومنها ما لا يتم دورته إلا في سنين.

﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥﴾؛ أي: فالكواكب التي تدبر بعض الأمور الكونية في عالمنا الأرضي بظهور بعض آثارها، فسبق القمر علمنا حساب شهوره، وله الأثر العظيم في السحاب والمطر، وفي البحر من المد والجزر، ولضيائه حين امتلائه فوائد في تصريف منافع الناس والحيوان. وسبق الشمس في أبراجها علمنا حساب الشهور، وسبقها إلىٰ تتميم دورتها السنوية علمنا حساب السنين، والخلاف بين فصول السنة، واختلاف الفصول من أسباب حياة النبات والحيوان، وقد نسب إليها التدبير؛ لأنها أسباب ما نستفيده منها، والمدبر الحكيم هو الله سبحانه العزيز العليم الذي جل ذكره وعظم شأنه.

﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦﴾؛ أي: تضطرب النفخة الأولىٰ، بها يرجف كل شيء من الأجرام الساكنة؛ كالأرض والجبال، وصفت النفخة بما يحدث منها.

﴿تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ٧﴾؛ أي: النفخة الثانية، وبينهما أربعون سنة، وقيل: المعنىٰ: ﴿تَرۡجُفُ﴾؛ أي: تضطرب وتتحرك ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾؛ أي: الأرض بمن عليها.

﴿تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ٧﴾؛ أي: السماء وما فيها تردفها وتتبعها، فإنها تنشق وتنثر كواكبها. وفي «المختار»: الرجفة: الزلزلة، وقد رجفت الأرض من باب نصر. ا هـ. وفي «القرطبي»: وأصل الرجفة: الحركة، قال الله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ﴾: وليست الرجفة ههنا من الحركة فقط، بل من قولهم: رجف الرعد يرجف رجفاً ورجيفاً أي أظهر الصوت والحركة، ومنه سميت الأراجيف لاضطراب الأصوات بها، وإفاضة الناس بها. ا هـ. وفي «القاموس» ردفه ـ كسمعه ونصره ـ تبعه كأردفه. ا هـ.

﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ٨﴾؛ أي: شديدة الاضطراب والخوف. وفي «المختار»: وجف الشيء يجف بالكسر وجيفاً اضطرب، وقلب واجف؛ أي:

خائف. ا هـ. ﴿خَٰشِعَةٌ﴾؛ أي ذليلة.

﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ الحافرة: الطريق التي يرجع الإنسان فيها من حيث جاء، يقال: رجع في حافرته وعلىٰ حافرته إذا رجع في طريقه التي جاء منها، وأصله: أن الإنسان إذا رجع في طريقه أثرت قدماه فيها حفراً. وقال الراغب: وقوله في الحافرة: مثل لمن يرد من حيث جاء أي أنرد إلىٰ الحياة بعد أن نموت. وقيل: الحافرة: الحياة الأولىٰ، أي: نرد إلىٰ الحياة بعد الموت. وقد ظنوها حياتهم الأولى، و ﴿فِى﴾ بمعنىٰ إلىٰ، علىٰ هذا التفسير.

﴿عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾؛ أي: بالية من نخر العظم فهو نخر وناخر، وهو البالي الأجوف الذي تمر به الريح فيسمع له نخير. ا هـ أبو السعود. وفي «المصباح»: نخر العظم نخراً ـ من باب تعب ـ بلي وتفتت، فهو نخرٌ وناخر. ا هـ ونخرة: أبلغ من ناخرة لكونها من صيغ المبالغة، أو صفة مشبهة دالة علىٰ الثبوت كما مر في مبحث التفسير.

﴿كَرَّةٌ﴾ الكر: الرجوع، والكرة: المرة من الرجوع، والجمع كرات كمرة ومرات.

﴿خَاسِرَةٌ﴾ والخاسرة: هي التي يخسر أصحابها ولا يربحون ﴿زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ والزجرة: الصيحة، والمراد بها: النفخة الثانية يبعث بها الأموات.

﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ والساهرة: الأرض البيضاء المستوية، لأن السراب يجري فيها، وسميت بذلك؛ لأن شدة الخوف التي تعتري من عليها تطير النوم من أعينهم، فلا يذوقون نوماً، فهي ساهرة: أي: ساهر من عليها. قال الأشعث بن قيس:

وَسَاهِرَةٍ يَضْحَىٰ ٱلسَّرَابُ مُجَلِّلاً لأَقْطَارِهَا قَدْ جِئْتُهَا مُتَلَثِّمَا

﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ ناداه: فيه إعلال بالقلب، أصله: ناديه، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد الفتح.

﴿بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾؛ أي: المبارك المطهر، والوادي المقدس: هو وادٍ بأسفل جبل طور سينا من برية الشام. ﴿طُوًى﴾ وادٍ بين أيلة ومصر. قرىء بالتنوين مصروفاً هنا وفي طه علىٰ أنه اسم للوادي، وأصله: طوي، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد

الفتح، وقرىء بغير تنوين علىٰ أنه اسم للبقعة أو الأرض، فلا ينصرف للعلمية والتأنيث، وعليه فيكون فيه تسمية المؤنث بمذكر؛ حيث سميت البقعة بالوادي.

﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾؛ أي: تجاوز الحد فتكبر على الله سبحانه وكفر به. ﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾؛ أي: تتزكى وتتطهر من العيوب أصله: تتزكى بوزن تتفعل بتاءين، دخلت عليه أداة النصب ﴿أَن﴾ ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، وحذفت منه إحدى التاءين، وقرىء بالتشديد أدغمت التاء الثانية في الزاي، وأما علىٰ التخفيف.. فتحذف إحدى التاءين.

﴿فَتَخْشَىٰ﴾ أصله: تخشي بوزن تفعل، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿فَأَرَىٰهُ﴾ أصله أرأيه، نقلت حركة الهمزة إلى الراء فسكنت، ثم حذفت للتخفيف، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ أصله: يسعىٰ بوزن يفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ أصله: نادىٰ، بوزن فاعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أصله: الأعلو من العلو، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾؛ أي: أصعب خلقاً بالنسبة لاعتقاد المخاطبين اهـ «شهاب». أصله: أشدد بوزن أفعل، نقلت حركة الدال إلى الشين فسكنت، فأدغمت في الدال الثانية.

﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ أصله: بنيها، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح، والبناء ضم الأجزاء المتفرقة بعضها إلى بعض مع ربطها بما يمسكها حتىٰ يكون منها بنية واحدة.

﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ والسمك: قامة كل شيء ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾؛ أي: جعل كل جزء موضوع في موضعه، أصله: سويها بوزن فعل المضعف، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾؛ أي: أظلمها. ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾؛ أي: ونورها وضياء شمسها،

والألف فيه منقلبة عن واو، وإنما رسمت ياء؛ لأن الاسم الثلاثي المضموم الأول يجوز فيه وجان: رسمه بالألف الطويلة المنقلبة عن الواو، ورسمه بالياء.

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠﴾؛ أي: مهدها وبسطها وجعلها قابلة للسكنىٰ.

قال زيد بن عمرو بن نفيل:

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِيْ لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَهُ ٱلأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْراً ثِقَالَا
دَحَاهَا فَلَمَّا ٱسْتَوَتْ شَدَّهَا بِأَيْدٍ وَأَرْسَىٰ عَلَيْهِ ٱلْجِبَالَا

وقوله: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ الألف فيه منقلبة عن واو، وكتبت ياء علىٰ غير قياس، أو أصلها: ياء.

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ٣١﴾؛ أي: نباتها، أصله: مرعيها بوزن مفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ٣٢﴾ أصله: من الرسو، فقلبت الواو ياء لوقوعها رابعة، ثم قلبت ألفاً لتحركها بعد فتح ﴿مَتَٰعًا﴾؛ أي: متعة ومنفعة لكم ولأنعامكم.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ٣٤﴾، أي: الداهية العظمىٰ التي تطم علىٰ الدواهي؛ أي: تغلب وتعلوه، وهي النفخة الثانية التي يكون معها البعث، قاله ابن عباس كما مر. وهي اسم فاعل من طم ككافة، وأصله: طاممة أدغمت الميم الأولىٰ في الثانية.

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ٣٧﴾ أصله: طغي بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾: اسم مكان علىٰ وزن مفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾؛ أي: جلاله وعظمته، أصل خاف: خوف بوزن فعل، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح، وأصل ﴿مَقَامَ﴾: مقوم، نقلت حركة الواو إلىٰ القاف فسكن، ثم قلبت ألفاً لتحركها في الأصل، وفتح ما قبلها الآن.

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾؛ أي زجرها وكفها عن هواها المردي لها بميلها إلى الشهوات، أصله: نهي بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، وقوله: ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أصله: الهوي، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، والهوى: ميل النفس إلىٰ

ما تشتهيه وتستلذه من غير داعية الشرع.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَآ ﴿٤٤﴾﴾ أصله: منتهيها بوزن مفتعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح؛ أي: إن منتهىٰ علم وقت حصولها عند ربك لم يؤته أحداً من خلقه.

﴿مَن يَخْشَىٰهَا﴾ فيه إعلال بالقلب، أصله: يخشيها قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ أصله: يرأيونها، نقلت حركة الهمزة إلىٰ الراء فسكنت، ثم حذفت للتخفيف، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ واللبث: الإقامة، والعشية: طرف النهار من آخره، والضحىٰ: طرفه من أوله، وأصل عشية: عشيوة بوزن فعيلة، فلام الكلمة واو اجتمعت ساكنة مع الياء فقلبت ياء، وأدغمت فيها الياء.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾﴾؛ حيث استعار ﴿السابحات﴾ للملائكة التي تسرع في نزولها من السماء إلى الأرض، أو الكواكب التي تسرع في سيرها لأنها حقيقة في الحيوانات السابحات في الماء بجامع السرعة في كل. وفيه أيضاً: التعميم بعد التخصيص لأن نزول الأولين إنما هو لقبض الأرواح مطلقاً، ونزول هؤلاء لعامة الأمور والأحوال. ا هـ من «الروح».

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾؛ لأن المدبر حقيقة هو الله سبحانه وتعالى، ففيه إسناد الشيء إلىٰ سببه.

ومنها أيضاً: الإسناد المجازي في قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾﴾، أي: النفخة الأولى: لأن النفخة كانت سبباً لرجف الأجرام الهادئة وحركتها، فجعل سبب الرجف راجفاً.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾﴾.

ومنها: إضافة ما للشيء إلى جزئه في قوله: ﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾﴾؛ حيث

أضاف الأبصار إلى ضمير القلوب أي أبصار أصحاب تلك القلوب؛ كما دل عليه قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾، وإلا فالقلوب لا أبصار لها، وإنما أضاف الأبصار إلى القلوب؛ لأنها محل الخوف وهو من صفاتها.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿خَٰشِعَةٌ﴾؛ حيث أسند الخشوع إلىٰ الأبصار مجازاً؛ لأن أثره يظهر فيها.

ومنها: إطلاق فاعلة علىٰ مفعولة في قوله: ﴿فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾؛ أي: إلى الحالة الأولى، وهي الحياة، يقال: رجع فلان في حافرته؛ أي: طريقته التي جاء فيها فحفرها؛ أي أثر فيها بمشيه، وتسميتها حافرة مع أنها محفورة، وإنما الحافر هو الماشي في تلك الطريقة، كقوله تعالى: ﴿فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾؛ أي: مرضية، أو هو من تشبيه القابل بالفاعل، أي: في تعلق الحفر بكل منها، فأطلق اسم الثاني على الأول للمشابهة، كما يقال: صام نهاره تشبيهاً لزمان الفعل بفاعله.

ومنها: مجاز بالحذف في قوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا﴾ أي: أنبعث ونرد إذا كنا عظاماً نخرة؟

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ فقد أسند الخسران للكرة، والمراد: أصحابها، وكذلك في قوله: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ أسند السهر إلىٰ الأرض البيضاء مجازاً، كما أسندوا إليها النوم في ضدها لأن السائر فيها ساهر لا ينام خوف الهلكة، فهو مجاز عقلي.

ومنها: اختيار صيغة الماضي في قوله: ﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾ للإيذان بأن صدور هذا الكفر منهم ليس بطريق الاستمرار مثل كفرهم السابق المعبر عنه بالمضارع؛ أي: قالوا بطريق الاستهزاء بالحشر. اهـ «الروح».

ومنها: المقابلة بين قوله: ﴿ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾، وبين قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾، وكذلك المقابلة بين قوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾، وبين قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ الآيات.

ومنها: أسلوب التشويق في قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ فإن المراد منه التشويق إلىٰ معرفة القصة.

ومنها: الطباق بين الآخرة والأولىٰ في قوله: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾؛ لأن المراد كلمتاه الشنيعتان: الأولىٰ والآخرة.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ و ﴿ٱلْجَحِيمَ﴾، وبين ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ و ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾؛ لأنه أطلق المرعىٰ علىٰ ما يأكله الناس، فاستعمل المرعىٰ في مطلق المأكول للإنسان وغيره، والعلاقة استعمال المقيد في المطلق، ويجوز أن يكون استعارة تصريحية؛ حيث شبه أكل الناس برعي الدواب، وإلىٰ هذا جنح الزمخشري فقال: وأراد بمرعاها: ما يأكل الناس والأنعام، واستعير الرعي للإنسان، كما استعير الرتع له في قوله تعالى: ﴿نرتع ونلعب﴾ في سورة يوسف بجامع أكل كل من الإنسان والحيوان من النبات.

ومنها: استعمال البناء في موضع السقف في قوله: ﴿ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ فإنَّ السماء سقف مرفوع، والبناء إنما يستعمل في أسافل البناء، لا في الأعالي؛ للإشارة إلىٰ أنه وإن كان سقفاً، لكنه في البعد عن الاختلال والانحلال كالبناء، فإنَّ البناء أبعد عن تطرق الاختلال إليه بالنسبة إلىٰ السقف.

ومنها: التعبير عن النهار بالضحىٰ، وهو ضوء الشمس أول النهار في قوله ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾؛ أي: أبرز نهارها، لأنه أشرف أوقاته وأطيبها علىٰ طريقة تسمية المحل باسم أشرف ما حل فيه، فكان أحق بالذكر في مقام الامتنان، وهو السر في تأخير ذكره عن ذكر الليل.

ومنها: إضافة الليل والضحىٰ إلىٰ السماء لدوران حدوثهما علىٰ حركتها، والإضافة يكفيها أدنىٰ ملابسة المضاف إليه، ويجوز أن تكون إضافة الضحىٰ إليها بواسطة الشمس، أي: أبرز ضوء شمسها بتقدير المضاف، فيكون من مجاز الحذف، والتعبير عنه بالضحى؛ لأنه وقت قيام سلطانها، وكمال إشرافها.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾، فقد استعار الإرساء للساعة، وهو لا يستعمل إلا فيما له ثقل من الأجرام كالسفينة.

ومنها: القصر في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ فهو إما من قصر الموصوف علىٰ الصفة، فيكون المعنى: ما أنت إلا منذر لا يعلم وقتها، أو من قصر الصفة علىٰ الموصوف، فيكون المعنىٰ: ما أنت منذر إلا من يخشاها.

ومنها: تخصيص ﴿من يخشى﴾ مع أنه مبعوث إلى من يخشى ومن لا يخشى؛ لأنهم هم المنتفعون به؛ أي: لا يؤثر الإنذار إلا فيهم.

ومنها: التشبيه المرسل المجمل في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

موضوعات هذه السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على الموضوعات التالية:

١ ـ إثبات البعث.

٢ ـ مقالة المشركين في إنكاره، والرد عليهم.

٣ ـ قصص موسىٰ مع فرعون، وفيه تسلية لرسول الله ﷺ.

٤ ـ إقامة البرهان علىٰ إثبات البعث.

٥ ـ أهوال يوم القيامة.

٦ ـ الناس في هذا اليوم فريقان: سعداء وأشقياء، بحسب أعمالهم في الدنيا.

٧ ـ سؤال المشركين عن الساعة وميقاتها.

٨ ـ نهي النبي ﷺ عن البحث عنها، واشتغاله بأمرها.

٩ ـ ذهول المشركين من شدة الهول عن مقدار ما لبثوا في الدنيا(١).

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، تم تفسير هذه السورة في تاريخ: ٢٣/ ٧/ ١٤١٦هـ.

سورة عبس

سورة عبس، وتسمى: سورة السفرة، نزلت بعد سورة النجم، وهي مكية في قول الجميع.

وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة عبس بمكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

وآياتها: إحدى وأربعون، أو اثنان وأربعون آية، وكلماتها: مئة وثلاث وثلاثون كلمة. وحروفها: خمس مئة وثلاثون حرفاً.

ومناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى ذكر في ما قبلها أنه ﷺ منذر من يخشاها، وذكر في هذه حال من ينفعه الإنذار من عباد الله المخلصين، فيسعى إلىٰ الخير بنفسه، ويعمل ما يزكي نفسه ويطهر قلبه، وذكر من لا ينفعه الإنذار وهم الذين كان رسول الله ﷺ يناجيهم في أمر الإسلام: عقبة بن ربيعة وأبو جهل وأبي وأمية ابنا خلف، ويدعوهم إليه.

والقصد الأهم في التعليم وفي تبليغ الرسالة إنما هو تعليم من جاء يسعىٰ، وهو يرغب ويخشى، ومثل هذا تنفعه الذكرىٰ، فيزكىٰ من كل ما يشين خلقه، أو يمس دينه، ومثل هذا الخاشع الخاضع ينذره الرسول ﷺ ويبشره ويذكره، فيذكر ويشكر، ويصبر ويصابر حتىٰ يلقىٰ الله سبحانه وهو على ذلك.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال أبو عبد الله محمد بن حزم: سورة عبس كلها محكم إلا قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾ [الآية: ١١ـ ١٢] نسخ بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [٢٩ سورة التكوير].

تسميتها: سميت بسورة عبس؛ لذكر لفظ ﴿عَبَسَ﴾ فيها.

والله أعلم

* * *

(١) النقول.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ
﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ
يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ
مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن
نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ
مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا
فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ
وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ
﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ
يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾

المناسبة

تقدم لك بيان المناسبة بين أول هذه السورة وآخر ما قبلها قريباً.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] حادث ابن أم مكتوم، وعَتْبَهُ علىٰ رسله فيما كان منه معه.. أردف ذلك ببيان أن الهداية التي يسوقها الله سبحانه إلىٰ البشر علىٰ ألسنة رسوله ليست من الأمور التي يحتال لتقريرها في النفوس، وتثبيتها في القلوب، وإنما هي تذكرة يقصد بها تنبيه الغافل إلىٰ ما جبل عليه الخلق من معرفة توحيده، فمن أعرض عن ذلك.. فإنه معاند يقاوم ما يدعوه إليه حسه، وتنازعه إليه نفسه، فما عليك إلا أن تبلغ ما عرفت عن ربك لتذكر به الناس، وتنبه الغافل، أما أن تحابي القوي المعاند ظناً منك أن مداجاته ترده عن عناده.. فذلك ليس من شأنك، ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾﴾ وهذه الهداية أودعها سبحانه في

---

(١) المراغي.

الصحف الإلهية الشريفة القدر، المطهرة من النقائص والعيوب، وأنزلها علىٰ الناس بوساطة ملائكته الكرام البررة.

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما بين حال القرآن، وذكر أنه كتاب الذكرىٰ والموعظة، وأن في استطاعة كل أحد أن ينتفع بعظاته لو أراد.. أردف[1] ذلك ببيان أنه لا يسوغ للإنسان مهما كثر ماله، ونبه شأنه، أن يتكبر ويتعاظم ويعطي نفسه ما تهواه، ولا يفكر في منتهاه، ولا فيمن أنعم عليه بنعمة الخلق والإيجاد، وصوَّره في أحسن الصور في أطوار مختلفة، وأشكال متعددة، ثم لا يلبث إلا قليلاً علىٰ ظهر البسيطة حتىٰ يعود إلىٰ التراب كما كان، ويوضع في لحده إلىٰ أمد قدره الله تعالىٰ في علمه، ثم يبعثه من قبره ويحاسبه علىٰ ما عمل في الدار الأولى، ويستوفي جزاءه، إن خيراً وإن شراً؛ فإما إلى الجنة، وإما إلىٰ النار، لكنه ما أكفره بنعمة ربه، وما أبعده عن اتباع أوامره واجتناب نواهيه.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر الدلائل علىٰ قدرته، وهي كامنة في نفس الإنسان، يراها في يومه بعد أمسه.. أردفها بذكر الآيات المنبثة في الآفاق الناطقة ببديع صنعه وباهر حكمته.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ...﴾ إلىٰ آخر السورة مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى، لما عدد آلاءه علىٰ عباده، وذكَّرهم بإحسانه إليهم في هذه الحياة، وبين أنه لا ينبغي للعاقل بعد كل ما رأى أن يتمرد عن طاعة صاحب هذه النعم الجسام.. أعقب[2] هذا بتفصيل بعض أحوال يوم القيامة، وأهوالها التي توجب الفزع والخوف منه؛ ليدعوه ذلك إلى التأمل فيما مضىٰ من الدلائل التي ترشد إلىٰ وحدانيته وقدرته، وصحة البعث، وأخبار يوم القيامة التي جاءت علىٰ ألسنة رسله، ويتزود بصالح الأعمال التي تكون نبراساً يضيء أمامه في ظلمات هذا اليوم، وذكر أن الناس حينئذٍ فريقان: فريق ضاحك مستبشر فَرِحٌ فَرَحَ المحب يلقىٰ حبيبه، وهو من كان يعتقد الحق ويعمل للحق، وفريق تعلو وجهه الغبرة، وترهقه

(١) المراغي. (٢) المراغي.

القترة، وهو الذي تمرد علىٰ الله ورسوله، وأعرض عن قبول ما جاءه من الحق، ولم يعمل بما أمر به من صالح الأعمال.

أسباب النزول

أجمع المفسرون علىٰ أن سبب نزول هذه السورة الصحابي الجليل عبد الله ابن أم مكتوم، وهو ابن خال خديجة الكبرىٰ رضي الله عنهما، وكان أعمىٰ، وهو من المهاجرين الأولين، وقد استخلفه النبي ﷺ على المدينة أكثر من مرة يصلي بالناس، ويؤمهم في أهم ركن من أركان دينهم، وهو الصلاة المكتوبة، وكان يتولىٰ الأذان بنفسه، ولكنه كان يؤذن بعد بلال في الفجر.

وخلاصة قصته هنا: أنه رضي الله عنه أتىٰ النبي ﷺ، وهو بمكة المكرمة، وكان مع النبي ﷺ صناديد قريش، ووجوه مكة وكبراؤها، وفيهم: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وأمية بن خلف، والوليد بن المغيرة، وكان النبي ﷺ يحدثهم حديث الإيمان، ويدعوهم إلى الإسلام، ويذكرهم بالله عزّ وجلّ، ويحذرهم بطشه وعذابه وغضبه، ويعدهم أحسن المثوبة وأجزل العطاء، وأعلى المنازل، إن هم أسلموا وشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وكان النبي ﷺ راغباً في إسلامهم، حريصاً علىٰ إيمانهم؛ لأنه ﷺ علم أنه سيسلم بإسلامهم كثير من الناس؛ إذ هم سادة قريش وقادتهم، وبيدهم أمورهم، وفي حالة تحدث الرسول ﷺ معهم، ودعوتهم لهم، جاء ابن أم مكتوم، ونادى الرسولَ وهو لا يعلم تشاغله بالقول، فقال: يا رسول الله، أقرئني، وعلمني مما علمك الله تعالىٰ، وكرر ذلك مراراً، فكره الرسول ﷺ قطعه لكلامه معهم، وظهرت في وجهه الكراهة، فعبس وأعرض عن هذا الأعمى، واستمر في دعوته مع هؤلاء القوم، فنزلت هذه السورة، وفيها العتاب من رب العزة لنبيه وحبيبه محمد ﷺ علىٰ موقفه من هذا الذي جاء يزكّىٰ، ويذكر فتنفعه الذكرىٰ، وهو يخشىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ سبب نزوله[1]: ما أخرجه ابن المنذر عن عكرمة قال: نزل في عتبة بن أبي لهب حين قال: كفرنا برب النجم.

---

(١) لباب المنقول.

التفسير وأوجه القراءة

﴿عَبَسَ﴾ الرسول الكريم محمد ﷺ؛ أي: قطب وكلح، وغير لون وجهه، وانقبض لأجل أن جاءه الأعمى ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أي: أعرض بوجهه عنه لأجل ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ ولم يلتفت إليه، والضمير لمحمد ﷺ، وهو علة التولي علىٰ رأي البصريين لقربه منه، ولـ﴿عَبَسَ﴾ علىٰ رأي الكوفيين لسبقه، والمختار: مذهب البصريين؛ لعدم الإضمار في الثاني، وجاء في[1] هذه المواضع بضمائر الغائب إجلالاً له ﷺ، ولطفاً به لما في المشافهة بتاء الخطاب مما لا يخفىٰ، وجاء بلفظ ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ إشعاراً بما يناسب من الرفق به، والإصغاء لما يقصده. ا هـ «البحر».

والأعمىٰ من اتصف بالعمىٰ، والعمىٰ: افتقاد البصر، ويقال في افتقاد البصيرة أيضاً، ولام[2] الأعمىٰ للعهد، فيراد به: أعمىٰ معروف، وهو ابن مكتوم المؤذِّن الثاني لرسول الله ﷺ في أذان الفجر، ولذلك قال ﷺ: «إن بلالاً يؤذن بليل، فكلوا واشربوا حتىٰ يؤذن ابن أم مكتوم». وكان من المهاجرين الأولين، استخلفه النبي ﷺ علىٰ المدينة مرتين حين خرج غازياً، وقيل: ثلاث مرات، مات بالمدينة، وقيل: شهيداً بالقادسية في خلافة عمر، وهي قرية فوق الكوفة.

واختلفوا في اسم ابن أم مكتوم، فقيل: هو عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري من بني عامر بن لؤي، وقيل: عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم من بني عامر بن هلال، وهو ابن خال خديجة رضي الله عنها، وأم مكتوم اسم أم أبيه كما في «الكشاف»، وقال السعدي: هو وهم، فقد نص ٱبن عبد البر وغيره أنها أمه، واسمها: عاتكة بنت عامر بن مخزوم.

وقد تقدم لك في أسباب النزول ما روي أن ابن أم مكتوم أتى رسول الله ﷺ، وذلك في مكة، وعنده صناديد قريش ـ كما مر بيان أسمائهم هناك ـ يدعوهم إلىٰ الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم؛ لأن عادة الناس أنه إذا مال أكابرهم إلىٰ أمر.. مال إليه غيرهم، كما قيل: الناس علىٰ دين ملوكهم، فقال له: يا رسول الله علمني مما علمك الله أنتفع به، وكرر ذلك، وهو لا يعلم تشاغله ﷺ بالقوم إذ

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

السمع لا يكفي في العلم بالتشاغل، بل لا بد من الإبصار علىٰ أنه يجوز أنهم كانوا يخفضون أصواتهم عند المكالمة، أو جاء الأعمىٰ في منقطع من الكلام، فكره رسول الله ﷺ قطعه لكلامه، واشتغاله به عنه، وعبس وأعرض عنه، وأقبل علىٰ القوم الذين يكلِّمهم، وقال في نفسه: يقول هؤلاء الصناديد: إنما اتبعه العميان والعبيد والسفلة، فرجع ابن أم مكتوم محزوناً خائفاً أن يكون عبوسه وإعراضه عنه إنما هو لشيء أنكره الله منه، فنزلت هذه الآيات.

فإن قيل[1]: ابن أم مكتوم قد استحق التأديب والزجر؛ لأنه وإن كان لا يرىٰ القوم، لكنه لشدة سمعه كان يسمع مخاطبة الرسول معهم، ويعرف بذلك شدة اهتمامه بشأنهم، فيكون إقدامه علىٰ قطع كلام رسول الله ﷺ إيذاءً له، وهو معصية، وأيضاً: الأهم مقدم علىٰ المهم؛ لأن إسلامهم سبب لإسلام جمع عظيم، فكان الاشتغال بهم، وتقدير الدلائل لهم أهم، فكيف عاتب الله تعالى رسوله على التولي عنه؟

أجيب: بأن ما فعله يوهم ظاهره تقديم الأغنياء علىٰ الفقراء، وقلة المبالاة بانكسار قلوب الفقراء، وليس ذكره بلفظ الأعمىٰ مقتضياً لتحقيره، بل لبيان عذره في الإقدام علىٰ قطع كلام رسول الله ﷺ، والدلالة علىٰ أنه أحق بالرأفة والرفق، كما مر. ا هـ «زاده».

وكان رسول الله ﷺ يكرمه ويقول إذا رآه: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي» أي: لامني مع بقاء المحبة، ويقول: «هل لك من حاجة»، ويقال: إن رسول الله ﷺ لم يغتم في عمره كغمه حين أنزلت عليه سورة عبس؛ لأن فيها عتباً شديداً علىٰ مثله؛ لأنه الحبيب الرشيد، ومع ذلك فلم يجعل ذلك بينه وبينه، فيكون أيسر للعتاب، بل كشف ذلك للمؤمنين، ونبه علىٰ فعله عباده المتقين.

ولذلك روي أن عمر بن خطاب رضي الله عنه بلغه أن بعض المنافقين يؤم قومه، فلا يقرأ فيهم إلا سورة عبس، فأرسل إليه فضرب عنقه، لما استدل بذلك علىٰ كفره، ووضع مرتبته عنده وعند قومه، قال ابن زيد: لو جاز له أن يكتم شيئاً

---

(١) زاده.

من الوحي.. لكان هذا، وكذا نحو قوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾، ونحو قوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿عَبَسَ﴾ مخففاً، ﴿أَن﴾ بهمزة واحد. وقرأ زيد بن علي: ﴿عبس﴾ بتشديد الباء للمبالغة، وقرأ زيد بن علي والحسن وأبو عمران الجوني وعيسى: ﴿ءآن﴾ بهمزة ومدة بعدها. وقرأ بعض القراء بهمزتين مخففتين، والهمزة في هاتين القراءتين للاستفهام الإنكاري، وفيهما يوقف علىٰ ﴿تَوَلَّىٰٓ﴾. والمعنىٰ: ألأن جاء الأعمىٰ كان كذا وكذا.

واعلم[2]: أنه كان ما فعله ﷺ من باب ترك الأولىٰ، فلا يعد ذنباً لأن اجتهاده ﷺ في طلب الأولى، والتعرض لعنوان عماه، مع أن ذكر الإنسان بهذا الوصف يقتضي تحقير شأنه، وهو ينافي تعظيمه المفهوم من العتاب علىٰ العبوس في وجهه؛ إما لتمهيد عذره في الإقدام علىٰ قطع كلامه ﷺ للقوم، والإيذان باستحقاقه الرفق والرأفة لا الغلظة كما مر، وإما لزيادة الإنكار، فإن أصل الإنكار حصل من دلالة المقام كأنه تولىٰ لكونه أعمىٰ، وهو لا يليق بخلقه العظيم، كما أن الالتفات في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ لذلك، فإن المشافهة أدخل في تشديد العتاب، كمن يشكو إلىٰ الناس جانياً جنى عليه، ثم يقبل على الجاني إذا حمي في الشكاية مواجهاً له بالتوبيخ؛ أي: وأيُّ شيء يجعلك يا محمد دارياً وعالماً بحاله، ويطلعك على باطن أمره، حتىٰ تعرض عنه؛ أي: لا يدريك شيء، فتم الكلام عنده فيوقف عليه، وليس ما بعده مفعوله، بل هو ابتداء كلام. وقال السهيلي[3] ـ رحمه الله تعالىٰ ـ: انظر كيف نزلت الآية بلفظ الإخبار عن الغائب، فقال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾، ولم يقل: عبست وتوليت، وهذا شبيه حال الغائب المعرض، ثم أقبل عليه بمواجهة الخطاب، فقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ علماً منه تعالى أنه لم يقصد بالإعراض منه إلا الرغبة في الخير، ودخول ذلك المشرك في الإسلام، وهو الوليد، أو أمية، وكان مثله يسلم بإسلامه بشر كثير، فكلم نبيه ﷺ حين ابتداء الكلام بما يشبه كلام المعرض عنه العاتب، ثم واجهه بالخطاب تأنيساً له ﷺ بعد الإيحاش، فإنه قيل: إن ابن أم مكتوم كان قد أسلم، وتعلم ما كان يحتاج إليه

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان. (٣) روح البيان.

من أمور الدين، وأما أولئك الكفار.. فما كانوا قد أسلموا، وكان إسلامهم سبباً لإسلام جمع عظيم، فكلامه في البين سبب لقطع ذلك الخير العظيم لغرض قليل، وذلك محرم، والأهم مقدم على المهم، فثبت بهذا أن فعل ابن أم مكتوم كان ذنباً ومعصيةً، وما فعله النبي ﷺ كان واجباً، فكيف عاتبه الله سبحانه وتعالى علىٰ ذلك؟.

قيل: إن الأمر وإن كان كما ذكر، إلا أن ظاهر ما فعله الرسول ﷺ يوهم تقديم الأغنياء علىٰ الفقراء، وقلة المبالاة بانكسار قلوب الفقراء، وهو لا يليق بمنصب النبوة، لأنه ترك الأفضل، كما أشير إليه سابقاً، فلذا عاتبه الله تعالى. انتهى.

والحاصل: أن الله سبحانه وتعالى عاتب نبيه ﷺ بأن ضعف ذلك الأعمى وفقره لا ينبغي أن يكون باعثاً علىٰ كراهة كلامه، والإعراض عنه لأن ذلك يورث انكسار قلوب الفقراء، وهو مطالب بتأليف قلوبهم، كما قال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾، وقال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾. ولأنه كان ذكي الفؤاد، إذا سمع الحكمة.. وعاها، فيتطهر بها من أوضار الآثام، وتصفو بها نفسه، أو يذكر بها ويتعظ، فتنفعه العظة في مستأنف أيامه. أما أولئك الأغنياء.. فأكثرهم جحدة أغبياء، فلا ينبغي التصدي لهم طمعاً في إقبالهم علىٰ الإسلام ليتبعهم غيرهم، وقوة الإنسان إنما هي في ذكاء لبه وحياة قلبه، وإذعانه للحق متىٰ لاحت له أمارته، أما المال والنسب والحشم والأعوان.. فهي عوار تجيء وترتحل، وتقر حيناً، ثم تنتقل.

والخلاصة: أن الله سبحانه عاتب نبيه وأمره بأن يقبل علىٰ ذي العقل الذكي، ونهاه أن ينصرف عنه إلىٰ ذي الجاه القوي، فإن الأول حي بطبعه، والثاني غائب بحسه. ﴿لَعَلَّهُۥ﴾؛ أي: لعل ذلك الأعمى ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾ بتشديدين، أصله: يتزكىٰ؛ أي: لعله يتطهر بما يسمعه منك، ويتلقاه عنك، ويقتبس منك من أوصار الآثام والأوزار

---

(١) المراغي.

بالكلية، وكلمة ﴿لعل﴾[1] مع تحقق التزكِّي وارد علىٰ سنن الكبراء، فإن لعل في كلام العظماء يراد به القطع والتحقق، أو على اعتبار معنىٰ الترجي بالنسبة إليه ﷺ للتنبيه علىٰ أن الإعراض عنه عند كونه مرجو التزكي مما لا يجوز، فكيف إذا كان مقطوعاً بالتزكي، كما في قولك: لعلك ستندم علىٰ ما فعلت، وجملة ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ مستأنفة لبيان أنَّ له شأناً ينافي الإعراض عنه، فالضمير في ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ راجع للأعمى كما مر آنفاً، وقيل[2]: هو راجع إلىٰ الكافر؛ أي: وما يدريك أن ما طمعت فيه ممن اشتغلت بالكلام معه عن الأعمىٰ أنه يزكى أو يذكر، والأول أولىٰ، قال أبو حيان: وهذا القول الأخير ينزه عنه حمل القرآن عليه.

﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ﴾ بتشديدين أيضاً، أصله: يتذكر، والتذكر: الاتعاظ؛ أي: أو يتعظ. ﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾؛ أي: فتنفعه ذكراك وموعِظتك إن لم يبلغ درجة التزكي التام، وفي «الكشاف»: المعنىٰ: إنك لا تدري ما هو مترقب منه من تزك أو تذكر، ولو دريت لما فرط ذلك منك. انتهىٰ.

أشار بذلك إلى أن قوله: ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾ من باب التخلية من الأثام، وقوله: ﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ﴾ من باب التحلية ببعض الطاعات، ولهذا دخلت كلمة الترديد، فقوله: ﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ﴾، عطف علىٰ ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾ داخل معه في حكم الترجي، وقوله: ﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾ بالنصب علىٰ جواب لعل تشبيهاً له بليت، كقوله: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾، وفيه إشارة إلىٰ أن من تصدى لتزكيتهم وتذكيرهم من المشركين، لا يرجىٰ منهم التزكي ولا التذكر أصلاً، وإشعار بأن اللائق بالعالم أن يقصد بتعليمه تزكية متعلمه، ولا ينظر إلىٰ شبحه وصورته، كما ينظر العوام، وبالمتعلم أن يريد بتعلمه تزكية نفسه عن أرجاس الضلالة، وتطهير قلبه من أدناس الجهالة، لا أحكام الدنيا الدنية.

وقرأ الجمهور: ﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ﴾ بتشديد الذال والكاف، وأصله يتذكر ـ كما مر ـ فأدغم. وقرأ الأعرج وعاصم في رواية: ﴿أو يذكر﴾ بسكون الذال وضم الكاف.

وقرأ الجمهور ﴿فَتَنْفَعُهُ﴾ برفع العين، عطفاً علىٰ ﴿أو يذكرُ﴾. وقرأ عاصم في المشهور والأعرج وأبو حيوة وابن أبي عبلة والزغفراني بنصبهما. ثم ذكر أن أمره

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

مع الحاضرين في مجلسه انحصر في شيئين:

١ ـ ﴿أَمَّا﴾ للتفصيل ﴿من استغنى﴾ عن الإيمان، وعما عندك من العلوم والمعارف التي ينطوي عليها القرآن ﴿فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾﴾ بحذف إحدى التائين تخفيفاً، أي: فأنت له تتصدىٰ وتتهيأ له وتتعرض بالإقبال عليه والاهتمام بإرشاده واستصلاحه دون الأعمى، وفيه مزيد تنفير له ﷺ عن مصاحبتهم، فإن الإقبال علىٰ المدبر ليس من شيم الكرام، والتصدي للشيء التعرض له والتقيد به، والاهتمام بشأنه، وضده الشاغل عنه. وفي «المفردات»: التصدي: أن يقابل الشيء مقابلة الصدىٰ؛ أي: الصوت الراجع من الجبال، وفي «كشف الأسرار»: التصدي: التعرض للشيء علىٰ حرص كتعرض الصديان للماء؛ أي: العطشان، وعن بعضهم: أصل تصدى تصدد من الصدد، وهو ما استقبلك وجاء قبالتك، فأبدل أحد الأمثال حرف علة.

والمعنىٰ: أي أما من استغنى بماله وقوته عن الإيمان، وعما عندك من المعارف التي يشتمل عليها الكتاب المنزل عليك، فأنت تقبل عليه حرصاً علىٰ إسلامه، ومزيد الرغبة في إيمانه ﴿وَمَا عَلَيْكَ﴾؛ أي: وليس عليك بأس ووزر ووبال في ﴿أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾؛ أي: في أن لا يتزكىٰ ذلك المستغني عن الإسلام حتىٰ تهتم بأمره، وتعرض عمن أسلم، إن عليك إلا البلاغ، وكيف تحرص على إسلام من ليس له قابلية، وقد خلق علىٰ حب الدنيا، والعمىٰ عن الآخرة، وفيه استهانة لمن أعرض عنه، وتحقير لأمره، وحض على الإعراض عنه، وترك الاهتمام به.

﴿فَمَا﴾ نافية، وكلمة في المقدرة متعلقة باسم ﴿ما﴾، وهو محذوف، والجملة حال من ضمير ﴿تَصَدَّىٰ﴾ مقررة لجهة الإنكار، ويجوز أن تكون ﴿مَآ﴾ استفهامية؛ أي: أي شيء عليك في أن لا يسلم ولا يهتدي، فإنه ليس عليك إلا البلاغ.

وقرأ الحسن وأبو رجاء وقتادة والأعرج وعيسىٰ والأعمش وجمهور السبعة: ﴿تَصَدَّىٰ﴾ بتخفيف الصاد، وأصله: تتصدى، فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً، وقرأ

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.
(٤) البحر المحيط.

الحرميان نافع وابن كثير بتشديدها، أدغمت التاء في الصاد. وقرأ أبو جعفر: ﴿تصدى﴾ بضم التاء وتخفيف الصاد؛ أي: يصديك حرصك علىٰ إسلامه، يقال: تصدى الرجل وصديته.

وحاصل المعنىٰ: أي وإن الذي استغنىٰ عن الإيمان بالله، وعن طاعته وطاعة رسوله، واستغنى بماله وجاهه عن قبول الحق، وعن استماع النصيحة، وعن سماع القرآن، فأنت تتعرض له، وتشغل نفسك بوعظه والإقبال عليه، مع أنك رسول مبلغ، وما عليك إلا البلاغ، وقد أديت ما يجب عليك، فإن كان المغرور قد ظن في ماله غنىٰ عن هداية الله تعالىٰ، ورضي لنفسه أن يبقىٰ في دنس الكفر، فما عليك عيب في بقائه كذلك، فما بالك يشتد عليك الحرص علىٰ إسلامه.

وقصارىٰ ذلك: لا يبلغن بك الحرص علىٰ إسلامهم، والاشتغال بدعوتهم أن تعرض عن الذين سبقت لهم منا الحسنىٰ.

٢ ـ ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ﴾ حال كونه ﴿يَسْعَىٰ﴾ ويمشي بسرعة في أمر دينه؛ أي: حال كونه مسرعاً طالباً لما عندك من أحكام الرشد، وخصال الخير، ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: والحال أنه ﴿يَخْشَىٰ﴾ الله سبحانه وتعالى، أو يخشىٰ الكفار وأذاهم بإتيانك، أو يخاف العثار والسقوط؛ لكونه أعمىٰ، وقد جاء بلا قائد يقوده. قال سعدي[1] المفتي الظاهر أن النظم من الاحتباك، ذكر الغنى أولاً للدلالة علىٰ الفقر ثانياً، وذكر المجيء والخشية ثانياً للدلالة علىٰ ضدهما أولاً ﴿فَأَنتَ﴾ يا محمد ﴿عَنْهُ﴾؛ أي: ذلك الجائي الخاشي ﴿تَلَهَّىٰ﴾ بحذف إحدى التاءين تخفيفاً؛ أي: تتهلىٰ[2] وتتشاغل من لهي عن الشيء ـ بكسر الهاء بوزن رضي ـ يلهى لهياً: أعرض عنه، لا من لهوت بالشيء بالفتح ألهو لهواً إذا لعبت به؛ لأن الفعل مسند إلىٰ ضمير النبي ﷺ، ولا يليق بشأنه الرفيع أن ينسب إليه التفعل من اللهو بخلاف الاشتغال عن الشيء لمصلحة، وفي بعض التفاسير: ولو أخذ من اللهو، وجعل التشاغل بأهل التغافل من جنس اللهو واللعب؛ لكونه عبثاً لا يترتب عليه نفع لم يخل عن وجه. انتهى.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

وفيه أنه يلزم منه أن يكون الاشتغال بالدعوة عبثاً، ولا يقول به المؤمن، وذلك لأنه لا يجوز للنبي ﷺ التشاغل بأهل التغافل إلا بطريق التبليغ والإرشاد، فكيف لا يترتب عليه نفع، وفي تقديم ضميره ﷺ، وهو ﴿أنت﴾ علىٰ الفعلين تنبيه علىٰ أن مناط الإنكار خصوصيته ﷺ؛ أي: مثلك خصوصاً لا ينبغي أن يتصدىٰ للمستغني، ويتلهىٰ عن الفقير الطالب للخير، وفي تقديم ﴿لَهُۥ﴾ و ﴿عَنْهُ﴾ للتعريض باهتمامه ﷺ بمضمونهما تنبيه؛ حيث أفادت القصة أن العبرة بالأرواح والأحوال، لا بالأشباح والأموال، والعزيز: من أعزه الله بالإيمان والطاعة، وإن كان بين الناس ذليلاً، والذليل: من أذله الله بالكفر والمعصية، وإن كان بين الناس عزيزاً.

روي: أنه ﷺ ما عبس بعد ذلك في وجه فقير قط، ولا تصدىٰ لغني، وكان الفقراء في مجلسه ﷺ أمراء، يعني: كان يحترمهم كل الاحترام، وفيه تأديب للصغير بالكبير، فحملة العلم والشرع والحكام مخاطبون في تقريب الضعيف من أهل الخير، وتقديمه علىٰ الشريف العاري عن الخير بمثل ما خوطب به النبي ﷺ في هذه السورة، وقرأ الجمهور: ﴿تَلَهَّىٰ﴾ والبزي عن ابن كثير: ﴿عنه تلهى﴾ بإدغام تاء المضارعة في تاء تفعل، وأبو جعفر بضمها مبنياً للمفعول؛ أي: يشغلك دعاء الكافر للإسلام، وطلحة بتاءين، وعنه: بتاء واحدة وسكون اللام. ا هـ من «البحر».

وخلاصة المعنىٰ: أي وأما من جاءك مسرعاً في طلب الهداية، والقرب من ربه، وهو يخشاه، ويحذر الوقوع في الغواية، فأنت تتهلىٰ عنه، وتتغافل عن إجابته إلىٰ مطلبه.

وقوله: ﴿كَلَّآ﴾ ردع(١) له ﷺ عما عوتب عليه؛ أي: لا تفعل بعد هذا الواقع منك مثله من الإعراض عن الفقير، والتصدي للغني، والتشاغل به مع كونه ليس ممن يتزكىٰ عن إرشاد من جاءك من أهل التزكي والقبول للموعظة، وهذا الواقع من النبي ﷺ هو من باب ترك الأولىٰ والأفضل، فأرشده الله سبحانه إلىٰ ما هو الأولىٰ به.

---

(١) الشوكاني.

والمعنىٰ: أي انزجر عن التصدي للمستغني، والإعراض عن إرشاد المسترشد. قال الحسن: لما تلا جبريل هذه الآيات علىٰ النبي ﷺ. . عاد وجهه كأنما استعب فيه الرماد؛ أي: تغير كأنما ذر عليه الرماد، ينتظر ما يحكم الله عليه، فلما قال: ﴿كَلَّآ﴾ سري عنه؛ أي: لا تفعل مثل ذلك فإنه غير لائق بك ﴿إِنَّهَا﴾؛ أي إن هذه الآيات أو السورة أو القرآن، والتأنيث باعتبار الخبر، وهو قوله: ﴿تَذْكِرَةٌ﴾؛ أي: موعظة حقها أن تتعظ بها، وتقبلها، وتعمل بموجبها، ويعمل بها كل أمتك.

والمعنىٰ: أي ليس الأمر كما تعمل أيها الرسول بأن تعبس في وجه من جاءك يسعىٰ وهو يخشىٰ، وتقبل علىٰ من استغنى، بل الهداية المودعة في الكتب الإلهية، وأجلها القرآن تذكير ووعظ وتنبيه لمن غافل عن آيات ربه.

وقد وصف سبحانه تلك التذكرة بأوصاف تدل علىٰ مالها من عظيم الشأن، فقال:

١ - ﴿فَمَن شَآءَ﴾؛ أي؛ فمن رغب فيها ﴿ذَكَرَهُۥ﴾؛ أي: القرآن؛ أي: حفظه، ولم ينسه، وعمل بموجبه؛ أي: فمن رغب فيها اتعظ بها وحفظها وعمل بموجبها، ومن رغب عنها كما فعله من استغنى فلا حاجة إلىٰ الاهتمام بأمره، قيل[1]: الضميران في ﴿إِنَّهَا﴾، وفي ﴿ذَكَرَهُۥ﴾ للقرآن، وتأنيث الأول لتأنيث خبره، وقيل: الأول للسورة أو للآيات السابقة، والثاني: للتذكرة؛ لأنها في معنى الذكر، وقيل: إن معنىٰ: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾ فمن شاء الله ألهمه وفهمه القرآن حتىٰ يذكره ويتعظ به، والأول أولىٰ.

وحاصل المعنى: أي إن التذكرة بينة ظاهرة، فلو أن إنساناً أراد أن يتدبرها ويتفهم معناها، ويتعظ بها، ويعمل بموجبها لقدر علىٰ ذلك واستطاعه، ولا يمنعه عن الاهتداء بها إلا عدم المشيئة عناداً واستكباراً، ثم أخبر سبحانه عن عظم هذه التذكرة وجلالتها، فقال:

٢ - ﴿فِى صُحُفٍ﴾: إنها تذكرة كائنة في صحف جمع صحيفة، وكل مكتوب عند العرب صحيفة، فالجار[2] والمجرور متعلق بمحذوف، وهو صفة لـ ﴿تَذْكِرَةٌ﴾، وما

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

بينهما اعتراض بين الصفة والموصوف، جيء به للترغيب فيها، والحث على حفظها؛ أي: إنها تذكرة كائنة في صحف منتسخة من اللوح، أو خبر ثانٍ لـ ﴿إن﴾، فالجملة معترضة بين الخبرين. ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾: صفة لـ ﴿صُحُفٍ﴾؛ أي: مكرمة مشرفة عند الله تعالىٰ لما فيها من العلم والحكمة، أو لأنها نازلة من اللوح المحفوظ، وقيل: صحف القرآن المكرم؛ لأن الصحف يطلق علىٰ كتب الأنبياء، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾. ومعنى: ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ رفيعة القدر والذكر عند الله تعالى، فإنها في المشهور موضوعة في السماء الدنيا في مكان يقال له: بيت العزة، وقيل: مرفوعة في السماء السابعة. قال الواحدي[١]: قال المفسرون ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾ يعني: اللوح المحفوظ ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ يعني: في السماء السابعة. وقال ابن جرير: مرفوعة القدر والذكر، وقيل: مرفوعة عن الشبهة والتناقض ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾؛ أي: منزهة عن مساس أيدي الشياطين، لا يمسها إلا المطهرون، وفيه: أن الصحف بأيدي الملائكة في السماء الدنيا، والشياطين لا يصلون إلى السماء، فلا يظهر مدح الصحف بتطهرها عن مسهم. وقال الحسن: مطهرة من كل دنس ونقص. وقال السدي: مصانة من الكفار لا ينالونها.

والظاهر[٢]: أن الجار والمجرور في قوله: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾ صفة لـ ﴿صُحُفٍ﴾؛ أي: في صحف كائنة بأيدي سفرة، أو مكتوبة بأيدي كتبة من الملائكة ينتسخونها من اللوح المحفوظ، ومن هذا[٣] وقف بعضهم علىٰ ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ وقفاً لازماً هرباً من توهم تعلق الباء به، وقيل: الباء متعلقة بـ ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾. قال القفال في توجيهه: لما لم يمسها إلا الملائكة المطهرون. . أضيف التطهير إليها لطهارة من يمسها، وقال القرطبي: إن المراد بقوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾: هؤلاء السفرة الكرام البررة، و﴿السفرة﴾: جمع سافر، ككتبة وكاتب، من السفر، وهو الكتب؛ إذ في الكتابة معنىٰ السفر؛ أي: الكشف والتوضيح، والكاتب سافر؛ لأنه يبين الشيء ويوضحه، وسمي السفر بفتحتين سفراً؛ لأنه يسفر ويكشف عن أخلاق المرء، قالوا: وهذه اللفظة مختصة بالملائكة، لا تكاد تطلق علىٰ غيرهم، وإن جاز الإطلاق بحسب اللغة.

وقال الفراء: السفرة هنا: الملائكة الذين يسفرون بالوحي بين الله تعالىٰ

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان. (٣) روح البيان.

ورسله من السفارة، وهو السعي بين القوم ﴿كِرَامٍ﴾ عند الله تعالىٰ بالقرب والشرف، فهو من الكرامة جمع كريم، أو متعطفين علىٰ المؤمنين يستغفرون لهم، فهو من الكرم ضد اللؤم. وقال ابن عطاء رحمه الله: يريد أنهم يتكرمون أن يكونوا مع ابن آدم إذا خلا مع زوجته للجماع، وعند قضاء الحاجة، يشير إلىٰ أنهم هم الملائكة الموصوفون بقوله: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ⑪﴾، وفيه تأمل. ﴿بَرَرَةٍ﴾؛ أي: أتقياء مطيعين لربهم، صادقين في إيمانهم، من بر في يمينه جمع بار، مثل: فجرة وفاجر، وكفرة وكافر.

وقوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ دعاء[1] عليه بأشنع الدعوات، فإن القتل غاية شدائد الدنيا وأفظعها، ومن فسر القتل باللعن.. أراد به الإهلاك الروحاني، فإنه أشد العقوبات؛ أي: لعن الإنسان الكافر، وفي «عين المعاني»: عذب، والمراد به: عتبة بن أبي لهب، وقيل: المراد بالإنسان من تقدم ذكره في قوله: أما من استغنىٰ، وقيل: المراد به: الجنس، وهذا هو الأولى، فيدخل تحته كل كافر شديد الكفر، ويدخل تحته من كان سبباً لنزول الآية دخولاً أولياً ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾؛ أي: ما أشد كفره بالله مع كثرة إحسانه إليه، وهذا تعجب من إفراطه في الكفران؛ أي: على صورته، فإن حقيقة التعجب إنما تتصور من الجاهل بسبب ما خفي عليه من سبب الشيء، والذي أحاط علمه بجميع المعلومات لا يتصور منه ذلك، فهو في الحقيقة تعجيب من الله وبيان لاستحقاقه للدعاء عليه؛ أي: اعجبوا من كفره بالله ونعمه مع معرفته بكثرة إحسانه إليه، وادعوا عليه بالقتل واللعن ونحو ذلك لاستحقاقه لذلك، قال بعضهم: لعن الله الكافر، وعظم كفره؛ حيث لم يعرف صانعه، ولم يعرف نفسه التي لو عرفها.. عرف صانعها.

وقال ابن الشيخ: هذا الدعاء وارد علىٰ أسلوب كلام العرب، فهو ليس من قبيل دعاء من يعجز عن انتقام من يسؤوه، وكذا هذا التعجب ليس علىٰ حقيقته؛ لأنه تعالى منزه عن العجز والجهل، بل المقصود بإيراد ما هو في صورة الدعاء: الدلالة علىٰ سخطه العظيم، والتنبيه علىٰ أنه استحق أهوال العقوبات وأشنعها، وبإيراد صيغة التعجب الذم البليغ له من حيث ارتكابه أقبح القبائح، ولا شك أن السخط يجوز من الله، وكذا الذم.

---

(١) الشوكاني.

ويجوز[1] أن يكون ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ استفهاماً بمعنىٰ: التقريع والتوبيخ؛ أي: أيُّ شيء حمله على الكفر، ثم ذكر سبحانه ما كان ينبغي لهذا الكافر أن ينظر فيه حتىٰ ينزجر عن كفره، ويكف عن طغيانه، فقال: ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨﴾؛ أي: من أيِّ شيء خلق الله هذا الكافر، والاستفهام للتقرير، ثم فسر ذلك فقال: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾: أي: من نطفة قذرة أنشأه وأوجده، فمن كان أصله مثل هذا الشيء الحقير. كيف يليق به التكبر والتجبر والكفران بحق المنعم الذي كسا ذلك الحقير بمثل هذه الصورة البهية وهذا تحقير له. قال الحسن: كيف يتكبر من خرج من مخرج البول مرتين. وعن بعضهم: كيف تكبر الإنسان وأوله نطفة مذرة، وآخره جيفة قذرة، وهو فيما بين الوقتين حمال عذرة.

ومعنىٰ: ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾؛ أي: فسواه وهيأه لما يصلح له ويليق به من الأعضاء والأشكال، فخلق له اليدين والرجلين[2] والعينين، وسائر الآلات والحواس؛ أي: أحدثه بمقدر معلوم من الأعضاء والأشكال والكمية والكيفية، فجعله مستعداً لأن ينتهي فيه إلى القدر اللائق بمصلحته، فلا يلزم عطف الشيء علىٰ نفسه، وذلك أن خلق الشيء أيضاً تقديره وإحداثه بمقدار معلوم من الكمية والكيفية. وقيل: أطواراً من حال إلىٰ حال، نطفةً ثم علقة إلىٰ أن تم خلقه، فالتقدير المفرع علىٰ الخلق مأخوذ من القدر بمعنىٰ الطور؛ أي: أوجده علىٰ التقدير الأول، ثم جعله ذا طور من علقة مضغة إلىٰ آخر أطواره ذكراً أو أنثىٰ، شقياً أو سعيداً. قال بعضهم: وعلىٰ الوجهين، فالفاء للتفصيل فإن التقدير يتضمنه علىٰ المعنيين.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠﴾ منصوب[3] علىٰ الاشتغال بفعل محذوف يفسره المذكور تقديره: ثم يسر السبيل يسره؛ أي: سهل مخرجه من البطن بأن فتح فم الرحم، وكان غير مفتوح قبل الولادة، وألهمه أن ينتكس بأن ينقلب ويصير رجله من فوق، ورأسه من تحت، ولولا ذلك لا يمكنها أن تلد، أو يسر له سبيل الخير والشر في الدين، ومكنه من السلوك فيهما، كما قال: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ۝١٠﴾، وذلك بالإقدار والتعريف له بما هو نافع وضار، وبالعقل وبعثة الأنبياء، وإنزال الكتب، ونحو ذلك. وتعريف السبيل باللام دون الإضافة بأن يقال: سبيله للإشعار بعمومه؛

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

لأنه عام للإنس والجن علىٰ المعنى الثاني، وللحيوانات أيضاً علىٰ المعنى الأول، قال ابن عطاء: يسر علىٰ من قدر التوفيق طلب رشده، واتباع نجاته. وقال أبو بكر بن طاهر: يسر علىٰ كل أحد ما خلقه له وقدره عليه.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ﴾؛ أي: قبض روحه عند تمام أجله المقدر المسمىٰ ﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾؛ أي: جعله في قبر يواريٰ فيه تكرمة له، ولم يدعه مطروحاً علىٰ وجه الأرض جزراً؛ أي: قطعاً للسباع والطير كسائر الحيوان. قال في «كشف الأسرار»: لم يجعله مما يطرح للسباع، أو يلقىٰ للنواويس، والقبر مما يكرم به المسلمون. انتهىٰ. يقال: قبر الميت إذا دفنه بيده، والقابر: هو الدافن، ومنه قول الأعشى:

لَـوْ أَسْـنَـدَتْ مَـيْـتَـاً إِلَـىٰ صَـدْرِهَـا عَـاشَ وَلَـمْ يُـنْـقَـلْ إِلَـىٰ قَـابِـرِ

والقبر: هو مقر الميت، وأقبره إذا أمر بدفنه، أو مكن منه. فالمقبر هو الله سبحانه؛ لأنه الآمر بالدفن في القبور. قال في «المفردات»: أقبرته جعلت له مكاناً يقبر فيه، نحو: أسقيته جعلت له ماء يستقي منه. وقيل: معناه: ألهم كيف يدفن. انتهى.

وعد الإماتة من النعم بالنسبة إلىٰ المؤمن[1]، فإن بالموت يتخلص من سجن الدنيا، وأيضاً إن شأن الموت أن يكون تحفة ووصلة إلىٰ الحياة الأبدية، والنعيم المقيم، وإنما كان مفتاح كل بلاء ومحنة في حق الكافر من سوء اعتقاده وسيئات أعماله.

وفي بعض التفاسير: ذكر الإماتة؛ إما لأنها مقدمة الإقبار، وإما للتخويف والتذكير بأن الحياة الدنيوية فانية آخرها الموت. وعن الشافعي رحمه الله تعالى:

فَلَا تَمْشِيَنْ فِيْ مَنْكِبِ ٱلْأَرْضِ فَاخِرَاً فَـعَـمَّـا قَـلِـيْـلٍ يَـحْـتَـوِيْـكَ تُـرَابُـهَـا

وإما للحث علىٰ الاستعداد، وإما لرعاية المقابلة بينه وبين ﴿أنشره﴾ تنبيهاً علىٰ كمال قدرت، وتمام حكمته. ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ﴾ سبحانه وتعالى إنشاره وإحياءه وبعثه ﴿أَنشَرَهُۥ﴾ وأحياه وبعثه؛ أي: وإذا جاء الوقت الذي شاء الله تعالى، وهو يوم القيامة أنشره، وفي تعليق[2] الإنشار بمشيئته له إيذانٌ بأن وقته غير متعين في نفسه، بل هو

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

تابع لها، بخلاف وقت الموت، فإنا نجزم بأن أحداً من أبناء الزمان لا يتجاوز مئة وخمسين سنة مثلاً، وليس لأحد مثل هذا الجزم في النشور، هكذا قالوا.

وفيه: إن الموت أيضاً له سن معلوم، وأجل محدود، فكيف يتعين في نفسه، ويجزم بوقوعه في سن كذا؛ بحيث لا يكون موكولاً إلىٰ مجرد مشيئته تعالىٰ، ولعل تقييد الإنشار بالمشيئة لا ينافي تقييد الموت بها أيضاً؛ إذ لا يجري عليه تعالىٰ زمان، وإنه من مقدمات القيامة، ولذا قال ﷺ: «من مات فقد قامت قيامته»، أي: لاتصال زمان الموت بزمان القيامة، فهو قيامة صغرىٰ مجهولة؛ كالقيامة الكبرى.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿أَنشَرَهُۥ﴾ بالألف، وروى أبو حيوة عن نافع وشعيب بن أبي حمزة ﴿نشره﴾ بغير ألف، وهما لغتان فصيحتان.

والمعنىٰ[2]: أي ثم قبض روحه، ولم يتركه مطروحاً علىٰ الأرض جزراً للسباع، بل تفضل عليه في غريزة نوعه أن يوارىٰ ميته تكرمةً له، ثم إذا شاء بعثه بعد موته للحساب والجزاء في الوقت الذي قدره في علمه. وفي قوله: ﴿إِذَا شَآءَ﴾ إشعارٌ[3] بأن وقت الساعة لا يعلمه إلا هو، فهو الذي استأثر بعلمه، وهوالقادر علىٰ تقديمه وتأخيره، وهو القاهر فوق عباده، وذو السلطان عليهم في إحيائهم وإماتتهم، وبعثهم وحشرهم، وحسابهم على ما قدموا من عمل خيراً كان أو شراً، ثم أكد كفرانه بالنعم، فقال: ﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر للإنسان الكافر عما هو عليه؛ أي: ليس الأمر كما يقول الكافر المستغني، فلينزجر وليرتدع عما هو عليه من الكفران والعصيان لربه. والوقف علىٰ ﴿كَلَّا﴾ حيئنذ. وفي «الخازن»: ﴿كَلَّا﴾: ردع وزجر للإنسان عما هو عليه من التكبر والتجبر والترفع والإصرار علىٰ إنكار التوحيد، وإنكار البعث والحساب. ا هـ.

وقوله: ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ بيان[4] لسبب الردع والزجر، كما في «أبي السعود»؛ أي: لم يفعل الإنسان المذكور من أول مدة تكليفه إلىٰ حين إقباره ما أمره الله به مما فرضه الله عليه من الإيمان والطاعة، ولم يؤد ولم يعرف ولم يعمل به،

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) المراغي.
(٤) الفتوحات.

وعدم[1] القضاء محمول على عموم النفي؛ إما علىٰ أن المحكوم عليه هو المستغني، أو هو الجنس، لكن لا علىٰ الإطلاق، بل علىٰ أن مصداق الحكم بعدم القضاء بعض أفراده، وقد أسند إلىٰ الكل، فلا شياع في اللوم بحكم المجانسة، وإما علىٰ أن مصداقه الكل من حيث هو كل بطريق رفع الإيجاب الكلي دون السلب الكلي، فالمعنىٰ: لم يقض جميع أفراده ما أمره، بل أخل به بعضها بالكفر، وبعضها بالعصيان، وما قضى ما أمره إلا القليل، مع أن مقتضىٰ ما فصل من فنون النعماء الشامل للكل أن لا يتخلف عنه أحد أصلاً.

وقال الحسن: حقاً لم يفعل ما أمره به، فـ﴿كَلَّا﴾: بمعنىٰ: حقاً. قال ابن الأنباري: فالوقف على ﴿كَلَّا﴾ حينئذٍ قبيح، فيكون ﴿كَلَّا﴾ تابعاً لما بعده، فالوقف علىٰ ﴿مَآ أَمَرَهُۥ﴾ حينئذٍ. وقال بعض أهل التفاسير: ﴿ما﴾ في قوله: ﴿لَمَّا﴾ صلة دخلت للتأكيد، كقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، فـ ﴿لَمَّا﴾ بمعنىٰ: لم، وليس فيه معنىٰ التوقع. و ﴿مَآ﴾ في ﴿مَآ أَمَرَهُۥ﴾ موصولة، وعائدها يجوز أن يكون محذوفاً، والتقدير: ما أمره به، فحذف الجار أولاً، فبقي ما أمره هو، ثم حذف الهاء العائد ثانياً، ويجوز أن يكون باقياً علىٰ أن المحذوف من الهاءين هو العائد إلى الإنسان، والباقي هو العائد إلىٰ الموصول، فاعرف وقس عليه أمثاله.

وحاصل معنى الآية: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾؛ أي[2]: حقاً أن حال الإنسان لتدعو إلىٰ العجب، فإنه بعد أن رأىٰ في نفسه مما عددناه من عظيم الآيات، وشاهد من جلائل الآثار ما يحرك الأنظار، ويسير بها إلىٰ صواب الآراء، وصحيح الأفكار لم يقض ما أمره به ربه من التأمل في دلائل قدرته، والتدبر في معالم هذا الكون المنبئة بوحدانية خالقه، الناطقة بأن لها موجداً يستحق أن يقصده وحده دون سواه، ويتوجه إليه بالعبادة والامتثال إلىٰ ما يأمره به.

والخلاصة[3]: أن الإنسان قد بلغ في جحده آيات خالقه مبلغاً لا ينتهي منه العجب؛ إذ قد رأىٰ في نفسه، وفي السموات والأرض، وسائر ما يحيط به من العوالم الآيات الناطقة بوحدانية الخالق الدالة علىٰ عظيم قدرته، ثم لا يزال مستمراً في نكران نعمته عليه، فإذا ذكر لا يتذكر، وإذا أرشد إلىٰ الهدى لم يسلك سبيله

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) المراغي.

الأقوم، ولا يزال يرتكب ما نهي عنه، ويترك ما أمر به.

ثم شرع سبحانه في تعداد نعمه علىٰ عباده ليشكروها، وينزجروا عن كفرانها بعد ذكر النعم المتعلِّقة بحدوثه، فقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾؛ أي: فلينظر كيف خلق الله طعامه الذي جعله سبباً لحياته، وكيف هيأ له أسباب المعاش يستعد بها للسعادة الأخروية. قال مجاهد: معناه: فلينظر الإنسان إلىٰ طعامه؛ أي: إلى مدخله ومخرجه، والأول أولىٰ. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: فلينظر الإنسان إلىٰ طعامه؛ ليعلم خسة قدره وفناء عمره. وفي الحديث: «إن مطعم ابن آدم جعله الله مثلاً للدنيا، وإن قَزَحه ومَلَحه، فانظر إلى ماذا يصير». يقال: قزح القدر: جعل التابل فيها، وهو كصاحب وهاجر، إبراز الطعام، وملحها: جعل الملح فيها.

والمعنىٰ: أي فليتدبر الإنسان شأن نفسه، وليفكر في أمر طعامه وتدبيره وتهيئته حتى يكون غذاءً صالحاً تقوم به بنيته، ويجد في تناوله لذة تدفعه إليه ليحفظ بذلك قوته مدى الحياة التي قدرت له، وقد فصل ذلك بقوله: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا﴾ وأنزلنا ﴿ٱلْمَآءَ﴾؛ أي: الغيث: وهو المطر المحتاج إليه من السحاب ﴿صَبًّا﴾ عجيباً وإنزالاً وافياً، بعد أن بقي حيناً في جو السماء مع ثقله.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿إنا﴾ بكسر الهمزة علىٰ الاستئناف في ذكر تعداد أسباب الوصول إلىٰ الطعام. وقرأ الكوفيون والأعرج وابن وثاب والأعمش ورويس عن يعقوب ﴿أَنَّا﴾ بفتحها علىٰ أنه بدل من طعامه بدل الاشتمال؛ لكون نزول المطر سبباً لحصول الطعام، فهو كالمشتمل عليه، فالثاني مشتمل علىٰ الأوّل؛ إذ لا يلزم فيه أن يكون المبدل منه مشتملاً علىٰ البدل، فحينئذٍ العائد محذوف، والتقدير: أنا صببنا له الماء.

والمعنىٰ عليه: فلينظر الإنسان إلىٰ أنا صببنا الماء صباً.

وقرأ الحسن بن علي رضي الله عنهما[2]: ﴿أنى﴾ بالفتح، والإمالة علىٰ معنىٰ: فلينظر الإنسان كيف صببنا الماء.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ﴾ بالنبات الخارج منها بسبب نزول المطر ﴿شَقًّا﴾ بديعاً لائقاً

---

(١) البحر المحيط والشوكاني.
(٢) البحر المحيط.

بما يخرج منه في الصغر والكبر والشكل والهيئة، مشاهداً مرئياً لمن نظر إليها بعد أن كانت متماسكة الأجزاء، وقد اقتضت حكمته ذلك ليدخل الهواء والضياء في جوفها، ويهيئها لتغذية النبات، وقيل: المراد بالشق: شق الفلاح بما جرت العادة أن يشق به، ولما كان الشق بعد الصب.. أورد كلمة ﴿ثُمَّ﴾ ثم بين سبب هذا الشق، وما وقع لأجله، وذكر ثمانية أنواع من النبات، فقال: ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا﴾؛ أي: في الأرض المشقوقة بالنبات، والفاء للتعقيب.

١ ـ ﴿حَبًّا﴾: فإن انشقاق الأرض بالنبات لا يزال يتزايد ويتسع إلىٰ أن يتكامل النمو وينعقد الحب، والحب: كل ما حصد من نحو الحنطة والشعير وغيرهما، وهو جنس الحبة؛ كالتمر والتمرة، فيشمل القليل والكثير، قدمه علىٰ ما بعده؛ لأنه الأصل في الغذاء.

وقوله:

٢ ـ ﴿وَعِنَبًا﴾ معطوف على ﴿حَبًّا﴾؛ أي: وأنبتنا فيها عنباً، قيل: وليس من لوازم العطف أن يقيد المعطوف بجميع ما قيد به المعطوف عليه، فلا ضير في خلو إنبات العنب عن شق الأرض، وكذا في أمثاله كذا قال في «الإرشاد»؛ ولعل شق الأرض فيه باعتبار أصله أول خروجه منها، فإن المراد هنا: شجرة العنب، وإنما ذكره والزيتون باسم الثمرة؛ لشهرتهما بها، ووقوع كل منهما بعدما يؤكل نفسه. فاعرف.

وأفرد العنب بالذكر من بين الثمار؛ لأنه فاكهة من وجه يتلذذ به، وطعام يتغذىٰ به، وهو من أصلح الأغذية.

٣ ـ ﴿وَقَضْبًا﴾ أي: وَ قَتّاً رطباً، والقضب: هو القتُّ الرطب الذي يقضب؛ أي: يقطع مرة بعد أخرى تعلف به الدواب، ويقال له: الفصفصة، سميت بمصدر قضبه؛ أي: قطعه، مبالغة كأنها لتكرر قطعها وتكثره إذا تقضب مرة بعد أخرى في السنة نفس القطع.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إنه الرطب التي تقضب من النخل، ورجحه

---

(١) روح البيان.

بعضهم لمناسبته بالعنب، وقال بعضهم: هو مثل النعناع والطرخون والكراث وغيرها، التي يقطع ساقها من أصلها، يعني: للأكل، وقال بعضهم: هو القت الرطب، أفرده بالذكر تنبيهاً علىٰ اختلاف النباتات، وأن منها ما إذا قطع عاد، ومنها ما لا يعود، والقت: حب الغاسول، وهو الأشنان. وقيل: هو حب يابس أسود يدفن فيلين قشره ويطحن ويخبز بفتاته أعراب طيء، وقال بعضهم: هو ما يؤكل رطباً كالبطيخ والخيار والباذنجان والدباء. وقال الخليل: القضب: الفصفصة الرطبة، فإذا يبست فهي القت. قال في «الصحاح»: والقضبة والقضب: الرطبة. قال: والموضع الذي ينبت فيه: مقضبة.

٤ ـ ﴿وَزَيْتُونًا﴾: وهو ما يعصر منه الزيت، والمراد: شجرته، وتعمر ثلاثة آلاف سنة، خصه بالذكر لكثرة فوائده خصوصاً لأهالي بلاد العرب، فإنهم ينتفعون به أكلاً وادهاناً، واستضاءة وتطهراً، فإنه يجعل في الصابون، وكان ﷺ يتطيب به في بعض الأوقات.

٥ ـ ﴿وَنَخْلًا﴾: هو شجر التمر جمع نخلة، والرطب والتمر من أنفع الغذاء، وفي العجوة منه خاصية دفع السم والسحر، كما في الحديث، وشجرته قيل: من فضلة طينة آدم عليه السلام، كما سبق مفصلاً.

٦ ـ ﴿وَحَدَآئِقَ﴾ جمع حديقة، وهي البستان من النخل والشجر، أو الروضة ذات الأشجار، أو كل ما أحاط به البناء، أو القطعة من النخل كما في «القاموس»، وهي هنا: من قبيل التعميم بعد التخصيص، وقوله: ﴿غُلْبًا﴾ صفة لـ ﴿حَدَآئِقَ﴾؛ أي: عظام الأشجار غلاظها. وقال مجاهد ومقاتل: الغلب الملتف بعضها إلى بعض، وهو جمع أغلب كحمر جمع أحمر أو حمراء، مستعار من وصف الرقاب، يقال رجل أغلب، وأسد أغلب؛ أي: غليظ العنق.

والمعنىٰ[1]: أي وبساتين ذات أشجار ضخمة مثمرة ذات حوائط تحيط بها، وعظم الحدائق؛ إما بالتفاف أشجارها وكثرتها، وإما بعظم كل شجرة وغلظها وكبرها، وفي ذكرها بهذا الوصف إيماء إلىٰ أن النعمة في الأشجار بجملتها،

---

(١) المراغي.

وليست في ثمرها خاصة، فمن خشبها يتخذ أرقىٰ أنواع الأثاث، وأدوات العمل وآلاته لمختلف الحرف والصناعات، وكذا الوقود لتدبير الطعام، والخبز علىٰ ضروب شتىٰ، وتستعمل في صهر الحديد وأنواع المعادن المختلفة، وفي «كشف الأسرار»: الغلب من الشجر التي لا تثمر، كالشمار والأرز والعرعر والدرداء.

٧ ـ ﴿وَفَٰكِهَةٍ﴾ كثيرة غير ما ذكر، يتمتع بلذتها الإنسان خاصة، كالتين والتفاح والخوخ والبرتقال والمشمس والموز وغيرها، فهو معطوف علىٰ ﴿عنباً﴾ عطف عام علىٰ خاص، ويصح عطفه علىٰ ﴿حَدَآئِقَ﴾ كما هو المتبادر، فيكون عطف خاص علىٰ عام كما لا يخفىٰ.

قال أبو حنيفة[1]: إن نحو العنب والرطب؛ لكونه مما يؤكل غذاء يحقق القصور في معنىٰ التفكه به؛ أي: التنعم به بعد الطعام وقبله، فلا يتناوله اسم الفاكهة علىٰ الإطلاق حتىٰ لو حلف لا يأكل فاكهة لا يحنث بأكله؛ لكونه غذاء من وجه، وإن كان فاكهة من وجه آخر، وعطف الفاكهة عليه لا ينافي كونه فاكهة من وجه؛ لأن المراد بالفاكهة المعطوفة ما هو فاكهة من كل وجه، ولا يخفىٰ أن الفاكهة من كل وجه مغايرة لما هو فاكهة من وجه دون وجه، فيصح عطفها عليه، أو عطفه عليها كما في مواضع من القرآن.

٨ ـ ﴿وَأَبًّا﴾؛ أي: مرعىٰ للحيوان خاصة، فالفاكهة ما يأكله الإنسان من ثمار الأشجار، كالعنب والتين مثلاً، والأبُّ: كل ما أنبت الأرض، مما لا يأكله الناس، ولا يزرعون من الكلأ وسائر أنواع المرعىٰ، من أبّه إذا أمّه؛ أي: قصده؛ لأنه يؤم ويقصد جزه للدواب، كما سيأتي، وقيل الأبُّ: الفاكهة اليابسة تؤبُّ للشتاء؛ أي: تعد وتهيأ، وهو الملائم لما قبله، وفي الحديث: «خلقتم من سبع، ورزقتم من سبع، فاسجدوا لله على سبع» أراد بقوله: خلقتم من سبع؛ أي: من نطفة، ثم من علقة... إلخ، وهي التارات السبع، وبقوله: زرقتم من سبع، قوله: ﴿حَبًّا﴾ و﴿عنباً﴾ إلىٰ ﴿أباً﴾، ولعل الحدائق خارجة عن الحساب؛ لأنها منابت تلك المزروعات، وبقوله: فاسجدوا لله علىٰ سبع: الأعضاء السبعة الوجه، واليدان، والركبتان، والرجلان.

---

(١) روح البيان.

ثم ذكر الحكمة في خلق هذه الأشياء فقال: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ مفعول لأجله لـ ﴿أنبتنا﴾؛ أي: أنبتنا ذلك المذكور تمتيعاً لكم ولمواشيكم، فإن بعض النعم المعدودة طعام لهم، وبعضها علف لدوابهم، والالتفات لتكميل الامتنان؛ أي: لتتمتعوا به وتنتفعوا به أنتم وأنعامكم منه ما ينتفع به الإنسان، ومنه ما يأكله الدواب.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾ شروع[1] في بيان أحوال معادهم، إثر بيان مبدأ خلقهم ومعاشهم، والفاء للدلالة على ترتب ما بعدها علىٰ ما قبلها من فناء النعم عن قريب، كما يشعر لفظ المتاع بسرعة زوالها، وقرب اضمحلالها، و﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾: هي القيامة، والداهية العظيمة التي يصخ لها الخلائق؛ أي: يصيخون لها، من صخ لحديثه: إذا أصاخ واستمع، وصفت به النفخة الثانية؛ لأن الناس يصخون لها في قبورهم، فأسند الاستماع إلىٰ المسموع مجازاً، وقيل: هي الصيحة التي تصم الآذان لشدة وقعها، وقيل: هي مأخوذة من صخه بالحجر؛ أي: صكه، فتكون الصاخة حقيقة في النفخة، وجواب إذا محذوف يدل عليه قوله: لكل امرىء منهم إلخ، تقديره: فإذا جاءت الصاخة ـ أي: القيامة ـ اشتغل كل امرىء بنفسه، والظرف في قوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾؛ إما بدل من ﴿إِذَا جَآءَتِ﴾، أو منصوب بمقدر؛ أي: أعني، ويكون تفسيراً لـ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾، أو بدلاً منها مبني علىٰ الفتح؛ أي: أعني بالصاخة: يوم يعرض الإنسان عن هؤلاء المذكورين، ولا يصاحبهم ولا يسأل عن حالهم، كما في الدنيا؛ لاشتغاله بحال نفسه، ولعلمه أنهم لا يغنون عنه شيئاً، وخص[2] هؤلاء بالذكر لأنهم أخص القرابة وأولاهم بالحنو والرأفة، فالفرار منهم لا يكون إلا لهول عظيم وخطب فظيع.

وتأخير الأحب للمبالغة[3]؛ لأن الأبوين أقرب من الأخ، وتعلق القلب بالصاحبة والأولاد أشد من تعلقه بالأبوين، وهذه الآية تشمل النساء كما تشمل الرجال، ولكنها خرجت مخرج كلام العرب؛ حيث تدرج النساء في الرجال في الكلام كثيراً.

قال عبد الله بن طاهر الأبهري ـ رحمه الله تعالى ـ: يفر منهم إذا ظهر له عجزهم وقلة حيلتهم إلى من يملك كشف تلك الكروب والهموم عنه، ولو ظهر له

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

ذلك في الدنيا.. لما اعتمد علىٰ سوى ربه الذي لا يعجزه شيء، وتمكن من فسحة التوكل، واستراح في ظل التفويض ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾.

والمعنى[1]: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾؛ أي: فإذا جاء يوم القيامة حين يحدث ذلك الصوت الهائل الذي يصخ الأسماع ويصكها بشدته، فما أعظم أسف الكافر، وما أشد ندمهم، ثم فصل بعض أهوال ذلك اليوم، فقال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ﴾ إلخ؛ أي: أعني بذلك اليوم: يوم يشغل كل امرىءٍ ما يصيبه من الأهوال، فيفر ممن يتوهم أنه يتعلق به، ويطلب معونته علىٰ ما هو فيه، فيتوارىٰ من أخيه، بل من أمه وأبيه، بل من زوجه التي هي ألصق الناس به، وقد كان في الدنيا يبذل النفس والنفيس في الدفاع عنها، بل من بنيه وهم فلذات كبده، وقد كان في الحياة الأولىٰ يفديهم بماله وروحه، وهم ريحانة الدنيا ونور الحياة أمام عينه. ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ﴾؛ أي: لكل إنسان ﴿مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من هؤلاء الأقرباء وغيرهم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ تكون هذه الداهية الصاخة ﴿شَأْنٌ﴾، أي: شغل ﴿يُغْنِيهِ﴾؛ أي: يكفيه في الاهتمام به، أو عمل يصرفه عن الاهتمام بقرابته ويشغله، كما قاله ابن قتيبة، ومنه قولهم: أغنِ عنِّي وجهك. أي: اصرفه، والشأن[2]: لا يقال إلا فيما يعظم من الأحوال والأمور؛ أي: لكل واحد من المذكورين شغل شاغل وخطب هائل، يكفيه في الاهتمام به، قال ابن الشيخ: إن الهم الذي حصل له قد ملأ صدره، فلم يبق فيه متسع، فصار بذلك شبيهاً بالغني في أنه ملك شيئاً كثيراً.

وقيل: إنما يفر منهم حذراً من مطالبتهم إياه بما بينهم، وقيل: يفر عنهم لئلا يروا ما هو فيه من الشدة، وقيل: لعلمه أنهم لا ينفعونه ولا يغنون عنه شيئاً، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان سبب الفرار.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿يُغْنِيهِ﴾ بضم الياء وبالغين المعجمة؛ أي: يغنيه عن النظر في شأن الآخر من الإغناء، وقرأ الزهري وابن محيصن وابن أبي عبلة وحميد وابن السميفع: ﴿يعنيه﴾ بفتح الياء وبالعين المهملة؛ أي: يهمه من عناه الأمر: إذا أهمه.

وبعد أن ذكر الأهوال التي تعرض للإنسان في ذلك اليوم، وأنها لا تسعف

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

أحداً بمواساة أحدٍ، ولا بالالتفات إليه مهما يكن عطفه عليه، واتصاله به.. أردفه ببيان أن الناس في ذلك اليوم سعداء وأشقياء، وأشار إلى الأولين بقوله: ﴿وُجُوهٌ﴾ كثيرة، وهو مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة وقوعه في معرض التفصيل ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ يفر المرء من أقربائه، وهو ظرف مضاف لمثله، والتنوين عوض عن الجملة المحذوفة كما قدرنا متعلق بقوله: ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾؛ أي: مضيئة متهللة، وهو خبر المبتدأ، وقول «الشوكاني» وغيره هنا: الظرف متعلق بـ ﴿وُجُوهٌ﴾.. غير صواب؛ لأن الوجوه جمع وجه، وهو من أسماء الأعيان التي ليست فيها رائحة الفعل، فكيف يتعلق به الجار والمجرور، ومعنىٰ ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ مشرقة مضيئة، من: أسفر الصبح إذا أضاء، وهو من الأفعال اللازمة، وهي وجوه المؤمنين؛ لأنهم قد علموا إذ ذاك ما لهم من النعيم والكرامة. قال الضحاك: مسفرة من آثار الوضوء، وقيل: من قيام الليل. وفي الحديث: «من كثرت صلاته بالليل.. حسن وجهه بالنهار»، وقيل: من طول ما اغبرت في سبيل الله.

﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ بما تشاهده من النعيم المقيم، والبهجة الدائمة، وفي بعض[1] التفاسير ﴿ضَاحِكَةٌ﴾؛ أي: مسرورة فرحة لما علموا من الفوز والسعادة، أو لفراغهم من الحساب بالوجه اليسير ﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾؛ أي: ذات بشارة بالخير، فكأنه بيان لقوله: ﴿ضَاحِكَةٌ﴾ انتهى. وهما خبران آخران لـ ﴿وُجُوهٌ﴾، وفي «عين المعاني»: ضاحكة من مسرة العين، مستبشرة من مسرة القلب، يقول الفقير: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ لابيضاضها في الدنيا بالتزكية والتصفية، وزوال كدوراتها ﴿ضَاحِكَةٌ﴾؛ لأنها بكت في الله أيام دنياها حتىٰ صارت عمياء عن رؤية ما سوىٰ الله تعالى مطلقاً، كما وقع لشعيب ويعقوب عليهما السلام. ﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ لأمنها بدل خوفها في الدنيا، ولذا قال تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ بأن تقول لهم الملائكة: لا تخافوا وأبشروا بالجنة والرؤية. والضحك: هو انبساط الوجه وتكشر الأسنان من سرور النفس، ولظهور الأسنان عنده.. سميت مقدمة الأسنان ضواحك، ويستعمل في السرور المجرد كما في الآية.

والمعنىٰ[2]: أي وجوه يومئذٍ متهللة ضاحكة فرحة بما تجد من برد اليقين بأنها

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

ستوفىٰ ما وعدت به جزاء إيمانها، وما قدمت من عمل صالح، وبشكرها لنعم ربها وآلائه، وإيثارها ما أمرها به علىٰ ما تهواه.

وأشار إلىٰ الآخرين بقوله: ﴿وَوُجُوهٌ﴾ أخر، وهو مبتدأ، أول. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ يفر المرء عن أقربائه، وهو متعلق بـ ﴿تَرْهَقُهَا﴾ ﴿عَلَيْهَا﴾: خبر مقدم ﴿غَبَرَةٌ﴾؛ أي: غبار وكدورة لما تراه مما أعده الله لها من العذاب الأليم، وهو مبتدأ مؤخر، والجملة خبر ﴿وُجُوهٌ﴾. ﴿تَرْهَقُهَا﴾؛ أي: يغشاها ويعلوها ﴿قَتَرَةٌ﴾؛ أي: سواد وظلمة كالدخان، ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه، كما إذا اغبر وجه الزنجي، قال سهل رحمه الله تعالى: غلب عليها إعراض الله عنها ومقته إياها، فهي تزداد في كل وقت ظلمة وقترة، والجملة الفعلية خبر ثانٍ لـ ﴿وُجُوهٌ﴾. ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بسواد الوجه وغبرته ﴿هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾؛ أي: الجامعون بين الكفر والفجور، فلذا جمع الله سبحانه إلىٰ سواد وجوههم الغبرة، وفي الحديث: «إن البهائم إذا صارت تراباً يوم القيامة حول ذلك التراب في وجوه الكفار»، وفي «عين المعاني»: أولئك هم الكفرة في حقوق الله، الفجرة في حقوق العباد. انتهىٰ.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿قَتَرَةٌ﴾ بفتح التاء، وابن أبي عبلة بإسكانها، وفيه إشارة إلىٰ أن الفجور الغير المقارن بالكفر ليس في درجة المقارن في المذمومية، والسببية للحقارة والمهانة والخذلان، إذ أصل الفجور: الكذب والميل عن الحق، ويستعمل فيه الذنب الكبير، وكثيراً ما يقع ذلك من المؤمن العاصي، لكن ينبغي أن يخاف منه ويحذر عنه؛ لأن كبائر الذنب تجر إلىٰ الكفر، كما أن صغائره تجر إلىٰ الكبائر.

والمعنىٰ[2]: أي ووجوه أخرىٰ يعلوها غبار الذل، وسواد الغم والحزن، وهي وجوه الكفار الذين لم يؤمنوا بالله، وبما جاء به أنبياؤه، وخرجوا عن حدود شرائعه، واجترحوا السيئات، واقترفوا المعاصي.

وقصارىٰ ما سلف: أن الناس إذ ذاك فريقان:

١ ـ فريق كان في دنياه يطلب الحق، وينظر في الحجة، ويعمل ما استقام عليه الدليل، لا يثنيه عن الأخذ به قلة الآخذين، ولا قوة المعاندين، وهؤلاء سيطمئنون

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.

إلى ما أدركوا، ويفرحون بما نالوا، وتظهر على أسارير وجوههم علامات البشر والسرور.

٢ ـ فريق احتقر عقله، وأهمل النظر في نعم الله عليه، وارتضىٰ الجهل، وانصرف عن الاستدلال إلى اقتفاء آثار الآباء والأجداد، وظل يخب ويضع في أهوائه الباطلة، وعقائده الزائفة، وهؤلاء سيجدون كل شيء علىٰ ما كانوا يعرفون، فتظهر عليهم آثار الكآبة والخيبة والفشل، وتعلو وجوههم الغبرة، وترهقها القترة؛ لأنهم كانوا في حياتهم الدنيا كفرة فجرة.

اللهم احشرنا يوم القيامة ووجوهنا مسفرة ضاحكة مستبشرة، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الإعراب

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ① أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ② وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ③ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ④﴾.

﴿عَبَسَ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة استئنافاً نحوياً، وأتى هنا وفي الموضعين بعده بصيغة الغيبة إجلالاً له ﷺ، ولطفاً به لما في المشافهة بتاء الخطاب من الغلظة والشدة، ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير مستتر يعود على محمد، معطوف علىٰ ﴿عَبَسَ﴾. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿جَآءَهُ﴾: فعل ماض في محل النصب بـ ﴿أَن﴾ المصدرية، و ﴿الهاء﴾ مفعول به مقدم ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾: فاعل مؤخر، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض؛ أي: عبس لمجيء الأعمىٰ إياه، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿عَبَسَ﴾؛ لأن المجيء ليس من أفعال القلوب، فاختل شرط من شروط المفعول لأجله ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿مَآ﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿يُدْرِيكَ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿مَآ﴾، ومفعول أول لأدرىٰ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر لـ ﴿مَآ﴾ الاستفهامية، والجملة الاسمية معطوفة علىٰ جملة ﴿عَبَسَ﴾. ﴿لَعَلَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾ خبره، وجملة الترجي في محل النصب مفعول ثانٍ لـ ﴿يُدْرِيكَ﴾، وقيل: المفعول الثاني لأدرى محذوف تقديره: وما يدريك أمره ومغبة حاله، وجملة ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾: مستأنفة ﴿أَوْ﴾: حرف

عطف، وجملة ﴿يَذَّكَّرُ﴾ معطوفة على جملة ﴿يزكى﴾. ﴿فَتَنفَعَهُ﴾ بالنصب ﴿الفاء﴾: عاطفة سببية ﴿تنفعه﴾: فعل مضارع ومفعول به، منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب الترجي. ﴿الذِّكْرَىٰ﴾: فاعل، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة،أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف علىٰ مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى، تقديره: أترجىٰ تزكيته، أو تذكره، فنفع الذكرىٰ إياه، والجملة المقدرة مستأنفة، وقرىء ﴿فتنفعُه﴾ بالرفع عطفاً على ﴿يَذَّكَّرُ﴾، والفاء لمجرد العطف حينئذٍ.

﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾.

﴿أَمَّا﴾: حرف شرط وتفصيل ﴿مَنِ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿اسْتَغْنَىٰ﴾ صلة ﴿مَنِ﴾ الموصولة، ﴿فَأَنتَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أَمَّا﴾، واقعة في غير موضعها للثقل؛ لأن موضعها موضع ﴿أَمَّا﴾. ﴿أنتَ﴾: ضمير رفع منفصل في محل الرفع مبتدأ ثانٍ ﴿لَهُ﴾: متعلق بـ ﴿تَصَدَّىٰ﴾، قدم عليه لرعاية الفاصلة، وجملة ﴿تَصَدَّىٰ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أنت﴾، والجملة الاسمية خبر ﴿مَنِ﴾ الموصولة، وجملة ﴿مَنِ﴾ الموصولة من المبتدأ والخبر جواب ﴿أَمَّا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أَمَّا﴾ مستأنفة ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: حالية ﴿مَا﴾: نافية، ﴿عَلَيْكَ﴾: خبر مقدم ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿لَا﴾: نافية ﴿يَزَّكَّىٰ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾ المصدرية، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿مَنِ﴾ الموصولة، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مرفوع علىٰ كونه مبتدأ مؤخراً؛ أي: وما عليك عدم التزكية؛ أي: ليس عليك بأس في عدم تزكيته بالإسلام، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل، ﴿تصدى﴾. واختار أبو حيان أن تكون ﴿مَا﴾ استفهامية للإنكار، فتكون مبتدأ، و ﴿عَلَيْكَ﴾: خبرها، و ﴿أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ منصوب بنزع الخافض، والجار والمجرور متعلق بما تعلق به ﴿عَلَيْكَ﴾؛ أعني: الاستقرار، والجملة حينئذٍ جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿وَأَمَّا﴾ ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿أَمَّا﴾: حرف شرط وتفصيل ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿جَاءَكَ﴾ صلة ﴿مَن﴾ الموصولة ﴿يَسْعَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، والجملة حال من فاعل ﴿جَاءَكَ﴾، ﴿وَهُوَ﴾: ﴿الواو﴾: حالية: ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يَخْشَىٰ﴾: خبره، والجملة الاسمية

في محل النصب حال من فاعل ﴿يَسْعَىٰ﴾ فهي حال متداخلة، ﴿فَأَنتَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أَمَّا﴾، ﴿أنت﴾: مبتدأ ﴿عَنْهُ﴾: متعلق بـ ﴿تَلَهَّىٰ﴾، ﴿تَلَهَّىٰ﴾: فعل مضارع مرفوع أصله: تتلهىٰ، كما مر، وفاعله ضمير يعود علىٰ محمد، وجملة ﴿تَلَهَّىٰ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية خبر ﴿من﴾ الموصولة، وجملة ﴿من﴾ الموصولة جواب ﴿أَمَّا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أَمَّا﴾ معطوفة علىٰ جملة ﴿أَمَّا﴾ الأولىٰ.

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿كَلَّآ﴾: حرف ردع وزجر لكل إنسان عن ارتكاب مثل المعاتب عليه ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾: ناصب واسمه وخبره، والجملة مستأنفة ﴿فَمَن﴾: ﴿الفاء﴾: اعتراضية ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر فعل الشرط، أو جوابه، أو هما ﴿شَآءَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر في محل الجزم بـ ﴿من﴾ الشرطية علىٰ كونها فعل شرط لها، ﴿ذَكَرَهُۥ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر، ومفعول به في محل الجزم بـ ﴿من﴾ الشرطية علىٰ كونه جواب الشرط، وجملة ﴿من﴾ الشرطية معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين المبتدأ والخبر ﴿فِى صُحُفٍ﴾: خبر ثانٍ لـ ﴿إِنَّهَا﴾؛ أي: إنها كائنة في صحف، وقوله: ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾: صفة أولىٰ لـ ﴿صُحُفٍ﴾ ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ صفة ثانية لها، ﴿مُّطَهَّرَةٍۭ﴾: صفة ثالثة لها. ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة رابعة لها أيضاً، أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هي كائنة بأيدي سفرة، ﴿كِرَامٍۭ﴾: صفة أولىٰ لـ ﴿سَفَرَةٍ﴾. ﴿بَرَرَةٍ﴾: صفة ثانية لها ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة دعائية لا محل لها من الإعراب ﴿مَآ﴾: تعجبية في محل الرفع مبتدأ ﴿أَكْفَرَهُۥ﴾: فعل ماضٍ ومفعول به، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً لجريانه مجرىٰ المثل يعود علىٰ ﴿مَآ﴾ التعجبية، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر عن ﴿مَآ﴾ التعجبية، والجملة الاسمية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب؛ لدلالتها علىٰ إنشاء التعجب نظير قولهم: قاتله الله ما أخبثه، وأخزاه الله ما أظلمه. والمعنىٰ: اعجبوا من كفر الإنسان بجميع ما ذكرنا بعد هذا، وقيل:

﴿مَآ﴾: استفهامية في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿أكفره﴾ خبر ﴿مَآ﴾؛ أي: أي شيء دعاه إلىٰ الكفر، وهو استفهام توبيخ، ولا داعي لهذا؛ لأنه تعجب من إفراطه في كفره، والتعجب بالنسبة إلىٰ المخلوقين؛ إذ هو مستحيل في حقه تعالى. ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿خَلَقَهُ﴾، و ﴿خَلَقَهُ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان ما أنعم عليه بعد المبالغة في وصفه بكفران نعم خالقه، والاستفهام للتقرير مع التحقير. ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿خَلَقَهُ﴾ المذكور بعده، ﴿خَلَقَهُ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به بدل من ﴿خَلَقَهُ﴾ الأول بإعادة الجار. ﴿فَقَدَّرَهُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿قدره﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف علىٰ ﴿خَلَقَهُ﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب مع التراخي ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾: منصوب على الاشتغال بفعل مضمر يفسره المذكور بعده، والجملة المحذوفة معطوفة علىٰ جملة ﴿فَقَدَّرَهُ﴾، والتقدير: ثم يسر السبيل يسره، والتعريف في السبيل لإفادة العموم، وجملة ﴿يَسَّرَهُ﴾ جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب، وعبارة «السمين»: قوله: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾﴾ يجوز أن يكون الضمير للإنسان، و﴿ٱلسَّبِيلَ﴾: ظرف، أي: يسر للإنسان الطريق؛ أي: طريق الخير أو الشر، كقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف مع تراخٍ ﴿أَمَاتَهُ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به معطوف علىٰ ﴿يَسَّرَهُ﴾، ﴿فَأَقْبَرَهُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة مفيدة للتعقيب ﴿أقبره﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به معطوف علىٰ ﴿أَمَاتَهُ﴾، ﴿ثم﴾: حرف عطف وتراخٍ، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان متعلق بجوابه، ﴿شَآءَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر، ومفعول المشيئة محذوف تقديره: إذا شاء إنشاره، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها علىٰ كونها فعل شرط لها، وجملة ﴿أَنشَرَهُ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ معطوفة علىٰ جملة ﴿أقبره﴾. ﴿كَلَّا﴾: حرف ردع وزجر للإنسان المسترسل في عمايته، المغتر باغتراره المتطاول ﴿لَمَّا﴾: حرف نفي وجزم ﴿يَقْضِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَمَّا﴾، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وفاعله ضمير يعود على الإنسان، وجزم بـ ﴿لَمَّا﴾ دون ﴿لم﴾ للدلالة علىٰ أن العجب والكبر ما زالا يلازمان الإنسان حتىٰ الساعة ﴿مَآ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿أَمَرَهُ﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: به، وجملة ﴿يَقْضِ﴾ مستأنفة.

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ٣٢﴾.

﴿فَلْيَنظُرِ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية، و ﴿اللام﴾: لام أمر وجزم ﴿ينظر﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾: فاعل ﴿إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾: متعلق بـ ﴿ينظر﴾، والجملة مستأنفة مسوقة لتعداد النعم المترادفة علىٰ الإنسان ﴿أَنَّا﴾: ـ بفتح الهمزة ـ ناصب واسمه ﴿صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به ﴿صَبًّا﴾: مفعول مطلق، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿أن﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مجرور علىٰ أنه بدل اشتمال من ﴿طَعَامِهِۦٓ﴾، والتقدير: فلينظر الإنسان إلىٰ طعامه.. إلىٰ صببنا الماء صباً، وقرىء بكسرها على الاستئناف المبين لكيفية إحداث الطعام ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ ﴿شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به ﴿شَقًّا﴾: مفعول مطلق، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿صَبَبْنَا﴾، ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿أنبتنا﴾: فعل وفاعل، معطوف علىٰ ﴿شَقَقْنَا﴾. ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ ﴿أنبتنا﴾: ﴿حَبًّا﴾: مفعول به. وقوله: ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا ٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ٣٠﴾ معطوفات علىٰ ﴿حَبًّا﴾. ﴿غُلْبًا﴾: صفة ﴿حَدَآئِقَ﴾. ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ٣١﴾ معطوفان أيضاً علىٰ ﴿حَبًّا﴾. ﴿مَّتَٰعًا﴾: مصدر مؤكد لـ ﴿أنبتنا﴾؛ لأن إنباته الأشياء إمتاع لجميع الحيوانات الحية، أو مفعول لأجله معلل لفعل محذوف تقديره: فعلنا ذلك تمتيعاً لكم ولأنعامكم ﴿لَّكُمْ﴾: متعلق بـ ﴿مَّتَٰعًا﴾، ﴿وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾: معطوف على ﴿لَّكُمْ﴾.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ٣٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ٤١ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ٤٢﴾.

﴿فَإِذَا﴾ ﴿الفاء﴾: استئنافية ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مضمن معنىٰ الشرط متعلق بالجواب المحذوف المفهوم من قوله: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ﴾ تقديره: فإذا جاءت الصاخة.. اشتغل كل إنسان بنفسه، وجملة ﴿إذا﴾ مستأنفة مسوقة لبيان أحوالهم يوم المعاد، ويصح أن تكون الفاء فصيحة تقديره: إذا عرفت أحوالهم في الدنيا، وأردت بيان أحوالهم في المعاد.. فأقول لك: إذا جاءت الصاخة.. اشتغل

كل واحد بحال نفسه. ﴿جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿إذا﴾ على كونها فعل شرط لها. ﴿يَوۡمَ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية بدل من ﴿إذا﴾ بدل كل من كل على كونه متعلقاً بالجواب المحذوف. ﴿يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يَوۡمَ﴾: ﴿مِنۡ أَخِيهِ﴾: متعلق بـ ﴿يَفِرُّ﴾ ﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾: معطوفات على ﴿أَخِيهِ﴾، ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ﴾: خبر مقدم، ﴿مِّنۡهُمۡ﴾: صفة ﴿امرىء﴾، ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾: ظرف أضيف إلى مثله، متعلق بـ﴿يُغۡنِيهِ﴾، ﴿شَأۡنٞ﴾: مبتدأ مؤخر، وجملة ﴿يُغۡنِيهِ﴾: صفة لـ ﴿شَأۡنٞ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة ﴿وُجُوهٞ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة وقوعه في معرض التفصيل ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾: ظرف مضاف لمثله متعلق بـ ﴿مُّسۡفِرَةٞ﴾، وأخطأ من قال: إنه متعلق بـ﴿وُجُوهٞ﴾، كما مرَّ. ﴿مُّسۡفِرَةٞ﴾: خبر المبتدأ و﴿ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾﴾: خبران آخران لـ ﴿وُجُوهٞ﴾، والجملة مستأنفة مسوقة لتفصيل أحوالهم، ﴿وَوُجُوهٞ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿وُجُوهٞ﴾: مبتدأ. ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾: ظرف أضيف لمثله متعلق بـ ﴿تَرۡهَقُهَا﴾ ﴿عَلَيۡهَا﴾: خبر مقدم، ﴿غَبَرَةٞ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة خبر ﴿وُجُوهٞ﴾، وجملة ﴿وُجُوهٞ﴾ معطوفة على جملة ﴿وُجُوهٞ﴾ الأولى. ﴿تَرۡهَقُهَا﴾: فعل مضارع ومفعول به ﴿قَتَرَةٌ﴾: فاعل مؤخر، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ثانٍ لـ ﴿وُجُوهٞ﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ، ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل، أو مبتدأ ثانٍ، ﴿ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾: خبران لـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، أو لـ ﴿هُمُ﴾، والجملة خبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وجملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً.

التصريف ومفردات اللغة

﴿عَبَسَ﴾؛ أي: قطب وجهه وغير لونه من ضيق الصدر ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾؛ أي: أعرض والتفت عن جهة إلى جهة أخرى، وأصله: تولي، أعل بقلب الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾﴾ وهو من اتصف بالعمى، والعمى: افتقاد البصر، ولام الأعمى للعهد الحضوري، وأصله: الأعمي، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾؛ أي: أي شيء يعرفك حال هذا الأعمى ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾ أصله يتزكى، أبدلت تاء التفعل زاياً، وأدغمت في الزاي فاء الكلمة، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ومعنى: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾؛ أي: يتطهر بما يلقن من الشرائع. ﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ﴾؛ أي: يتعظ من التذكر، وهو الاتعاظ أصله: يتذكر. ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾﴾ بماله وقوته

عن سماع القرآن، فيه إعلال بالقلب، أصله: استغني، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾﴾ أصله: تتصدىٰ بتاءين حذفت إحدىٰ التاءين للتخفيف، وقلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، والتصدي للشيء: التعرض والتقيد به، والاهتمام بشأنه، وضده التشاغل عنه، وفي «المفردات»: التصدي أن يقابل الشيء مقابلة الصدىٰ؛ أي: الصوت الراجع من الجبال المسموع في الأماكن الخالية والأجرام الصلبة، وقيل: من الصدى، وهو العطش، والمعنىٰ هنا: علىٰ التعرض كما في «السمين». وقال بعضهم: أصله: تصدد من الصدد، وهو ما استقبلك وصار قبالتك، فأبدل أحد الأمثال حرف علة نحو: تقضىٰ البازي.

﴿أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ أصله: يتزكى بوزن يتفعل، أبدلت تاء التفعل زاياً، وأدغمت في الزاي كما مر آنفاً، والمعنى: ليس عليك بأس في عدم تزكيته بالإسلام على أن ﴿مَا﴾ نافية، وفي «البحر»: وأي شيء عليك في كونه لا يفلح ولا يتطهر من دنس الكفر علىٰ أن ﴿مَا﴾ للاستفهام الإنكاري.

﴿مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾؛ أي: يسرع ويمشي في طلب الخير والمعالي، أصله: يسعي بوزن يفعل، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾﴾ أصله: يخشي؛ لأنه من باب رضي يرضىٰ، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾؛ أي: تتشاغل عنه بدعاء صناديد قريش إلى الإسلام؛ لأنه من لهي بكذا يلهىٰ ـ كرضي يرضىٰ ـ إذا تشاغل به، وليس هو من اللهو في شيء، ولم يجعل من اللهو؛ لأنه مسند إلىٰ النبي ﷺ، ولا يليق بمنصبه الكريم أن ينسب إليه الفعل من اللهو، بخلاف الاشتغال فإنه يجوز أن يصدر منه في بعض الأحيان، ولا ينبغي أن يعتقد غير هذا. ا هـ «سمين»، وأصله: تتلهى، حذفت منه إحدى التاءين تخفيفاً، وقلبت ياؤه ألفاً لتحركها وفتح ما قبلها.

والحاصل: أنه من لهي عن الشيء بكسر الهاء يلهى بفتحها لهياً إذا أعرض عنه، لا من لهوت بالشيء ـ بالفتح ـ ألهو لهواً. إذا لعبت به، وفي «القاموس»: لها لهواً: لعب، كالتهىٰ وألهاه ذلك، ولهي به ـ كرضي ـ أحبه، وعنه: سلا وغفل وترك ذكره، ولها ـ كدعا ـ لهياً ولهياناً. انتهى.

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾ جمع سافر بمعنىٰ: كاتب، نظير كتبة وكاتب؛ لأنهم ينسخونها من اللوح المحفوظ. ﴿كِرَامٍ﴾؛ أي: مكرمين معظمين عنده تعالىٰ من الكرامة بمعنىٰ: التوقير، كما في «الشهاب».

﴿بَرَرَةٍ﴾: جمع بار، مثل كافر وكفرة، وساحر وسحرة، وفاجر وفجرة، يقال: هو بر وبار إذا كان أهلاً للصدق، ومنه بر فلان في يمينه؛ أي: صدق، وفلان يبر خالقه؛ أي: يطيعه، ومعنىٰ ﴿بَرَرَةٍ﴾: مطيعين الله.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ﴾ أصله: أموته بوزن أفعل، نقلت حركة الواو إلى الميم فسكنت، لكنها قلبت ألفاً لتحركها في الأصل، وفتح ما قبلها في الحال. ﴿فَأَقْبَرَهُ﴾، ولم يقل: فقبره؛ لأن القابر هو الدافن بيده، والمقبر: هو الله تعالىٰ، يقال: قبر الميت: إذا دفنه بيده، وأقبره: إذا أمر غيره أن يجعله في قبره.

﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾﴾ جمع: حديقة، والهمزة فيه مبدلة من ياء فعيلة في المفرد، لوقوعها حرف مد ثالثاً زائداً في اسم مؤنث. ﴿غُلْبًا﴾ جمع أغلب، كحمر في أحمر وحمراء، يقال: حديقة غلباء؛ أي: غليظة الشجر، ملتفة الحدائق، فالحدائق ذات أشجار غلاظ، فهو مجاز مرسل، كالمرسن بمعنىٰ: الغليظ مطلقاً، وفيه تجوز في الإسناد أيضاً؛ لأن الحدائق نفسها ليست غليظة، بل الغليظ أشجارها.

﴿وَأَبًّا﴾ في «المصباح»: الأبُّ: المرعىٰ الذي لم يزرعه الناس، مما تأكله الدواب والأنعام، ويبدو أنَّه: مأخوذ من أبه إذا قصده؛ لأنه يؤم وينتجع له، أو من أبَّ لكذا: إذا تهيأ له؛ لأنه متهيء للرعي.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾ اسم فاعل مؤنث، أصله: الصاخخة بخاءين، أدغمت الأولىٰ في الثانية.

﴿مُسْفِرَةٌ﴾ اسم فاعل من أسفر الصبح إذا أضاء، فهو من لوازم الأفعال، قال في «المفردات»: الإسفار يختص باللون، ومعنىٰ ﴿مُسْفِرَةٌ﴾: مشرق لونها. ﴿ضَاحِكَةٌ﴾: اسم فاعل من الضحك، والضحك: انبساط الوجه وتكثر الأسنان من سرور النفس، كما مر.

﴿مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ قال الراغب: واستبشر؛ أي: وجد ما يبشره من الفرح، وبشرته:

أخبرته بسار بسط بشرة وجهه، وذلك أن النفس إذا سرت انتشر الدم انتشار الماء في الشجرة. ﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾؛ أي: غبار ﴿تَرْهَقُهَا﴾ في «المختار»: رهقه: غشيه، وبابه طرب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾. ﴿قَتَرَةٌ﴾؛ أي: ظلمة وسواد، وهذا تفسير ابن عباس، وعليه: فالفرق بين الغبار والقترة ظاهر، وقيل: القترة والغبرة معناهما واحد، وعليه فيفرق بأن القترة ما ارتفع من الغبار إلى السماء، والغبرة: ما انحط منه إلىٰ الأرض. تأمل.

﴿هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ جمع كافر وفاجر: وهو الكاذب والمفتري علىٰ الله تعالى، فجمع الله تعالى إلى سواد وجوههم الغبرة، كما جمعوا الفجور إلىٰ الكفر. ا هـ. «خطيب».

وفي «القرطبي»: الفاجر: الكاذب المفتري علىٰ الله تعالى، وقيل: الفاسق. ا هـ. وفي «المختار: وفجر: فسق، وفجر: كذب، وبابهما دخل، وأصله: الميل، والفاجر: المائل. ا هـ.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: المجيء بضمائر الغيبة في قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ حيث لم يقل: عبست وتوليت أن جاءك الأعمىٰ إجلالاً له ﷺ، ولطفاً به؛ لما في المشافهة بتاء الخطاب من الغلظة والشدة.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلىٰ الخطاب زيادةً في العتاب؛ حيث قال أولاً: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ ثم قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ فالتفت تنبيهاً للرسول ﷺ إلىٰ العناية بشأن الأعمى.

ومنها: تقديم التزكية في قوله: ﴿لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰٓ﴾ علىٰ التذكر في قوله: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰٓ ۝٤﴾ تقديماً للتخلية علىٰ التحلية؛ لأن الأول من باب التخلية من الآثام، والثاني من باب التحلية بالطاعات.

ومنها: جناس الاشتقاق بين ﴿يَذَّكَّرُ﴾، وبين ﴿ذِكْرَىٰٓ﴾.

ومنها: الاحتباك في قوله: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾ و ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ فإنه ذكر الغنىٰ أولاً للدلالة علىٰ الفقر ثانياً، وذكر المجيء والخشية ثانياً؛ للدلالة علىٰ ضدهما أولاً.

ومنها: الطباق بين ﴿تَصَدَّىٰ﴾ وبين ﴿تَلَهَّىٰ﴾؛ لأن المراد بهما تتعرض له وتشغل عنه.

ومنها: تقديم الجار والمجرور علىٰ متعلقه في قوله: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾، وقوله: ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ رعاية للفاصلة.

ومنها: تقديم ضميره ﷺ، وهو: ﴿أَنتَ﴾ علىٰ الفعلين في الموضعين تنبيهاً علىٰ أن مناط الإنكار خصوصيته ﷺ؛ أي: مثلك خصوصاً لا ينبغي له أن يتصدىٰ للمستغني، ويتلهىٰ عن الفقير الطالب للخير، كما في «روح البيان».

ومنها: الكناية الرائقة في قوله: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠﴾ كنىٰ بالسبيل عن خروجه من فرج أمه.

ومنها: تعريف ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ باللام دون الإضافة بأن يقول: ثم سبيله يسر بإضافته إلىٰ ضمير الإنسان؛ للإشعار بالعموم؛ أي: بعمومه سبيل الخير أو الشر، كقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾.

ومنها: الإجمال في قوله: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨﴾ ثم التفصيل بقوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩﴾ إلخ؛ لأن ذكر الشيء مجملاً، ثم ذكره مفصلاً، أوقع في النفس وأرسخ فيها.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦﴾.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦﴾، ففيه إسناد مجازي، فقد أسند تعالىٰ الشق إلىٰ نفسه من باب إسناد الفعل إلىٰ السبب، وقيل: الإسناد حقيقي، وإن القول بمجازيته هو من أقوال المعتزلة، ولكن البيضاوي نفسه يتبع الزمخشري في مجازية الإسناد، فيقول: أسند تعالى الشق إلىٰ نفسه إسناد الفعل

إلى سببه، والحق مع الزمخشري في هذا، فإن مجازيته لا تعني أن أفعال العباد مخلوقة لهم؛ لأن الفعل إنما يسند حقيقة لمن قام به، لا لمن أوجده، فالاعتراض عليه تعسف.

ومنها: التعميم بعد التخصيص في قوله: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠﴾؛ لأنه عام لجميع ما قبله.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿غُلْبًا﴾؛ لأن الغلب صفة للأشجار لا للحدائق، فأطلق ما للحال علىٰ المحل، علاقته المحلية.

ومنها: الالتفات من الغيبة في قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ إلى الخطاب في قوله: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢﴾.

ومنها: تأخير الأحب للمبالغة في قوله: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦﴾؛ لأن الأبوين أقرب من الأخ، وتعلق القلب بالصحابة والأولاد أشد من تعلقه بالأبوين.

ومنها: المقابلة اللطيفة بين السعداء والأشقياء في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨﴾ إلخ قابلها بقوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ . . .﴾ إلخ.

فائدة: اقتبس بعض الأدباء من قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧﴾ هذين البيتين:

يَتَمَنَّىٰ ٱلْمَرْءُ فِيْ ٱلصَّيْفِ ٱلشِّتَاءْ فَإِذَا جَاءَ ٱلشِّتَاءُ أَنْكَرَهْ
فَهْوَ لَا يَرْضَىٰ بِحَالٍ وَاحِدٍ قُتِلَ ٱلإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهْ

والله أعلم

* * *

خلاصة ما جاء في هذه السورة الكريمة من المقاصد

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ عتاب الرسول ﷺ ما حدث منه مع ابن أم مكتوم الأعمىٰ.

٢ ـ أن القرآن ذكرى أو موعظة لمن عقل وتدبر.

٣ ـ إقامة الأدلة علىٰ وحدانية الله تعالى بخلق الإنسان، والنظر في طعامه وشرابه.

٤ ـ أهوال يوم القيامة.

٥ ـ الناس في هذا اليوم فريقان: سعداء وأشقياء، وذكر حال كل منهما حينئذٍ[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) إلى هنا تم تفسير هذه السورة الكريمة بتوفيق الله تعالى ومعونته في اليوم السادس، من شهر الله شعبان من شهور سنة: ١٤١٦/٨/٦ ألف وأربع مئة وست عشرة سنة من الهجرة النبوية علىٰ صاحبها أفضل الصلوات، وأزكى التحيات والصلات، وصلىٰ الله تعالى وسلم على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين. أمين.

سورة التكوير

سورة التكوير مكية بلا خلاف، نزلت بعد سورة المسد، وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة إذا الشمس كورت بمكة، وأخرج ابن مردويه عن عائشة وابن الزبير مثله.

وآياتها: تسع وعشرون آية. وكلماتها: مئة وأربع كلمات. وحروفها: خمس مئة وثلاثة وثلاثون حرفاً.

ومناسبتها لما قبلها: أن كلتيهما تشرح أحوال يوم القيامة وأهوالها، وهذه السورة محكم كلها، ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

فضلها: ومما ورد في فضلها: ما أخرجه الإمام أحمد، والترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلىٰ يوم القيامة كأنه رأي عين.. فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ①﴾ و ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ①﴾ و ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ①﴾»، وهي اشتملت علىٰ بيان حقيقتين: حقيقة القيامة وما يصاحبها من انقلاب الكون، وحقيقة الوحي، وما يتعلق بها من صفة الملك الذي تحمله، وصفة النبي الذي يتلقاه، ثم شأن القوم المخاطبين بهذا الوحي معه، ومع خالقهم الذي فطرهم وأنزل الوحي إليهم.

والله أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾.

المناسبة

لما ختم الله سبحانه وتعالىٰ سورة عبس بذكر يوم القيامة وأهوالها.. افتتح هذه السورة أيضاً بذكر علاماتها وأحوالها وأهوالها، وذكر ما يكون فيه من حوادث عظام، ليفخم شأنه، وبين أنه حين تقع هذه الحوادث تعلم كل نفس ما قدمت من عمل خير أو شر، ووجدت ذلك أمامها ماثلاً، ورأت ما أعدّ لها من جزاء، وتمنت إن كانت من أهل الخير أن لو كانت زادت منه، وإن كانت من أهل الشر أن لو لم تكن فعلته، واستبان لها أن الوعد الذي جاء علىٰ ألسنة الرسل كان وعيداً صادقاً، لا تهويل فيه ولا تضليل.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر من أحوال يوم القيامة وأهوالها ما ذكر، وبيَّن أن الناس حينئذٍ يقفون على حقائق أعمالهم في النشأة الأولىٰ، ويستبين لهم ما هو مقبول منها، وما هو مردود عليهم.. أردف ذلك ببيان أنَّ ما يحدثهم به الرسول ﷺ، هو القرآن الذي أنزل عليه، وهو آيات بينات من الهدىٰ، وأن ما رميتموه من المعايب كقولكم: إنه ساحر، أو مجنون، أو كذاب، أو شاعر ما هو

إلا محض افتراء، وأن لجاجكم في عداوته، وتألبكم عليه ما هو إلا عناد واستكبار، وأنكم في قرارة نفوسكم عالمون حقيقة أمره، ودخيلة دعوته.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ ولفت ومحي ضوؤها، وسقطت من مقرها حين خراب العالم الذي يعيش فيه الحي في حياته الدنيا، ولا يبقىٰ في عالمه الآخر الذي ينقلب إليه شيء من هذه الأجرام، وارتفاع[1] ﴿ٱلشَّمْسُ﴾ علىٰ أنه فاعل لفعل مضمر يفسره ما بعده على الاشتغال، وهذا عند البصريين، لا فاعله؛ لأن الفاعل لا يتقدم على فعله، وأما عند الكوفيين والأخفش.. فهو مرفوع علىٰ الابتداء؛ لأن التقدير خلاف الأصل، والأول أولىٰ؛ لأن ﴿إِذَا﴾ فيها معنى الشرط، والشرط مختص بالفعل، وعلى الوجهين الجملة في محل الجر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها.

والحاصل: أن ﴿إِذَا﴾ في هذه المواضع الاثني عشر: ظرف مضمن معنىٰ الشرط، وجوابها ﴿عَلِمَتْ﴾، كما سيأتي، ومعنى ﴿كُوِّرَتْ﴾: لفت، من كورت العمامة إذا لفقتها بضم بعض أجزائها إلى بعض علىٰ جهة الاستدارة، على أن المراد بذلك، إما رفعها وإزالتها من مقرها، فإن الثوب إذا أريد رفعه عن مكانه، وستره بجعله في صندوق أو غيره.. يلف لفاً ويطوىٰ، نظير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾ فكان بين السماء والرفع علاقة اللزوم، فتكويرها كناية عن رفعها. قال سعدي المفتي: ولا منع من إرادة المعنىٰ الحقيقي أيضاً، وكون الشمس كرة مصمتة علىٰ تسليم صحته لا يمنع من تلك الإرادة؛ لجواز أن يحدث الله فيها قابلية التكوير، بأن يصيرها منبسطة، ثم يكورها، إن الله على كل شيءٍ قدير. انتهىٰ.

وأما لف ضوئها المنبسط في الآفاق، المنتشر في الأقطار، بأن يكون إسناد كورت إلىٰ ضمير الشمس مجازياً، أو بتقدير مضاف علىٰ أنه عبارة عن إزالتها، والذهاب بها بحكم استلزام زوال اللازم لزوال الملزوم، فاللف علىٰ هذا مجاز عن الإعدام، إذ لا مساغ لإرادة المعنىٰ الحقيقي؛ لأن الضوء لكونه من الأعراض لا يتصور فيه اللف، وقيل: معنى ﴿كُوِّرَتْ﴾: ألقيت من فلكها على وجه الأرض، كما

---

(١) روح البيان.

وصفت النجوم بالانكدار مأخوذ من طعنه فكوره إذا ألقاه علىٰ الأرض.

فالحاصل: أن التكوير، إما بمعنىٰ لف جرمها، أو لف ضوئها، أو الرمي بها. وفي الحديث: «إن الشمس والقمر نوران مكوران في النار يوم القيامة»؛ أي: مرميان فيها لازدياد الحر في جهنم، وكذا قال الطيبي: تكويرهما فيها ليعذب بهما أهل النار، لا سيما عباد الأنوار، لا ليعذبهما في النار، فإنهما بمعزل عن التكليف، بل سبيلهما في النار سبيل النار نفسها، وسبيل الملائكة الموكلين بها. انتهىٰ. وكذا قال في تفسير الفاتحة للفناري: إن السماء إذا طويت واحدة بعد واحدة.. يرمىٰ بكواكبها في النار.

فإن قيل: كيف يمكن تكويرهما في النار، وقد ثبت بالهندسة أن قرص الشمس في العظم يساوي كرة الأرض مئة وستين مرة وربع الأرض وثمنها؟.

أجيب: بأن الله تعالى قادر على أن يدخلها في قشرة جوزة علىٰ ذلك العظم، يقول الفقير[1]: قد ثبت أن الله تعالى يمد الأرض يوم القيامة، فتكون أضعاف ما كانت عليه على أن وسعة الدارين ثابتة لكثرة أهلهما ووسعتهم، لأنه ثبت أن ضرس الكافر مثل جبل أُحد، وجسمه مسيرة ثلاثة أيام، فإذا كان جسد كل كافر علىٰ هذا الغلظ والعظم.. فاعتبر منه ووسعة جهنم، فقرص الشمس في النار كجوزة في وسط بيت واسع، ولا يعرف حد الدارين إلا الله تعالى.

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾؛ أي: وإذا النجوم تناثرت وذهب لألؤها، كما جاء في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢﴾ يقال: انكدر الطائر من الهواء إذا انقض، والأصل في الانكدار: الانصباب، قال أبو عبيدة: انصبت كما ينصب العقاب. قال الكلبي وعطاء: تمطر السماء يومئذٍ نجوماً، فلا يبقىٰ نجم في السماء إلا وقع علىٰ الأرض، وقيل: انكدارها: طمس نورها. و﴿ٱلنُّجُومُ﴾: جمع نجم، وهو الكوكب الطالع، وبه شبه طلوع النبات والرأي، فيقال: نجم النبت والرأي نجماً ونجوماً، فالنجم اسم مرة، ومصدر أخرى، وذلك أن النجوم ـ علىٰ ما روى ابن عباس رضي الله عنهما ـ قناديل معلقة بين السماء والأرض بسلاسل من نور، وتلك السلاسل

---

(١) روح البيان.

بأيدي ملائكة من نور، فإذا مات من في السموات ومن في الأرض.. تساقطت تلك الكواكب من أيديهم؛ لأنه مات من يمسكها.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾؛ أي: وإذا الجبال قلعت عن أماكنها، ورفعت عن وجه الأرض، وأبعدت عن أماكنها، وسيرت في الهواء كالسحاب بالرجفة الحاصلة حين زلزلت الأرض، فتقطع أوصالها، وتقذف في الفضاء، وذلك حين النفخة الثانية، ونحو الآية قوله: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾ وقوله: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾.

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ﴾؛ أي: النوق الحوامل التي في بطونها أولادها، وهي أكرم الأموال لديهم وأعزها عندهم ﴿عُطِّلَتْ﴾؛ أي: أهملت ولم يعن بشأنها لاشتداد الخطب وفداحة الهول، و﴿ٱلْعِشَارُ﴾: جمع عشراء، كنفاس ونفساء، وليس فعلاء يجمع علىٰ فعال غير عشراء ونفساء، كما في «القاموس». والعشراء: هي الناقة التي أتىٰ على حملها عشرة أشهر، ثم لا يزال ذلك اسمها إلى أن تضع لتمام السنة، وخص العشار؛ لأنها أنفس أموال العرب وأعزها عندهم، ومنها معظم أسباب معاشهم، ومعنىٰ: ﴿عُطِّلَتْ﴾: تركت هملاً بلا راع، والعطل: فقدان الزينة والشغل، ويقال لمن يجعل العالم بزعمه فارغاً عن صانع أتقنه وزينه ورتبه: معطل، وعطل الدار عن ساكنيها، والإبل عن راعيها.

والمعنى[1]: وإذا العشار تركت مسيبة مهملة غير منظور إليها مع كونها محبوبة مرغوبة عند أهلها؛ لاشتغال أهلها بأنفسهم، وذلك عند مجيء مقدمات قيام الساعة، فإن الناس حينئذٍ يتركون الأموال والأملاك، ويشتغلون بأنفسهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨﴾، وقال الإمام أبو الليث وغيره: هذا علىٰ وجه المثل، لأنه في القيامة لا تكون ناقة عشراء، يعني: إن هول القيامة بحال لو كان للرجل ناقة عشراء.. لعطلها، واشتغل بنفسه، لعلهم جعلوا يوم القيامة ما بعد النفخة الثانية، أو مبادي الساعة من القيامة، لكن يمكن وجود العشراء في المبادي، فلا يكون تمثيلاً، فيكون ذلك في الدنيا، وقيل:[2] العشار: السحاب، فإن العرب تشبهها بالحامل، ومنه قوله تعالى؛ ﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢﴾ ومعنىٰ تعطيلها: عدم

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

إمطارها، وقيل: المراد أن الديار تعطل فلا تسكن، وقيل: الأرض التي تعشر زرعها تعطل فلا تزرع، وقيل: إذا قاموا من القبور.. شاهدوا الوحوش والدواب محشورة، وعشارهم فيها التي كانت كرائم أموالهم لم يعبؤوا بها لشغلهم بأنفسهم.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿عُطِّلَتْ﴾ بالتشديد، وقرأ ابن كثير في رواية عنه بالتخفيف، وقيل: هو وهم، وعَطَلَت بفتحتين، بمعنىٰ: تعطلت؛ لأن التشديد فيه للتعدي، يقال منه: عطلت الشيء وأعطلته فعطل بنفسه، وعطلت المرأة فهي عاطل: إذا لم يكن عليها الحلي، فلعل هذه القراءة عن ابن كثير لغة استوى فيها فعلت وأفعلت، والله أعلم. انتهى.

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ﴾ قال في «القاموس»: الوحش: حيوان البر كالوحيش، والجمع: وحوش وحشان، والواحد: وحشي، قال ابن الشيخ[2]: هو اسم لما يستأنس بالإنسان من حيوان البر، والمكان الذي لا أنيس فيه وحشي، وخلاف الوحشي: الأهلي. ﴿حُشِرَتْ﴾؛ أي: جمعت من كل جانب، واختلط بعضها ببعض وبالناس مع نفرة بعضها عن البعض وعن الناس أيضاً، وتفرقها في الصحارىٰ والقفار، وذلك الجمع من هول ذلك اليوم، وقيل: بعثت للقصاص إظهاراً للعدل. قال قتادة: يحشر كل شيء حتىٰ الذباب للقصاص، فيقتص للجماء من القرناء، فإذا قضي بينها.. ردت تراباً، فلا يبقىٰ منها إلا ما فيه سرور لبني آدم، وإعجاب بصورته، أو بصوته، كالطاووس والبلبل ونحوهما، فإذا بعثت الحيوانات للقصاص تحقيقاً لمقتضىٰ العدل، فكيف يجوز مع هذا أن لا يحشر المكلفون من الإنس والجن، وقيل: حشرها: موتها.

والمعنىٰ: أي ماتت وهلكت، تقول العرب إذا أضرت السنة بالناس، وأصابتهم بالقحط والجدب.. حشرتهم السنة؛ أي: أهلكتهم، وهلاكها يكون من هول ذلك الحادث العظيم.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿حُشِرَتْ﴾ بالتخفيف، وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.

بالتشديد.

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾؛ أي: أوقدت فصارت ناراً تضطرم، من سجر التنور: إذا ملأه بالحطب ليحميه. ووجه الإيقاد: أن جهنم في قعور البحار، وتحت أطباق الأرض، إلا أنها الآن مطبقة لا يصل أثر حرارتها إلى ما فوقها من البحار؛ ليتيسر انتفاع أهل الأرض بها، فإذا انتهت مدة الدنيا.. يرفع الحجاب، فيصل تأثير تلك النيران إلىٰ البحار، فتسخن فتصير حميماً لأهل النار، أو تبعث عليها ريح الدبور، فتنفخها وتضرمها، فتصير ناراً علىٰ ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما في وجه الإيقاد، فالمراد[1] من تسجيرها: إضرامها ناراً، فإن ما في باطن الأرض من النار يظهر بتشققها، وتمزق طبقاتها العليا، وحينئذٍ يصير الماء بخاراً، ولا يبقىٰ إلا النار.

وقد أثبت البحث العلمي غليان البراكين، وهي جبال النار التي في باطن الأرض، وتشهد لذلك الزلازل الشديدة التي تشق الأرض والجبال في بعض الأطراف، كما ظهر في مسِّينا بإيطاليا سنة (١٩٠٩م)، وحدث في اليابان بعد ذلك، وفي جاوا، وفي أغادير بالمغرب، وفي تركيا وإيران وجيانا، وجاء في بعض الأخبار: إن البحر غطاء جهنم، وقال الفراء: معنى سجرت: ملئت بأن صارت بحراً واحداً وكثر ماؤها

ووجه الامتلاء[2]: أن الجبال تندك وتفرق أجزاؤها، وتصير كالتراب الهائل الغير المتماسك، فلا جرم تنصب أجزاؤها في أسافلها، فتمتلىء المواضع الغائرة من الأرض، فيصير وجه الأرض مستوياً مع البحار، فتصير البحار بحراً واحداً مسجوراً؛ أي: ممتلئاً، وبه قال الربيع بن خثيم والكلبي ومقاتل والحسن والضحاك، وقال بعضهم: ملئت بإرسال عذبها علىٰ مالحها؛ أي: فجر الزلزال ما بينها حتى اختلطت وعادت بحراً واحداً، ثم أسيلت حتىٰ بلغت الثور، فابتلعها، فلما بلغت إلىٰ جوفه نفدت، وقال الحسن: يذهب ماؤها حتىٰ لا يبقىٰ فيها قطرة، قال الراغب: وإنما يكون كذلك لتسجير النار فيها؛ أي: إضرامها، وقيل: معنىٰ ﴿سُجِّرَتْ﴾: أنها صارت حمراء كالدم من قولهم: عين سجراء؛ أي: حمراء.

---

(١) المراغي.　　(٢) روح البيان.

وقرأ الجمهور[١]: ﴿سُجِّرَتْ﴾ بالتشديد، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتخفيف.

والتشديد[٢] في مثل هذه الأفعال قد يكون لتكثير الفعل وتكريره، والتخفيف يحتمل القليل والكثير.

وخصت هذه السورة بـ ﴿سُجِّرَتْ﴾ موافقة لقوله: ﴿سُعِّرَتْ﴾، لأن معنىٰ ﴿سُجِّرَتْ﴾ عند أكثر المفسرين: أوقدت فصارت ناراً، فيقع التوعد بتسجير النار، وتسجير البحار، وخصت سورة الانفطار بـ ﴿فُجِّرَتْ﴾ موافقة لقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢﴾، لأن في كلٍّ من تساقط الكواكب، وسيلان المياه علىٰ وجه الأرض، وبعثرة القبور؛ أي: قلب ترابها مزايلة الشيء عن مكانها.

وبعد أن عدد ما يحدث من مقدمات الفناء، وبطلان الحياة في الأرض، وامتناع المعيشة فيها.. أخذ يذكر ما يكون بعد ذلك من البعث والنشور، فقال: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ﴾ الظاهر: نفوس الإنسان، ويحتمل أن تعم الجن أيضاً، كما في بعض التفاسير. ﴿زُوِّجَتْ﴾ التزويج: جعل أحد زوجاً لآخر، وهو يقتضي المقارنة؛ أي: قرنت الأرواح بأجسادها بأن ردت إليها حين النشأة الآخرة، قاله عكرمة والضحاك والشعبي. وفي[٣] هذا إيماء إلىٰ أن النفوس كانت باقية من حين الموت إلى حين المعاد، فبعد أن كانت منفردة عن البدن.. تعود إليه، أو قرنت كل نفس[٤] بشكلها، وبمن كان في طبقتها في الخير والشر، فيضم الصالح إلى الصالح في الجنة، ويضم رجل السوء إلى رجل السوء في النار، أو قرنت بكتابها أو بعملها، فالنفوس المتمردة زوجت بأعمالها السيئة، والمطمئنة بأعمالها الحسنة، أو نفوس المؤمنين بحور العين، ونفوس الكفرة بالشياطين، وقيل: قرن كل رجل إلىٰ من كان يلازمه من ملك أو سلطان، كما في قوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾، أو قرن كل عابد بمعبوده من دون الله تعالى، أو قرن الغاوي بمن أغواه من شيطان أو إنسان، وقرن المطيع بمن دعاه إلىٰ الطاعة من الأنبياء والمؤمنين.

وقرأ الجمهور: بواو مشددة، وقرأ عاصم في رواية: ﴿زووجت﴾ علىٰ وزن

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

فوعلت، والمفاعلة تكون بين الإثنين. ا هـ من «البحر».

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾؛ أي: البنت المدفونة حية، يقال: وأد بنته يئدها وأداً، وهي مؤودة إذا دفنها في القبر وهي حية، وكانت العرب تئد البنات مخافة الإملاق أو الاسترقاق أو لحوق العار بهم من أجلهن، وكانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله، فألحقوا البنات به، فهو أحق بهم، فقد كان الوأد يتم في صورة بشعة قاسية تقشعر لهولها الأبدان، وتذوب لها القلوب حسرات. قال في «الكشاف»[1]: فقد كان الرجل الجاهلي، إذا ولدت له بنت، فأراد أن يستحييها، ألبسها جبة من صوف أو شعر ترعىٰ له الإبل والغنم في البادية، وإن أراد قتلها تركها حتى إذا كانت سداسية؛ أي: بلغت من العمر ست سنوات.. قال لأمها: طيبيها وزينيها حتىٰ أذهب بها إلى أحمائها، وقد حفر لها بئراً في الصحراء، فيأخذها من أمها المسكينة الحزينة، فيذهب بها حتىٰ يبلغ بها البئر، هذا الوالد القاسي الذي هو الوحش الكاسر بعينه، فيقول لها وهو واقف علىٰ حافة البئر: انظري فيها، فتنظر الفريسة المسكينة فيها، فيدفعها من خلفها، ويسقطها في البئر، ثم يهيل عليها التراب حتىٰ تستوي البئر بالأرض، فيالله ما أعظم هذه القسوة، وما أبشع هذه الجريمة، وما أغلظ هذه القلوب التي قدت من صخر، إذ تقتل البريئات، وتسفك دم الطفلات الطاهرات بغير جرم سوىٰ خوف الفقر أو خوف العار، ويروىٰ أنه كانت المرأة في الجاهلية إذا قرب أوان وضعها حفرت الحفرة، فتمخضت علىٰ رأس الحفرة، فإذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة، وإن ولدت ابناً حبسته وأبقته إليها، وكانت هذه حال العرب قبل الإسلام، حتىٰ جاءهم الله تعالى بهذا الدين العظيم، فلما خالطت بشاشة قلوبهم غيرتها إلىٰ قلوب رحيمة رقيقة كريمة جياشة بالرأفة والحنان، فمحا الإسلام عنهم وصمة هذا العار و هذا الخزي، فما أعظم نعمة الإسلام علىٰ الإنسانية بأسرها؛ لمحوه هذه العادة القبيحة منهم، وغيرها من سيء العادات.

﴿سُئِلَتْ﴾؛ أي: سألها الله سبحانه وتعالى بنفسه إظهاراً للعدل، أو بأمره للملك ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ﴾ من الذنوب الموجبة للقتل عقلاً ونقلاً ﴿قُتِلَتْ﴾؛ أي: قتلها أبوها حيةً فعلاً أو رضىٰ، وتوجيه السؤال إليها لتسليتها، وإظهار كمال الغيظ والسخط

(١) الكشاف بتصرف وزيادة.

لوائدها، وإسقاطه عن درجة الخطاب، والمبالغة في تبكيته، كما في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ﴾، ولذا لم يسأل الوائد عن موجب قتله لها.

وجه التبكيت: أن المجني عليه إذا سئل بمحضر من الجاني، ونسب إليه الجناية دون الجاني.. كان ذلك بعثاً للجاني علىٰ التفكر في حال نفسه وحال المجني عليه، فيعثر علىٰ براءة ساحة صاحبه، وعلىٰ أنه هو المستحق لكل نكالٍ فيفحم، وهذا النوع من الاستدراج واقع علىٰ سبيل التعريض، وهو أبلغ، فلذلك اختير علىٰ التصريح، وإنما قال: ﴿قُتِلَتْ﴾ علىٰ الغيبة لما أن الكلام إخبار عنها، لا حكاية لما خوطبت به حين سئلت، فيقال: قتلت علىٰ الخطاب، وعلى قراءة: ﴿سألت﴾: أي: الله، أو قاتلها، لا حكاية لكلامها حين سألت فيقال: قتلت علىٰ الحكاية عن نفسها، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه سئل عن أطفال المشركين، فقال: لا يعذبون، احتج بهذه الآية، فإنه ثبت بها أن التعذيب لا يستحق إلا بالذنب، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أن الوائدة والموؤودة في النار؛ أي: إذا كانت الموؤودة بالغةً.

وقرأ الجمهور: ﴿ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾ بهمزة بين الواوين اسم مفعول. وقرأ البزي في رواية: ﴿الموؤدة﴾ بهمزة مضمومة علىٰ الواو، فاحتمل أن يكون الأصل: الموؤودة، كقراءة الجمهور، ثم نقل حركة الهمزة إلىٰ الواو بعد حذف الهمزة، ثم همز الواو المنقول إليها الحركة، واحتمل أن يكون اسم مفعول من آد، فالأصل: مأوودة، فحذفت إحدى الواوين علىٰ الخلاف الذي فيه المحذوف واو المد، أو الواو التي هي عين الكلمة نحو: مقوول؛ حيث قالوا فيه: مقول. وقرىء ﴿المودة﴾ بضم الواو الأولىٰ، وتسهيل الهمزة، أعني: التسهيل بالحذف ونقل حركتها إلىٰ الواو، وقرأ الأعمش: المودة بسكون الواو علىٰ وزن الفعلة كالمودة، وكذا وقف حمزة بن مجاهد، ونقل الفراء: أن حمزة يقف عليها، كالمودة؛ لأجل الخط؛ لأنها رسمت كذلك، والرسم سنة متبعة.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿سُئِلَتْ﴾ مبنياً للمفعول، ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ كذلك بتخفيف التاء، وبتاء التأنيث فيهما. وقرأ الحسن والأعرج: ﴿سيلت﴾ بكسر السين

(١) البحر المحيط.

من سال يسيل، وذلك علىٰ لغة من قال سال بغير همزة. وقرأ أبو جعفر بشد الياء، لأن الموؤودة اسم جنس، فناسب التكثير باعتبار الأشخاص. وقرأ ابن مسعود وعلي وابن عباس وجابر بن زيد وأبو الضحى ومجاهد: ﴿سألت﴾ مبنياً للفاعل ﴿قتلت﴾ بسكون اللام وضم التاء حكايةً لكلامها حين سألت، وعن أبي وابن مسعود أيضاً والربيع بن خيثم وابن يعمر ﴿سألت﴾ مبنياً للفاعل، ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتۡ ۝٩﴾ مبنياً للمفعول بتاء التأنيث فيهما إخباراً عنها، ولو حكي كلامها.. لكان قتلت بضم التاء، وفي مصحف أبي: ﴿وإذا الموؤودة سألت بأي ذنب قتلتني﴾. ومعنىٰ: سألت علىٰ قراءة البناء للفاعل: أن المقتولة تتعلق بأبيها يوم القيامة، فتقول: بأي ذنب قتلتني، فلا يكون له عذر، قاله ابن عباس، وروىٰ عكرمة عن ابن عباس: عن النبي ﷺ قال: «إن المرأة التي تقتل ولدها تأتي يوم القيامة متعلقاً ولدها بثدييها، ملطخاً بدمائه، فيقول: يا رب هذه أمي، وهذه قتلتني».

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ﴾؛ أي: صحف[1] الأعمال ﴿نُشِرَتۡ﴾؛ أي: فتحت للحساب، فإنها تطوىٰ عند الموت، وتنشر عند الحساب؛ أي: تفتح فيعطاها الإنسان منشورةً بأيمانهم وشمائلهم، فيقف علىٰ ما فيها، وتحصىٰ عليه جميع أعماله، فيقول: مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. وعن أم سلمة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة»، فقلت يا رسول الله: فكيف بالنساء؟ قال: «شغل الناس يا أم سلمة»، قلت: وما شغلهم؟ قال: «نشر الصحف فيها مثاقيل الذر، ومثاقيل الخردل». ونقل الزمخشري قول المرشد بن وداعة قال: إذا كان يوم القيامة.. تطايرت الصحف من تحت العرش، فتقع صحيفة المؤمن في يده في جنة عالية، وتقع صحيفة الكافر في يده في سموم وحميم؛ أي: مكتوب فيها ذلك، وهي صحف غير صحف الأعمال.

وقرأ أبو رجاء[2]، وقتادة والحسن والأعرج وشيبة وأبو جعفر ونافع وابن عامر وعاصم ﴿نُشِرَتۡ﴾ بتخفيف الشين، وباقي السبعة: بتشديدها.

والمعنىٰ[3]: أي وإذا صحف الأعمال ظهرت للعاملين في موقف الحساب، حتىٰ لا يرتابوا فيها، ولا ينبغي أن نبحث عن تلك الصحف؛ لنعلم أهي علىٰ مثال

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط. (٣) المراغي.

الأوراق التي تكتب فيها في الدنيا، أم تشبه الألواح أو نحو ذلك مما جرىٰ استعماله في الكتابة، فإن ذلك مما لا يصل إليه علمنا، ولم يجيء نص قاطع عن المعصوم ﷺ يفسر ذلك.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ۝١١﴾؛ أي: قلعت[1] وأزيلت بحيث ظهر ما وراءها، وهو الجنة والعرش، كما يكشط الإهاب عن الذبيحة، والغطاء عن الشيء المستور به، والكشط: قلع عن شدة التزاق، والقشط بالقاف: لغة فيه، وهي قراءة ابن مسعود، قال الزجاج: قلعت كما يقلع السقف، وقال الفراء: نزعت فطويت.

والمعنىٰ: أزيلت فلم يبق غطاء ولا سماء، ولم يوجد ما يطلق عليه اسم الأعلىٰ والأسفل.

وقرأ عبد الله: ﴿قشطت﴾ بالقاف، وهما كثيراً ما يتعاقبان، كقولهم: عربي قح وكح، وتقدمت قراءته ﴿قافوراً﴾؛ أي: كافوراً.

﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ۝١٢﴾، أي: أوقدت للكافرين إيقاداً شديداً لتحرقهم إحراقاً أبدياً، سعرها غضب الله تعالىٰ وخطايا بني آدم، فإسعار النار: زيادة التهابها لا حدوثها ابتداءً، وبه يندفع احتجاج من قال: النار غير مخلوقة الآن؛ لأنها تدل علىٰ أن تسعرها معلق بيوم القيامة، وذلك لأن فيه الزيادة والاشتداد.

وقرأ نافع وابن عامر وحفص وابن ذكوان[2]: ﴿سُعِّرَتۡ﴾ بالتشديد؛ لأنها أوقدت مرة بعد مرة، وقرأ باقي السبعة وعلي بالتخفيف.

والمعنىٰ: أي وإذا جهنم التي يعاقب فيها أهل الكفر والطغيان.. أوقدت إيقاداً شديداً، فيكون ألم من يدخل فيها من أشد الآلام التي تحدث عن مس النيران للأجسام الحية، وقد جاء في سورة البقرة: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾.

﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ۝١٣﴾ أي: قربت[3] إلى المتقين، وأدنيت منهم ليدخلوها، كقوله تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ۝٣١﴾، وقال الحسن: إنهم يقربون منها، لا أنها تزول عن موضعها، فالمراد من التقريب التعكيس للمبالغة، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ حيث تعرض النار عليهم تحقيراً وتحسيراً

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط. (٣) روح البيان.

فقلب مبالغة، ويحتمل أن يكون المراد التقريب المعنوي، وهو جعل أهلها مستحقين لدخولها مكرمين فيها، والأول أولىٰ. قيل: هذه الأمور الاثنا عشر ستة منها في الدنيا؛ أي: فيما بين النفختين، وهي من أول السورة إلى قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾﴾ وستة في الآخرة؛ أي: بعد النفخة الثانية، وهي: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾﴾ إلىٰ هنا. وقال أبي بن كعب رضي الله عنه: ستة آيات قبل القيامة، بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال علىٰ وجه الأرض فتحركت واضطربت وفزعت الجن إلىٰ الإنس والإنس إلى الجن، واختلطت الدواب والطير والوحوش، وماج بعضهم في بعض، فحينئذٍ تقول الجن للإنس: نحن نأتيكم بالخبر، فينطلقون إلىٰ البحر، فإذا هو نار تتأجج؛ أي: تتلهب، قال: فبينما هم كذلك إذ صدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى، وإلى السماء السابعة العليا، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم. كذا في «المعالم».

وجواب الجميع قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ وقدمت علىٰ أن المراد بها زمان واحد متسع محيط بما ذكر من أول السورة إلىٰ هنا من الاثني عشر شيئاً، مبدأه النفخة الأولىٰ، ومنتهاه فصل القضاء بين الخلائق، لكن لا بمعنىٰ أنها تعلم ما تعمل في كل جزء من أجزاء ذلك الوقت المديد، أو عند وقوع داهية من تلك الدواهي، بل عند نشر الصحف إلا أنه لما كان بعض تلك الدواهي من مباديه، وبعضها من روادفه نسب علمها بذلك إلىٰ زمان وقوع كلها تهويلاً للخطب، وتفظيعاً للحال؛ أي: علمت ما أحضرته في صحيفة عملها، وما أحضرته في موقف المحاسبة وعند الميزان؛ لأن الأعمال أعراض لا يمكن إحضارها. ا هـ «زاده». أي: علمت[1] كل نفس من النفوس ما أحضرته واكتسبته من الأعمال خيراً أو شراً، علىٰ حذف العائد إلى الموصول، فـ﴿نَفْسٌ﴾ في معنى العموم، كما صرح به في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾، وقوله: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾، وقولهم ـ: إن النكرة في سياق الإثبات لا تعم، بل هي للأفراد النوعية ـ غير مطرد، ويجوز أن يكون التنوين للأفراد الشخصية إشعاراً بأنه إذا

---

(١) روح البيان.

علمت حينئذٍ نفس من النفوس ما أحضرت.. وجب علىٰ كل نفس إصلاح عملها مخافة أن تكون هي التي علمت ما أحضرت، فكيف وكل نفس تعلمه علىٰ طريقة قولك لمن تنصحه: لعلك ستندم علىٰ ما فعلت، وربما ندم الإنسان علىٰ ما فعل، فإنك لا تقصد بذلك أن ندمه مرجو للوجود لا متيقن به، أو نادر الوقوع، بل تريد أن العاقل يجب عليه أن يجتنب أمراً يرجىٰ فيه الندم، أو قلما يقع فيه، فكيف إذا كان قطعي الوجود كثير الوقوع.

والمراد بـ﴿مَّآ أَحْضَرَتْ﴾: أعمالها من الخير والشر، وبحضورها: إما حضور صحائفها كما يعرب عنه نشرها، وإما حضور أنفسها لأن الأعمال الظاهرة في هذه النشأة بصور عرضية تبرز في النشأة الآخرة بصور جوهرية مناسبة لها في الحسن والقبح علىٰ كيفيات مخصوصة وهيئات معينة، وإسناد حضورها إلىٰ النفس مع أنها تحضر بأمر الله، لما أنها عملتها في الدنيا كأنها أحضرتها في الموقف، ومعنىٰ علمها بها حينئذٍ: أنها تشاهدها علىٰ ما هي عليه في الحقيقة، فإن كانت صالحة.. تشاهدها علىٰ صور أحسن مما كانت تشاهدها عليه في الدنيا؛ لأن الطاعة لا تخلو فيها عن نوع مشقة، وقد ورد: «حفت الجنة بالمكاره»، وإن كانت سيئة تشاهدها علىٰ ما هي عليه ههنا؛ لأنها كانت مزينة لها موافقة لهواها، كما ورد: «وحفت النار بالشهوات». وقال بعضهم[1]: العلم بالأعمال كناية عن المجازاة عليها من حيث إن العلم لازم للمجازاة.

والمعنىٰ[2]: أي إذا حصل كل ما تقدم من الأحداث السالفة.. تعلم كل ما كان من عملها متقبلاً، وما كان منه مردوداً عليها، فكثير من الناس كانوا في الحياة الدنيا مغرورين بما تزينه لهم الشياطين، وسيجدون أعمالهم يوم القيامة غير مقبولة ولا مرضي عنها، بل هي مبعدة من الله مستحقة لغضبه، فالذين يعملون أعمالهم رئآء الناس ليس لهم من عملهم إلا الجهد والمشقة، ولا تكون متقبلة عند ربهم، فعلينا أن ننظر إلىٰ الأعمال بمنظار الشرع، ونزنها بميزانه الصحيح، والله لا يتقبل من الأعمال إلا ما صدر عن قلب مليء بالإيمان عامر بحبه والرغبة في رضاه، والحرص علىٰ أداء واجباته التي فرضها عليه.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ ﴿لا﴾ صلة؛ أي: زائدة، أورد لكلام سابق؛ أي: ليس الأمر كما تزعمون أيها الكفرة من أن القرآن سحر أو شعر أو أساطير، ثم ابتدأ فقال: أقسم ﴿بِٱلۡخُنَّسِ﴾؛ أي: بالكواكب الرواجع من آخر الفلك إلى أوله ﴿ٱلۡجَوَارِ﴾؛ أي: التي تجري مع الشمس والقمر ﴿ٱلۡكُنَّسِ﴾؛ أي: التي تختفي تحت ضوء الشمس. والخنس: جمع خانس، وهو المتأخر، من خنس الرجل عن القوم خنوساً ـ من باب دخل ـ: إذا تأخر، وأصل الخنس: الرجوع إلىٰ خلف، والخناس: الشيطان؛ لأنه يضع خرطومه علىٰ قلب العبد، فإذا ذكر الله تعالى خنس، وإذا غفل عاد إلىٰ الوسوسة.

والمعنىٰ: أقسم بالكواكب الرواجع من آخر الفلك إلى أوله، وهي ما عدا النيرين من السبعة السيارة، وهي الدراري الخمسة، وهي: زحل، ويسمى: كيوان أيضاً، وهو في السماء السابعة، والمشتري، ويسمى: راويس وبرجيس أيضاً، وهو في السماء السادسة، والمريخ ـ بكسر الميم ـ، ويسمىٰ: بهرام أيضاً، وهو في السماء الخامسة، والشمس في الرابعة، والزهرة، وتسمىٰ: أناهيذ أيضاً، وهي في السماء الثالثة، وعطارد، ويسمىٰ: الكاتب أيضاً، وهو في السماء الثانية، والقمر في السماء الدنيا؛ أي: الأولى، ونظمها بعضهم في بيت واحد على ترتيبها في السموات:

زُحَلٌ شَرَىٰ مِرِّيْخَهُ مِنْ شَمْسِهِ   فَتَزَاهَرَتْ لِعُطَارِدَ ٱلأَقْمَارُ

وهي[1] الكواكب السبعة السيارة، كل منها يجري في فلك، فزحل في السابع، وما يليه في السادس، والجواري حذفت منه الياء في رسم المصحف تبعاً للفظ، جمع: جارية بمعنىٰ: سائرة. و ﴿ٱلۡكُنَّسِ﴾: جمع كانس، وهو الداخل في الكناس؛ أي: في الحجاب والستارة المستتر به، وصفت الخنس بالجوار الكنس؛ لأنها تجري في أفلاكها، أو بأنفسها علىٰ ما عليه أهل الظواهر مع الشمس والقمر، وترجع حتىٰ تخفىٰ تحت ضوء الشمس، فخنوسها رجوعها بينا ترىٰ النجم في آخر البرج إذ كرَّ راجعاً في أوله، فرجوعه من آخر البرج إلىٰ أوله هو الخنوس، وكنوسها: اختفاؤها تحت ضوئها، وأما القمران.. فلا يكنسان بهذا المعنىٰ، وقال

---

(١) روح البيان.

في «عين المعاني»: لخنوسها في مجراها، واستتارها في كناسها؛ أي: في موضع استتارها فيه، كما تكنس الظباء. انتهى. من كنس الوحش ـ من باب جلس ـ إذا دخل كناسه، وهو بيته الذي يتخذه من أغصان الشجر، وقيل: جميع الكواكب تخنس بالنهار، فتغيب عن العيون، وتكنس بالليل؛ أي: تطلع في أماكنها كالوحش في كنسها، وقيل: المراد[1] بها: بقر الوحش؛ لأنها تتصف بالخنس وبالجوار وبالكنس. وقال عكرمة: الخنس البقر، والكنس الظباء، فهي تخنس إذا رأت الإنسان، وتنقبض وتتأخر وتدخل كناسها. وقيل: هي الملائكة، والأول أولىٰ لذكر الليل والصبح بعد هذا.

ووجه تخصيص هذه الخمسة بالذكر من بين سائر النجوم: أنها تستقبل الشمس، وتقطع المجرة؛ أي: الفلك. وقال في «الصحاح»: الخنس: الكواكب كلها؛ لأنها تخنس بالنهار فتغيب عن العيون، وتكنس بالليل؛ أي: تطلع في أماكنها كالوحش في كنسها، وقد أقسم بها سبحانه لما في حركتها وظهورها طوراً، واختفائها طوراً آخر من الدلائل على قدرة مصرفها، وبديع صنعه، وإحكام نظامه، ولله سبحانه وتعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته من حيوان أو جماد، وإن لم يُعلم وجه الحكمة في ذلك، أما العبد.. فليس له ذلك، إذ لا يجوز له أن يقسم إلا بالله تعالى.

﴿وَٱلَّيۡلِ﴾ معطوف على ﴿الخنس﴾، ﴿إِذَا عَسۡعَسَ﴾؛ أي: أدبر[2] ظلامه، لأن إقبال الصبح يكون بإدبار الليل، كما قال في «الوسيط»: لما كان طلوع الصبح متصلاً بإدبار الليل.. كان المناسب أن يفسر عسعس بأدبر؛ ليكون التعاقب في الذكر علىٰ حسب التعاقب في الوجود. انتهى. أو أقبل، فإنه من الأضداد كذلك سعسع، وذلك في مبدأ الليل، وهذا المعنى أنسب لمراعاة المقابلة مع قرينه، وقال المبرد: عسعس الليل: أقبل أو أدبر، وهو من الأضداد، والمعنيان يرجعان إلىٰ شيء واحد، وهو ابتداء الظلام في أوله، وإدباره في آخره.

﴿وَٱلصُّبۡحِ﴾ معطوف عليه ﴿إِذَا تَنَفَّسَ﴾، أي: أضاء وأشرق، والعامل في ﴿إذا﴾ معنىٰ القسم، و ﴿إذا﴾ وما بعدها في موضع الحال؛ أي: وأقسم بالليل مدبراً،

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

وبالصبح مضيئاً، يقال: تنفس الصبح إذا تبلج؛ أي: أسفر وأضاء. جعل تنفس الصبح عبارةً عن طلوعه وانبساطه تحت ضوئه، بحيث زال معه عسعسة الليل، وهي الغبرة الحاصلة في آخره، والنفس في الأصل: ريح مخصوص يروح القلب ويفرج عنه بهبوبه عليه.

والمعنىٰ[1]: أي وأقسم بالليل إذا أدبر وولىٰ، وفي إدباره زوال الغمة التي تغمر كثيراً من الأحياء إذا ما دهمها الليل، وخيم عليها بظلامه المرهب المخيف، فإذا انجابت الظلمة وانحسر الليل وأدبر.. ارتاحت النفوس الخائفة، وتنفست باستقبال فجر جديد ويوم جديد، وأقسم بالصبح إذا أسفر وأضاء وظهر نوره في الوجود، وفي انشقاق الفجر وانبلاج ضوئه، وانفلاق صبحه بشرىٰ للأنفس البشرية بحياة جديدة في نهار جديد، إذ تنطلق الإرادات لتحصيل الرغبات، وسد الحاجات، واستدراك ما فات، والاستعداد لما هو آت، بعملها الجديد في جنات معروشات، قال الزمخشري: إذا أقبل الصبح أقبل بإقباله روح ونسيم، فجعل ذلك نفساً له علىٰ سبيل المجاز كما سيأتي في مبحث البلاغة، ثم ذكر المحلوف عليه فقال: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي:[2] إن هذا القرآن الكريم الناطق بما ذكر من الدواهي الهائلة، فالضمير للقرآن، وإن لم يجر له ذكر للعلم به، أو إن ما أخبركم به محمد ﷺ من أمر الساعة علىٰ ما ذكر في هذه السورة وغيرها. ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ عظيم، وسفير ﴿كَرِيمٍ﴾ بين الله سبحانه وبين رسله بسر وحيه هو جبريل عليه السلام، أتاه به من عند الله سبحانه إلى محمد ﷺ، ليس بكهانة ولا اختلاق من عند محمد ﷺ، بل هو قول نزل به جبريل وحياً من ربه، فأضافه إلىٰ جبريل الذي هو أمين وحيه، وهو في الحقيقة قول الله؛ لأنه جاء به من عند الله تعالىٰ، فإسناده إليه باعتبار السببية الظاهرة في الإنزال والإيصال، ويدل علىٰ أن المراد بالرسول هو جبريل ما بعده من ذكر قوته ونحوها. قال السهيلي: ولا يجوز أن يراد بالرسول النبي ﷺ، وإن كان رسولاً كريماً؛ لأن الآية نزلت في معرض الرد والتكذيب لمقالة الكفار الذين قالوا: إن محمداً ﷺ تقوله، وهو قوله، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾ جبريل الأمين عليه السلام. ووصفه بـ﴿رَسُولٍ﴾؛ لأنه رسول عن الله إلى الأنبياء، ثم وصف هذا

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

الرسول بأوصاف خمسة[1]:

١ - ﴿كَرِيمٍ﴾؛ أي: عزيز على ربه عظيم عنده، إذ أعطاه أفضل العطايا، وهي الهداية والإرشاد، وأمره أن يوصلها إلىٰ أنبيائه ليبلغوها لعباده، وكذا كريم عند الناس؛ لأنه يجيء إليهم بواسطة الرسول بأفضل العطايا، وهو المعرفة والهداية، ويتعطف علىٰ المؤمنين ويقهر الأعداء.

٢ - ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ قوية في الحفظ والبعد عن النسيان والخطأ، وقد جاء في آية أخرى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾؛ أي: ذي[2] قدرة شديدة علىٰ ما يكلف به، لا عجز ولا ضعف، روي أنه ﷺ قال لجبريل: «ذكر الله سبحانه قوتك، فأخبرني بشيء من آثارها» قال: رفعت قريات قوم لوط الأربع من الماء الأسود بقوادم جناحي، حتىٰ سمع أهل السماء نباح الكلب، وأصوات الديكة، ثم قلبتها. ومن قوته: أنه صاح صيحةً واحدةً بثمود فأصبحوا جاثمين، وأنه يهبط من السماء إلىٰ الأرض ويصعد في أسرع من الطرف، وأنه رأىٰ شيطاناً يقال له: الأبيض صاحب الأنبياء، قصد أن يتعرض للنبي ﷺ، فدفعه دفعة رفيقة وقع بها من مكة إلىٰ أقصىٰ الهند. وقيل: المراد بالقوة: القوة في أداء طاعة الله، وترك الإخلال بها من أول الخلق إلىٰ آخر زمان التكليف.

٣ - ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ وخالقه ومالكه، والظرف متعلق بقوله: ﴿مَكِينٍ﴾؛ أي: ذي مكانة رفيعة، ومنزلة عظيمة، وجاه عظيم عند مالك العرش وخالقه، فالعندية عندية إكرام وتشريف، لا عندية مكان وجهة، فإنه تعالىٰ منزه عن أماثلها، ونظيره قوله: «أنا عند المنكسرة قلوبهم» فإن المراد به: القرب والإكرام، ومن مكانته عند الله تعالى ومرتبته أنه جعله تالي نفسه في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ فله عظيم منزلة عندية، فأين منزلة من يلازم السلطان عند سرير الملك من مرتبة من يلازمه عند الوضوء ونحوه.

٤- ﴿مُّطَاعٍ﴾ فيما بين الملائكة المقربين، يصدرون عن أمره، ويرجعون إلى رأيه لعلمهم بمنزلته عند الله تعالىٰ، قال: في «فتح الرحمن»: ومن طاعتهم له أنهم

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

فتحوا أبواب السماء ليلة المعراج بقوله لرسول الله ﷺ، وطاعة جبريل فريضة علىٰ أهل السموات؛ كما أن طاعة محمد ﷺ فريضة علىٰ أهل الأرض ﴿ثَمَّ﴾؛ أي: عند ذي العرش.

٥ - ﴿أَمِينٍ﴾ علىٰ سر وحيه، وتبليغ رسالته إلى أنبيائه قد عصمه الله تعالى من الخيانة فيما يبلِّغه، والزلل فيما يقوم به من الأعمال، و ﴿ثَمَّ﴾ بفتح المثلثة: ظرف مكان؛ إما لما قبله؛ أي: مطاع هناك؛ أي: في السموات، وإما لما بعده؛ أي: مؤتمن عند الله تعالى علىٰ وحيه ورسالاته إلىٰ أنبيائه، فيكون إشارةً إلىٰ عند ذي العرش؛ أي: أمين عند ذي العرش جل وعلا.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ثم﴾ بفتح المثلثة علىٰ أنها ظرف مكان للبعيد، والعامل فيها: ﴿مُّطَاعٍ﴾ أو ما بعده كما مر آنفاً، وقرأ أبو جعفر وأبو حيوة وأبو برهشيم وابن مقسم: ﴿ثم﴾ بضمها حرف عطف علىٰ أنها عاطفة للترتيب والتراخي في الرتبة؛ لأن ما بعدها أعظم مما قبلها، وقال صاحب «اللوامح»: ﴿ثم﴾ هنا بمعنىٰ الواو العاطفة لأن معنى المهلة والتراخي لا يصلح هنا، وذلك لأن جبريل عليه السلام كان متصفاً بالصفتين معاً في حال واحدة، فهو مطاع أمين معاً، فلو ذهب ذاهب إلىٰ الترتيب والمهلة في هذا العطف بمعنىٰ مطاع في الملأ الأعلىٰ، ثم أمين عند انفصاله عنهم حال وحيه إلى الأنبياء عليهم السلام.. لجاز أن لو ورد به أثر. انتهىٰ.

وبعد أن وصف الرسول وصف المرسل إليه، فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ يا أهل مكة وهو رسول الله ﷺ، معطوف علىٰ جواب القسم، ولذا قال في «فتح الرحمن»: وهذا أيضاً جواب القسم ﴿بِمَجْنُونٍ﴾؛ أي: صاحب جنون؛ أي: وليس[2] محمد ﷺ بالمجنون، كما كانت ترميه قريش بذلك حين كانت تسمع منه غريب الأخبار عن اليوم الآخر، مما لم يكن معروفاً لهم، كما حكي عنهم في قوله: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾، وفي قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾، وهذه الجملة داخلة في جواب القسم كما مر، فأقسم سبحانه بأن القرآن نزل به جبريل، وأن محمداً ﷺ ليس كما يقولون من أنه مجنون، وأنه يأتي بالقرآن من جهته، وفي التعرض لعنوان المصاحبة تلويح بإحاطتهم بتفاصيل أحواله ﷺ خبراً، وعلمهم بنزاهته ﷺ عما نسبوه إليه بالكلية، واستدلال[1] عليهم، وإقامة للحجة علىٰ كذبهم في دعواهم، فإنه إذا كان صاحبهم، وكانوا قد خالطوه وعاشروه، وعرفوا عنه ما لم يعرفه سواهم من استقامة وصدق لهجة وكمال عقل ووفور حلم، وتفوق علىٰ جميع الأنداد والأتراب في صفات الخير.. لم يكن ادعاؤهم عليه ما يناقض ذلك إلا باطلاً من القول وزوراً.

وقد استدل بهذا[2] على فضل جبريل عليه السلام علىٰ رسول الله ﷺ، حيث وصف جبريل بست خصال، كل واحدة منها تدل علىٰ كمال الشرف ونباهة الشأن، واقتصر في ذكر رسول الله ﷺ علىٰ نفي الجنون عنه، وبين الذكرين تفاوت عظيم.

ولكن هذه الاستدلال ضعيف؛ إذ المقصود هنا: رد قول الكفرة في حقه ﷺ: ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ لا تعداد فضائلهما، والموازنة بينهما، علىٰ أن في توصيف جبريل بهذه الصفات بياناً لشرف سيد المرسلين بالنسبة إليه من حيث إن جبريل مع هذه الصفات هو الذي يؤيده، ويبلغ الرسالة إليه، فأي رتبة أعلىٰ من مرتبته بعد ما ثبت أن السفير بينه وبين ذي العرش مثل هذا الملك المقرب؟.

وقال سعدي المفتي: الكلام مسوق لحقية المنزل دلالة علىٰ صدق ما ذكر فيه من أهوال القيامة على ما يدل عليه الفاء السببية في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾، ولا شك أن ذلك يقتضي وصف الآتي، فلذلك بولغ فيه دون وصف من أنزل عليه، فلذلك اقتصر فيه علىٰ نفي ما بهتوه. انتهى.

واللام في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ موطئة للقسم؛ أي: وعزتي وجلالي لقد رأىٰ وأبصر محمد ﷺ جبريل عليه السلام علىٰ صورته الأصلية بالأفق المبين؛ أي: بمطلع الشمس الأعلىٰ من قبل المشرق، فالمراد[3] بالأفق هنا: حيث

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.

تطلع الشمس، استدلالاً بوصفه بـ ﴿ٱلْمُبِينِ﴾، فإن نفس الأفق لا مدخل له في تبين الأشياء وظهورها، وإنما يكون له مدخل في ذلك من حيث كونه مطلعاً لكوكب نير يبين الأشياء، والكوكب المبين هو الشمس، إسناد الإبانة إلىٰ مطلعها مجاز باعتبار سببيته لها في الجملة، فإن البيان في الحقيقة لضياء الطالع منه، ثم خصَّ من بين المطالع ما هو أعلىٰ المطالع وأرفعها، وهو المطلع الذي إذا طلعت الشمس منه تكون في غاية الارتفاع، والنهار في غاية الطول والامتداد، وذلك عندما تكون الشمس عند رأس السرطان قبل تحولها إلىٰ برج الأسد، وتوجه النهار إلى انتقاص، وإنما فعل ذلك حملاً للمبين علىٰ الكمال، فإنه كلما كان الكوكب أرفع وأعلى، وكلما كان النهار أطول.. كان البيان والإظهار أتم وأكمل. وإنما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ مع أنه قد رآه غير مرة؛ لأنه رآه هذه المرة في صورته، له ست مئة جناح. قال سفيان: إنه رآه في أفق السماء الشرقي، وقال ابن بحر: في أفق السماء الغربي، وقال مجاهد: رآه نحو أجياد، وهو مشرق مكة. روي أن الرسول ﷺ: سأل جبريل أن يتراءىٰ له في صورته التي خلقه الله عليه، فقال: ما أقدر علىٰ ذلك، وما ذاك إليَّ، فأذن له، فأتاه عليها، وذلك في جبل حراء في أوائل البعثة، فرآه رسول الله ﷺ قد ملأ الآفاق بكُلْكُل ـ الكلكل بوزن هدهد: الجسم الكبير الغليظ ـ رجلاه في الأرض، ورأسه في السماء، جناح له بالمشرق، وجناح له بالمغرب، وله ست مئة جناح من الزبرجد الأخضر، فغشي عليه ﷺ، فتحول جبريل في صورة بني آدم، وضمه إلىٰ نفسه، وجعل يمسح الغبار عن وجهه، فقيل لرسول الله ﷺ: ما رأيناك منذ بعثت أحسن منك اليوم، فقال: «جاءني جبريل في صورته، فعلق بي هذا من حسنه». قالوا: ما رآه أحد من الأنبياء غيره ﷺ في صورته التي جبل عليها، فهو من خصائصه ﷺ. قيل: هذه الرؤية بعد أمر غار حراء حين رآه علىٰ كرسي بين السماء والأرض في صورته، له ست مئة جناح، وقيل: هي الرؤية التي رآه فيها عند سدرة المنتهىٰ.

وقد ذكرت هذه الرؤية في سورة النجم في قوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾. ﴿وَمَا هُوَ﴾؛ أي: وما محمد ﷺ، ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾، أي: علىٰ ما يخبره من الوحي إليه وغيره من الغيوب مما كان علمه غائباً عن أهل مكة ﴿بِضَنِينٍ﴾؛ أي: ببخيل؛ أي: لا يبخل

بالوحي فيزوي بعضه غير مبلغه، ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ما عنده عن أهله، حتىٰ يأخذ حلواناً؛ أي: أجرة، أو يسأل تعليمه فلا يعلمه، وفيه إشارة إلىٰ أن إمساك العلم عن أهله بخل، مأخوذ من ضن بالشيء يضن ـ بالفتح ـ ضناً بالكسر وضنانة ـ بالفتح ـ: إذا بخل، فيكون من باب علم، كما سيأتي بسطه في مبحث التصريف.

وهكذا قرأ: ﴿بِضَنِينٍ﴾ بالضاد المعجمة عثمان وابن عباس أيضاً، والحسن وأبو رجاء والأعرج وأبو جعفر وشيبة وجماعة غيرهم وجمهور السبعة: نافع وعاصم وحمزة وابن عامر. قال في «النشر»: هو كذلك في جميع خطوط المصاحف التي يتداولها الناس، وقرأ عبد الله وابن جبير وعروة وهشام بن جندب ومجاهد وغيرهم، ومن السبعة: ابن كثير وأبو عمرو الكسائي: ﴿بظنين﴾ بالظاء المشالة علىٰ أنه فعيل بمعنىٰ: مفعول، أي: بمتهم، من الظنة ـ بكسر الظاء ـ: وهي التهمة، واختار أبو عبيدة هذه القراءة؛ لأن الكفار لم يبخلوه، وإنما اتهموه، فنفي التهمة أولىٰ من نفي البخل، ولأن البخل يتعدىٰ بالباء لا بعلىٰ، والمعنىٰ علىٰ هذه القراءة: أي: وليس محمد بمتهم علىٰ القرآن، وما فيه من قصص وأنباء وأحكام، بل هو ثقة أمين، لا يأتي به من عند نفسه، ولا يبدل منه حرفاً بحرف، ولا معنى بمعنى، إذ لم يعرف عنه الكذب في ماضي حياته، فهو غير متهم فيما يحكيه عن رؤية جبريل، وسماع الشرائع منه، وفي «الكشاف»: هو في مصحف عبد الله بالظاء، وفي مصحف أبي بالضاد، وكان رسول الله ﷺ يقرأ بهما، ولا بد للقارىء من معرفة مخرجي الضاد والظاء، فإن مخرج الضاد: من أصل حافة اللسان وما يليها من الأضراس من يمين اللسان أو يساره، ومخرج الظاء: من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا.

فإن قيل[1]: فإن وضع المصلي أحد الحرفين مكانه، فهل تبطل الصلاة؟.

قلنا: قال في «المحيط البرهاني»: إذا أتىٰ بالظاء مكان الضاد، أو علىٰ العكس، فالقياس أن تفسد صلاته، وهو قول عامة المشايخ، وقال مشايخنا بعدم الفساد للضرورة في حق العامة، خصوصاً العجم، فإن أكثرهم لا يفرقون بين الحرفين، وإن فرقوا ففرقاً غير صواب.

---

(١) روح البيان.

وفي «الخلاصة»: لو قرأ بالظاء مكان الضاد، أو بالضاد مكان الظاء تفسد صلاته عند أبي حنيفة ومحمد، وأما عند عامة المشايخ كأبي مطيع البلخي، ومحمد بن سلمة، لا تفسد صلاته.

ثم نفىٰ عنه فرية أخرىٰ كانوا يتقولونها عليه، فقال: ﴿وَمَا هُوَ﴾؛ أي: وما هذا القرآن ﴿بِقَوْلِ شَيْطَانٍ﴾ من الشياطين المسترقة للسمع المرجومة بالشهب ﴿رَّجِيمٍ﴾؛ أي: مطرود من رحمة الله تعالى، مرمي بالشهب. قال الكلبي: يقول: إن القرآن ليس بشعر ولا كهانة، كما قالت قريش. قال عطاء: يريد بالشيطان: الشيطان الأبيض الذي كان يأتي النبي ﷺ في صورة جبريل، يريد أن يفتنه، وهو الذي يأتي الأنبياء لافتتانهم.

والمعنىٰ[1]: أي وما هذا الذي يتكلم به محمد ﷺ بقول ألقاه الشيطان علىٰ لسانه حين خالط عقله، كما تزعمون، فإنه قد عرف بصحة العقل، وبالأمانة علىٰ الغيب، فلا يكون ما يحدِّث به من خبر الآخرة والجنة والنار من قول الشياطين.

وقد حكىٰ الله سبحانه علىٰ الأمم جميعاً أنهم رموا أنبياءهم بالجنون، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾، ثم ذكر أنهم قوم قد ضلوا طريق التدبر، وجهلوا سبيل الحكمة، فقال: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ وهذا[2] استضلال لهم فيما يسلكونه من أمر القرآن، والفاء لترتيب ما بعدها علىٰ ما قبلها من ظهور أنه وحي مبين، وليس مما يقولون في شيء، كما تقولون لمن ترك الجادة بعد ظهورها: هذا الطريق الواضح، فأين تذهب؟ شبهت حالهم بحال من يترك الجادة، وهو معظم الطريق، ويتعسف إلىٰ غير المسلك، فإنه يقال له: أين تذهب؟ استظلالاً له، وإنكاراً علىٰ تعسفه، فقيل لمن يقول في حق القرآن ما لا ينبغي بعد وضوح كونه وَحْياً حقاً: أيَّ طريق تسلكون آمن من هذه الطريقة التي ظهرت حقيتها، ووضحت استقامتها و ﴿أين﴾ ظرف مكان مبهم منصوب بـ ﴿تَذْهَبُونَ﴾، قال أبو البقاء: التقدير: إلى أين تذهبون؟ فحذف حرف الجر، ويجوز أن لا يصار إلىٰ الحذف، بل إلى طريق التضمين، فكأنه قيل: أين تؤمون؟

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

والمعنى[1]: فأي سبيل تسلكونها، وقد سدت عليكم السبل، وأحاط بكم الحق من جميع الجوانب، وبطلت مفترياتكم، فلم يبق لكم سبيل تستطيعون الهرب منها.

ثم بين حقيقة القرآن، فقال: ﴿إِنْ هُوَ﴾: ﴿إِنْ﴾: نافية، والضمير عائد إلىٰ القرآن؛ أي: ما هذا القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: موعظة وتذكير لهم، والمراد الإنس والجن بدلالة العقل، فإنهم المحتاجون إلى الوعظ والتذكير.

والمعنىٰ: أي: وما هذا القرآن إلا عظة للخلق كافة، يتذكرون بها ما غرز في طباعهم من حب الخير، وإنما أنساهم ذكره ما طرأ عليهم بمقتضىٰ الإلف والعادة من ملكات السوء التي تحدثها أمراض البيئة والمجتمع، والقدوة السيئة.

ثم بين أنه لا ينتفع بهذه النظم كل العالمين فقال: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ﴾ أيها المكلفون بالإيمان والطاعة، وهو[2] بدل من ﴿العالمين﴾ بإعادة الجار، بدل البعض من الكل، ولا تخالف بين الأصل المتبوع والفرع التابع؛ لأن الأول باعتبار الذات، والثاني باعتبار التبع. وقوله: ﴿أَن يَسْتَقِيمَ﴾ مفعول المشيئة؛ أي: لمن شاء منكم الاستقامة والثبات علىٰ الحق والإيمان والطاعة، وإبداله من ﴿العالمين﴾ مع أنه ذكر شامل لجميع المكلفين؛ لأنهم هم المنتفعون بالتذكير دون غيرهم، فكأنه مختص بهم، ولم يوعظ به غيرهم.

والمعنى[3]: أنه ذكر يتذكر به من وجه إرادته للاستقامة علىٰ جادة الحق والصواب، أما من انحرف عن ذلك.. فلا يؤثر فيه هذا الذكر، ولا يخرجه من غفلته.

والخلاصة: أن علىٰ مشيئة المكلف تتوقف الهداية، وقد فرض عليه أن يوجه فكره نحو الحق، ويطلبه ويجد في كسب الخير ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلاً.

ثم رفع توهم أن إرادة الإنسان مستقلة في فعل ما يريد، وله الاختيار التام فيما يفعل، وهو منقطع العلاقة في إرادته من سلطان ربه، فقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾؛

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

أي[1]: الاستقامة مشيئةٌ مستتبعةٌ لها في وقت من الأوقات، يا من يشاؤها، وذلك أن الخطاب في قوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ﴾ يدل علىٰ أن منهم من يشاء الاستقامة، ومنهم من لا يشاؤها، فالخطاب هنا لمن يشاؤها منهم، يروىٰ أن أبا جهل لما سمع قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾. قال: الأمر إلينا، إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ إلخ. ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالىٰ من إقامة المصدر موقع الزمان؛ أي: إلا وقت أن يشاء الله تعالى تلك المشيئة المستتبعة للاستقامة، فإن مشيئتكم لا تستتبعها بدون مشيئة الله لها؛ لأن المشيئة الاختيارية مشيئة حادثة، فلا بد لها من محدث، فيتوقف حدوثها علىٰ أن يشاء محدثها إيجادها، فظهر أن فعل الاستقامة موقوف علىٰ إرادة الاستقامة، وهذه الإرادة موقوفة الحصول علىٰ أن يريد الله أن يعطيه تلك الإرادة، والموقوف على الموقوف علىٰ الشيء موقوف علىٰ ذلك الشيء، فأفعال العباد ثبوتاً ونفياً موقوفة الحصول علىٰ مشيئة الله، كما عليه أهل السنّة. ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: مالك الخلق ومربيهم أجمعين بالأرزاق الجسمانية والروحانية، وفي الحديث القدسي: «يا ابن آدم، تريد وأريد، فتتعب فيما تريد، ولا يكون إلا ما أريد»، قال وهب بن منبه: قرأت في كتب كثيرة: مما أنزل الله علىٰ الأنبياء «إنه من جعل إلىٰ نفسه شيئاً من المشيئة. . فقد كفر». قال أبو بكر الواسطي رحمه الله: أعجزك في جميع صفاتك، فلا تشاء إلا في مشيئته، ولا تعمل إلا بقوته، ولا تطيع إلا بفضله، ولا تعصي إلا بخذلانه، فماذا يبقىٰ لك، وبما تفتخر من أعمالك، وليس منها شيء إليك إلا بتوفيقه. انتهىٰ.

والمعنىٰ[2]: أي إنَّ إرادتكم الخير لا تحصل لديكم إلا بعد أن يخلقها الله تعالىٰ فيكم بقدرته الموافقة لإرادته، فهو الذي يودع فيكم إرادة فعل الخير، فتنصرف هممكم إليه، ولو شاء لسلبكم هذه الإرادة، وجعلكم كالحيوانات لا إرادة لها. وفي قوله: ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بيان لعلة هذا؛ فإنه لما كان رب العالمين هو الذي مَنَحَكُم كل ما تتمتعون به من القوىٰ كالإرادة وغيرها، وهو صاحب السلطان عليكم. . كانت إرادتكم مستندة إلى إرادته، وخاضعة لسلطانه، فلو شاء أن يوجهها إلى غير ما

---

(١) روح البيان.　　(٢) المراغي.

وجهت له.. توجهت، ولو شاء أن يمحوها.. محيت، فله الأمر وله الحكم، وهو علىٰ كل شيء قدير.

والخلاصة: وما تشاؤون الاستقامة يا من شاؤوها في وقت من الأوقات إلا وقت مشيئة الله تعالىٰ إياها منكم.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، والآياتُ القرآنية في هذا المعنىٰ كثيرة.

الإعراب

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ① وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ② وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ③ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ④ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ⑤ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ⑥ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ⑦ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ⑧ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ⑨ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ⑩ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ⑪ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ⑫ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ⑬ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ⑭﴾.

﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مضمن معنىٰ الشرط في محل النصب علىٰ الظرفية متعلق بالجواب، وجوابها في الاثني عشر موضعاً التي وقعت فيها.. قوله الآتي: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ⑭﴾. ﴿ٱلشَّمْسُ﴾: نائب فاعل مرفوع علىٰ الاشتغال بفعل محذوف وجوباً يفسره المذكور بعده تقديره: إذا كورت الشمس كورت، وإلى هذا جنح الزمخشري، ومنع الرفع علىٰ الابتداء؛ لأن ﴿إِذَا﴾ تقتضي الفعل لما فيها من معنىٰ الشرط، وجوز ما منعه الزمخشري الكوفيون، والأخفش من البصريين، والجملة المحذوفة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها علىٰ كونها فعل شرط لها، وجوابها جملة ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ الآتي، ﴿كُوِّرَتْ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱلشَّمْسُ﴾، والجملة جملة مفسرة للمحذوفة لا محل لها من الإعراب. ﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿ٱلنُّجُومُ﴾: مرفوع على الاشتغال بفعل محذوف وجوباً تقديره: وإذا انكدرت النجوم، والجملة المحذوفة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها علىٰ كونها فعل شرط لها، وجوابها ﴿عَلِمَتْ﴾ الآتي، وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة علىٰ جملة ﴿إذا﴾

المذكورة قبلها، وجملة ﴿انكَدَرَتْ﴾ مفسرة للمحذوف، لا محل لها من الإعراب. وكذا جملة قوله: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤﴾ معطوفة على جملة ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾، والتقدير فيهما: وإذا سيرت الجبال سيرت، وإذا عطلت العشار عطلت، وكذا الجمل في قوله: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾ معطوفات على قوله: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾، والتقدير فيها: وإذا حشرت الوحوش حشرت، وإذا سجرت البحار سجرت، وإذا زوجت النفوس زوجت، وإذا سئلت المؤودة سئلت، فهي مماثلة لها في إعرابها المتقدم. ﴿بِأَيِّ ذَنبٍ﴾ جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿قُتِلَتْ﴾، وجملة ﴿قُتِلَتْ﴾ سدت مسد المفعول الثاني لـ ﴿سُئِلَتْ﴾، والجمل في قوله: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣﴾ معطوفات على ما تقدم أيضاً، والتقدير فيها: وإذا نشرت الصحف نشرت، وإذا كشطت السماء كشطت، وإذا سعرت الجحيم سعرت، وإذا أزلفت الجنة أزلفت. ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ الشرطية في المواضع المذكورة، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ الأولى مستأنفة استئنافاً نحوياً لا محل لها من الإعراب، وما بعدها معطوفة عليها. ﴿مَّا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ ﴿عَلِمَتْ﴾؛ لأن العلم هنا عرفانية، وجملة: ﴿أَحْضَرَتْ﴾ صلة لـ ﴿مَّا﴾ الموصولة لا محل لها من الإعراب.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۝١٥ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ۝١٦ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١﴾.

﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾. استئنافية ﴿لا﴾: زائدة لتأكيد القسم ﴿أُقْسِمُ﴾: فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير مستتر فيه وجوباً تقديره: أنا، والجملة الفعلية جملة قسم مستأنفة لا محل له من الإعراب ﴿بِالْخُنَّسِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿أُقْسِمُ﴾. ﴿الْجَوَارِ﴾: صفة لـ ﴿الخنس﴾ أو بدل منه، والصفة تتبع الموصوف تبعه بالجر، وعلامة جره كسرة مقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين منع من ظهورها الثقل لأنه اسم منقوص، وحذفت الياء خطاً تبعاً لحذفها في اللفظ. ﴿الْكُنَّسِ﴾: نعت لـ ﴿الْجَوَارِ﴾ مجرور بالكسرة، ﴿وَاللَّيْلِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿اللَّيْلِ﴾ معطوف على ﴿الخنس﴾، أو يقال: ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم، ﴿اللَّيْلِ﴾: مجرور بواو القسم،

الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف وجوباً تقديره: أقسم بالليل. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط ﴿عَسْعَسَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلَّيۡلِ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، والظرف متعلق بفعل القسم المحذوف؛ أي: أقسم بالليل وقت عسعسته، ﴿وَٱلصُّبۡحِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة على ﴿ٱلَّيۡلِ﴾، أو واو قسم، ﴿الصُّبْحِ﴾: مقسم به مجرور بواو القسم ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنىٰ الشرط ﴿تَنَفَّسَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿وَٱلصُّبۡحِ﴾، والجملة في محل الجر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، والظرف متعلق بفعل القسم المحذوف؛ أي: وأقسم بالصبح وقت تنفسه. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَقَوۡلُ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿قول﴾: خبر ﴿إن﴾ ﴿رَسُولٖ﴾: مضاف إليه ﴿كَرِيمٖ﴾: صفة أولىٰ لـ ﴿رَسُولٖ﴾، وجملة ﴿إن﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وفي قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ أقوال متلاطمة في إعرابها ضربت عنها صفحاً؛ لأنه لا طائل تحتها، فلترجع إلى الكتب الباحثة عنها إن شئت. ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ صفة ثانية لـ ﴿رَسُولٖ﴾، ﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف حال من ﴿مَكِينٖ﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، فأعربت حالاً. ﴿مَكِينٖ﴾ صفة ثالثة ﴿مُّطَاعٖ﴾ صفة رابعة ﴿ثَمَّ﴾ ظرف مكان بمعنىٰ هناك، متعلق بـ ﴿مُّطَاعٖ﴾ أو بـ ﴿أمين﴾. ﴿أمين﴾ صفة خامسة لـ ﴿رَسُولٖ﴾.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿مَآ﴾: نافية حجازية، ﴿صَاحِبُكُم﴾: اسمها، ﴿بِمَجۡنُونٖ﴾: خبرها، و ﴿الباء﴾ زائدة، والجملة معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾﴾ علىٰ كونها جواب القسم، ﴿وَلَقَدۡ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، و ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق ﴿رَءَاهُ﴾: ﴿رأىٰ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير مستتر يعود علىٰ محمد، و ﴿الهاء﴾: ضمير عائد علىٰ جبريل في محل النصب مفعول به لـ ﴿رآىٰ﴾؛ لأن رأىٰ هنا بصرية. ﴿بِٱلۡأُفُقِ﴾: متعلق بـ ﴿رأى﴾. ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾: صفة لـ ﴿الأفق﴾، والجملة الفعلية معطوفة علىٰ جملة قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾﴾ علىٰ كونها جواب القسم، ﴿وما﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿مَآ﴾: حجازية، ﴿هُوَ﴾ في محل الرفع اسمها ﴿عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾ متعلق بـ ﴿ضنين﴾،

﴿علىٰ﴾ بمعنىٰ: الباء، و﴿بِضَنِينٍ﴾: خبر ﴿مَآ﴾، و ﴿الباء﴾ زائدة، والجملة معطوفة أيضاً علىٰ جواب القسم، ﴿وما﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿مَآ﴾: حجازية ﴿هُوَ﴾: اسمها، ﴿بِقَوْلِ﴾: خبرها، و ﴿الباء﴾ زائدة ﴿شَيْطَٰنٍ﴾: مضاف إليه ﴿رَّجِيمٍ﴾: صفة ﴿شَيْطَٰنٍ﴾، والجملة معطوفة أيضاً علىٰ جواب القسم، ﴿فَأَيْنَ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿أين﴾: اسم استفهام عن المكان المبهم في محل النصب علىٰ الظرفية مبني على الفتح، والظرف متعلق بـ ﴿تَذْهَبُونَ﴾، و ﴿تَذْهَبُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿إِنْ﴾: نافية ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّآ﴾ أداة حصر ﴿ذِكْرٌ﴾: خبر ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾: متعلق بـ ﴿ذِكْرٌ﴾، أو نعت له، والجملة مستأنفة، ﴿لِمَن﴾: بدل من قوله: ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ بإعادة الجار، وجملة ﴿شَآءَ﴾ صلة لـ ﴿من﴾ الموصولة لا محل من الإعراب، ﴿مِنكُمْ﴾: حال من فاعل ﴿شَآءَ﴾، وجملة ﴿أَن يَسْتَقِيمَ﴾ مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب علىٰ المفعولية لـ ﴿شَآءَ﴾؛ أي: لمن شاء منكم استقامته.

﴿وما﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿مَآ﴾ نافية ﴿تَشَآءُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿إِلَّآ﴾ أداة استثناء من أعم الأوقات ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ ﴿أن﴾ المصدرية ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: بدل من الجلالة، أو نعت له، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف المقدر إليه، والظرف المقدر منصوب علىٰ الاستثناء من أعم الأوقات، والتقدير: وما تشاؤون في وقت من الأوقات إلا وقت مشيئة الله تعالىٰ إياها؛ أي: مشيئتكم الاستقامة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ①﴾؛ أي: لفت وذهب بضوئها، وفي «المصباح»: كار الرجل العمامة كوراً ـ من باب قال ـ أدارها علىٰ رأسه، وكل دور كور تسمية بالمصدر، والجمع: أكوار مثل ثوب وأثواب، وكورها بالتشديد مبالغةً، ومنه يقال: كورت الشيء إذا لففته علىٰ وجه الاستدارة، وقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ①﴾ المراد به: طويت كطي السجل: وعبارة الزمخشري في التكوير وجهان:

أولاً: أن يكون من كورت العمامة إذا لففتها؛ أي: يلف ضوؤها لفاً، فيذهب انبساطه وانتشاره في الآفاق، وهو عبارة عن إزالتها والذهاب بها؛ لأنها ما دامت

باقيةً كان ضياؤها منبسطاً غير ملفوف.

ثانياً: أو يكون لفها عبارةً عن رفعها وسترها؛ لأن الثوب إذا أريد رفعه لف وطوي، ونحوه قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾، وأن يكون من: طعنه فجوره وكوره إذا ألقاه؛ أي: تلقىٰ وتطرح عن فلكها، كما وصفت النجوم بالانكدار. ويتلخص مما أوردته معاجم اللغة ما يلي: وكار العمامة علىٰ رأس يكور كوراً إذا لفها وأدارها، وكور الله الليل علىٰ النهار: أدخل هذا في هذا، وكورت الشمس: جمع ضوؤها، ولف كما تلف العمامة. قيل: اضمحلت وذهبت.

﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾؛ أي: انقضت وتساقطت علىٰ الأرض، والأصل في الانكدار: الانصباب، وقال أبو عبيدة: انكدرت: انصبت، كما تنصب العقاب إذا كسرت، فانكدار النجوم: انتشارها وتساقطها حتىٰ تذهب ويمحى ضوؤها.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾﴾ وتسيير الجبال يكون حين الرجفة التي تزلزل الأرض، فتقطع أوصالها، وتفصل منها جبالها، وتقذفها في الفضاء. والسير: المضي في الأرض، والسير ضربان: باختيار وإرادة من السائر، نحو: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾، وبقهر وتسخير، كتسيير الجبال.

﴿وَإِذَا الْعِشَارُ﴾ جمع عشراء ـ بضم العين وفتح الشين ـ النوق الحوامل، كالنفاس في جمع النفساء، وليس فعلاء يجمع علىٰ فعال غير عشراء ونفساء، كما في «القاموس». والعشراء: هي الناقة التي أتىٰ علىٰ حملها عشرة أشهر، ثم هو اسمها إلىٰ أن تضع لتمام السنّة، وهي أنفس ما يكون عند أهلها، وروي أنه ﷺ مر في أصحابه بعشار من النوق، فغض بصره، فقيل له: هذه أنفس أموالنا، فلم تنظر إليها؟ فقال: «قد نهاني الله عن ذلك» ثم تلا: «﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ...﴾ الآية». قال الأعشىٰ في المدح:

هُوَ الْوَاهِبُ الْمِئَةِ الْمُصْطَفَا ... ةِ إِمَّا مَخَاضاً وَإِمَّا عِشَارَا

﴿عُطِّلَتْ﴾؛ أي: تركت معطلة مهملة غير منظور إليها، وتعطيلها: إهمالها، وذهابها حيث تشاء؛ لعظم الهول وشدة الكرب، من التعطيل: وهو التفريغ والإهمال.

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ﴾ جمع وحش، والوحش: حيوان البر الذي ليس في طبعه

التآنس ببني آدم، يجمع علىٰ: وحوش ووحشان، والواحد: وحشي كما مر عن «القاموس». والأهليّ: خلاف الوحشي.

﴿حُشِرَتۡ﴾؛ أي: جمعت واختلط بعضها ببعض من هول ذلك اليوم، أو ماتت وهلكت.

﴿سُجِّرَتۡ﴾ يقال: سجر التنور يسجر سجراً ـ من باب نصر ـ: إذا ملأه وقوداً وأحماه، وسجر الماء النهر إذا ملأه، وسجر البحر: فاض، وسجر الماء في حلقه: صبه، وسجر الكلب: شده بالساجور، وسجر الشيء: أرسله، هذا ما ذكرته معاجم اللغة بصدد هذه المادة، وكلب مسجور: أي مطوق بالساجور، وهو طوق من حديد، مسمر بمسامير حديدة الأطراف، وقد أحصىٰ القرطبي الأقوال في تسجير البحار كمادته، ونشير إليها بإيجاز: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ۝٦﴾؛ أي:

١ ـ ملئت من الماء، فيفيض بعضها إلى بعض، فتصير شيئاً واحداً.

٢ ـ وقيل: أرسل عذبها علىٰ مالحها حتىٰ امتلأت.

٣ ـ وقيل: صارت بحراً واحداً.

٤ ـ وقيل: يبست فلا يبقىٰ من مائها قطرة.

٥ ـ وقيل: أوقدت فصارت ناراً.

٦ ـ وقيل: هي حمرة مائها حتىٰ تصير كأنها الدم.

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧﴾؛ أي: قرنت الأرواح بأجسادها.

﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨﴾ والموءودة: هي التي دفنت وهي صغيرة، وقد كان ذلك عادة فاشية في جاهلية العرب، وكان ذوو الشرف منهم يمنعون من هذا، حتىٰ افتخر بذلك الفرزدق فقال:

وَجَدِّيْ ٱلَّذِيْ مَنَعَ ٱلْوَائِدَا   تِ وَأَحْيَا ٱلْوَئِيْدَ فَلَمْ يُوْءَدِ

والفرزدق: هو أبو فراس همام بن غالب بن صعصعة، افتخر بجده صعصعة، إذ كان منع وأد البنات، وكان يشتريهن من آبائهن، فجاء الإسلام وقد أحيا سبعين موؤودة، قال في «الأساس»: وأد ابنته: أثقلها بالتراب، وأصله من الثقل، كأنها تثقل من التراب حتىٰ تموت، ومنه: اتئد؛ أي: توفر وأثقل، فالابنة وئيد ووئيدة

وموءودة. وقال الزمخشري في «الكشاف»: وأد يئد مقلوب من آد يؤود: إذا أثقل، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ﴾؛ لأنه إثقال بالتراب.

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ﴾ والمراد بالصحف: صحف الأعمال التي تنشر على العباد حين يقفون للحساب.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾﴾؛ أي: كشفت وأزيلت عما فوقها، كما يكشط جلد الذبيحة عنها. قال الراغب: هو من كشط الناقة؛ أي: تنحية الجلد عنها، والكشط: التقشير، يقال: كشطت جلد الشاة. سلخته عنها.

﴿سُعِّرَتْ﴾؛ أي: أوقدت إيقاداً شديداً. ﴿أُزْلِفَتْ﴾؛ أي: أدنيت من أهلها وقربت منهم.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾﴾ جمع: خانس، وهو المنقبض المستخفي، يقال: خنس فلان بين القوم إذا انقبض واختفى، والخنوس: الانقباض والاستخفاء، وبابه: دخل، وفي «الصحاح»: الخنس: الكواكب كلها؛ لأنها تخنس في المغيب، ولأنها تخفى نهاراً.

﴿ٱلْجَوَارِ﴾ جمع: جارية؛ أي: سائرة، حذفت ياؤه في رسم المصحف تبعاً للفظ.

﴿ٱلْكُنَّسِ﴾ جمع كانس أو كانسة، من قولهم: كنس الظبي كنوساً ـ من باب نزل ـ إذا دخل كناسه بكسر الكاف، وهو بيته الذي يتخذه من أغصان الشجر، وتكنس الظبي: تغيب واستمر في كناسه، وتكنس الرجل: دخل في الخيمة، وتكنست المرأة: دخلت في الهودج. والمراد ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾: جميع الكواكب، وخنوسها: غيوبتها عن البصر نهاراً، وكنوسها: ظهورها للبصر ليلاً، فهي تظهر في أفلاكها، كما تظهر الظباء في كنسها.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: أقبل بظلامه أو أدبر. قال الفراء: عسعس الليل وعسس: إذا لم يبق منه إلا القليل. وقال الخليل: عسعس الليل: أقبل وأدبر.

﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: أسفر، وظهر نوره. قال علقمة بن قرط:

حَتَّىٰ إِذَا ٱلصُّبْحُ لَهَا تَنَفَّسَا   وَٱنْجَابَ عَنْهَا لَيْلُهَا وَعَسْعَسَا

وقال رؤبة:

يَـا هِـنْـدُ مَـا أَسْـرَعَ مَـا تَـسَـعْـسَـعَـا   مِـنْ بَـعْـدِ مَـا كَـانَ فَـتَـىٰ سَـرَعْـرَعَـا

والتنفس: خروج النسيم من الجوف، واستعير للصبح، ومعناه: امتداده حتىٰ يصير نهاراً واضحاً. ﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ فكريم صفة تقتضي نفي المذام كلها، وإثبات صفات المدح اللائقة به. ﴿أَمِينٍ﴾؛ أي: مقبول القول يصدق فيما يقوله، مؤتمن على ما يرسل به من الوحي. اهـ من «البحر».

﴿مَكِينٍ﴾؛ أي: ذي مكانة وجاه عند ربه، يعطيه ما سأله، يقال: مكن فلان لدىٰ فلان إذا كانت له عنده حظوة ومنزلة.

﴿مُطَاعٍ﴾: اسم مفعول من أطاع الرباعي، أصله: مطوع بوزن مفعل، نقلت حركة الواو إلىٰ الطاء فسكنت، لكنها قلبت ألفاً لتحركها في الأصل، وفتح ما قبلها في الحال.

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ الظنين: المتهم، فعيل بمعنىٰ مفعول يقال: ظننت الرجل اتهمته، والضنين: البخيل، قال الشاعر:

أَجُـوْدُ بِـمَـكْـنُـوْنِ ٱلْـحَـدِيْـثِ وَإِنَّـنِـيْ   بِـسِـرِّكَ عَـنْ مَـا سَـأَلْـتَـنِـيْ لَـضَـنِـيْـنُ

﴿رَجِيمٍ﴾: مرجوم مطرود من رحمة الله تعالى.

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: أي مسلك تسلكون، وقد قامت عليكم الحجة؟

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾؛ أي: يثبت علىٰ الطريق الواضح، وأصل ﴿شَآءَ﴾: شيء بوزن فعل بكسر العين، قلبت ياؤه ألفاً لتحرها بعد فتح، وأصل ﴿يَسْتَقِيمَ﴾: يستقوم، نقلت حركة الواو إلىٰ القاف، فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياءً حرف مد.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾؛ لأن تكويرها

عبارة عن إزالة نورها، والذهاب بها بحكم التزام زوال اللازم لزوال الملزوم، وفيه استعارة تصريحية تبعية؛ لأن التكوير حقيقة في تكوير الثوب والعمامة ولفها، فاستعير لإزالة ضوء الشمس بجامع الستر في كل، وكذا قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾؛ لأن السير حقيقة في الذهاب في الأرض والمضي فيها، فاستعير لإعدام الجبال وإزالتها عن مكانتها.

ومنها: توجيه السؤال إلىٰ الموءودة في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾.. لتسليتها، وإظهار كمال الغيظ والسخط لوائدها، وإسقاطه عن درجة الخطاب، والمبالغة في تبكيته، ولذا لم يسأل الوائد عن موجب قتله لها، فإن سؤالها أفظع في ظهور جناية القاتل، وإلزام الحجة عليه، فإنه إذا قيل للموءودة: إن القتل لا يجوز إلا لذنب عظيم، فما ذنبك، وبأي ذنب قتلت؟ كان جوابها: إني قتلت بغير ذنب، فيفتضح القاتل ويصير مبهوتاً. اهـ «زاده».

ومنها: تنكير ﴿نَفْسٌ﴾ في قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾؛ لإفادة العموم، وقد يعترض معترض بأن النكرة لا تفيد العموم إلا إذا كانت في سياق النفي، وهي هنا واقعة في سياق الإثبات، فلا تفيد العموم، بل تفيد الإفراد والنوعية، فكيف يتفق الإفراد مع العموم الذي يناسبه المقام؟ فالجواب: أن كونها للعموم في سياق النفي دون الإثبات أغلبي لا كلي، فلا ينافي أنه قد يقصد بها العموم في سياق الإثبات بقرينة المقام كما هنا، وقد يجاب هنا بجواب آخر: وهو أن النكرة هنا وقعت في سياق الشرط، وسياق الشرط كسياق النفي في أن النكرة للعموم إذا وقعت في كل منهما.

ومنها: الجناس الناقص بين ﴿الخنس﴾ و ﴿ٱلْكُنَّسِ﴾، وفي الكلمتين أيضاً فن الالتزام، وهو لزوم النون فيهما قبل السين.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾ فقد شبه الليل بإنسان يقبل ويدبر، ثم حذف المشبه به، وأخذ منه شيئاً من لوازمه، وهو لفظ عسعس؛ أي: أقبل وأدبر، كما شبه الصبح بحيوان حي يتنفس، فحذف المشبه به، وأتىٰ بشيء من لوازمه، وهو التنفس؛ أي: خروج النفس من الجوف، أو يقال: إنه شبه الليل بالمكروب الحزين الذي حبس بحيث لا يتحرك، فإذا تنفس وجد راحته، وهنا لما

طلع الصبح، فكأنه تخلص من الحزن كلية، فعبر عن ذلك بالتنفس.

ومنها: إسناد القول إلى جبريل في قوله: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ فإسناد القول إليه باعتبار السببية الظاهرة في الإنزال والإيصال علىٰ أن المراد بالرسول هو جبريل.

ومنها: التعرض لعنوان المصاحبة في قوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ للتلويح بإحاطتهم بتفاصيل أحواله ﷺ خبراً، وعلمهم بنزاهته عما نسبوه إليه بالكلية، فإنه كان بين أظهرهم في مدد طويلة، وقد جربوا عقله، فوجدوه أكمل الخلائق فيهم، ولقبوه بالأمين الصادق.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ فإن إسناد الإبانة إلىٰ مطلع الشمس مجازي باعتبار المحلية لها، فإن الإبانة في الحقيقة لضياء الطالع منه كما مر.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ حيث شبه حالهم بحال من يترك الجادة وسلك غيرها، فإنه يقال له: أين تذهب؟ استظلالاً له وإنكاراً علىٰ تعسفه كما مر.

ومنها: الطباق بين لفظ ﴿الْجَحِيمُ﴾ و ﴿الْجَنَّةُ﴾.

ومنها: الجناس الناقص بين ﴿أَمِينٍ﴾ و ﴿مَكِينٍ﴾.

ومنها: توافق الفواصل رعاية لرؤوس الآيات مثل ﴿كُوِّرَتْ﴾، ﴿سُيِّرَتْ﴾ ﴿سُجِّرَتْ﴾، ﴿سُعِّرَتْ﴾، ومثل ﴿الخنس﴾ و ﴿الْكُنَّسِ﴾ ومثل: ﴿عَسْعَسَ﴾ و ﴿تَنَفَّسَ﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما اشتملت عليه السورة الكريمة من الموضوعات

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ أهوال يوم القيامة.

٢ ـ الإقسام بالنجوم وبالليل وبالصبح، علىٰ أن القرآن منزل من عند الله تعالى بوساطة رسول كريم.

٣ ـ إثبات نبوة محمد ﷺ.

٤ ـ بيان أن القرآن عظة وذكرىٰ لمن أراد الهداية، وتوجهت نفسه إلىٰ فعل الخير.

٥ ـ مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله سبحانه، وليس لها استقلال بالعمل.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

* * *

(١) كان الفراغ من سورة التكوير بعون الملك القدير في أوساط شهر شعبان المبارك في يوم الأربعاء قبيل الغروب، اليوم التاسع عشر منه من شهور سنة: ١٩/٨/ ١٤١٦هـ ألف وأربع مئة وست عشرة سنة من الهجرة النبوية علىٰ صاحبها أفضل الصلوات والتسليمات والصلات.

سورة الانفطار

سورة الانفطار مكية بلا خلاف، نزلت بعد سورة النازعات، وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾ بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

وآياتها: تسع عشرة آية، وكلماتها: ثمانون كلمة، وحروفها: ثلاث مئة وسبعة وعشرون حرفاً.

مناسبتها لما قبلها: أن الكلام في السابقة في البحث عن أهوال يوم القيامة، وهذه أيضاً، افتتحت بمثل ذلك ليتصل الكلام فيهما اتصال النظير بالنظير، والشبيه بالشبيه، وكلها محكم، فليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

ومما ورد في فضلها: ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما: عن النبي ﷺ قال: «من سره أن ينظر إلىٰ القيامة رأي عين فليقرأ ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾، و ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾، و ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾»، ومنه ما أخرجه النسائي عن جابر قال: قام معاذ فصلىٰ العشاء فطول، فقال النبي ﷺ: «أفتَّان أنت يا معاذ؟ أين أنت عن سبح اسم ربك الأعلىٰ، والضحى، وإذا السماء انفطرت؟». وأصل الحديث في الصحيحين، ولكن بدون ذكر: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾، وقد تفرد بها النسائي، وسميت بسورة الانفطار: أخذاً من مبدئها، وقد اشتملت هذه السورة علىٰ الكلام في البعث، والتذكير بيوم القيامة، وإن النفس تشهد فيه ما عملت، وعلىٰ مناقشة الإنسان في شأن مخالفته لربه، وتماديه في فجوره مع أنه عزّ وجلّ صاحب نعم جليلة عليه، وقد جعل له شهوداً عليه أو له، وهم عدول.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ
بُعۡثِرَتۡ ﴿٤﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِي
خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ
عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ
ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ﴿١٤﴾ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾
ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

المناسبة

افتتح[1] سبحانه هذه السورة بمثل ما افتتح به سابقتها من ذكر أمور تحدث حين خراب هذا العالم، وتكون مقدمة ليوم العرض والحساب والجزاء، وهو يوم القيامة، منها أمران علويان هما: انفطار السماء، وانتثار الكواكب. وأمران سفليان هما: تفجير البحار، وبعثرة القبور. ثم أبان أنه في ذلك اليوم تتجلىٰ للنفوس أعمالها علىٰ حقيقتها، فلا ترىٰ خيراً في صورة شر، ولا تتخيل شراً في مثال خير، كما يقع في الدنيا لأغلب النفوس، فيعرف أهل الخير أنهم وإن نجوا مقصرين، فيأسفون علىٰ ما تركوا، ويستبشرون بما عملوا، ويعض أهل السوء بنان الندم، ويوقنون بسوء المنقلب، ويتمنون أن لو كانوا تراباً.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر في صدر السورة: أنه في يوم القيامة يبدل نظام هذا العالم، ويسأل الخلائق عما قدمت أيديهم، ويحاسبهم علىٰ ما اقترفوا من آثام، ويقرعهم علىٰ تكاسلهم في أداء ما أمروا به، ويجزيهم أحسن الجزاء علىٰ ما قدموا من عمل صالح.. أردف هذا بخطاب الإنسان، واستفساره عما دعاه إلىٰ مخالفة خالقه، وتماديه في فجوره وطغيانه، واسترساله مع دواعي النفس الأمارة بالسوء،

(١) المراغي.

مع أنه لو تدبر في نفسه، وفي خلقه.. لوجد من شواهد ربوبية خالقه ما هو جدير بشكرانه، ومداومته على طاعته، وهو الذي خلقه فسواه، وجعله علىٰ أحسن صورة، وكمله بالعقل والفهم والتدبر في عواقب الأمور ومصايرها.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ...﴾ إلىٰ آخر السورة، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[1] أن من دلائل نعمه علىٰ الإنسان خلقه علىٰ أحسن صورة، وأن ذلك يدل على أن له حياةً أخرىٰ غير هذه الحياة، فيها يجازىٰ بما عمل من خير أو شر.. أعقب هذا ببيان أنه لا شيء يمنعه عن التصديق بهذا اليوم إلا العناد والتكذيب، فالشعور النفسي يوحي به، والدليل النقلي الذي أتىٰ به الرسول يصدقه، والله لم يترك عملاً لعباده إلا أحصاه وحفظه، ليوفي كل عامل أجره، فقد وكل الكرام الكاتبين المطهرين عن الغلط والنسيان بكتابته وضبطه، ثم ذكر أن الناس في هذا اليوم فريقان: بررة مطيعون لربهم فيما به أمر وعنه نهى - وهؤلاء يتقلبون في النعيم - وفجرة يتركون أوامر الدين، وأولئك يكونون في دار العذاب والهوان، يقاسون حر النار، وأنه في هذا اليوم لا يجد المرء ما يعول عليه سوىٰ ما قدمت يداه، فيجفوه الأولياء، ويخذله الشفعاء، ويتبرأ منه الأقرباء، فلا شفيع ولا نصير ولا وزير ولا مشير، والحكم لله وحده، وهو المهيمن علىٰ عباده، وبيده تصريف أمورهم، وهو الصادق في وعده، العدل الحكيم في وعيده، فلا مهرب لعامل مما أعد له من الجزاء علىٰ عمله.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ...﴾ الآية، سبب نزولها[2]: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: نزلت في أبي بن خلف، والله أعلم.

وقد نقل البغوي عن الكلبي ومقاتل أنهما قالا: نزلت هذه الآية في الأسود بن شريف حين ضرب النبي ﷺ، لم يعاقب في الحالة الراهنة، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ وورد أن النبي ﷺ لما تلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ⑥﴾.. قال: «غره جهله».. وقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في

---

(١) المراغي.
(٢) لباب النقول.

هذه الآية: غره حمقه وجهله، وقرأ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾؛ أي: انشقت[1] لنزول الملائكة، كقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥﴾، أو لهيبة الرب جل جلاله، والانفطار كالفطر: الشق، يقال: فطرته فانفطر، ومنه: فطر ناب البعير إذا طلع، وفي «فتح الرحمن»: تشققها علىٰ غير نظام مقصود إنما هو انشقاق لتزول بنيتها، وإعرابه كإعراب ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾.

﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ﴾، والنجوم ﴿ٱنتَثَرَتۡ﴾؛ أي: تساقطت عن مواضعها سوداء متفرقة، كما تساقط اللآلىء إذا انقطع المسلك، وهذان من أشراط الساعة متعلقان بالعلويات، فإن السماء في هذا العالم كالسقف، والأرض كالبناء، ومن أراد تخريب دار فإنه يبدأ أولاً بتخريب السقف، وذلك هو قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾، ثم يلزم من تخريب السماء انتثار الكواكب.

﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣﴾؛ أي: فجر وفتح بعضها إلىٰ بعض بزوال المانع، وحصول تزلزل الأرض وتصدعها واستوائها، وصارت البحار ـ وهي سبعة: بحر الروم، وبحر الصقالبة، وبحر جرجان، وبحر القلزم، وبحر فارس، وبحر الصين، وبحر الهند ـ بحراً واحداً، فيصب ذلك البحر الواحد في جوف الحوت الذي عليه الأرضون السبع، كما في «كشف الأسرار». وروي: أن الأرض تنشف من الماء بعد امتلاء البحار، فتصير مستوية، وهو معنىٰ التسجير عند الحسن البصري، ودخل في البحار: البحر المحيط؛ لأنه أصل الكل؛ إذ منه يتفرع الباقي، وكذا الأنهار العذبة، فإنها بحار أيضاً لتوسعها.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فُجِّرَتۡ﴾ بتشديد الجيم ومجاهد وربيع بن خيثم والزعفراني والثوري بتخفيفها، وتفجيرها من أعلاها، وتفيض علىٰ ما يليها، أو من أسفلها، فيذهب الله ماءها حيث أراد، وعن مجاهد: ﴿فجرت﴾ مبنياً للفاعل مخففاً بمعنىٰ: بغت لزوال البرزخ نظراً إلىٰ قوله تعالى: ﴿لَّا يَبۡغِيَانِ﴾؛ لأن البغي والفجر متقابلان.

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

ا . هـ من «البحر».

﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾؛ أي: قلب ترابها، وأخرج ما فيها من الموتىٰ، ولا يخالف[1] ما هنا ما سيأتي في العاديات، فإن البعثرة تجيء بمعنىٰ الاستخراج أيضاً؛ أي: كالقلب، يقال: بعثر يبعثر بعثرةً ـ من باب دحرج ـ إذا قلب التراب، ونظيره لفظاً ومعنىٰ بحثر. . يقال: بعثرت المتاع وبحثرته؛ أي: جعلت أسفله أعلاه، وجعل أسفل القبور أعلاها إنما هو بإخراج موتاها، وبعثرت الحوض وبحثرته إذا هدمته، وجعلت أعلاه أسفله، قال الفراء: ﴿بُعْثِرَتْ﴾؛ أي: أخرج ما في بطنها من الذهب والفضة، وذلك من أشراط الساعة أن تخرج الأرض ذهبها وفضتها. ا هـ.

وهذان من أشراط الساعة متعلقان بالسفليات، فإنه قال: بعد تخريب السماء والكواكب يخرب كل ما علىٰ وجه الأرض بنفوذ بعض البحار في بعض، ثم يخرب نفس الأرض التي هي كالبناء بأن يقلبها ظهراً لبطن، وبطناً لظهر.

ثم ذكر سبحانه جواب ما تقدم، فقال: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾؛ أي: كل نفس برة كانت أو فاجرة كما مر في السورة السابقة، وفي «فتح الرحمن»: ﴿نَفْسٌ﴾ هنا: اسم جنس، وإفرادها ليبين لذهن السامع حقارتها وضعفه عن منفعة ذاتها إلا من رحم الله تعالى. ﴿مَا قَدَّمَتْ﴾ في حياتها من عمل خير أو شر، فإن ﴿ما﴾ من ألفاظ العموم ﴿و﴾ ما ﴿أخرت﴾ من سنة حسنة أو سيئة يعمل بها بعده، وفي الحديث: «أيما داعٍ دعا إلى الهدى فاتبع. . فله مثل أجر من تبعه إلا أنه لا ينقص من أجورهم شيء، وأيما داعٍ دعا إلى الضلالة، فاتبع. . فله مثل أوزار من اتبعه إلا أنه لا ينقص من أوزراهم شيء» وقال قتادة: ما قدمت من معصية، وأخرت من طاعة، وقيل: ما قدم من فرض، وما أخر من فرض، وقيل: أول عمله وآخره.

فقوله: ﴿عَلِمَتْ. . .﴾ إلخ جواب ﴿إذا﴾ كما مر؛ أي: إذا وقعت هذه الأشياء وخربت الدنيا علمت كل نفس إلخ، لكن لا علىٰ أنها تعلمه عند البعث، بل عند نشر الصحف لما عرفت في السورة السابقة من أن المراد بها زمان واحد مبدأه

(١) روح البيان.

النفخة الأولىٰ، ومنتهاه الفصل بين الخلائق، لا أزمنة متعددة حسب تعدد كلمة ﴿إذا﴾، وإنما كررت ﴿إذا﴾ لتهويل ما في حيزها من الدواهي. فالمراد[1]: العلم التفصيلي الذي يحصل عند قراءة الكتب والمحاسبة، وأما العلم الإجمالي: فيحصل في أول زمان البعث والحشر؛ لأن المطيع يرىٰ آثار السعادة، والعاصي يرى آثار الشقاوة في أول الأمر، قال ابن الشيخ في «حواشيه»: العلم بجميع ذلك كناية عن المجازاة عليه، والمقصود من الكلام: الزجر عن المعصية، والترغيب في الطاعة.

والمعنى[2]: أي إذا انشقت السماء وتغير نظامها، فلم يبق نظام الكواكب علىٰ ما نرىٰ عند خراب هذا العالم بأسره، وسقطت الكواكب والنجوم وتفرقت، وهذا يجيء تالياً لما قبله، إذ متى انشقت السماء، وانتقض تركيبها، واختل نظامها.. انتشرت كواكبها، وفجرت البحار، وأزيل ما بينها من حواجز، فاختلط عذبها بملحها، وفاضت علىٰ سطح الأرض حيناً من الدهر؛ لاضطراب الأرض وزلزالها الشديد، ووقوع الخلل في جميع أجزائها، وبعثرت القبور، وقلب أسفلها أعلاها، وباطنها ظاهرها، ليخرج من فيها من الموتى أحياءً.. علم كل أحد ما قدم لنفسه من عمل، ولم يقصر فيه، وعلم ما أخره وتكاسل عن أدائه.

والخلاصة: أن هذا العالم تزول صفاته وتتبدل أحواله، فتكون الأرض غير الأرض، والسماء غير السماء، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يعم جميع[3] العصاة، ولا خصوص له بالكفار؛ لوقوعه بين المجمل ومفصله؛ أي: بين ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ...﴾ إلخ، وبين ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ إلخ، وأما قوله: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ فمن قبيل قولهم: بنو فلان قتلوا زيداً، إذا كان القاتل واحداً منهم. قال الإمام السهيلي رحمه الله تعالى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يريد أمية بن خلف، ولكن اللفظ عام يصلح له ولغيره. وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة، أو الأسد بن كلدة الجمحي، قصد النبي ﷺ في بطحاء مكة، فلم يتمكن منه، فلم يعاقبه الله علىٰ ذلك.

وفي «زهرة الرياض»: ضرب علىٰ يافوخ النبي ﷺ، فأخذه رسول الله ﷺ،

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

وضربه علىٰ الأرض، فقال له: يا محمد، الأمان الأمان، مني الجفاء، ومنك الكرم، فإني لا أوذيك أبداً، فتركه رسول الله ﷺ ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾؛ أي[1]: ما الذي غرك وخدعك حتىٰ كفرت بربك الكريم الذي تفضل عليك في الدنيا بإكمال خلقك وحواسك، وجعلك عاقلاً فاهماً، ورزقك وأنعم عليك بنعمه التي لا تقدر على جحد شيء منها؟ قال قتادة: غره شيطانه المسلط عليه، وقال الحسن: غره شيطانه الخبيث، وقيل: حمقه وجهله، وقيل: غره عفو الله؛ إذ لم يعاجله بالعقوبة أول مرة، كذا قال مقاتل. فـ ﴿مَآ﴾ استفهامية[2] في محل رفع بالابتداء و ﴿غَرَّكَ﴾: خبره، والاستفهام بمعنىٰ الاستهجان والتوبيخ.

والمعنىٰ: أيّ شيء خدعك وجرأك علىٰ عصيانه، وأمنك من عقابه، وقد علمت ما بين يديك من الدواهي، وما سيكون حينئذٍ من مشاهدة أعمالك كلها؟ يقال: غره بفلان إذا جرأه عليه، وأمنه المحذور من جهته، مع أنه غير مأمون.

والتعرض لعنوان كرمه تعالى للإيذان بأنه ليس مما يصلح أن يكون مدار الاغترار حسبما يغويه الشيطان، ويقول له: افعل ما شئت، فإن ربك كريم، قد تفضل عليك في الدنيا، وسيفعل مثله في الآخرة، فإنه قياس عقيم، وتمنية باطلة، بل كرمه مما يوجب المبالغة في الإقبال علىٰ الإيمان والطاعة، والاجتناب عن الكفر والعصيان، كأنه قيل: ما حملك علىٰ عصيان ربك الموصوف بالصفات الزاجرة عن الداعية، فظهر أن كرم الكريم لا يقتضي الاغترار به، بل هو يقتضي الخوف والحذر عن مخالفته وعصيانه، وإذا كان محض الكرم لا يقتضي الاغترار به، فكيف إذا انضم إليه صفة القهر؟ ولله سبحانه الأسماء المتقابلة، ولذا قال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾، وقيل للفضيل بن عياض رحمه الله تعالى: إذا بعثك الله يوم القيامة، وقال لك: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ...﴾ ماذا تقول؟ قال: أقول: غرني ستورك المرخاة، ونظمه ابن السماك فقال:

يَا كَاسِبَ ٱلذَّنْبِ أَمَا تَسْتَحِيْ ... وَٱللَّهُ فِيْ ٱلْخَلْوَةِ ثَانِيْكَا
غَرَّكَ مِنْ رَبِّكَ إِمْهَالُهُ ... وَسَتْرُهُ طُوْلَ مَسَاوِيْكَا

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

وقال يحيىٰ بن معاذ رحمه الله تعالى: غرني برك سالفاً وآنفاً:

يَـقُـوْلُ مَـوْلَايَ أَمَـا تَـسْـتَـحِـيْ ... مِـمَّـا أَرَىٰ مِـنْ سُـوْءِ أَفْـعَـالِـكْ

فَـقُـلْـتُ يَـا مَـوْلَايَ رِفْـقَـاً فَـقَـدْ ... أَفْـسَـدَنِـي كَـثْـرَةُ إِفْـضَـالِـكْ

وقرأ الجمهور[1]: ﴿مَا غَرَّكَ﴾ فـ ﴿مَآ﴾ استفهامية، وقرأ ابن جبير والأعمش ﴿ما أغرك﴾ بهمزة فاحتمل أن يكون تعجباً، واحتمل أن تكون ﴿مَآ﴾ استفهامية، و ﴿أغرك﴾ بمعنىٰ أدخلك في الغرة. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾، أي: أوجدك وأنشأك من نطفة ولم تك شيئاً، فهو صفة[2] ثانية مقررة للربوبية، مبينة للكرم؛ لأن الخلق إعطاء الوجود، وهو خير من العدم، منبهة علىٰ أن من قدر علىٰ الخلق وما يليه بدءاً.. قدر عليه إعادة؛ أي: خلقك بعد أن لم تكن شيئاً ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾؛ أي: جعلك إنساناً سوياً تاماً، تسمع وتبصر وتعقل، أو جعل أعضاءك سوية سليمة معدة لمنافعها؛ أي بحيث يترتب على كل عضو منها منفعته التي خلق ذلك العضو لأجلها، كالبطش لليد، والمشي للرجل، والتكلم للسان، والإبصار للبصر، والسمع للأذن إلى غير ذلك ﴿فَعَدَلَكَ﴾؛ أي: جعلك معتدلاً قائماً حسن الصورة، أو عدل بعض تلك الأعضاء ببعض؛ أي: جعل بعضها معادلة مساوية للبعض الآخر، بحيث اعتدلت وتماثلت ولم تتفاوت، مثل أن تكون إحدىٰ اليدين أو الرجلين والأذنين أطول من الأخرىٰ، أو تكون إحدى العينين أوسع من الأخرى، أو بعض الأعضاء أبيض وبعضها أسود، أو بعض الشعر فاحماً وبعضه أشقر.

قال علماء التشريح: إنه تعالىٰ ركب جانبي هذه الجثة علىٰ التساوي حتىٰ إنه لا تفاوت بين نصفيه، لا في العظام، ولا في أشكالها، ولا في الأوردة والشرايين والأعصاب النافذة فيها والخارجة منها، فكل ما في أحد الجانبين مساوٍ لما في الجانب الآخر. اهـ. ويقال: عدله عن الطريق؛ أي: صرفه، فيكون المعنى: فصرفك عن الخلقة المكروهة التي هي لسائر الحيوانات، وخلقك خلقة حسنة مفارقة لسائر الخلق، كما قال تعالى: ﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

وقرأ الجمهور[١]: ﴿فعدَّلك﴾ بتشديد الدال؛ أي: صيرك معتدلاً متناسب الخلق من غير تفاوت فيه، فهو بمعنىٰ المخفف السابق، وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد وطلحة والأعمش وعيسى وأبو جعفر والكوفيون: بتخفيفها، واختار أبو حاتم وأبو عبيد القراءة الأولى، وقيل: معنى القراءة الأولى: أنه سبحانه جعل أعضاءه متعادلة لا تفاوت فيها، ومعنى القراءة الثانية: أنه صرفه وأماله إلىٰ أي صورة شاء إما حسناً، وإما قبحاً، وإما طويلاً، وإما قصيراً.

والمعنى[٢]: أي يا أيها الإنسان العاقل الذي أوتي من قوة الفكر وبسطة القدرة ما أوتي حتىٰ صار بذلك أفضل المخلوقات، أي شيء خدعك وجرأك علىٰ عصيان ربك الكريم الذي أنعم عليك بنعمة الوجود والعقل والتدبر، ولا تزال أياديه تتوالىٰ عليك، ونعمه تترىٰ لديك، ألا تشكر من برأك وصورك فأحسن صورتك، وجعلك معتدل القامة، تام الخلق؟

ثم أجمل ما فصله أولاً بقوله: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨﴾، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿رَكَّبَكَ﴾ لا بـ ﴿عدلك﴾؛ لأن ﴿أَيِّ﴾ لها صدر الكلام، فلا يعمل فيها ما قبلها، و ﴿مَّآ﴾ زائدة لتعميم النكرة، و ﴿شَآءَ﴾ صفة لـ ﴿صُورَةٖ﴾، والرابط محذوف، وإنما لم يعطف الجملة علىٰ ما قبلها، لأنها بيان لـ ﴿عدلك﴾.

والمعنىٰ: فعدلك، ركبك وألفك وجمعك في أيِّ صورة شاءها واقتضتها مشيئته وحكمته من الصور العجيبة الحسنة، أو من الصور المختلفة في الحسن والقبح والطول والقصر والذكورة والأنوثة والشبه ببعض الأقارب وخلاف الشبه، كما في الحديث: «أن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضرها الله تعالى كل نسب بينها وبين آدم، وصورها في أي شبه شاء».

ويجوز أن يكون الجار متعلق بمحذوف من مفعول ﴿ركب﴾؛ أي: ركبك حاصلاً في أي صورة شاءها، وقال مقاتل والكلبي ومجاهد: في أيِّ شبه من أب أو أم أو خال أو عم. وقال مكحول: إن شاء ذكر، وإن شاء أنثى. وقال[٣] بعض المتأولين: إنه يتعلق بقوله: ﴿فَعَدَلَكَ﴾، ولكنه معترض، كما مر آنفاً؛ أي: فعدلك

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي. (٣) البحر المحيط.

في صورة أي صورة؛ أي: كامل صورة وأحسنها، وأي تقتضي التعجيب والتعظيم، فلم يجعلك في صورة خنزير أو حمار، وعلىٰ هذا تكون ﴿مَا﴾ منصوبة بـ ﴿شَآءَ﴾ كأنه قال: أي تركيب حسن شاء ركبك، والتركيب: التأليف وجمع شيء إلى شيء، وأدغم خارجة عن نافع: ﴿ركبك كلا﴾.

والمعنى[1]: أي ركبك في صورة هي من أبهىٰ الصورة وأجملها، وأدلها علىٰ بقائك الأبدي في نشأة أخرىٰ بعد هذه النشأة، فإن الكريم يوفي كل مرتبة من الوجود حقها، فمن خص بهذا المنزلة الرفيعة.. لا ينبغي أن يعيش كما يعيش سائر الحيوان، ويموت كما يموت الوحش وصغار الذر، وإنما الذي يليق بعقله وقوة نفسه أن تكون له حياة أبدية لا حد لها. ولا فَتَأَ بعدها، يوفىٰ فيها كل ذي حق حقه، وكل عامل جزاء عمله.

﴿كَلَّا﴾: حرف ردع[2] وزجر، فالوقف عليها؛ أي: ارتدعوا وانزجروا عن الاغترار بكرم الله وجعله ذريعة إلىٰ الكفر والمعاصي مع كونه موجباً للشكر والطاعة، وقيل: توكيد لتحقيق ما بعده بمعنىٰ حقاً، فالوقف علىٰ ﴿رَكَّبَكَ﴾ كما رجحه السجاوندي، حيث وضع علامة الوقف المطلق على ﴿رَكَّبَكَ﴾، قال ابن الأنباري: الوقف الجيد على ﴿ٱلدِّينَ﴾، وعلى ﴿رَكَّبَكَ﴾ وعلى ﴿كَلَّا﴾ قبيح.

﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ﴾ إضراب وعطف علىٰ جملة ينساق إليها الكلام، كأنه قيل بعد الردع بطريق الاعتراض: وأنتم لا ترتدعون عن ذلك، بل تجاوزونه وتجترئون علىٰ ما هو أعظم؛ حيث تكذبون بالدين؛ أي: بالبعث والجزاء رأساً، فإنه يراد بالدين الجزاء والمكافأة، ومنه: الديان في صفة الله، أو تكذبون بدين الإسلام الذي هما من جملة أحكامه، فلا تصدقون سؤالاً ولا جواباً، ولا ثواباً ولا عقاباً، و ﴿بَلْ﴾ لنفي شيء تقدم وتحقيق غيره، وإنكار البعث قد كان معلوماً عندهم، وإن لم يجر له ذكر، قال الفراء: كلا ليس الأمر كما غررت به.

وقرأ الجمهور: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ﴾ بالتاء خطاباً للكفار. وقرأ الحسن وأبو جعفر وشيبة وأبو جعفر وأبو بشر بياء الغيبة.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

والمعنىٰ: بل تكذبون يا أهل مكة بالدين؛ أي: بالحساب.

وجملة قوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ١٠﴾ حال من فاعل ﴿تُكَذِّبُونَ﴾؛ أي: تكذبون بالجزاء، والحال أن عليكم أيها المكلفون من قبلنا ملائكة حافظين لأعمالكم، ويجوز أن تكون مستأنفة مسوقة لبيان ما يبطل تكذيبهم، والحافظون: الرقباء من الملائكة الذين يحفظون على العباد أعمالهم، ويكتبونها في الصحف، وجمعهم باعتبار كثرة المخاطبين، أو باعتبار أن لكل واحد منهم جمعاً من الملائكة، كما قيل اثنان بالليل، واثنان بالنهار، ثم وصفهم سبحانه بأنهم كانوا ﴿كِرَامًا﴾ جمع: كريم؛ أي: مكرمين لدينا بجبرهم في طاعتنا، أو بأداء الأمانة؛ إذ الكريم لا يكون خواناً، وفي «فتح الرحمن»: وصفهم بالكرم الذي هو نفي المذام. وقيل: معنى[1] ﴿كِرَامًا﴾: يسارعون إلىٰ كتب الحسنات، ويتوقفون في كتب السيئات رجاء أن يستغفر ويتوب، فيكتبون الذنب والتوبة منه معاً ﴿كَٰتِبِينَ﴾ لأقوالكم وأفعالكم صغيرها وكبيرها لتجازوا عليها ﴿يَعْلَمُونَ﴾ لحضورهم وعدم افتراقهم عنكم ﴿مَا تَفْعَلُونَ﴾ من الأفعال، وما تقولون من الأقوال قليلاً أو كثيراً، ويضبطون نقيراً وقطميراً لتجازوا بذلك، وخص الفعل بالذكر؛ لأنه أكثر من القول، ولأن القول قد يراد به الفعل فاندرج فيه، وجملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير ﴿كَٰتِبِينَ﴾ أو علىٰ النعت أو مستأنفة. وفي الحديث: «أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند الحالتين الجنابة والغائط».

قال في «عين المعاني»[2]: قوله: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ يدل علىٰ أن السهو والخطأ وما لا تبعة فيه لا يكتب، وكذا ما استغفر منه حيث لم يقل يكتبون. انتهى.

وقوله ﴿مَا تَفْعَلُونَ﴾ وإن كان عاماً لأفعال القلوب والجوارح، لكنه عام مخصوص بأفعال الجوارح، لأن ما كان من المغيبات لا يعلمه إلا الله، وفي «كشف الأسرار»: علمهم علىٰ وجهين: فما كان من ظاهر قول أو حركة جوارح، علموه بظاهره، وكتبوه على جهته، وما كان من باطن ضمير يقال: إنهم يجدون لصالحه رائحة طيبة، ولطالحه رائحة خبيثة، فيكتبونه مجملاً عملاً صالحاً، وآخر سيئاً. انتهى. وقد مر بيان هذا المقام في سورتي الزخرف، وق.

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

والمعنىٰ: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ﴾ إلخ؛ أي[1]: ارتدعوا عن الاغترار بكرمي لكم، فإنكم لا تستقيمون علىٰ ما توجبه نعمي عليكم، ويدعوه إرشادي لكم، بل تجترئون علىٰ ما هو أعظم منه، فتكذبون بيوم الجزاء والحساب علىٰ القليل والكثير يوم تبعثون للفصل بينكم، فتجازىٰ كل نفس بما عملت وما قدمت وما أخرت.

ثم حذرهم من تماديهم في غيهم ببيان أن أعمالهم محصاة عليهم، فقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ...﴾ إلخ؛ أي: إن أعمالكم محصاة عليكم، فقد وكل بكم ملائكة حفظة كرام كاتبون يحصون كل ما تعملون من خير أو شر، وقد ذكر ذلك في غير موضع من الكتاب الكريم، كقوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾، وليس علينا أن نبحث عن كنه هؤلاء الحفظة، ولا أن نعرف من أي شيء خلقوا، وما عملهم، وكيف يحفظون الأعمال، وهل عندهم أوراق وأقلام، أو هناك ألواح ترسم فيها الأعمال، أو هم أرواح تتجلىٰ فيها تلك الأعمال، فتبقى فيها بقاء المداد في القرطاس، كل ذلك لم نكلف العلم به، وإنما نكلف الإيمان بصدق الخبر، وتفويض الأمر في حقيقته إلى الله تعالى.

ثم ذكر نتيجة الحفظ والكتابة من الثواب والعقاب، وبين أن العالمين في ذلك اليوم فريقان، وبين مآل كل منهما فقال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ الذين[2] بروا وصدقوا في إيمانهم بأداء الفرائض واجتناب المعاصي، جمع: بر بالفتح، وهو بمعنىٰ الصادق والمطيع والمحسن، وأحسن الحسنات: لا إله إلا الله وما يتبعها، ثم بر الوالدين. وفي «فتح الرحمن»: البر: هو الذي قد اطرد بره عموماً، فبر ربه في طاعته إياه، وبر الناس في جلب ما استطاع من الخير لهم، وغير ذلك. ﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾ عظيم، وهو نعيم الجنة وثوابها، والتنوين للتفخيم ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ﴾ الذين شقوا ستر الديانة، بالكفر والمعاصي، جمع: فاجر، من الفجور، وهو شق عصا الديانة ﴿لَفِي جَحِيمٍ﴾ أي لفي نار متأججة مسعرة وعذاب هائل، والتنوين للتهويل، والجملتان مستأنفتان مسوقتان لبيان ما يكتبون لأجله، وهو أن الغاية؛ إما النعيم، وإما الجحيم، وهي كقوله: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾، وجملة قوله: ﴿يصلونها﴾؛ أي: يصلون الجحيم

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

ويدخلونها، ويقاسون حرها. ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾؛ أي: يوم الجزاء الذي يكذبون به، إما صفة لـ﴿جَحِيمٍ﴾، أو في محل[1] نصب على الحال من الضمير المستكن في متعلَّق الجار والمجرور، أو مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر نشأ عن تهويلها كأنه قيل: ما حالهم فيها؟ فقيل: يقاسون حرها، كما قال الخليل: صلي الكافر النار؛ قاسىٰ حرها، وباشره ببدنه. ولم يصف النعيم بما يلائمه لأن ما سبق من الكلام كان في المكذبين الفجرة لأن المقام مقام التخويف، وذكر تبشير الأبرار لأنه ينكشف به حال الفجار الأشرار لأن الأشباه تعرف بأضدادها، ومعنىٰ ﴿يصلونها﴾: أنهم يلزمونها مقاسين لوهجها وحرها يومئذٍ.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿يصلونها﴾ مخففاً مبنياً للفاعل، مضارع صلىٰ الثلاثي، وقرأ ابن مقسم مشدداً مبنياً للمفعول.

ومعنىٰ الآيات: أي إن أهل الثواب ـ وهم الأبرار ـ يكونون في دار النعيم، وأن أهل العذاب ـ وهم الفجار ـ يكونون في دار الجحيم، دار العذاب الأليم، يقاسون أهوالها.

ثم بين أن هذا العذاب حتم لا منجاة لهم منه ولا مهرب، فقال: ﴿وَمَا هُمْ﴾؛ أي: وما الفجار ﴿عَنْهَا﴾؛ أي: عن الجحيم ﴿بِغَآئِبِينَ﴾ طرفة عين؛ أي: إنهم لا يغيبون عنها، ولا ينفكون عن عذابها، بل هم ملازمون لها، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ فالمراد: دوام نفي الغيبة، لا نفي دوام الغيبة، وقيل: وما كانوا غائبين عنها قبل ذلك بالكلية، بل كانوا يجدون سمومها في قبورهم حسبما قال النبي ﷺ: «القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار».

ثم عاد إلىٰ تفخيم ذلك اليوم وتهويل أمره، فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ وأعلمك، الخطاب لكل من يتأتىٰ منه الدراية، وقال الكلبي: الخطاب للإنسان الكافر، وقيل: للنبي ﷺ، والمعنىٰ: أي شيء أعلمك به لو لم نعرفك أحواله، و ﴿مَآ﴾: مبتدأ، و ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ خبره ﴿مَآ﴾ خبر قوله: ﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ و ﴿ما﴾ لطلب الوصف، وإن كان وضعه لطلب الحقيقة، والمعنىٰ[3]: أيُّ شيء جعلك دارياً وعالماً ما يوم الدين؟

---

(١) الشوكاني. (٢) البحر المحيط. (٣) روح البيان.

أي: شيء عجيب هو في الهول والفظاعة، أي: ما أدراك أحد الآن كنه أمره، فإنه خارج عن دائرة الخلق علىٰ أي صورة يصورونه، فهو فوقها وأضعافها.

والمعنىٰ[1]: أي إن أمرك أيها الإنسان لعجيب، فأنت لاهٍ عن هذا اليوم غير مبالٍ به، وقد كنت خليقاً أن تتعرف حقيقة حاله لتأخذ لنفسك الحيطة، وتتدبر أمرك، ولا تركن إلىٰ عفو ربك وكرمه وصفحه، فإنك لا تدري ما قدر لك، ثم زاده توكيداً وتعظيماً، فقال: ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾﴾ كرر بـ ﴿ثُمَّ﴾[2] المفيدة للترقي في التوبة للتأكيد وزيادة التخويف والتهويل لأمره، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾﴾، وقوله: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾﴾، والمجموع تعجيب للمخاطبين، وتفخيم لشأن اليوم.

وإظهار ﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ في مقام الإضمار تأكيد لهوله وفخامته.

والمعنى[3]: أي ثم عجيب منك أن تتهاون بنبأ هذا اليوم، كأنك قد أدركت كنهه، وعرفت وجه الخلاص مما يلقاك فيه من الأهوال، ولو عرفته حق معرفته.. للانت قناتك، ورجعت إلى ربك تائباً، وعدت إليه مستغفراً طالباً الصفح عما قدمت يداك.

ثم بين حقيقة أمره فقال: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ بيان إجمال[4] لشأن يوم الدين إثر إبهامه، وبيان خروج عن دائرة علوم الخلق بطريق إنجاز الوعد، فإن نفي إدرائهم مشعر بالوعد الكريم بالإدراء. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فقد أدراه، وكل ما فيه من قوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فقد طوىٰ عنه. و ﴿يَوْمَ﴾: مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وحركته الفتح لإضافته إلىٰ غير متمكن، كأنه قيل: هو يوم لا تملك فيه نفس من النفوس لنفس من النفوس شيئاً من الأشياء أو منصوب بإضمار: اذكر، كأنه قيل بعد تفخيم أمر يوم الدين وتشويقه ﷺ إلىٰ معرفته: اذكر يوم لا تملك إلخ، فإنه يدريك ما هو،

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

ودخل في: ﴿نَفْسٌ﴾ كل نفس ملكية وإنسية وجنية، وفي ﴿شَيْئًا﴾ كل ما كان من قبيل جلب المنفعة، أو دفع المضرة.

﴿وَٱلْأَمْرُ﴾ كله ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ لا تملك نفس لنفس شيئاً ﴿لِّلَّهِ﴾ وحده، لا يملك[1] شيئاً من الأمر غيره تعالىٰ كائناً ما كان. قال مقاتل: يعني لنفس كافرة شيئاً من المنفعة. وقال قتادة: ليس ثم أحد يقضي أو يصنع شيئاً إلا الله رب العالمين.

والمعنى: أن الله تعالىٰ لا يملك أحداً في ذلك اليوم شيئاً من الأمور، كما ملكهم في الدنيا، ومثل هذا قوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ والأمر[2] واحد الأوامر، فإن الأمر والحكم والقضاء من شأن الملك المطاع، والخلق كلهم مقهورون تحت سطوات الربوبية وحكمها، ويجوز أن يكون واحد الأمور، فإن أمور أهل المحشر كلها بيده تعالى لا يتصرف غيره.

أخبر تعالى بضعف الناس يومئذٍ، وأنه لا ينفعهم الأموال والأولاد والأعوان والشفعاء، كما في الدنيا، بل ينفعهم الإيمان والبر والطاعة، وأنه لا يقدر أحد أن يتكلم إلا بإذن الله وأمره؛ إذ الأمر له في الدنيا والآخرة في الحقيقة وإن كان يظهر سلطانه في الآخرة بالنسبة إلى المحجوب لأن المحجوب يرى أن الله ملكه في الدنيا وجعل له شيئاً من الأمور والأوامر، فإذا كان يوم القيامة يظهر له أن الأمر والملك لله تعالى لا يزاحمه فيه أحد ولا يشاركه ولو صورة، وفيه تهديد لأرباب الدعاوي وأصحاب المخالفة، وتنبيه على عظيم بطشه تعالى وسطوته.

وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى وابن جندب وابن كثير وأبو عمرو[3]: ﴿يومُ لا تملك﴾ - برفع الميم - على أنه بدل من ﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ كما قاله الزمخشري، أو خبر مبتدأ محذوف، وقرأ محبوب عن أبي عمرو: ﴿يوم﴾ بالقطع عن الإضافة والتنوين والتنكير، والرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو يوم، و ﴿لَا تَمْلِكُ﴾: جملة في موضع الصفة، والعائد محذوف؛ أي: لا تملك فيه، وقرأ زيد بن علي والحسن وأبو جعفر وشيبه والأعرج وباقي السبعة: ﴿يَوْمَ﴾ بالفتح على الظرف، فعند البصريين

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

هي حركة الإعراب، وعند الكوفيين: يجوز أن تكون حركة بناء وهو على التقديرين في موضع رفع خبر لمحذوف تقديره: الجزاء يوم لا تملك، أو في موضع نصب على الظرف؛ أي: يدانون يوم لا تملك، أو على أنه مفعول به، أي: اذكر يوم لا تملك، ويجوز على رأي من يجيز بناءه أن يكون في موضع رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً.

وحكي أن سليمان بن عبد الملك مر بالمدينة المنوّرة وهو يريد مكة، فقال لأبي حازم: كيف القدوم عليه غداً؟ قال: أما المحسن فكالغائب يقدم من سفره على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه.

الإعراب

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾.

﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه. ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾: فاعل لفعل محذوف يدل عليه المذكور تقديره: إذا انفطرت السماء انفطرت، والجملة المحذوفة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط له، والظرف متعلق بالجواب الآتي، وهو ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾، وجملة ﴿إذا﴾ الشرطية مستأنفة استئنافاً نحوياً، وجملة ﴿ٱنفَطَرَتْ﴾ جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب، ومثلها قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢﴾ تقديره: وإذا انتثرت، والجملة معطوفة على جملة ﴿إذا﴾ الأولى، ومثلها أيضاً قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾، ولكن ﴿البحار﴾ و ﴿ٱلْقُبُورُ﴾ نائب فاعل لفعل محذوف يفسره المذكور تقديره: وإذا فجرت البحار فجرت، وإذا بعثرت القبور بعثرت. ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية لا محل لها من الإعراب؛ لأنها جواب شرط غير جازم ﴿مَّآ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ ﴿عَلِمَتْ﴾؛ لأن العلم هنا عرفانية، وجملة ﴿قَدَّمَتْ﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: ما قدمته، وجملة ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ معطوفة علىٰ جملة ﴿قَدَّمَتْ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء؛ ﴿أي﴾: منادىٰ نكرة مقصودة، و ﴿الهاء﴾ حرف تنبيه زائد، ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾: بدل من ﴿أي﴾، أو عطف بيان له، وجملة النداء مستأنفة. ﴿مَا غَرَّكَ﴾ ﴿مَآ﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿غَرَّكَ﴾: فعل ماضٍ ومفعول به، وفاعل مستتر يعود علىٰ ﴿مَآ﴾ ﴿بِرَبِّكَ﴾: متعلق بـ ﴿غرك﴾ ﴿الكريم﴾: صفة لـ ﴿ربك﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر عن ﴿مَآ﴾ الاستفهامية، والجملة الاستفهامية جواب النداء لا محل لها من الإعراب، وقرىء: ﴿ما أغرك﴾، فاحتمل أن تكون ﴿مَآ﴾ استفهامية، وأن تكون تعجبية. ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة ثانية لـ ﴿ربك﴾ مقررة للربوبية ﴿خَلَقَكَ﴾؛ فعل ومفعول، وفاعل مستتر، والجملة صلة الموصول ﴿فسواك﴾: عطف علىٰ ﴿خَلَقَكَ﴾، ﴿فَعَدَلَكَ﴾: معطوف علىٰ ﴿سواك﴾ ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿ربك﴾، ﴿مَآ﴾: زائدة، وجملة ﴿شَآءَ﴾: صفة لـ ﴿صُورَةٍ﴾، والرابط محذوف تقديره: شاءها، والمعنى: ركبك في أي صورة اقتضتها مشيئته من حسن ودمامة وطول وقصر وذكورة وأنوثة، و ﴿عدلك﴾؛ أي: صيرك معتدل القامة متناسب الخلقة من غير تفاوت، ويجوز أن يتعلق بمحذوف علىٰ أنه حال؛ أي: ركبك حال كونك حاصلاً في بعض صورة شاءها، و ﴿أي﴾ هنا: وصفية، وقال الزمخشري: ويجوز أن يتعلق بـ ﴿عدلك﴾، ويكون في ﴿أَىِّ﴾ معنىٰ التعجب؛ أي: فعدلك في صورة عجيبة ﴿رَكَّبَكَ﴾ معطوفة على ﴿خَلَقَكَ﴾.

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾.

﴿كَلَّا﴾: حرف ردع وزجر، ﴿بَلْ﴾: حرف عطف وإضراب علىٰ جملة محذوفة يدل عليها السياق تقديرها: وأنتم لا ترتدعون عن ذلك، بل تكذبون بالدين ﴿تُكَذِّبُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿بِٱلدِّينِ﴾: متعلق، بـ ﴿تُكَذِّبُونَ﴾، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة، ﴿وإن﴾ ﴿الواو﴾ حالية أو استئنافية، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿عَلَيْكُمْ﴾: خبر مقدم لـ ﴿إِنَّ﴾ ﴿لَحَٰفِظِينَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿حافظين﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر، أو صفة لاسمها؛ أي: إن ملائكة حافظين، والجملة في محل النصب حال من الواو في ﴿تُكَذِّبُونَ﴾، أو مستأنفة مسوقة لإخبارهم بذلك ليرتدعوا عما هم عليه ﴿كِرَامًا﴾: صفة أولىٰ لـ ﴿حافظين﴾، و ﴿كَٰتِبِينَ﴾: صفة ثانية له،

وجملة ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ صفة ثالثة له ﴿مَآ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾، وجملة ﴿تَفۡعَلُونَ﴾ صلتها، والعائد محذوف تقديره: ما تفعلونه.

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ﴿١٤﴾ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَفِي﴾: ﴿اللام﴾. حرف ابتداء ﴿في نعيم﴾. جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة للإجابة عن سؤال مقدر تقديره: لم يكتبون ذلك، فكأنه قيل: ليجازىٰ الأبرار بالنعيم، والفجار بالجحيم، ﴿وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ﴾: ناصب واسمه ﴿لَفِي جَحِيمٖ﴾: خبرها، والجملة معطوفة علىٰ ما قبلها. ﴿يَصۡلَوۡنَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به ﴿يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾: متعلق بـ ﴿يَصۡلَوۡنَهَا﴾، والجملة في محل النصب حال من الضمير المستكن في الجار والمجرور في قوله: ﴿لَفِي جَحِيمٖ﴾، ويجوز أن تكون جملة ﴿يَصۡلَوۡنَهَا﴾ مستأنفة مسوقة للإجابة عن سؤال مقدر تقديره: وماذا يؤول إليه أمرهم في الجحيم. ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: حالية ﴿مَآ﴾: حجازية ﴿هُمۡ﴾: اسمها ﴿عَنۡهَا﴾: متعلق بـ ﴿غائبين﴾ ﴿بِغَآئِبِينَ﴾: خبرها، و ﴿الباء﴾: زائدة، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿يَصۡلَوۡنَهَا﴾، أو مستأنفة.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿مَآ﴾: اسم استفهام للاستفهام الإنكاري في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾: خبره، والجملة الاسمية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب، ﴿أدرى﴾ فعل ماض، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿مَآ﴾، و ﴿الكاف﴾: مفعول أول، ﴿مَآ﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ معناه التهويل والتعظيم ﴿يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾: خبره، والجملة المعلقة بالاستفهام سدت مسد المفعول الثاني لـ ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وتراخ، ﴿مَآ﴾: مبتدأ، و ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾: خبره والجملة معطوفة على ما قبلها، ﴿مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ جملة سدت مسد المفعول الثاني ﴿يَوۡمَ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو إلخ، أو بدل من ﴿يَوۡمُ﴾، أو منصوب علىٰ الظرفية بفعل محذوف تقديره: يجازون يوم لا تملك، أو باذكر محذوفاً. وجملة ﴿لَا

تَمْلِكُ نَفْسٌ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يوم﴾ ﴿لِنَفْسٍ﴾: متعلق بـ ﴿تَمْلِكُ﴾، أو حال من ﴿شَيْئًا﴾، و ﴿شَيْئًا﴾: مفعول به، ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾: مبتدأ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف مضاف لمثله، متعلق بمحذوف، حال من الضمير المستكن في الخبر ﴿لِلَّهِ﴾: خبر ﴿ٱلْأَمْرُ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱنفَطَرَتْ﴾؛ أي: انشقت لنزول الملائكة، انفعل من فطر، وكذلك ﴿ٱنتَثَرَتْ﴾؛ أي: تساقطت متفرقة، افتعل من نثر، وهو التفريق.

﴿فُجِّرَتْ﴾؛ أي: فتحت وشققت جوانبها فزال ما بينها من الحواجز، واختلط عذبها بملحها من التفجير، والتضعيف للمبالغة.

﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾﴾؛ أي: قلب ترابها الذي حثي علىٰ موتاها وأزيل، وأخرج من دفن فيها، ونظيره: بحثر لفظاً ومعنى، يقال: بعثرت المتاع وبحثرته؛ أي: جعلت أسفله أعلاه، وجعل أسفل القبورٰ أعلاها إنما هو بإخراج موتاها، وقيل لسورة براءة: المبعثرة؛ لأنها بعثرت أسرار المنافقين، وهما ـ أي: بعثر وبحثر ـ مركبان من البعث والبحث مع راء ضمت إليهما، وقال الراغب: من رأى تركيب الرباعي والخماسي، نحو هلل وبسمل إذا قال: لا إله إلا الله، وبسم الله، يقول: إن بعثر مركب من بعث وأثير؛ أي: قلب ترابها وأثير ما فيه، وهذا لا يبعد في هذا الحرف، فإن البعثرة تتضمن معنىٰ بعث وأثير، وقال أبو الجراح: بحثر الشيء وبعثره؛ أي: استخرجه وكشفه، وقال الفراء: بحثر متاعه وبعثره: فرقه وقلب بعضه علىٰ بعض.

﴿مَا قَدَّمَتْ﴾؛ أي: من أعمال الخير ﴿وَأَخَّرَتْ﴾؛ أي: منها بالكسل والتسويف ﴿مَا غَرَّكَ﴾؛ أي: أيُّ شيء خدعك وجرأك علىٰ العصيان ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾؛ أي: العلي العظيم، وقيل: الكريم من يبادر بالنوال قبل السؤال.

﴿فَسَوَّىٰكَ﴾؛ أي: جعل أعضاءك سوية تامة الخلق سليمة معدة لمنافعها، وأصله: سويك بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿فَعَدَلَكَ﴾؛ أي: جعلك معتدلاً متناسب الخلق ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾؛

أي: ركبك في صورة هي من أعجب الصور وأحكمها، وكلمة ﴿ما﴾ جاءت زائدة لتفخيم المعنىٰ وتعظيمه، وهي من طريقة متبعة في كلامهم عند إرادة التهويل، والسلوك سبيل التعظيم.

﴿كَلَّا﴾ كلمة تفيد نفي شيء قد تقدم وتحقيق غيره.

﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال الراغب: ﴿بَلْ﴾ هنا لتصحيح الثاني، وإبطال الأول، كأنه قيل: ليس هنا ما يقتضي أن يغرهم به تعالى شيء، ولكن تكذيبهم هو الذي حملهم علىٰ ما ارتكبوه. ﴿بِالدِّينِ﴾؛ أي: الجزاء.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾﴾؛ أي: علىٰ أعمالكم بحيث لا يخفىٰ عليهم منها جليل ولا حقير.

﴿كِرَامًا﴾ على الله ﴿كَاتِبِينَ﴾ لهذه الأعمال في الصحف كما تكتب الشهود منكم العهود؛ ليقع الجزاء على غاية التحرير.

تنبيه: هذا الخطاب وإن كان خطاب مشافهة إلا أن الأمة أجمعت على عموم هذا الخطاب في حق المكلفين.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ جمع: بر بفتح الباء، وهو من يفعل البر بكسرها، ويتقي الله في كل أفعاله.

﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ﴾ جمع: فاجر، وهو التارك لما شرعه الله تعالى وحدَّه لعباده.

﴿يصلونها﴾؛ أي: يقاسون حرها، أصله: يصليونها، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين.

﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾؛ أي: يوم الجزاء، وهو يوم القيامة.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ أصله: غايبين، جمع: غائب من غاب يغيب، أبدلت الياء في الوصف همزة حملاً له علىٰ الفعل في الإعلال لما قلبت ياؤه ـ غ ي ب ـ ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾؛ أي: ما أعلمك وعرفك، أصله: أدريك بوزن أفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢﴾؛ حيث شبه الكواكب بجواهر انقطع سلكها، فتناثرت متفرقة، وطوىٰ ذكر المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه، وهو الانتثار علىٰ طريقة الاستعارة المكنية.

ومنها: إفراد ﴿نَفْسٌ﴾ وتنكيرها في قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ للدلالة علىٰ حقارتها وضعفها عن منفعة ذاتها إلا من رحم الله تعالى.

ومنها: الطباق بين ﴿قَدَّمَتْ﴾ و﴿أخرت﴾، وهو من المحسنات البديعية.

ومنها: الاستفهام للاستهجان والتوبيخ في قوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾.

ومنها: التعرض لعنوان كرمه تعالى للإيذان بأنه ليس مما يصلح أن يكون مدار الاغترار حسبما يغويه الشيطان، ويقول له: افعل ما شئت فإن ربك كريم قد تفضل عليك في الدنيا، وسيفعل مثله في الآخرة، فإنه قياس عقيم، بل هو مما يوجب المبالغة في الإقبال علىٰ الإيمان والطاعة، والاجتناب عن الكفر والعصيان.

ومنها: المقابلة اللطيفة بين الأبرار والفجار في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾ فقد قابل الأبرار بالفجار، والنعيم بالجحيم.

ومنها: التنوين في قوله: ﴿لَفِى نَعِيمٍ﴾ للتفخيم والتعظيم، وقوله: ﴿لَفِى جَحِيمٍ﴾ للتهويل والتخويف.

ومنها: الإطناب بإعادة الجملة في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨﴾ لتعظيم هول ذلك اليوم وبيان شدته؛ كأنه فوق الوصف والخيال.

ومنها: إظهار ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ في موضع الإضمار إظهاراً لفخامته، وتأكيداً لهوله.

ومنها: الوصل في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾ لما فيه من مقتضيات الوصل، وهو اتفاق الجملتين في الخبرية والإنشائية مع الاتصال؛ أي: الجامع بينهما، وهو هنا التضادُّ.

ومنها: الترجيع في هاتين الآيتين، وهو ضرب من السجع، وذلك أن تكون كل لفظة في صدر البيت، أو فقرة النثر موافقة لنظيرتها في الوزن والروي والإعراب، ومما ورد منه شعراً قول أبي فراس:

وَأَفْعَالُنَا لِلْرَّاغِبِيْنَ كَرِيْمَةٌ ... وَأَمْوَالُنَا لِلْطَّالِبِيْنَ نِهَابُ

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً.

* * *

خلاصة ما في هذه السورة الكريمة من المقاصد

اشتملت هذه السورة على ما يلي:

١ ـ وصف بعض أهوال يوم القيامة.

٢ ـ تقصير الإنسان في مقابلة الإحسان بالشكر.

٣ ـ بيان أن أعمال الإنسان بها موكلون كرام كاتبون.

٤ ـ بيان أن الناس في هذا اليوم العظيم إما بررة منعمون، وإما فجرة معذبون[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) تم تفسير سورة الانفطار بعون مالك الأقطار، في السابع والعشرين من شهر شعبان المعظم قبيل الظهر من شهور سنة: ٢٧/٨/ ١٤١٦هـ. ألف وأربع مئة وست عشرة سنة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية.

سورة المطففين

سورة المطففين، وتسمىٰ سورة التطفيف، نزلت بعد سورة العنكبوت بين مكة والمدينة في مهاجرته ﷺ، فاستتمت بالمدينة، قال القرطبي: وهي مكية في قول ابن مسعود والضحاك ومقاتل، ومدنية في قول الحسن وعكرمة، وقال مقاتل أيضاً: هي أول سورة نزلت بالمدينة، وقال ابن عباس وقتادة: هي مدنية إلا ثمان آيات، من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ إلىٰ آخرها، وقال[1] الكلبي وجابر بن زيد: نزلت بين مكة والمدينة، وأخرج النحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة المطففين بمكة.

وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، وأخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال: آخر ما نزل بمكة سورة المطففين، وقيل: فيها آية مكية وهي قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا...﴾ إلخ، وأخرج ابن مردويه والبيهقي في «الشعب» قال السيوطي بسند صحيح عن ابن عباس قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة.. كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله تعالى؛ ﴿وَيۡلٌ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ①﴾، فأحسنوا الكيل بعد ذلك.

وهي[2] ست وثلاثون آية ومئة وتسع وتسعون كلمةً وسبع مئة وثمانون حرفاً، وقال ابن حزم: وكلها محكم ليس فيها ناسخ ولا منسوخ، وسميت سورة التطفيف أخذاً من المطففين.

ومناسبتها لما قبلها[3]: أنه سبحانه قال فيما قبلها: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ⑩﴾، وذكر هنا ما يكتبه الحافظون بقوله: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ⑨﴾ يجعل في عليين أو في سجين، فقد فصل سبحانه في هذه السورة ما أجمله في سابقتها، فذكر فيها نوعاً من أنواع الفجور، وهو التطفيف في المكيال والميزان، ثم ذكر نوعاً آخر، وهو التكذيب بيوم

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراح.

(٣) المراغي.

الدين، ثم أعقبه بذكر جزائهم علىٰ التكذيب وتوبيخهم عليه.

قال الألوسي في «تفسيره»: والمناسبة بينها وبين ما قبلها: أنه سبحانه لما ذكر فيما قبل السعداء والأشقياء ويوم الجزاء وعظم شأنه.. ذكر عزّ وجلّ هنا ما أعد جل وعلا لبعض العصاة، وذكره سبحانه بأخس ما يقع من المعصية، وهو التطفيف الذي لا يكاد يجدي شيئاً في تثمير المال وتنميته، مع اشتمال هذه السورة علىٰ شرح حال المكذبين المذكورين هناك علىٰ زيادة التفصيل، كما لا يخفىٰ.

وكأن هذه السورة جاءت شرحاً وتفصيلاً للسورة السابقة، وهي سورة الانفطار، وبياناً له، فسبحان الذي جعل هذا القرآن هدى للناس، وشفاء لما في الصدور، ورحمة للعالمين، وضياء للأبصار، ونوراً للقلوب، ونظاماً للحكم، ومنهاجاً للأخلاق، ودستوراً للعالمين عصمةً لمن تمسك به، ونجاةً لمن اهتدى به.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ
يُخۡسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥﴾ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ
﴿٦﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ﴿٨﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٩﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ
لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ
ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ
يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ
كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٢٠﴾ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾
إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسۡقَوۡنَ
مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ
﴿٢٧﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾
وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ
هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ
﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾.﴾

المناسبة

قد مر لك قريباً في بيان المناسبة بين السورتين أن الله سبحانه فصل[1] في هذه السورة ما أجمله في سابقتها، فذكر فيها نوعاً من أنواع الفجور، وهو التطفيف في المكيال والميزان، ثم ذكر نوعاً آخر، وهو التكذيب بيوم الدين، ثم أعقبه بذكر جزائهم علىٰ هذا التكذيب وتوبيخهم عليه.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أنه لا يقيم علىٰ التطفيف إلا من ينكر ما أوعده الله به من العرض والحساب، وعذاب الكفار والعصاة.. أمرهم بالكف عما هم

(١) المراغي.

فيه، وذكر أن الفجار قد أعد لهم كتاب أحصيت فيه جميع أعمالهم ليحاسبوا بها، فويل للمكذبين بيوم الجزاء، وما يكذب به إلا كل من تجاوز حدود الدين، وانتهك حرماته، وإذا تليت عليهم آيات القرآن قالوا: ما هي إلا أقاصيص الأولين نقله محمد عن السابقين، وليست وحياً يوحىٰ كما يدعي.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[1] أنهم قالوا: إن القرآن أساطيرُ الأولين، وليس وحياً من عند الله تعالى.. أردف ذلك ببيان أن الذي جرأهم علىٰ ذلك هي أفعالهم القبيحة التي مرنوا عليها، فعميت عليهم وجوه الآراء حتىٰ صاروا لا يميزون بين الأسطورة والحجة الدامغة، ثم رد عليهم فرية كانوا يقولونها ويكثرون من تردادها، وهي: إن كان ما يحدث به محمد صحيحاً.. فنحن سنكون في منزلة الكرامة عند ربنا، فأبان لهم أنهم كاذبون، فإنهم سيطردون من رحمته ولا ينالون رضاه، ثم يؤمر بهم إلىٰ النار فيدخلونها ويصلون سعيرها، ويقال لهم: هذا العذاب جزاء ما كنتم به تكذبون مما أوعدكم به الرسول.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالىٰ لما ذكر حال الفجار وحال المطففين، وبيَّن منزلتهم عند الله يوم القيامة.. أتبعه بذكر حال الأبرار الذين آمنوا بربهم، وصدقوا رسولهم فيما جاء به عن خالقهم، وعملوا الخير في الحياة الدنيا، فذكر أن الله قد أحصىٰ أعمالهم في كتاب مرقوم اسمه: عليون، يشهده المقربون من الملائكة، وبعدئذٍ عدد ما ينالون من الجزاء علىٰ البر والإحسان، وفي ذلك ترغيب في الطاعة، وحفز لعزائم المحسنين ليزدادوا إحساناً، ويدعوا الطرق المشتبهة الملتبسة، ويقيموا علىٰ الطريق المستقيم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ...﴾ إلى آخر السورة، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر النعيم الذي هيأه للذين آمنوا به وبرسوله، وعملوا بما كلفهم به من أعمال البر، وأرشد إلىٰ ما أعده للفجار جزاء ما اجترحوا من السيئات.. أخذ يبين ما كان الكفار يقابلون به

---

(١) المراغي.

المؤمنين في الحياة الدنيا، وما سيقابل به المؤمنون الكفار يوم القيامة كفاء ما صنعوا معهم في الحياة الأولىٰ.

أسباب النزول

سبب نزولها: ما أخرج النسائي وابن ماجه بسند صحيح عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة.. كانوا من أبخس الناس كيلاً، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾، فأحسنوا الكيل بعد ذلك. قال الفراء: فهم من أوفىٰ الناس كيلاً إلىٰ يومهم هذا، وورد عن ابن عباس أيضاً قال: هي أول سورة نزلت علىٰ رسول الله ﷺ ساعة نزل المدينة، وكان هذا فيهم، كانوا إذا اشتروا استوفوا بكيل راجح، فإذا باعوا بخسوا المكيال والميزان، فلما نزلت هذه السورة انتهوا، فهم أوفىٰ الناس كيلاً إلىٰ يومهم هذا كما مر آنفاً. وقال قوم: نزلت في رجل كان بالمدينة يعرف بأبي جهينة، واسمه: عمرو، وكان له صاعان، يأخذ بأحدهما ويعطي بالآخر، قاله أبو هريرة رضي الله عنه.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَيْلٌ﴾؛ أي: هلاك عظيم، وشر شديد، وعذاب أليم كائن ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾؛ أي: للناقصين[1] في المكيال والميزان بالشيء القليل التافه علىٰ سبيل الخفية. قال ابن كيسان[2]: الويل: كلمة تقال لكل مكروب واقع في البلية، فقولك: ويل لك، عبارة عن استحقاق المخاطب لنزول البلاء والمحنة عليه، الموجب له أن يقول: واويلاه ونحوه. وقيل: وي لفلان؛ أي: الحزن، فقرن بلام الإضافة تخفيفاً، وهو مبتدأ، وإن كان نكرة لوقوعه في معرض الدعاء علىٰ ما سبق بيانه في المرسلات، خبره قوله: ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾؛ أي: كائن للباخسين حقوق الناس في المكيال والميزان، فإن التطفيف البخس في الكيل والوزن، والنقص والخيانة فيهما؛ بأن لا يعطي المشتري حقه تاماً كاملاً، وذلك لأن ما يبخس شيء خفيف؛ أي: يسير حقير علىٰ وجه الخفية من جهة دناءة الكيال والوزان وخساستهما؛ إذ الكثير يظهر، فيمنع منه، ولذا سمي: مطففاً.

---

(١) المراح. (٢) روح البيان.

قال الراغب: يقال: طفف الكيل إذا قلل نصيب المكيل له في إيفائه واستيفائه. وقال سعدي المفتي: والظاهر: أن بناء التفعيل للتكثير؛ لأن البخس لما كان من عادتهم.. كانوا يكثرون التطفيف، ويجوز أن يكون للتعدية. انتهىٰ.

وروي: أن رسول الله ﷺ قدم المدينة، وكان أهلها من أبخس الناس كيلاً، فنزلت، فخرج فقرأها عليهم وقال: «خمس بخمس، ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر»؛ فعملوا بموجبها، وأحسنوا الكيل، فهم أوفىٰ الناس كيلاً إلىٰ اليوم. قال مكي بن أبي طالب[1]: والمختار في ﴿وَيْلٌ﴾ وشبهه إذا كان غير مضاف: الرفع، ويجوز النصب، فإن كان مضافاً أو معرفاً.. كان الاختيار فيه النصب نحو قوله تعالى: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا﴾، والمراد بالويل هنا: شدة العذاب، أو نفس العذاب، أو الشر الشديد ـ كما مر ـ أو هو وادٍ في جهنم.

ومعنى الآية: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ①﴾؛ أي: عذاب[2] وخزي شديد يوم القيامة لمن يطفف وينقص في المكيال والميزان، وقد خص سبحانه المطففين بهذا الوعيد من قبل أنه كان فاشياً منتشراً بمكة والمدينة، فكانوا يطففون المكيال ويبخسونه، ولا يوفون حق المشتري.

روي: أنه كان بالمدينة رجل يقال له: أبو جهينة، له كيلان، أحدهما كبير، والآخر صغير، فكان إذا أراد أن يشتري من أصحاب الزروع والحبوب والثمار.. اشترىٰ بالكيل الكبير، وإذا باع للناس.. كال للمشتري بالكيل الصغير. وهذا الرجل وأمثاله ممن امتلأت نفوسهم بالطمع، واستولى علىٰ نفوسهم الجشع، هم المقصودون بهذا الوعيد الشديد، وهم الذين توعدهم النبي ﷺ وتهددهم بقوله: «خمس بخمس»، كما مر آنفاً.

وقد بين سبحانه عمل المطففين الذين استحقوا عليه هذا الوعيد بقوله:

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

﴿ٱلَّذِينَ ...﴾ إلخ[1] صفة كاشفة للمطففين، شارحة لكيفية تطفيفهم الذي استحقوا به الذم والدعاء بالويل ﴿إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: إذا أخذوا مكيلهم وحقوقهم بحكم الشراء ونحوه من الناس، والاكتيال: الأخذ بالكيل، كالاتزان: الأخذ بالميزان، ولم يقل: اتزنوا لأن الكيل والوزن المراد بهما الشراء والبيع، فأحدهما يدل على الآخر.

﴿يَسْتَوْفُونَ﴾؛ أي: يأخذونه وافياً وافراً تاماً، والاستيفاء: عبارة عن الأخذ الوافي، وتبديل كلمة من بـ ﴿عَلَى﴾ لتضمين الاكتيال معنىٰ الاستيلاء، أو للإشارة إلىٰ أنه اكتيال مضرٌّ بهم، لكن لا علىٰ اعتبار الضرر في حيز الشرط الذي تتضمنه كلمة ﴿إذا﴾ لإخلاله بالمعنىٰ، بل في نفس الأمر بموجب الجواب، فإن المراد بالاستيفاء ليس أخذ الحق وافياً من غير نقص، بل مجرد الأخذ الوافي الوافر حسبما أرادوا بأي وجه يتيسر من وجوه الحيل، وكانوا يفعلونه بكبس الكيل، وتحريك المكيال، والاحتيال في ملئه، فيسرقون أفواه المكاييل، وألسنة الموازين.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾؛ أي[2]: وإذا كالوا للناس المبيع ونحوه ﴿أَو وَّزَنُوهُمْ﴾؛ أي: وزنوه للناس، فحذف الجار، وأوصل الفعل كما قال في «تاج المصادر»: وزنت فلاناً درهماً، ووزنت لفلان بمعنىٰ، والأصل اللام، ثم حذفت، فوصل الفعل، ومنه الآية. انتهىٰ.

فلفظ ﴿هم﴾ منصوب المحل علىٰ المفعولية، لا مرفوعه علىٰ التأكيد للواو؛ لأن واو الجمع، إذا اتصل به ضمير المفعول.. لا يكتب بعده الألف كما في نصروك، ومنه الآية إذا لم يكتب الألف في المصحف، وإذا وقع في الطرف بأن يكون الضمير مرفوعاً واقعاً للتأكيد.. فحينئذٍ يكتب بعده الألف؛ لأن المؤكد ليس كالجزء مما قبله بخلاف المفعول، وأما نحو: شاربوا الماء، فالأكثر علىٰ حذف الألف؛ لقلة اتصال واو الجمع بالاسم هذا.

فإن قلت: خط المصحف خارج عن القياس؟

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

قلت: الأصل في أمثاله إثباته في المصحف، فلا يعدل عنه. ويروى[1] عن عيسىٰ بن عمر وحمزة أنهما كانا يجعلان الضميرين توكيداً لما في ﴿كالوا﴾ و﴿وزنوا﴾، ويقفان عند الواوين وقيفة يبينان بها ما أرادا، ثم يقولان: ﴿هم يخسرون﴾؛ أي: إذا كالوا هم لغيرهم، أو وزنواهم لغيرهم.. ينقصون، وإثبات الألف قبل ﴿هم﴾ لو لم يكن معتاداً في زمان الصحابة.. لمنع من إثباتها في سائر الأعصار. ا هـ من «المراح».

قال أبو عبيد[2]: والاختيار أن يكونا كلمة واحدة من جهتين:

إحداهما: الخط، ولذلك كتبوهما بغير ألف، ولو كانتا مقطوعتين.. لكانتا كالواو، أو وزنوا بالألف.

والأخرىٰ: أن يقال: كلتك، ووزنتك بمعنىٰ: كلت لك، ووزنت لك، وهو كلام عربي، كما يقال: شكرتك وشكرت لك، وقيل: هو على حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه، والمضاف: المكيل والموزون؛ أي: وإذا كالوا مكيلهم، أو وزنوا موزونهم ﴿يُخْسِرُونَ﴾، أي: ينقصون حقوق الناس مع أن وضع الكيل والوزن إنما هو للتسوية والتعديل، يقال: خسر الميزان وأخسره بمعنىٰ، كقوله: ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ ولعل ذكر[3] الكيل والوزن في صورة الإخسار، والاقتصار علىٰ الاكتيال في صورة الاستيفاء، بأن لم يقل: إذا اكتالوا علىٰ الناس أو اتزنوا، لما أنهم لم يكونوا متمكنين من الاحتيال عند الاتزان تمكنهم منه عند الكيل والوزن، كما قال في «الكشاف»: كأن المطففين كانوا لا يأخذون ما يكال ويوزن إلا بالمكاييل دون الموازين لتمكنهم بالاكتيال من الاستيفاء والسرقة؛ لأنهم يزعزعون ويحتالون في الملء، و إذا أعطوا.. كالوا أو وزنوا؛ لتمكنهم من البخس في النوعين جميعاً. انتهى. ولأن التطفيف في الكيل يكون بشيء قليل لا يعبأ به في الأغلب، دون التطفيف في الوزن، فإن أدنىٰ حيلة فيه يفضي إلى شيء كثير، ولأن ما يوزن أكثر قيمةً في كثير من الأحوال مما يكال، ويؤيده الاقتصار علىٰ التطفيف في الكيل في الحديث المذكور سابقاً، وعدم التعرض للمكيل والموزون في الصورتين؛ لأن مساق الكلام لبيان سوء معاملتهم في الأخذ والإعطاء، لا في

(1) المراح. (2) الشوكاني. (3) روح البيان.

خصوصية المأخوذ والمعطىٰ. قال أبو عثمان رحمه الله: حقيقة هذه الآية عندي: هو من يحسن العبادة علىٰ رؤية الناس ويسيء إذا خلا.

والمعنىٰ[1]: أي إذا كان لهم عند الناس حق في شيء من المكيلات.. لم يقبلوا أن يأخذوه إلا وافيًا كاملاً، وإذا كان لأحد عندهم شيء، وأرادوا أن يؤدوه له.. أعطوه ناقصاً غير وافٍ، وكما يكون التطفيف في الكيل والميزان.. يكون في أشياء أخرى، فمن استأجر عاملاً، ووقف أمامه يراقبه، ويطالبه بتجويد عمله، ثم إذا كان هو عاملاً أجيراً لم يراقب ربه في العمل، ولم يقم به على الوجه الذي ينبغي أن يقوم به.. يكون واقعاً تحت طائلة هذا الوعيد، مستوجباً لأليم العذاب مهما يكن عمله، جلَّ، أو حقر، وإذا كان هذا الإنذار للمطففين الراضين بالقليل من السحت، فما ظنك بأولئك الذين يأكلون أموال الناس بلا كيلٍ ولا وزن، بل يسلبونهم ما بأيديهم، ويغلبونهم علىٰ ثمار أعمالهم، فيحرمونهم التمتع بها اعتماداً على قوة الملك، أو نفوذ السلطان، أو باستعمال الحيل المختلفة. لا جرم أن هؤلاء لا يحسبون إلا في عداد الجاحدين المنكرين ليوم الدين، وإن زعموا بألسنتهم أنهم من المؤمنين المخبتين.

ثم هول في شأن هذا العمل وخوفهم، فقال: ﴿أَلَا يَظُنُّ﴾ ويوقن ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ المطففون الموصوفون بذلك الوصف الشنيع الهائل ﴿أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ﴾ لمجيء ﴿يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ لا يُقادَر قدر عظمه، وقدر عظم ما فيه من الأهوال، ومحاسبون فيه علىٰ مقدار الذرة والخردلة، والظن هنا[2]: بمعنىٰ اليقين، أي: لا يوقنون ذلك، ولو أيقنوا ما نقصوا الكيل والوزن، وقيل: الظن علىٰ بابه.

والمعنى: إن كانوا لا يستيقنون البعث.. فهلا ظنوه حتى يتدبروا فيه، ويبحثوا عنه، ويتركوا ما يخشون من عاقبته، فإن من يظن ذلك وإن كان ظناً ضعيفاً في حد الشك والوهم.. لا يتجاسر علىٰ أمثال هاتيك القبائح، فكيف بمن يتيقنه؟ فذكر الظن للمبالغة في المنع عن التطفيف، وإلا فالمؤمن لا يكفي له الظن في أمر البعث والمحاسبة، بل لا بد من الاعتقاد الجازم.

و ﴿أَلَآ﴾[3] هنا ليست هي التي للتنبيه؛ لأن ما بعد حرف التنبيه مثبت، وهنا

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

منفي؛ لأن ﴿أَلَآ﴾ التنبيهية إذا حذفت لا يختل المعنىٰ نحو قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾، وإذا حذفت ﴿أَلَآ﴾ هذه اختل المعنىٰ، بل الهمزة الاستفهامية الإنكارية دخلت هنا علىٰ لا النافية.

وجوز أن تكون للعرض والتخصيص علىٰ الظن، واليوم العظيم: هو يوم القيامة، ووصفه بالعظيم لكونه زماناً لتلك الأمور العظام من البعث والحساب والعقاب، ودخول أهل الجنة الجنة، ودخول أهل النار النار. والمعنىٰ: أي[1]: إن تطفيف الكيل والميزان، واختلاس أموال الناس بهذه الوسيلة لا يصدر إلا عن شخص لا يظن أنه سيبعث يوم القيامة، ويحاسب على عمله؛ إذ لو ظن ذلك لما طفف الكيل، ولا بخس الميزان.

والخلاصة: أنه لا يَجْسُر علىٰ فعل هذه القبائح من كان يظن بوجود يوم يحاسب الله فيه عباده علىٰ أعمالهم، فما بالك بمن يستيقن ذلك.

ثم وصف سبحانه هذا اليوم فقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ بتقدير المضاف؛ أي: لمجرد أمره وحكمه بذلك، لا لشيء آخر، أو لمحاسبة رب العالمين ومجازاته، فيظهر هناك تطفيفهم ومجازاتهم، أو يقومون من قبورهم؛ ليرد ربّ العالمين أرواحهم إلى أجسادهم.

وانتصاب[2] الظرف بـ ﴿مَّبْعُوثُونَ﴾ المذكور قبله، أو بفعل مقدر يدل عليه ﴿مَّبْعُوثُونَ﴾؛ أي: يبعثون يوم يقوم الناس، أو علىٰ البدل من محل ﴿لِيَوْمٍ﴾، وإنما بني علىٰ الفتح في هذين الوجهين لإضافته إلىٰ الفعل، وفي تخصيص[3] ﴿رب العالمين﴾ من بين سائر الصفات إشعار بالمالكية والتربية، فلا يمنع عليه الظالم القوي لكونه مملوكاً مسخراً في قبضة قدرته، ولا يترك حق المظلوم الضعيف؛ لأن مقتضىٰ التربية أن لا يضيع لأحد شيئاً من الحقوق، وفي هذه التشديدات إشارة إلىٰ أن التطفيف، وإن كان يتعلق بشيء حقير، لكنه ذنب كبير، قيل: كل من نقص حق الله من زكاة وصلاة وصوم، فهو داخل تحت هذا الوعيد، وقيل: المراد بقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾: قيامهم في رشحهم إلى أنصاف آذانهم، وقيل: المراد: قيامهم بما

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني. (٣) روح البيان.

عليهم من حقوق العباد، وقيل: المراد: قيام الرسل بين يدي الله للقضاء، والأول أولىٰ.

وقوله: ﴿كَلَّآ﴾ هي للردع والزجر عما كانوا عليه من التطفيف والغفلة عن البعث والحساب، فيحسن الوقف عليه، فيستأنف بما بعدها، وقال أبو حاتم: إن ﴿كَلَّآ﴾ بمعنىٰ: حقاً، فتكون متصلة بما بعدها علىٰ معنى حقاً ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ علىٰ الأول تعليل للردع؛ أي: ازدجروا وكفوا مما أنتم عليه من التطفيف والغفلة عن الحساب والمجازاة، فإن الفجار سيحاسبون علىٰ أعمالهم، وقد أعد الله لهم كتاباً أحصىٰ فيه أعمالهم، وكذا جميع ما يأتي، من ﴿كَلَّآ﴾ من هذه السورة.

والحاصل: أن ﴿كَلَّآ﴾ إنْ كانت بمعنىٰ حقاً. . فهي ابتداء كلام متصلة بما بعدها، فيكون الوقف علىٰ ما قبلها، وإنْ كانت بمعنى الردع والزجر. . فهي متصلة بما قبلها متممة له، فيكون الوقف عليها.

والكتاب مصدر[1] بمعنىٰ: المكتوب، كاللباس بمعنىٰ: الملبوس، أو علىٰ حاله بمعنىٰ الكتابة، واللام للتأكيد، و ﴿سِجِّينٍ﴾ علم لكتاب جامع هو ديوان الشر، دوِّن أعمال الشياطين وأعمال الكفرة والفسقة من الثقلين، منقول من وصف؛ أي: ساجن كحاتم، وهو منصرف لأنه ليس فيه إلا سبب واحد، وهو التعريف، وأصله: فعيل من السجن، وهو: الحبس مبالغة الساجن، كخمير وسكير وفسيق من الخمر والسكر والفسق، كما قاله أبو عبيدة والمبرد والزجاج، أو لأنه مطروح ـ كما قيل ـ تحت الأرض السابعة في مكان مظلم وحش، وهو مكان إبليس وذريته إذلالاً لهم، وتحقيراً لشأنهم، وتشهده الشياطين المدحورون، كما أن كتاب الأبرار يشهده المقربون، فالسجين مبالغة المسجون.

والمعنى: أن كتاب الفجار الذين من جملتهم المطففون؛ أي: ما يكتب من أعمالهم أو كتابة أعمالهم لفي ذلك الكتاب المدون فيه قبائح أعمالهم المذكورين المختص بالشر، وهو السجين.

---

(١) روح البيان.

والخلاصة: أن ما كتب من أعمال الفجار مثبت في ذلك الديوان المسمىٰ بالسجين، فعيل من السجن، وهو الحبس والتضييق؛ لأنه سبب الحبس والتضييق في جهنم، وهذا لا ينافي في كونه اسماً لجبٍّ في جهنم، أو لأسفل سبع أرضين مكان أرواح الكفار؛ لجواز الاشتراك في الاسم.

ثم ذكر ما يدل علىٰ تهويله وتعظيمه، فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ۝٨﴾؛ أي: هو بحيث لا يبلغه دراية أحد، و ﴿مَآ﴾ اسم[1] استفهام إنكاري مبتدأ، و ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾ خبره، و ﴿مَا سِجِّينٞ﴾ مبتدأ وخبر، و ﴿مَآ﴾ استفهامية أيضاً، والجملة سادة مسد المفعول الثاني لـ ﴿أَدۡرَىٰكَ﴾، والأول الكاف، والاستفهام الأول للإنكار، والثاني للتفخيم والتعظيم، والمعنىٰ: ما أعلمك يا محمد عظمة سجين وفظاعته؛ أي: أنت لا تعلمه في الدنيا تفصيلاً، وإنما تعلمه في الآخرة، أو المراد: أنت لا تعلمه قبل نزول الوحي به عليك، وإنما علمته بالوحي. تأمل.

وقوله: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٩﴾ تفسير[2] وبيان للكتاب المذكور في قوله: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ﴾ وليس تفسير السجين؛ أي: هو كتاب مرقوم؛ أي: مسطور بيِّن الكتابة، بحيث كل من نظر إليه يطلع علىٰ ما فيه بلا دقة نظر، وإمعان توجه، مكتوب فيه أعمالهم، مثبت عليهم كالرقم في الثوب، لا ينسىٰ ولا يمحى حتىٰ يجازون به، أو معلم يعلم من رآه أنه لا خير فيه لأهاليه؛ أي: ذلك الكتاب مشتمل على علامة دالة علىٰ شقاوة صاحبه، وكونه من أصحاب النار، وكونه علامة الشر يستفاد من المقام؛ لأنه مقام التهويل، وقيل: الرقم: الختم بلغة حمير.

وقال القفال: قوله ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٩﴾: ليس تفسير السجين، بل هو خبر ثانٍ لـ ﴿إِنَّ﴾، والمعنىٰ: إن كتاب الفجار لفي سجين، وإنه كتاب مرقوم، وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ۝٨﴾ وقع معترضاً بين الخبرين.

وقصارى ما سلف[3]: إن للشر سجلاً وصحيفة دونت فيها أعمال الفجار، وهو كتاب مسطور بيِّن الكتابة، وهذا السجل يشتمل عليه السجل الكبير المسمى بسجين، كما تقول: إن كتاب حساب قرية كذا في السجل الفلاني المشتمل علىٰ

---

(١) الفتوحات. (٢) روح البيان. (٣) المراغي.

حسابها وحساب غيرها من القرى، فلكل فاجر من الفجار صحيفة، وهذه الصحائف في السجل العظيم المسمىٰ بسجين.

وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾ كلام متصل بقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾، وما بينهما اعتراض، والمعنىٰ: ويل عظيم، وهلاك شديد يوم إذ يقوم الناس لرب العالمين، وقال بعضهم: أي يوم إذ أعطي ذلك الكتاب واقع لمن وقع منه التكذيب بالبعث، وبما جاءت به الرسل.

ثم بيَّن سبحانه هؤلاء المكذبين، فقال: ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝١١﴾ صفة ذم لـ﴿المكذبين﴾، أو بدل منه كقولك: فعل ذلك فلان الفاسق، الفاسق الخبيث؛ لأن تكذيبهم بيوم الدين علم من قوله: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ﴾ إلخ.

والمعنىٰ: أي شدة عذاب لمن يكذب بيوم الجزاء، سواء كان بجحد أخباره، أو بعدم المبالاة بما يكون فيه من عقاب وعذاب، وأعظم دليل علىٰ عدم المبالاة هو الإصرار علىٰ الجرائم، والمداومة على اقتراف السيئات.

ثم بيَّن أوصاف من يكذب بهذا اليوم فقال: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ﴾؛ أي: بيوم الدين والجزاء ﴿إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾؛ أي: متجاوز عن حدود النظر والاعتبار، قال في «التقليد»: حتى استقصر قدرة الله علىٰ الإعادة مع مشاهدته للبدء، كالوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث وأضرابهما. ﴿أثيم﴾؛ أي: كثير الإثم، منهمك في الشهوات الناقصة الفانية، بحيث شغلته عما وراءها من اللذات التامة الباقية، وحملته علىٰ إنكارها، فالاعتداء دل علىٰ إهمال القوة النظرية التي كمالها أن يعرف الإنسان وحدة الصانع، واتصافه بصفات الكمال مثل العلم والإرادة والقدرة ونحوها، والإثم دل على إهمال القوة العملية التي كمالها أن يعرف الإنسان الخير لأجل العلم به.

والمعنىٰ[1]: أي وما يكذب بهذا اليوم إلا من اعتدى علىٰ الحق، وعمي عن الإنصاف، واعتاد ارتكاب الجرائم؛ إذ يصعب عليه الإذعان بأخبار الآخرة؛ لأنه يأبىٰ النظر في أدلتها، وتدبر البينات المرشدة إلىٰ صدقها إلا أنه يعلل نفسه بالإنكار، ويهون عليها الأمر بالتغافل.

---

(١) المراغي.

أما من كان ميالاً إلىٰ العدل، واقفاً عند ما حد الله لعباده في شريعته، وسننه في نظام الكون، فأيسر شيء عليه التصديق باليوم الآخر، وهو أعون له علىٰ ما تميل إليه نفسه.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ﴾ قرأ الجمهور[1]: ﴿إذا﴾، والحسن: ﴿أئذا﴾ بهمزة الاستفهام التوبيخي، وقرأ الجمهور: ﴿تُتْلَىٰ﴾ بتاء التأنيث، وأبو حيوة وابن مقسم وأبو السمال والأشهب العقيلي والسلمي بالياء التحتانية. ﴿عليه﴾؛ أي: علىٰ ذلك المعتدي ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ الناطقة بذلك ﴿قَالَ﴾ من فرط جهله وإعراضه عن الحق الذي لا محيد عنه: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: هي حكايات الأولين وأخبارهم الباطلة، وأحاديثهم الكاذبة. قال في «فتح الرحمن»: هي الحكايات التي سطرت قديماً، وهي جمع أسطورة بالضم، وإسطارة بالكسر، وهي الحديث الذي لا نظام له.

والمعنىٰ: أي وإذا قرىء علىٰ هذا المعتدي الأثيم القرآن المنزل علىٰ محمد ﷺ.. أنكر كونه منزلاً من عند الله، وزعم أنه أخبار الأولين أخذها محمد من غيره من السابقين، ونحو الآية قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾.

وقد يكون المعنىٰ[2]: إنها أباطيل ألقيت على آبائهم الأولين فكذبوها، ولم تجز عليهم، فلسنا أول من يكذب بها حتىٰ تزعموا أن تكذيبنا بها يعتبر عجلةً منا، فإنا إنما تأسينا في تكذيبنا بها بآبائنا الأولين الذين سبقونا.

﴿كَلَّآ﴾ ردع وزجر للمعتدي الأثيم، يقول الزور ويزعم أن القرآن أساطير الأولين عن ذلك القول الباطل، وتكذيب له فيه، ويجوز أن تكون ردعاً عن مجموع التكذيب.

ثم بيَّن السبب الذي حملهم علىٰ قولهم بأن القرآن أساطير الأولين، فقال: ﴿بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ قرأ حفص[3] عن عاصم: ﴿بَلْ﴾ بإظهار اللام مع

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

سكتة عليها خفيفة بدون القطع، ويبتدىء ﴿رَانَ﴾، وقرأ الباقون: بإدغام اللام في الراء، ومنهم حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم يميلون فتحة الراء، قال بعض المفسرين[1]: هرب حفص من اجتماع ثقل الراء المفخمة والإدغام. انتهى.

ويرد عليه: ﴿قُل رَّبِّ﴾ فإنه لا سكتة فيه، بل هو بإدغام أحد المتقاربين في الآخر، فالوجه: أنه إنما سكت حفص علىٰ لام ﴿بَلْ رَانَ﴾، وكذا على نون ﴿مَنْ رَاقٍ﴾ خوف اشتباهه تثنية: البر، ومبالغة: مارق؛ حيث يصير: بران، ومراق، وقال الزمخشري: وقرىء بإدغام اللام في الراء، وبالإظهار والإدغام أجود، وأميلت الألف، وفخمت الراء. انتهىٰ.

قال أبو عبيدة[2]: ران على قلوبهم ـ غلب عليها ـ: ريناً وريوناً، وكل ما غلبك وعلاك فقد ران بك وران عليك. قال الفراء: إنه كثرت منهم المعاصي والذنوب، فأحاطت بقلوبهم، فذلك الرين عليها. قال الحسن: الرين: الذنب علىٰ الذنب، حتىٰ يعمي القلب. وقال أبو معاذ النحوي: الرين: أن يسود القلب من الذنوب، والطبع: أن يطبع علىٰ القلب، وهو أشد من الرين. والإقفال: أشد من الطبع. قال الزجاج: الرين: هو كالصدأ يغشىٰ القلب كالغيم الرقيق، ومثله الغين، و﴿ما﴾ في قوله: ﴿مَّا كَانُوا۟ يَكۡسِبُونَ﴾ موصولة، والعائد محذوف، ومحلها الرفع علىٰ الفاعلية.

والمعنى[3]: ليس في آياتنا ما يصح أن يقال في شأنها هذه المقالات الباطلة، بل ركب قلوبهم وغلب عليهم ما كانوا يكسبون من الكفر والمعاصي حتىٰ صارت كالصدأ في المرآة، فحال ذلك بينهم وبين معرفة الحق، كما قال ﷺ: «إن العبد كلما أذنب ذنباً.. حصل في قلبه نكتة سوداء، حتى يسود قلبه».

والخلاصة[4]: أي ليس الأمر كما يقولون من أنه أساطير الأولين، بل الذي جرأهم علىٰ ذلك هو أفعالهم التي دربوا عليها واعتادوها، فصارت سبباً لحصول الرين علىٰ قلوبهم، فالتبست عليهم الأمور، ولم يدركوا الفرق بين الكذب الفاضح،

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

والصدق الواضح، والدليل اللائح، وبعد أن بيَّن منزلة الفجار والمكذبين بيوم الدين. . دحض ما كانوا يقولون من أن لهم الكرامة والمنزلة الرفيعة يوم القيامة، فقال: ﴿كَلَّآ﴾ ردع وزجر عن الكسب الرائن؛ أي: الموقع في الرين ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: إن المكذبين، والجار في قوله: ﴿عَن رَّبِّهِمْ﴾، والظرف في قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ يقوم الناس لرب العالمين، متعلقان بقوله: ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾ فلا يرونه؛ لأنهم بأكسابهم القبيحة صارت مرآة قلوبهم ذات صدأ، وسرت ظلمة الصدأ منها إلىٰ قوالبهم، فلم يبق محل لنور التجلي، بخلاف المؤمنين، فإنهم يرونه تعالى؛ لأنهم بأكسابهم الحسنة صارت مرآة قلوبهم مصقولة صافية، وسرىٰ نور الصقالة والصفوة منها إلىٰ قوالبهم، فصاروا مستعدين لانعكاس نور التجلي في قلوبهم وقوالبهم، وصاروا وجوهاً من جميع الجهات، بل أبصاراً بالكلية.

والمعنىٰ: أي ارتدعوا عما تقولون من أنكم يوم القيامة تكونون مقربين إلى الله، فإنكم ستطردون من رحمته، ولا تنالون رضاه، ولا تدركون ما زعمتم من القرب والزلفىٰ عنده، كما قال: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾.

سئل[1] مالك بن أنس رحمه الله عن هذه الآية، فقال: لما حجب أعداءه فلم يروه، لا بد أن يتجلىٰ لأوليائه حتىٰ يروه، يعني: احتج الإمام مالك بهذه الآية علىٰ مسألة الرؤية من جهة دليل الخطاب، وإلا فلو حجب الكل. . لم يبقَ للتخصيص فائدة، فالآية من جملة أدلة الرؤية. وقال جل ثناؤه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾ فأعلم جل ثناؤه أن المؤمنين ينظرون، وأعلم أن الكفار محجوبون، وقيل[2]: ﴿كَلَّآ﴾ بمعنىٰ حقاً؛ أي: حقاً إنهم ـ يعني: الكفار ـ عن ربهم يوم القيامة محجوبون لا يرونه أبداً، قال مقاتل: يعني: أنهم بعد العرض والحساب لا ينظرون إليه نظر المؤمنين إلى ربهم.

ثم ذكر ما يكون لهم فوق ذلك فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ﴾ مع كونهم محجوبين عن رؤية الله تعالى ﴿لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾؛ أي: داخلوا النار، ومباشروا حرها من غير حائل، أصله صالون، حذفت نونه للإضافة، و﴿ثُمَّ﴾ لتراخي الرتبة، فإن صِلي الجحيم أشد

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

من الحجاب والإهانة والحرمان من الرحمة والكرامة، فإن الحجاب، وإن كان من قبيل العذاب الروحاني، وهو أشد من العذاب الجسماني، لكن مجرد النجاة من النار أهون من العذاب؛ لأن في العذاب الحسي حصول العذابين لما لا يخفىٰ.

والمعنىٰ: أي وبعد أن يحجبوا في عرصات القيامة عن الدنو من ربهم، وإدراك أمانيهم التي كانوا يتمنونها، يقذف بهم في النار، ويصلون سعيرها، ويقاسون حرها.

ثم أرشد إلىٰ أنهم حينئذٍ يبكَّتون ويوبخون فوق ما بهم من الآلام، فقال: ﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ لهم توبيخاً وتقريعاً من جهة الزبانية، وإنما طوىٰ ذكرهم؛ لأن المقصود ذكر القول لا القائل، مع أن فيه تعميماً لاحتمال القائل، وبه يشتد الخوف؛ أي: تقول لهم خزنة جهنم توبيخاً لهم: ﴿هَٰذَا﴾ العذاب، وهو مبتدأ، خبره قوله: ﴿ٱلَّذِى كُنتُم﴾ في الدنيا ﴿بِهِۦ﴾ متعلق بقوله: ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ فانظروه وذوقوه، وتقديمه لرعاية الفاصل لا للحصر، فإنهم كانوا يكذبون أحكاماً كثيرة.

والمعنى[1]: أي هذا الذي عوقبتم به هو جزاء ما كنتم تكذبون به من أخبار الرسول الصادق، كزعمكم أنكم لن تبعثوا، وأن القرآن أساطير الأولين، وأن محمداً ساحر أو كذاب، إلى نحو ذلك من مقالاتكم، والآن قد تبين لكم حقيقة أمركم، وعاينتم بأنفسكم أن ما كان يقوله نبيكم هو الحق الذي لا شك فيه، وما أشد علىٰ الإنسان إذا أصابه مكروه أن يذكر ـ وهو يتألم ـ بأن وسائل نجاته من مصابه كانت في متناول يديه، وقد أهملها وألقىٰ بها وراءه ظهرياً.

وقوله ﴿كَلَّآ﴾ ردع عما كانوا عليه بعد ردع، وزجر بعد زجر، والتكرير للتأكيد، وجملة قوله: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ﴾؛ أي: إن الأعمال المكتوبة للأبرار علىٰ أن ﴿الكتابَ﴾ مصدر مضاف إلىٰ مقدر. ﴿لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ جملة مستأنفة لبيان ما تضمنته ﴿كَلَّآ﴾ ويجوز أن تكون ﴿كَلَّآ﴾ بمعنىٰ: حقاً، والأبرار هم المطيعون، وكتابهم صحائف حسناتهم؛ أي[2]: إن كتاب أعمال الأبرار لفي عليين؛ أي: لفي ديوان جامع لجميع أعمال الأبرار، فـ ﴿عِلِّيُّونَ﴾ علم لديوان الخير الذي دون فيه ما عملته

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

الملائكة وصلحاء الثقلين، منقول من جمع عِلي فِعِّيلٌ، من العلو؛ للمبالغة فيه، سمي بذلك؛ إما لأنه سبب الارتفاع إلىٰ أعالي الدرجات في الجنة، وإما لأنه مرفوع في السماء السابعة حيث يسكن الكروبيون تكريماً له وتعظيماً.

وروي: أن الملائكة لتصعد بعمل العبد فيستقلونه، فإذا انتهوا إلى ما شاء الله من سلطانه.. أوحىٰ إليهم؛ إنكم الحفظة علىٰ عبدي، وأنا الرقيب علىٰ ما في قلبه، وإنه أخلص عمله، فاجعلوه في عليين، فقد غفرت له، وإنها لتصعد بعمل العبد، فيزكونه، فإذا انتهوا به إلىٰ ما شاء الله.. أوحىٰ إليهم: أنتم الحفظة علىٰ عبدي، وأنا الرقيب علىٰ ما في قلبه، وإنه لم يخلص في عمله، فاجعلوه في السجين. وفيه إشارة إلىٰ أن الحفظة لا يطلعون علىٰ الإخلاص والرياء إلا بإطلاع الله تعالى.

ومعنىٰ الآية[1]: أي ليس الأمر كما توهمه أولئك الفجار من إنكار البعث، ومن أن كتاب الله أساطير الأولين، فإن كتاب أعمال الأبرار مودع في أعلىٰ الأمكنة، بحيث يشهده المقربون من الملائكة تشريفاً لهم، وتعظيماً لشأنهم، كما أن الغرض من وضع كتاب الفجار في أسفل السافلين إذلالهم وتحقير شأنهم، وبيان أنه لا يؤبه بهم، ولا يعنىٰ بأمرهم.

ثم عظم شأن ﴿عِلِّيِّينَ﴾، وفخم أمره، فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾﴾؛ أي: وما أعلمك يا محمد أيُّ شيء عليون علىٰ جهة التفخيم والتعظيم لعليين؛ أي: هو خارج عن دائرة دراية الخلق، ثم فسره وبين المراد منه، فقال: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾؛ أي: هو[2] كتاب مسطور بيِّن الكتابة، يقرأ بلا تكلف، أو معلم بعلامة تدل علىٰ سعادة صاحبه، وفوزه بنعيم دائم، وملك لا يبلى.

ولما كان عليون علماً منقولاً من الجمع.. حكم عليه بالمفرد، وهو كتاب مرقوم، وأعرب بإعراب الجمع؛ حيث جر أولاً بـ ﴿في﴾، ورفع بالخبرية لما الاستفهامية؛ لكونه في صورة الجمع، وقيل: اسم مفرد علىٰ لفظ الجمع كعشرين وأمثاله، فليس له واحد من لفظه، وجملة: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ صفة ثانية لـ ﴿كِتَٰبٌ﴾؛ أي: يحضر ذلك الكتاب المرقوم الملائكة المقربون عند الله سبحانه،

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

قرب المكانة والكرامة، ويحفظونه من الضياع، وقيل: يشهدون بما فيه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، وقال وهب وابن إسحاق[1]: المقربون هنا: إسرافيل، فإذا عمل المؤمن عمل البر.. صعدت الملائكة بالصحيفة، ولها نور يتلألأ في السموات كنور الشمس في الأرض، حتىٰ تنتهي بها إلىٰ إسرافيل، فيختم عليها. قال في «فتح الرحمن»: هم سبعة أملاك من مقربي السماء، من كل سماء ملك مقرب، فيحضر ذلك الكتاب المرقوم، ويشيعه حتىٰ يصعد به إلىٰ حيث شاء الله تعالىٰ، ويكون هذا في كل يوم. وبهذا[2] تبين سر ترك الظاهر بأن يقال: طوبى يومئذ للمصدقين، في مقابلة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾؛ لأن الإخبار بحضور الملائكة تعظيماً وإجلالاً يفيد ذلك مع زيادة، فختم كل واحد بما يصلح سواه مكانه.

والمعنىٰ[3]: أي أن كتابهم في هذا السجل الكبير الذي يشهده المقربون من الملائكة، فكما وكل سبحانه أمر اللوح المحفوظ إليهم.. وكل إليهم حفظ كتاب الأبرار، وقد يكون المراد أنهم ينقلون ما في تلك الصحائف إلىٰ ذلك الكتاب.

وبعد أن بين منزلة كتاب الأبرار.. أخذ يفصل حال الأبرار، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾؛ أي: إن السعداء الأتقياء عن درن صفات النفوس ﴿لَفِى نَعِيمٍ﴾؛ أي: لفي تنعم عظيم لا يقادر قدره، ثم وصف كيفية ذلك النعيم بأمور ثلاثة:

أولها: قوله: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾؛ أي: علىٰ الأسرة في الحجال، ولا يكاد تطلق الأريكة علىٰ السرير عندهم إلا عند كونه في الحجلة: وهو ـ بالتحريك ـ بيت العروس، يزين بالثياب والأسرَّة والستور، والجار والمجرور في قوله: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ يجوز أن يكون خبراً بعد خبر لـ ﴿إِنَّ﴾، وأن يكون حالاً من المنوي في الخبر، أو من فاعل ﴿يَنظُرُونَ﴾، والتقديم حينئذٍ لرعاية فواصل الآي، وجملة قوله: ﴿يَنظُرُونَ﴾ يجوز[4] أن تكون مستأنفة، وأن تكون حالاً، إما من المنوي في الخبر، أو في الظرف؛ أي: ناظرين، وحذف مفعول ﴿يَنظُرُونَ﴾ للتعميم؛ أي: ينظرون ما شاؤوا مد أعينهم إليه من رغائب مناظر الجنة، وإلى ما أولاهم من النعمة والكرامة، وكذا إلىٰ أعدائهم يعذبون في النار، وما تحجب الحجال أبصارهم عن الإدراك

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

للطافتها وشفوفها؛ أي: رقتها؛ وقيل: ينظرون إلى وجه الله سبحانه، قال ابن عطاء الله رحمه الله تعالى: علىٰ أرائك المعرفة ينظرون إلىٰ المعروف، وعلىٰ أرائك القربة، ينظرون إلىٰ الرؤوف الرحيم.

والمعنى[1]: أي إن البررة المطيعين لربهم الذين يؤمنون بالبعث والحساب، ويصدقون بما جاء علىٰ لسان رسوله ﷺ لفي لذة، وخفض عيش، وراحة بال، واطمئنان نفس، وعلى الأسِرَّة في حجالها ينظرون إلى أنواع نعيمهم في الجنة من الحور العين، والولدان، وأنواع الأطعمة والأشربة، والمراكب الفارهة إلى نحو ذلك.

وثانيها: أنه بيَّن أثر هذا النعيم علىٰ أهل الجنة فقال: ﴿تَعْرِفُ﴾ أيها المخاطب، أو يا محمد ﴿فِي وُجُوهِهِمْ﴾؛ أي: في وجوه أولئك الأبرار ﴿نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾؛ أي: بهجة التنعم، وماءه، ورونقه، وهو ثاني الأوصاف الثلاثة المذكورة سابقاً؛ أي: إنك إذا رأيتهم ونظرت إليهم.. عرفت أنهم أهل النعمة، لما ترىٰ في وجوههم من القرائن الدالة علىٰ ذلك؛ كالضحك والاستبشار، كما يرىٰ في الدنيا في وجوه الأغنياء، وأهل الترفه، فمن[2] هذا اختير: ﴿تَعْرِفُ﴾ علىٰ ترىٰ، مع أن المعرفة تتعلق بالخفيات غالباً، والرؤية بالجليات غالباً، والخطاب في ﴿تَعْرِفُ﴾ لكل أحد ممن له حظ من الخطاب؛ للإيذان بأن لهم من آثار النعمة، وأحكام البهجة بحيث لا يختص برؤية راء دون راء. قال جعفر الصادق رحمه الله تعالى: يعني: لذة النظر تتلألأ مثل الشمس في وجوههم إذا رجعوا من زيارة الله إلىٰ أوطانهم، وقال بعضهم: تعرف في وجوههم رضىٰ محبوبهم عنهم قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩)﴾.

وقرأ الجمهور: ﴿تَعْرِفُ﴾ بفتح الفوقية وكسر الراء خطاباً للرسول الله ﷺ، أو لأي ناظر، ونصب ﴿نضرة﴾، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، ويعقوب وشيبة وطلحة وابن إسحاق والزعفراني بضم الفوقية، وفتح الراء مبنياً للمفعول، ورفع ﴿نضرةُ﴾ علىٰ النيابة، وقرأ زيد بن علي كذلك إلا أنه قرأ: ﴿يعرف﴾ بالياء التحتانية إذ تأنيث ﴿نضرة﴾ مجازي.

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

ثم ذكر ثالث الأوصاف، فقال: ﴿يُسْقَوْنَ﴾؛ أي: يسقىٰ الأبرار في الجنة ﴿مِن رَّحِيقٍ﴾؛ أي: من شراب خالص لا غش فيه، ولا ما يكرهه الطبع، ولا شيء يفسده، وأيضاً صافٍ من كدورة الخمار، وتغيير النكهة، وإيراث الصداع؛ أي: يسقون خمراً لا غش فيها، ولا يصيب شاربها خمار، ولا يناله منها أذىٰ، كما قال: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ وسقىٰ: يتعدىٰ إلىٰ مفعولين، والأول هنا ﴿الواو﴾ القائم مقام الفاعل، والثاني ﴿مِن رَّحِيقٍ﴾؛ لأن ﴿من﴾ تبعيضية، كأنه قيل: بعض رحيق، أو مقدر معلوم؛ أي: شراباً كائناً من رحيق مبتدأ منه، فـ﴿من﴾ ابتدائية، و﴿الرحيق﴾: صافي الشراب وخالصها ﴿مَّخْتُومٍ﴾ إناؤه ومغطىٰ رأسه؛ لئلا يدخله القذىٰ بغطاء بيته بقوله: ﴿خِتَٰمُهُۥ﴾، أي: ختام ذلك الشراب، وغطاؤه، أي: ما يختم ويطبع به ويغطى ﴿مِسْكٌ﴾ وهو طيب معروف؛ أي: مختوم أوانيه وأكوابه بالمسك مكان الطين، وكأنه تمثيل لكمال نفاسته، وطيب رائحته. قال في «كشف الأسرار»: ما ختم به مسك رطب ينطبع فيه الخاتم، أمر الله بالختم عليه إكراماً لأصحابه، فختم ومنع أن يمسه ماس، أو تتناوله يد إلى أن يفك ختمه الأبرار، والأظهر: أنه تمثيل لكمال نفاسته، كما مر آنفاً؛ إذ الشيء النفيس يختم لا سيما إذا كان ما يختم به المسك بدل الطين. وقيل: ختام الشيء آخره وخاتمته، فمعنىٰ ختامه مسك: أن الشارب إذا رفع فاه من آخر شربه.. وجد رائحة كرائحة المسك، أو وجد رائحة المسك؛ لكونه ممزوجاً به كالأشربة الممسكة في الدنيا، فإنه يوجد فيها رائحة المسك عند خاتمة الشرب، لا في أول زمان الملابسة بالشرب. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه: أن الرحيق شراب أبيض مثل الفضة، يختمون به آخر شربهم، ولو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل فيه يده ثم أخرجها.. لم يبق ذو روح إلا وجد طيب ريحه. انتهىٰ. وهذا النوع من الخمر غير النوع الآخر الذي يجري في الأنهار الذي أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾.

وقرأ الجمهور: ﴿خِتَٰمُهُۥ﴾؛ أي: خلطه ومزاجه، قاله عبد الله وعلقمة، وقال ابن عباس وابن جبير والحسن: معناه: ختامه؛ أي: رائحته عند خاتمة الشراب رائحة المسك، وقرأ علي والنخعي والضحاك وزيد بن علي وأبو حيوة وابن أبي عبلة والكسائي: ﴿خاتمه﴾ بعد الخاء ألف وفتح التاء، وهذه بينة المعنىٰ أنه يراد الطبع علىٰ الرحيق، وعن الضحاك وعيسىٰ وأحمد بن جبير الأنطاكي عن الكسائي:

كسر التاء؛ أي: آخره، مثل قوله: ﴿وخاتم النبيين﴾، وفيه حذف؛ أي: خاتم رائحته المسك، أو خاتمه الذي يختم به ويطبع، والخاتم والختام يتقاربان في المعنى، إلا أن الخاتم الاسم، والختام المصدر، كذا قاله الفراء. قال في «الصحاح»: والختام الطين الذي يختم به، وكذا قال ابن زيد. قال الفرزدق:

وَبِتْنَ بِجَانِبَيَّ مُصَرَّعَاتٍ وَبِتُّ أَفُضُّ أَغْلَاقَ الْخِتَامَهْ

ثم رغب في العمل لذلك النعيم، فقال: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ الرحيق خاصة دون غيره من النعيم المكدر السريع الفناء، أو فيما ذكر من أحوالهم لا في أحوال غيرهم من أهل الشمال ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾؛ أي: فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله تعالى، وقيل: ﴿فِي﴾ بمعنىٰ: إلىٰ؛ أي: وإلى ذلك فليتسابق المتسابقون بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

والأمر فيه للتحضيض والترغيب ظاهر[1]، وللوجوب باطناً بوجوب الإيمان والطاعة، وأصل التنافس: التغالب والتنازع في الشيء النفيس؛ أي: المرغوب، كأن كل واحد من الشخصين يريد أن يستأثر به، وأصله من النفس لعزتها، وقال البغوي: أصله من الشيء النفيس الذي يحرص عليه نفوس الناس، ويريده كل أحد لنفسه، وينفس به علىٰ غيره؛ أي: يبخل. وفي «المفردات»: المنافسة: مجاهدة النفس للتشبه بالأفاضل واللحوق بهم من غير إدخال ضرر علىٰ غيره. قال ذو النون المصري رحمه الله تعالى: علامة التنافس تعلق القلب به، وطيران الضمير إليه، والحركة عند ذكره، والتباعد من الناس، والأنس بالوحدة، والبكاء علىٰ ما سلف، وحلاوة سماع الذكر، والتدبر في كلام الرحمن، وتلقي النعم بالفرح والشكر، والتعرض للمناجاة.

وقوله: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾ معطوف على ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ علىٰ أنه صفة أخرىٰ لـ﴿رَّحِيقٍ﴾ مثله، وما بينهما اعتراض مقرر لنفاسته؛ أي[2]: ما يمزج ويخلط به ذلك الرحيق من ماء تسنيم: وهو اسم علم لعين بعينها تجري من جنة عدن، سميت بالتسنيم الذي هو مصدر سنمه: إذا رفعه؛ إما لأنها أرفع شراب في الجنة

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

قدراً، فيكون من علو المكان، وإما لأنها تأتيهم من فوق، فيكون من علو المكانة؛ أي: ومزاج ذلك الرحيق من تسنيم، وهو شراب ينصب عليهم من علو، وهو أشرف شراب الجنة، وأصل التسنيم في اللغة: الارتفاع، فهي عين ماء تجري من علو إلىٰ سفل. ومنه: سنام البعير؛ لعلوه من بدنه، ومنه: تسنيم القبور، روي: أنها تجري في الهواء متسنمة، فتنصب في أوانيهم، فإذا امتلأت أمسك الماء حتىٰ لا يقع منه قطرة علىٰ الأرض، فلا يحتاجون إلىٰ الاستقاء، ثم بين هذا التسنيم فقال: ﴿عَيۡنٗا﴾، وانتصابه علىٰ المدح، وقال الزجاج[1]: علىٰ الحال، وإنما جاز أن تكون ﴿عَيۡنٗا﴾ حالاً مع كونها جامدة غير مشتقة لاتصافها بقوله: ﴿يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ من جناب الله قرباً معنوياً روحانياً، والباء في ﴿بِهَآ﴾؛ إما زائدة؛ أي: يشربها، أو بمعنىٰ: من؛ أي: يشرب منها، قال ابن زيد: بلغنا أنها عين تجري من تحت العرش، قيل: يشرب بها المقربون صرفاً، ويمزج بها كأس أهل اليمين.

والمعنى[2]: أمدح عيناً يشرب منها الأبرار الرحيق مزاجاً إذا أرادوا، ويشرب منها المقربون صرفاً، وقد اعتاد أهل الدنيا إذا شربوا الخمر أن يمزجوها بالماء ونحوه، فبيَّن لهم أنهم في الآخرة يشربون رحيقاً قد وصف بما يجعل النفوس تتشوق إليه، وأنهم يمزجونه بماء تجيئهم به العين العالية القدر إذا شاؤوا أن يمزجوه.

ثم ذكر سبحانه بعض قبائح المشركين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾؛ أي: إن الذين كانوا ذوي جرم وذنب، ولا ذنب أكبر من الكفر وأذىٰ المؤمنين لإيمانهم، فالمراد بهم: رؤساء قريش، وأكابر المجرمين المشركين، كأبي جهل، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وأضرابهم ﴿كَانُواْ﴾ في الدنيا ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إيماناً صادقاً ﴿يَضۡحَكُونَ﴾؛ أي: يستهزئون بفقرائهم، كعمار وصهيب وبلال وخباب وغيرهم، وتقديم[3] الجار والمجرور لمراعاة الفواصل؛ أي: إن[4] المعتدين الأئمة الذين ضربت نفوسهم على الشر، وصمت آذانهم عن سماع دعوة الحق، كانوا في الدنيا يضحكون من الذين آمنوا؛ ذاك أنه حين رحم الله تعالى العالم ببعثة

---

(١) الشوكاني.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

محمد ﷺ.. كان كفار القوم وعرفاؤهم علىٰ الرأي الدهماء من عبادة الأوثان والأصنام، وكانت دعوة الحق خافتة لا يرفع بها إلا صوته ﷺ، ثم يهمس بها بعض من يلبي دعوته من الضعفاء، فيسر بها إلى من يرجو الخير فيه، ولا يستطيع الجهر بها لمن يخافه.

ومن شأن القوي المعتز بقوته وكثرة ماله وعزة نفره، أن يضحك ممن يخالفه في المنزع، ويدعوه إلى غير ما يعرف، كما كان ذلك شأن جماعة من قريش، كأبي جهل وشيعته، وأمثالهم كثيرون في كل زمان ومكان، متىٰ عمت البدع، وخفي طريق الحق، وتحكمت الشهوات، وذهب الناقص يستكمل ما نقص منه بتنقيص الكامل، وإذا صار الناس إلى هذه الحال ضعف صوت الحق، وازدرىٰ السامعون منه بالداعي إليه.

وقد روي أن صناديد قريش كأبي جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل السهمي، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأمية بن خلف وأضرابهم، كانوا يؤذون رسول الله ﷺ وأصحابه، ويستهزئون بهم، ويحرضون عليهم سفهاءهم وغلمانهم، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ روي أن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه جاء في نفر من المسلمين، فرآه بعض هؤلاء الكفار، فسخروا منه، وممن معه، وضحكوا منهم وتغامزوا بهم، ثم رجعوا إلى بقية شيعتهم من أهل الشرك، فحدثوهم بما صنعوا به وبأصحابه، فنزل قبل وصول علي إلى رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ﴾؛ أي: فقراء المؤمنين ﴿بِهِمْ﴾؛ أي: المشركين، وهم في أنديتهم، وهو الأظهر، وإن جاز العكس أيضاً. يقال: مرَّ مراً ومروراً: إذا جاز وذهب، كاستمر ومره ومر به: جاز عليه، كما في «القاموس»: ويعدىٰ بالباء وعلي ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾؛ أي: يغمز بعضهم بعضاً، ويشيرون بأعينهم، ويعيبونهم، ويقولون: انظروا إلى هؤلاء يتعبون أنفسهم، ويتركون اللذات، ويتحملون المشقات لما يرجونه في الآخرة من المثوبات، وأمر البعث والجزاء لا يقين به، وإنه بعيد كل البعد، والتغامز: تفاعل من الغمز، وهو الإشارة بالجفن والحاجب، ويكون بمعنىٰ العيب أيضاً.

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ﴾؛ أي: وإذا انقلب الكفار ورجعوا من مجالسهم ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ﴾؛ أي: إلى أهل بيتهم وأصحابهم الجهلة الضالة التابعة لهم، والانقلاب: الانصراف

والتحول والرجوع. ﴿ٱنقَلَبُوا۟﴾ ورجعوا حال كونهم ﴿فَكِهِينَ﴾؛ أي: فرحين متلذذين بذكرهم بالسوء، والسخرية منهم، وفيه إشارة إلىٰ أنهم كانوا لا يفعلون ذلك بمرأىٰ من المارين، ويكتفون حينئذٍ بالتغامز.

والمعنى[1]: أي وإذا رجعوا إلىٰ ذوي قرابتهم، وبني جلدتهم، وأشياعهم من أهل الشرك والضلالة.. رجعوا معجبين بما فعلوا من العيب علىٰ أهل الإيمان، ورميهم بالسخف وقلة العقل، ويقولون: عجباً لهم إذ يقولون لا تدعوا إلا إلهاً واحداً، ولا تتوجهوا بالطلب إلا إليه، فأين الأولياء والشفعاء، فكم ضروا وكم نفعوا إلى نحو ذلك مما يتندرون به، ويعدونه فكاهة، ويتلذذون بحكايته.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فاكهين﴾ بالألف؛ أي: أصحاب فاكهة ومزح وسرور باستخفافهم بأهل الإيمان. وقرأ أبو رجاء والحسن وعكرمة وأبو جعفر وحفص وابن القعقاع والأعرج والسلمي: ﴿فَكِهِينَ﴾ بغير ألف. قال الفراء: هما لغتان، مثل: طمع وطامع، وحذر وحاذر، وقد تقدم في سورة الدخان، أن الفكه: الأشر البطر، والفاكه: الناعم المتنعم. ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾؛ أي: وإذا رأى المشركون المسلمين أينما كانوا، فالضمير المرفوع عائد علىٰ المجرمين ﴿قَالُوٓا۟﴾؛ أي: قال المجرمون مشيرين إلى المؤمنين بالتحقير: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المسلمين ﴿لَضَآلُّونَ﴾ في اتباعهم محمداً ﷺ، وتمسكهم بما جاء به، وتركهم التنعم الحاضر، ويجوز أن يكون المعنى: وإذا رأىٰ المؤمنون المشركين.. قالوا هذا القول، والأول أولىٰ.

نسبوا[3] المسلمين ممن رأوهم، ومن غيرهم إلىٰ الضلال بطريق التأكيد، وقالوا: تركوا دين آبائهم القديم، ودخلوا في الدين الحادث، أو قالوا: تركوا التنعم الحاضر بسبب طلب ثواب لا يدرى هل له وجود أم لا.

والمعنىٰ[4]: وإذا رأىٰ الكفار المؤمنين، قالوا: إن هؤلاء لضالون؛ إذ نبذوا ما عليه الكافة، وذهبوا يعيبون العقائد الموروثة، والمناسك التي نقلها الخلف عن السلف كابراً عن كابر، وجيلاً بعد جيل، فرد سبحانه علىٰ هؤلاء الكفار، فقال:

---

(1) المراغي.
(2) البحر المحيط.
(3) روح البيان.
(4) المراغي.

﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ٣٣﴾، والجملة[1] حال من واو قالوا؛ أي: قالوا ذلك، والحال أنهم ما أرسلوا من جهة الله تعالىٰ موكلين بهم، يحفظون عليهم أمورهم، ويهيمنون علىٰ أعمالهم، ويشهدون برشدهم وضلالهم، وإنما أمروا بإصلاح أنفسهم، وأي نفع لهم في تتبع أحوال غيرهم، وهذا تهكم بهم، وإشعار بأن ما اجترؤوا عليه من القول من وظائف من أرسل من جهته تعالى. وقد جوِّز أن يكون ذلك من جملة قول المجرمين، كأنهم قالوا: إن هؤلاء لضالون، وما أرسلوا علينا حافظين إنكاراً لصدهم عن الشرك، ودعائهم إلىٰ الإسلام، وإنما قيل نقلاً له بالمعنىٰ.

والمعنىٰ[2]: أي إن الله تعالىٰ لم يرسل الكفار رقباء علىٰ المؤمنين، ولم يؤتهم سلطة محاسبتهم علىٰ أفعالهم، وتعريف باطلها من صحيحها، فلا يسوغ لهم أن يعيبوا عليهم ما يعتقدونه ضلالاً بعقولهم الفاسدة، وإنما كلفهم أن ينظروا شؤون أنفسهم فيعدلوا منها ما اعوج، فإذا فعلوا ذلك.. قاموا بما يجب عليهم في هذه الحياة.

ثم شرع يذكر معاملة المؤمنين لهم يوم القيامة تسلية لهم علىٰ ما ينالهم منهم من أذىٰ، وتقويةً لقلوبهم، وشداً لعزائمهم علىٰ التذرع بالصبر، فقال: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ المراد بـ ﴿اليوم﴾: اليوم الآخر ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ أي: المعهودون من الفقراء ﴿مِنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ المعهودين؛ أي: المستهزئين لهم، وهو الأظهر، وإن أمكن التعميم من الجانبين ﴿يَضۡحَكُونَ﴾.

والمعنىٰ: أن المؤمنين في ذلك اليوم يضحكون من الكفار حين يرونهم أذلاء مغلوبين، وغشيهم فنون الهوان والصغار بعد العز والكبر، ورهقهم ألوان العذاب بعد التنعم والترفه، يضحك الكفار منهم في الدنيا. قال[3] بعض المفسرين: لعل الفاء في قوله: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ فاء الإفصاح، واقعة في جواب شرط مقدر؛ كأنه قيل: إذا عرفتم ما ذكر، وأردتم بيان حال المؤمنين مع الكفار في ذلك اليوم.. فأقول لكم: إن في ذلك اليوم يضحك المؤمنون من الكفار جزاءً وفاقاً، فاللام في ﴿اليوم﴾: لام العهد، وهو يوم القيامة، والظرف متعلق بـ ﴿يَضۡحَكُونَ﴾، و ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ،

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

﴿مِنَ ٱلْكُفَّارِ﴾: متعلق بـ ﴿يَضْحَكُونَ﴾ أيضاً، وحرام على الوهم أن يتوهم كونه بياناً للموصول نظراً إلى ظاهر الاتصال من غير تفكر في المعنى، وجملة ﴿يَضْحَكُونَ﴾ خبر المبتدأ، وهو ناصب ﴿اليوم﴾، كما قلنا آنفاً؛ لصحة المعنى حينئذٍ.

وقوله: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ والأسرة متعلق بـ ﴿يَنظُرُونَ﴾ أو حال من فاعله، وجملة ﴿يَنظُرُونَ﴾ حال من فاعل ﴿يَضْحَكُونَ﴾؛ أي: يضحكون منهم حال كونهم ناظرين إليهم، وإلى ما هم فيه من الحال الفظيع، والعذاب الأليم حال كونهم مستقرين على الأرائك في منازلهم من الجنة.

والحاصل[1]: أن المؤمنين في يوم الدين يضحكون من الكفار ضحك من وصل به يقينه إلى مشاهدة الحق فسر به، وينكشف لهم ما كانوا يرجون من إكرام الله لهم، وخذلان أعدائهم، فضحكوا من أولئك المغرورين الجحدة الذين تجلت لهم عاقبة أعمالهم، وظهر لهم عاقبة سفه عقولهم، وفساد أقوالهم حال كونهم ينظرون على الأرائك إلى ما صنع الله بأعدائهم، وتنكيله بمن كانوا يفخرون عليهم، ويهزؤون بهم.

قال الواحدي: قال المفسرون: إن أهل[2] الجنة إذا أرادوا نظروا من منازلهم إلى أعداء الله، وهم يعذبون في النار، فضحكوا منهم، كما ضحكوا منهم في الدنيا. وقال أبو صالح: يقال لأهل النار: اخرجوا، ويفتح لهم أبوابها، فإذا رأوها قد فتحت.. أقبلوا إليها يريدون الخروج، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك، فإذا انتهوا إلى أبوابها.. غلقت دونهم، فذلك قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝٣٤﴾.

وقوله: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾ كلام[3] مستأنف من قبل الله، أو من قبل الملائكة، والاستفهام للتقرير، وجوابه: قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله. وثوب بمعنى: يثوب، عبر عنه بالماضي لتحققه، والتثويب والإثابة: المجازاة، استعمل في المكافأة بالشر. قال الراغب: الإثابة تستعمل في المحبوب نحو: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ﴾، وقد قيل ذلك في المكروه، نحو: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان. (٣) روح البيان.

غَمًّا بِغَمٍّ﴾ علىٰ الاستعارة والتثويب في القرآن لم يجيء إلا في المكروه نحو: ﴿هَلْ ثُوِّبَ. . .﴾ إلخ. انتهىٰ. وفي «القاموس»: التثويب: التعويض. انتهىٰ. والمراد بـ ﴿مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾: استهزاؤهم بالمؤمنين، وضحكهم منهم، وهو صريح في أن ضحك المؤمنين منهم في الآخرة إنما هي جزاء لضحك الكافرين منهم في الدنيا.

والمعنىٰ: يقول الله سبحانه، أو تقول الملائكة: هل ثوب؛ أي: قد ثوب الكفار، وجوزوا علىٰ ما كانوا يفعلون بالمؤمنين من استهزائهم، والضحك منهم، وهذا علىٰ سبيل التهكم، كأنه تعالىٰ يقول للمؤمنين: هل جازينا للكفار علىٰ عملهم الذي كان من جملته ضحكهم بكم، واستهزاؤهم بشريعتكم، كما جازيناكم علىٰ أعمالكم الصالحة، فيكون هذا زائداً على سرورهم، كذا في «المراح»، وعبارة القرطبي هنا: ومعنىٰ ﴿ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ﴾؛ أي: هل جوزوا علىٰ سخريتهم في الدنيا بالمؤمنين إذا فعل بهم ذلك، فالجواب: نعم.

وفيه تسلية للمؤمنين[1] بأنه ينقلب الحال، ويكون الكفار مضحوكاً منهم، وتعظيم لهم، فإن إهانة الأعداء تعظيم للأولياء، والله ينتقم لأوليائه من أعدائهم، فإنه يغضب لأوليائه كما يغضب الليث الجريء لجروه. وعلم منه أن الضحك والاستهزاء والسخرية والغمز من الكبائر، فالخائض فيها من المجرمين الملحقين بالمشركين، نسأل الله سبحانه السلامة من غضبه وسخطه، وقيل: الجملة في محل نصب بـ ﴿يَنظُرُونَ﴾ معلقاً عنها بالاستفهام بعد إسقاط حرف الجر الذي هو: إلى.

والمعنىٰ: أنهم ينظرون ليتحققوا هل جوزي الكفار بما كانوا يفعلون بهم في الدنيا، وقيل: منصوبه بقول وقع حالاً من فاعل ﴿يَنظُرُونَ﴾؛ أي: على الأرائك ينظرون حال كونهم قائلين: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾؛ أي: يقول المؤمنون ذلك بعضهم لبعض، والله أعلم.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿هَلْ ثُوِّبَ﴾ بإظهار لام ﴿هَلْ﴾، وقرأ النحويان: أبو عمر والكسائي حمزة وابن محيصن بإدغامها في الثاء المثلثة، وفي قوله: ﴿مَّا كَانُوا﴾. .

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

حذف، تقديره: جزاء أو عقاب ما كانوا يفعلون، وإنما سمي الجزاء علىٰ العمل ثواباً؛ لأنه يرجع إلىٰ صاحبه نظير ما عمله من خير أو شر.

الإعراب

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾.

﴿وَيْلٌ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء به كونه دعاء ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ خبره، والجملة مستأنفة ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها علىٰ كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي ﴿ٱكْتَالُوا۟﴾ فعل وفاعل والجملة في محل جر بالإضافة ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: متعلق بـ ﴿ٱكْتَالُوا۟﴾، و ﴿عَلَى﴾: بمعنىٰ: من؛ أي: إذا قبضوا من الناس لأنفسهم، وجملة ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ الشرطية صلة الموصول ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إِذَا﴾: ظرف مضمن معنىٰ الشرط، ﴿كالوا﴾: فعل وفاعل، و﴿هم﴾ ضمير متصل منصوب بنزع الخافض، والأصل: كالوا لهم، أو وزنوا لهم، وحذف الجار، وأوصل الفعل، فصار كالوهم، ومفعول ﴿كالوا﴾ محذوف تقديره: كالوا لهم الطعام، أو وزنوا لهم النقود، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها علىٰ كونها فعل شرط لها ﴿أَو وَّزَنُوهُمْ﴾: معطوف علىٰ ﴿كَالُوهُمْ﴾ مماثل له في إعرابه، وجملة ﴿يُخْسِرُونَ﴾ جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة ﴿إذا﴾ الأولىٰ. ﴿إذا﴾ الأولى ﴿أَلَا يَظُنُّ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، و ﴿لا﴾: نافية ﴿يَظُنُّ﴾: فعل مضارع، وظن هنا بمعنىٰ اليقين ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: فاعل، والإشارة لـ ﴿المطففين﴾؛ أي: لا يوقن أولئك ولو أيقنوا ما نقصوا في الكيل والميزان ﴿أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾: ناصب واسمه وخبره، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي ﴿ظن﴾ ﴿لِيَوْمٍ﴾: متعلق بـ ﴿مَّبْعُوثُونَ﴾، واللام في بمعنىٰ في الظرفية، ﴿عَظِيمٍ﴾: صفة ﴿يوم﴾، و ﴿يَوْمَ﴾، بدل من ﴿لِيَوْمٍ﴾ بدل كل من كل، تابع له علىٰ المحل، ومحله النصب بـ ﴿مَّبْعُوثُونَ﴾، أو بمقدر مثله؛ لأن البدل علىٰ نية تكرار العامل، وبني على الفتح لإضافته إلىٰ الفعل، ﴿يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾: فعل

وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾، ﴿لرب العالمين﴾: متعلق بـ ﴿يَقُومُ﴾، ولكنه على حذف مضاف، أي: لمحاسبة رب العالمين.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿كَلَّآ﴾: حرف ردع وزجر. ﴿إِنَّ كِتَٰبَ﴾: ناصب واسمه ﴿ٱلْفُجَّارِ﴾: مضاف إليه ﴿لَفِى﴾: اللام حرف ابتداء ﴿في سجين﴾: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ﴿إِنَّ﴾ والجملة مستأنفة. ﴿وما﴾: ﴿الواو﴾ اعتراضية. ﴿مَآ﴾: اسم استفهام للإنكار في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿أَدْرَىٰكَ﴾: خبره، والجملة الاسمية جملة معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين الخبرين لـ ﴿إِنَّ﴾ كما مر عن القفال، ﴿أدرىٰ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود على: ﴿مَآ﴾ الاستفهامية، والكاف في محل النصب مفعول أول ﴿لأدرى﴾، ﴿مَآ﴾: اسم استفهام للتفخيم والتعظيم في محل الرفع مبتدأ: ﴿سِجِّينٌ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب سادة مسد المفعول الثاني لـ ﴿أَدْرَىٰكَ﴾، ﴿كِتَٰبٌ﴾: خبر ثانٍ لـ ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾، أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو كتاب مرقوم، و ﴿مَّرْقُومٌ﴾: صفة ﴿كِتَٰبٌ﴾ ﴿وَيْلٌ﴾: مبتدأ كما تقدم، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف أضيف إلىٰ مثله متعلق بـ ﴿وَيْلٌ﴾؛ لأنه مصدر بمعنى: هلاك ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾: خبر ﴿وَيْلٌ﴾، والجملة مستأنفة ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ ﴿المكذبين﴾، وجملة ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ صلة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾: متعلق بـ ﴿يُكَذِّبُونَ﴾، ﴿وَمَآ﴾ ﴿الواو﴾: حالية ﴿مَآ﴾: نافية ﴿يُكَذِّبُ﴾: فعل مضارع ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿يُكَذِّبُ﴾، ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿كُلُّ مُعْتَدٍ﴾: فاعل ﴿يُكَذِّبُ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، ﴿كُلُّ﴾: مضاف ﴿مُعْتَدٍ﴾: مضاف إليه مجرور بكسرة مقدرة علىٰ الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين منع من ظهورها الثقل؛ لأنه اسم منقوص أعل كقاض ﴿أَثِيمٍ﴾: صفة ﴿مُعْتَدٍ﴾، وسبق لك بيان الفرق بني الاعتداء والإثم ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مضمن معنىٰ الشرط ﴿تُتْلَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿تُتْلَىٰ﴾، ﴿ءَايَٰتُنَا﴾: نائب فاعل لـ ﴿تُتْلَىٰ﴾، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود علىٰ

﴿كُلُّ مُعْتَدٍ﴾، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ في محل الجر صفة ثانية لـ ﴿مُعْتَدٍ﴾، ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هي أساطير الأولين، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿كَلَّا﴾: حرف ردع وزجر للمعتدي الأثيم عن ذلك القول الباطل ﴿بَلْ﴾: حرف عطف وإضراب على محذوف تقديره: ليس الأمر كما يقولون ﴿رَانَ﴾: فعل ماضٍ مبني على الفتح ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾: متعلق بـ ﴿رَانَ﴾، ﴿مَّا﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل بـ ﴿رَانَ﴾، والجملة معطوفة علىٰ تلك المقدرة، ﴿كَانُوا۟﴾ فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَكْسِبُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة لـ ﴿مَّا﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما كانوا يكسبون، ﴿كَلَّآ﴾: حرف ردع وزجر عن الكسب الرائن، ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه ﴿عَن رَّبِّهِمْ﴾: متعلق بـ ﴿محجوبون﴾. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف أضيف إلىٰ مثله متعلق بـ ﴿محجوبون﴾ أيضاً، والتنوين ـ فيه عوض عن الجملة المحذوفة تقديرها: يوم إذ يقوم الناس، ﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾ خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب لتراخي رتبة ما بعدها عما قبلها ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه ﴿لَصَالُوا۟﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿صالوا﴾: خبر ﴿إن﴾ مرفوع بالواو المحذوفة للتخلص من التقاء الساكنين؛ لأنه جمع مذكر سالم، ﴿ٱلْجَحِيمِ﴾: مضاف إليه، وجملة ﴿إن﴾ معطوفة علىٰ جملة ﴿إن﴾ الأولىٰ ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف للترتيب والتراخي أيضاً ﴿يُقَالُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ نائب فاعل محكي لـ ﴿يُقَالُ﴾، والجملة الفعلية معطوفة علىٰ جملة ﴿إن﴾، وإن شئت قلت: ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ ﴿ٱلَّذِى﴾: خبره، والجملة الاسمية في محلِ الرفع نائب فاعل لـ ﴿يُقَالُ﴾، ﴿كُنتُم﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿تُكَذِّبُونَ﴾، وجملة ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة الموصول لا محل لها من الإعراب ﴿كَلَّآ﴾: حرف ردع وزجر، أو بمعنىٰ: حقاً ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ﴾: ناصب واسمه، ومضاف إليه ﴿لَفِى﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿في

عليين﴾: جار ومجرور خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، و﴿عِلِّيِّينَ﴾: مجرور بالياء؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: اعتراضية ﴿مَآ﴾ اسم استفهام للإنكار في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ خبره، والجملة الاسمية جملة معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين خبري ﴿إِنَّ﴾، ﴿مَآ﴾: اسم استفهام للتفخيم في محل الرفع مبتدأ، ﴿عِلِّيُّونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل النصب سادة مسد المفعول الثاني لـ ﴿أَدْرَىٰكَ﴾، ﴿كِتَٰبٌ﴾: خبر ثانٍ لـ ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ﴾، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هو كتاب مرقوم، و﴿مَّرْقُومٌ﴾: صفة لـ ﴿كِتَٰبٌ﴾، ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾: فعل مضارع ومفعول به وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع صفة ثانية لـ ﴿كِتَٰبٌ﴾، ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَفِى نَعِيمٍ﴾: خبره، و﴿اللام﴾: حرف ابتداء، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾: متعلق بـ ﴿يَنظُرُونَ﴾، وجملة ﴿يَنظُرُونَ﴾ في محل النصب حال من الضمير المستكن في خبر ﴿إِنَّ﴾، أو مستأنفة ﴿تَعْرِفُ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر يعود على أي مخاطب ﴿فِى وُجُوهِهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿تَعْرِفُ﴾. ﴿نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لإيذان المخاطب بالالتفات إليهم والتأمل في آثار النعيم.

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ
مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ
﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟
إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ
﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿يُسْقَوْنَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة مرفوع بالنون، والواو نائب فاعل له ﴿مِن رَّحِيقٍ﴾: متعلق بـ ﴿يُسْقَوْنَ﴾ ﴿مَّخْتُومٍ﴾: صفة ﴿رَّحِيقٍ﴾؛ أي: من خمر خالصة من كل غشٍ أو شائبة، والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل الجر صفة ثانية لـ﴿رَّحِيقٍ﴾، ﴿وَفِى﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: متعلق بقوله: ﴿فَلْيَتَنَافَسِ﴾، و﴿الفاء﴾ عاطفة أيضاً لزيادة الاهتمام، و﴿اللام﴾ لام الأمر، ﴿يتنافس﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر ﴿ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾: فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿يُسْقَوْنَ﴾، وقيل: الواو عاطفة لقول

محذوف تقديره: ويقولون: فليتنافس في ذلك المتنافسون، والفاء زائدة لتحسين الخط، كفاء قولهم: فقط، وقيل: الواو زائدة، والفاء عاطفة، وقيل: الواو اعتراضية، والفاء زائدة، وفي «الجمل» واستشكل في هذا العاطف، إذ لا يصح أن يقال: وفليتنافس، فقيل: إنه بتقدير القول؛ أي: ويقولون لشدة التلذذ في ذلك: فليتنافس. ﴿وَمِزَاجُهُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿مزاجه﴾: مبتدأ ﴿مِن تَسْنِيمٍ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل الجر معطوفة علىٰ جملة ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ ﴿عَيْنًا﴾: منصوب على المدح بفعل محذوف تقديره: أمدح عيناً، أو أعني بالتسنيم عيناً، أو على الحال من ﴿تَسْنِيمٍ﴾، كما قاله الزجاج، وجملة ﴿يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ صفة لـ ﴿عَيْنًا﴾، و ﴿بِهَآ﴾: متعلق بـ ﴿يَشْرَبُ﴾، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿أَجْرَمُواْ﴾ صلة الموصول ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص، واسمه ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾ متعلق بـ ﴿يَضْحَكُونَ﴾، وجملة ﴿ءَامَنُواْ﴾ صلة الموصول، وجملة ﴿يَضْحَكُونَ﴾ خبر ﴿كَانُواْ﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿وَإِذَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان مضمن معنىٰ الشرط، ﴿مَرُّواْ﴾: فعل وفاعل ﴿بِهِمْ﴾: متعلق بـ ﴿مَرُّواْ﴾، وجملة ﴿مَرُّواْ بِهِمْ﴾ في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها علىٰ كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، وجملة ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ الشرطية في محل الرفع معطوفة علىٰ جملة ﴿كَانُواْ﴾ علىٰ كونها خبر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾، ﴿وإذا﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿إِذَا﴾: شرطية، وجملة ﴿ٱنقَلَبُوٓاْ﴾ في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها علىٰ كونها فعل شرط لها، ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ﴾ متعلق بـ ﴿ٱنقَلَبُوٓاْ﴾، وجملة ﴿ٱنقَلَبُوٓاْ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿فَكِهِينَ﴾: حال من فاعل ﴿ٱنقَلَبُوٓاْ﴾، وجملة ﴿إِذَا﴾ الشرطية في محل الرفع معطوفة علىٰ جملة ﴿إِذَا﴾ الأولى، ﴿وإذا﴾: ﴿إِذَا﴾: ظرف مضمن معنىٰ الشرط، وجملة ﴿رَأَوْهُمْ﴾ في محل الخفض فعل شرط لـ ﴿إِذَا﴾، وجملة ﴿قَالُوٓاْ﴾ جوابها لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ معطوفة علىٰ جملة ﴿إذا﴾ الأولى، ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾: ناصب واسمه وخبره، و ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾ ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿مَآ﴾: نافية ﴿أُرْسِلُواْ﴾ فعل ماضٍ، ونائب فاعل، والجملة في محل النصب حال من الواو في ﴿قَالُوٓاْ﴾: ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق

بـ ﴿حَٰفِظِينَ﴾، و ﴿حَٰفِظِينَ﴾ حال من الواو في ﴿أُرۡسِلُواْ﴾ ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره؛ إذا عرفتم ما ذكر، وبيان حال المؤمنين مع الكفار، في ذلك اليوم.. فأقول لكم: ﴿اليوم﴾: منصوب على الظرفية، متعلق بـ ﴿يَضۡحَكُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿ءَامَنُواْ﴾ صلة الموصول ﴿مِنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾: متعلق بـ ﴿يَضۡحَكُونَ﴾، وجملة ﴿يَضۡحَكُونَ﴾ خبر ﴿ٱلَّذِينَ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾ المقدرة مستأنفة ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾: متعلق بـ ﴿يَنظُرُونَ﴾، وجملة ﴿يَنظُرُونَ﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿يَضۡحَكُونَ﴾؛ أي: يضحكون حال كونهم ناظرين إليهم، وإلى ما هم فيه من الخزي والهوان، ﴿هَلۡ﴾: حرف استفهام للاستفهام التقريري ﴿ثُوِّبَ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة ﴿ٱلۡكُفَّارُ﴾: نائب فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لقول محذوف وقع حالاً من فاعل ﴿يَنظُرُونَ﴾؛ أي: ينظرون إليهم حال كونهم قائلين: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ﴾ إلخ، أو جملة ﴿ثُوِّبَ﴾ مستأنفة ﴿مَآ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ثانٍ لـ ﴿ثُوِّبَ﴾، وجملة ﴿كَانُواْ﴾ صلة لـ ﴿مَآ﴾ الموصولة، وجملة ﴿يَفۡعَلُونَ﴾ في محل النصب خبر ﴿كان﴾. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَيۡلٌ﴾؛ أي: هلاك عظيم وعذاب شديد، قال ابن كيسان: هي كلمة مكروب وقع في البلية، وأصله: وي لفلان، أي: الحزن له، فقرن بلام الإضافة، فقيل: ويل تخفيفاً.

﴿لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ جمع مطفف، وهو المنقص في الكيل أو الوزن، سمي بذلك لأن ما ينقص فيهما شيء طفيف أي: حقير، يقال: طفف الكيل: إذا نقصه قليلاً، وقال الزجاج: وإنما قيل للذي ينقص المكيال والميزان مطفف؛ لأنه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان، إلا الشيء الطفيف؛ أي: اليسير الحقير التافه.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ﴾ قال الفراء: يقال: اكتلت على الناس: استوفيت منهم، واكتلت منهم: أخذت ما عليهم فـ ﴿عَلَى﴾ بمعنى من، وأصله: اكتيلوا بوزن افتعلوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿يَسۡتَوۡفُونَ﴾؛ أي: يأخذون حقوقهم وافية كاملة، وأصله: يستوفيون، استثقلت

الضمة علىٰ الياء، فحذفت للتخفيف، ثم لما التقىٰ ساكنان.. حذفت الياء، وضمت الفاء لمناسبة الواو.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾؛ أي: كالوا للناس حقوقهم، أو وزنوا لهم حقوقهم، وفيه إعلال بالقلب أيضاً، أصله: كيلوهم، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح: ﴿يُخْسِرُونَ﴾: أي: ينقصون الكيل والميزان، مع أن وضع الكيل والوزن، إنما هو للتسوية والتعديل، يقال: خسر الميزان وأخسره بمعنى، وهو يتعدَّىٰ بالهمزة، ويقال: خسر الرجل وأخسره. ا هـ «خطيب».

﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾؛ أي: للعرض علىٰ خالقهم، ويطول بهم الموقف إجلالاً لعظمة ربهم.

﴿أَلَا يَظُنُّ﴾ أصله: يظنن بنونين، أدغمت الأولىٰ منهما في الثانية.

﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ والسجين: علم لكتاب جامع لأعمال الشياطين، وأعمال الكفرة والفسقة من الثقلين، منقول من وصف، كحاتم، وهو منصرف؛ لأنه ليس فيه إلا سبب واحد، وهوالتعريف، واختلف في نونه، هل هي أصلية: فيكون فعيلاً من السجن، أو بدل من لام: فيكون أصله: سجيلاً من السجل، وأورد صاحب «القاموس» في مادة: سجن ما نصه: سجين، كسكين: الدائم الشديد، وموضع فيه كتاب الفجار، وواد في جهنم أعاذنا الله تعالى منها، أو حجر في الأرض السابعة. انتهىٰ.

﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ ۝٩﴾؛ أي: مكتوب مسطور، قال الراغب: الرقم: الكتابة والخط الغليظ، ومنه قول الشاعر:

سَأَرْقُمُ فِيْ الْمَاءِ الْقَرَاحِ إِلَيْكُمُ عَلَىٰ بُعْدِكُمْ إِنْ كَانَ لِلْمَاءِ رَاقِمُ

﴿إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾؛ أي: متجاوز عن منهج الحق، أصله: معتديٌ، استثقلت الكسرة علىٰ الياء فحذفت، فالتقى ساكنان، وهما الياء والتنوين، ثم حذفت الياء لبقاء دالها، وهو كسرة الدال، فصار معتد بوزن: مفتع.

﴿أثيم﴾؛ أي: كثيرالذنوب والآثام.

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ﴾؛ أي: غلب وأحاط وغطى تغطية الغيم للسماء، وفي

«المختار»: الرين: الطبع والدنس، ويقال: ران ذنبه على قلبه ـ من باب باع ريناً وريوناً أيضاً ـ: إذا غلب، وقال أبو عبيدة: كل ما غلبك فقد ران بك، ورانك وران عليك، ورين الرجل: إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه ولا قبل له به، أي: لا طاقة له به، وعبارة الزمخشري: وران علىٰ قلوبهم: ركبها كما يركب الصدأ، وغلب عليها، وهو أن يصر علىٰ الكبائر، ويسوف التوبة حتىٰ يطبع علىٰ قلبه، فلا يقبل الخير ولا يميل إليه، وعن الحسن: الذنب بعد الذنب حتىٰ يسود القلب.

قلت: وران يائية وواوية، وهي هنا يائية، أصله: رين كبيع، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، وأما الواوية فيقال فيها: ران يرون روناً ـ من باب دخل ـ يقال: ران الأمر: اشتد، ورانت الليلة: اشتد هولها أو غمها، والرون ـ بضم الراء المشددة ـ: الشدة، والجمع رؤون، ورونة الشيء ـ بالضم ـ: معظمه وشدته، يقال: كشف الله عنك رونة هذا الأمر؛ أي: شدته وغمته.

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ۝١٦﴾؛ أي: لداخلوا النار وملازموها، أصله: لصاليون، فلما أضيف الوصف.. حذفت منه نون الجمع، فصار لصاليوا، فاستثقلت الضمة علىٰ الياء، فحذفت فسكنت، فالتقت ساكنة مع واو الجمع، فحذفت الياء، وضمت اللام لمناسبة الواو، وقد تقدم هذا في سورة: صٓ.

﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾ أصل يقال: يقول بوزن: يفعل، نقلت حركة الواو إلىٰ القاف، ثم قلبت ألفاً لتحركها في الأصل، وفتح ما قبلها الآن.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩﴾ قال الزمخشري: وعليون: علم لديوان الخير الذي دون فيه كل ما عملته الملائكة وصلحاء الثقلين، منقول من جمع عليّ فعيل من العلو، كسجين من السجن، سمي بذلك؛ إما لأنه سبب الارتفاع إلىٰ أعالي الدرجات في الجنة، وإما لأنه مرفوع في السماء السابعة. وعبارة أبي حيان: عليون: جمع واحده: عِلِيٌّ مشتق من العلو، وهو المبالغة، قاله يونس وابن جني. قال أبو الفتح: وسبيله أن يقال: علية، كما قالوا للغرفة: علية، فلما حذفت التاء عوضوا عنها الجمع بالواو والنون، وقيل: هو وصف للملائكة، فلذلك جمع بالواو والنون. وقال الفراء: هو اسم موضوع علىٰ صيغة الجمع ولا واحد له من لفظه، كقولهم: عشرين وثلاثين، والعرب إذا جمعت جمعاً، ولم يكن له بناء من واحده،

ولا تثنية قالوا في المذكر والمؤنث بالواو والنون. وقيل غير ذلك.

قلت: عليون: اسم لمكان عالٍ كما أن سجيناً: اسم لمكان في نهاية السفل، فهما مكانان أودع فيهما أعمال الناجين، وأعمال الخاسرين، وليس علينا أن نعرف ما هما، أمن أوراق وأخشاب أو معادن أخرى.

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ هي الأسرة في الحجال، والحجال: واحدها حجلة، وهي مثل القبة، وحجلة العروس: بيت؛ أي: خيمة تزين بالثياب والأسرَّة والستور.

و﴿نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ بهجته ورونقه ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾؛ أي: من شراب خالص لا غش فيه، وأصل يسقون: يسقيون بوزن يفعلون، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين ﴿مَّخْتُومٍ﴾؛ أي: ختمت أوانيه وسدت.

﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾؛ أي: ما يختم به رأس قارورته هو المسك بدل الطين.

﴿فَلْيَتَنَافَسِ﴾ وأصل التنافس: التشاجر علىٰ الشيء والتنازع فيه، بأن يحب كل واحد أن ينفرد دون صاحبه، وفي «المختار»: ونفس الشيء من باب ظرف: صار مرغوباً فيه، ونافس في الشيء منافسةً ونفاساً بالكسر: إذا رغب فيه علىٰ وجه المباراة في الكرم، وتنافسوا فيه: أي: رغبوا. ا هـ. والمراد: فليستبق المتسابقون، وليجاهدوا النفوس ليلحقوا بالعاملين.

﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾ والمزاج والمزج: الشيء الذي يمزج بغيره، والمزج: خلط أحد الشيئين بالآخر، والتسنيم: عين من ماء تجري من أعلىٰ إلىٰ أسفل، وهو أشرف شراب في الجنة، ويكون صرفاً للمقربين، ممزوجاً لأصحاب اليمين، وسائر أهل الجنة، والمقربون هم: الأبرار الذين سبق ذكرهم.

﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ﴾ يقال: مر مراً ومروراً إذا جاز وذهب، كاستمر ومره وبه: جاز عليه. كما في «القاموس».

﴿يَتَغَامَزُونَ﴾؛ أي: يشيرون إليهم بأجفانهم من التغامز: تفاعل من الغمز، وهو الإشارة بالجفن والحاجب، ويكون بمعنى العيب، يقال: غمز فلان فلاناً إذا عابه وذكره بسوء، ويقال: فلان لا مغمز فيه؛ أي: ليس فيه ما يعاب به.

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ﴾ من الانقلاب: وهو الانصراف والتحول والرجوع.

﴿ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾؛ أي: معجبين راضين بما فيه من الشرك والضلالة والعصيان، أو متلذذين بما كان من مكنتهم ورفعتهم التي أوصلتهم إلى الاستسخار بغيرهم، والضحك من المؤمنين.

﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ٣٣﴾؛ أي: رقباء يتفقدونهم ويهيمنون على أعمالهم.

﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢﴾ أصل رأوهم: رأيوهم، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين، وأصل ﴿ضالون﴾: ضاللون بلامين، أدغمت أولاهما في الثانية.

﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ﴾ من التثويب، والتثويب والإثابة: المجازاة يقال: ثوبه وأثابه إذا جازاه، كما قال الشاعر:

سَأَجْزِيْكِ أَوْ يَجْزِيْكِ عَنِّيْ مُثَوِّبٌ وَحَسْبُكِ أَنْ يُثْنَىٰ عَلَيْكِ وَتُحْمَدِيْ

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: تنكير ﴿وَيۡلٌ﴾ لإفادة التهويل والتفخيم.

ومنها: المقابلة اللطيفة بين قوله: ﴿إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾، وقوله ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ٣﴾ وهي مقابلة أتت على أحسن وجه وأنظمه؛ أي: إذا كان الكيل من جهة غيرهم.. استوفوه، وإذا كان الكيل من جهتهم.. أخسروه، سواء باشروه، أو لا، فالضمير لا يدل على مباشرة، ولا إشعار أيضاً بذلك، والذي يدلك علىٰ أن الضمير لا يعطي مباشرة الفعل، أن لك أن تقول: الأمراء هم الذين يقيمون الحدود لا السوقة، لست تعني أنهم يباشرون ذلك بأنفسهم، وإنما معناه: أن فعل ذلك من جهتهم خاصة. ا هـ من «الدرويش».

ومنها: الاكتفاء في قوله: ﴿إِذَا ٱكۡتَالُواْ﴾؛ لأنه حذف الاتزان لعلمه من الاكتيال، لأن مقتضىٰ المقابلة أن يقال: الذين إذا اكتالوا، أو اتزنوا علىٰ الناس يستوفون، وقد مر لك بيان حكمة حذفه في مبحث التفسير.

ومنها: الطباق بين ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ و ﴿يُخْسِرُونَ﴾؛ لأن الاستيفاء الأخذ وافياً، والإخسار: الإعطاء ناقصاً.

ومنها: الاستفهام الإنكاري التعجبي في قوله: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾﴾ لأن ﴿أَلَآ﴾ في قوله: ﴿أَلَا يَظُنُّ﴾ ليست استفتاحية، بل هي همزة الاستفهام دخلت على لا النافية، فأفادت التوبيخ والإنكار والتعجيب، كما في «الرازي». وفي هذا الإنكار والتعجيب وكلمة الظن، ووصف اليوم بالعظم، وقيام الناس فيه لله تعالى خاضعين، ووصف ذاته برب العالمين.. بيان بليغ لعظم الذنب، وتفاقم الإثم في التطفيف، وفيما كان مثل حاله من الحيف، وترك القيام بالقسط، والعمل علىٰ السوية والعدل في كل أخذ وإعطاء، بل في كل قول وعمل. ا هـ «خطيب».

ومنها: تخصيص وصف رب العالمين من بين سائر الصفات إشعاراً بالمالكية والتربية، بحيث لا يمتنع عليه الظالم القوي؛ لكونه مملوكاً مسخراً في قبضة قدرته، ولا يترك حق المظلوم الضعيف؛ لأن مقتضىٰ التربية أن لا يضيع لأحد شيئاً من الحقوق، وفي هذه التشديدات إشارة إلى أن التطفيف، وإن كان يتعلق بشيء حقير، لكنه ذنب كبير.

ومنها: المقابلة بين حال الفجار، وحال الأبرار في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ...﴾ إلخ، وقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ...﴾ إلخ.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾﴾ إفادة للتهويل، وفي قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾﴾ إفادةً للتعظيم والتفخيم لمراتب الأبرار.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ حيث مثل احتجاب الله وسخطه عليهم، وإهانته بهم باحتجاب ملك من الملوك عن بعض رعيته؛ لأنه لا يؤذن علىٰ ذوي المقامات العلية والمراتب السامية إلا للمقربين المكرمين لديهم، ولا يحجب عنهم إلا الأدنياء الموسومون بالمهانة والقماءة والصَّغَار، وقد رمق أبو تمام سماء هذا المعنىٰ، فقال مبرزاً احتجاب المعتصم عن الرعية:

لَيْسَ ٱلْحِجَابُ بِمُقْصٍ عَنْكَ لِيْ أَمَلاً ... إِنَّ ٱلسَّمَاءَ تُرَجَّىٰ حِيْنَ تَحْتَجِبُ

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾.

ومنها: الإطناب بذكر أوصاف نعيم المتقين في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾...﴾ إلخ.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾؛ أي: كالمسك في طيب الرائحة، فحذف منه الأداة ووجه الشبه، فأصبح بليغاً.

ومنها: حذف مفعول ﴿يَنظُرُونَ﴾ في قوله: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ إفادة للتعميم؛ أي: ينظرون ما شاؤوا مد أعينهم إليه من رغائب مناظر الجنة، وإلى ما أولاهم الله تعالىٰ من النعمة والكرامة.

ومنها: تقديم الجار والمجرور علىٰ متعلقه في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾ لمراعاة الفواصل، أو للحصر إشعاراً بغاية شناعة ما فعلوا؛ أي: كانوا من الذين آمنوا لا من غيرهم يضحكون، مع ظهور عدم استحقاقهم لذلك علىٰ منهاج قوله: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾. ا هـ «فتوحات».

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ إشعاراً بمبالغتهم في استهزائهم، وسخريتهم من المسلمين، وإنكارهم لصدهم عن الشرك، ودعائهم إلى الإسلام.

ومنها: تقديم الجار علىٰ متعلقه في قوله: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ﴾ إفادةً للحصر؛ أي: في ذلك لا في خمور الدنيا.

ومنها: تقديمه عليه في قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ لرعاية الفواصل.

ومنها: التعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ﴾ إشعاراً بتحققه.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة الكريمة من المقاصد

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ وعيد المطففين.

٢ ـ بيان أن صحائف أعمال الفجار في أسفل السافلين.

٣ ـ الإرشاد إلى أن صحائف أعمال الأبرار في أعلىٰ عليين.

٤ ـ وصف نعيم الأبرار في مآكلهم ومشاربهم ومساكنهم.

٥ ـ استهزاء المجرمين بالمؤمنين في الدنيا، وتغامزهم بهم، وحكمهم عليهم بالضلال.

٦ ـ تضاحك المؤمنين منهم يوم القيامة؛ نظر المؤمنين إلىٰ المجرمين وهم يلقون جزاءهم وما أعد لهم من النكال.

والله أعلم

* * *

---

(١) إلى هنا تم تفسير سورة المطففين بعون الملك المعين، ضحوة يوم السبت اليوم السابع من شهر رمضان المبارك من شهور سنة: ١٤١٦/٩/٧ ألف وأربع مئة وست عشر سنة من الهجرة النبوية، علىٰ صاحبها أفضل الصلاة وأزكىٰ التحية، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة الانشقاق

سورة الانشقاق مكية بلا خلاف، نزلت بعد سورة الانفطار، وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الانشقاق بمكة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

وآياتها: ثلاث أو خمس وعشرون آية. وكلماتها: مئة وتسع كلمات. وحروفها: سبع مئة وثلاثون حرفاً. وسميت سورة الانشقاق لذكر انشقاق السماء فيها، وكلها محكمة لا ناسخ فيها ولا منسوخ.

ومناسبتها لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى ختم سورة المطففين بذكر أحوال القيامة، وأهوال يوم الحشر، وافتتح هذه السورة بمثل ذلك من أحوال يوم البعث والنشور، فاتصلت السورتان اتصال النظير بالنظير، والشبيه بالشبيه.

وأوجز بعضهم القول في بيان وجه ترتيب هذه السور الثلاث، فقال: إن في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾ ذكر الحفظة الكرام الكاتبين، وفي سورة المطففين: بيان لمقر كتبهم، وفي سورة الانشقاق: البداية بذكر بعض أحوال يوم القيامة من الانقلابات الكونية الهائلة.

ومما ورد في فضلها: ما أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي رافع قال: صليتُ مع أبي هريرة العتمة، فقرأ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾ فسجد، فقلتُ له، فقال: سجدتُ خلف أبي القاسم ﷺ، فلا أزال أسجد فيها حتىٰ ألقاه.

وأخرج مسلم وأهل السنن وغيرهم عن أبي هريرة قال: سجدنا مع رسول الله ﷺ في: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾ و ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾.

وأخرج ابن خزيمة والروياني في مسنده والضياء المقدسي في «المختارة» عن بريدة: أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾ ونحوها.

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ
﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ
كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ
كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ
ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾
وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ
لَا يَسْجُدُونَ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾.

المناسبة

مناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى ذكر في أواخر السابقة أحوال الفجار والأبرار في يوم القيامة، ثم ذكر في أوائل هذه السورة أهوال ذلك اليوم، فذكر أنه حين انشقاق السماء، واختلال نظام العالم، وانبساط الأرض بنسف ما فيها من جبال، وتخليها عما في جوفها، يلاقي المرء ربه فيوفيه حسابه، وينقسم الناس حينئذٍ فريقين:

١ ـ فريق الصالحين البررة: وهؤلاء يحاسبون حساباً يسيراً، ويرجعون مسرورين إلىٰ أهلهم.

٢ ـ فريق الكفرة والعصاة: وهؤلاء يؤتون كتبهم وراء ظهورهم، ثم يصلون حر النار؛ لأنهم كانوا فرحين بما يتمتعون به من اللذات، والجري وراء الشهوات، إذ كانوا يظنون أن لا بعث ولا حساب، ولا ثواب ولا عقاب.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ...﴾ إلى آخر السورة، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أن الإنسان راجع إلىٰ ربه فملاقيه ومحاسبه، إما حساباً يسيراً إن كان قد عمل الصالحات، أو حساباً عسيراً إن كان قد اجترح السيئات.. أقسم بآيات له في الكائنات ظاهرات باهرات علىٰ أن البعث كائن لا

محالة، وأن الناس يلقون شدائد الأهوال حتىٰ يفرغوا من حسابهم، فيصير كل أحد إلىٰ ما أعد له من جنة أو نار.

التفسير وأوجه القراءة

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾ إعرابه كإعراب ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾؛ أي: إذا انشقت وانفطرت وانفتحت بغمام أبيض.. يخرج منها، وهو نظير قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾، والباء للآلة، كما في قولك: انشقت الأرض بالنبات.

وفي ذلك الغمام الملائكة ينزلون في أيديهم صحائف الأعمال، أو فيه ملائكة العذاب، وكان ذلك أشد وأفظع من حيث إنه جاء العذاب من موضع الخير، فيكون انشقاق السماء لنزول الملائكة بالأوامر الإلهية، وقيل: للسقوط والانتقاض، وقيل: لهول القيامة، وكيف لا تنشق وهي في قبضة قهره تعالىٰ أقل من خردلة، ولا مانع من جميع هذه الأقوال، فإنها تنشق لهيبة الله تعالىٰ، فتنزل الملائكة، ثم يؤول أمرها إلى الفساد والاختلال.

وعن علي رضي الله عنه: تنشق من المجرة، وهي بفتح الميم بوزن المضرة باب السماء؛ أي: البياض المستطيل في وسط السماء من جانبها، وأهل الهيئة يقولون: إنها نجوم صغار مختلطة، غير متميزة في الحسن. اهـ من «القرطبي».

سميت بذلك لأنها كأثر المجر، والمجر: المحل الذي يجر عليه الحبل من البئر عند الاستقاء. قيل: تنشق من ذلك الموضع، كأنه مفصل ملتئم، فتصدع منه ﴿وَأَذِنَتۡ﴾؛ أي: استمعت وأصغت ﴿لِرَبِّهَا﴾؛ أي: لأمر ربها إياها بالانشقاق، وأذعنت لتأثير قدرته تعالىٰ فيها؛ حيث تعلقت قدرته بانشقاقها، وانقادت له انقياد المأمور المطواع إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع، فهو استعارة تمثيلية متفرعة علىٰ المجاز المرسل، يعني: إذا أطلق الإذن، وهو: الاستماع في حق من له حاسة السمع، والاستماع بها: يراد بها الإجابة، والانقياد مجازاً، وإذا أطلق في حق نحو السماء مما ليس في شأنه الاستماع والقبول.. يكون استعارة تمثيلية، فقوله: ﴿أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ يدل علىٰ نفوذ القدرة في الإيجاد والإبداع من غير ممانعة أصلاً، وقوله: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾ يدل علىٰ نفوذ القدرة في التفريق والإعدام من غير ممانعة أصلاً والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إليها للإشعار بعلة الحكم ﴿وَحُقَّتۡ﴾؛ أي:

السماء؛ أي: جعلت حقيقة حرية بالاستماع والانقياد، إذ هي مربوبة ومصنوعة له تعالىٰ؛ أي: شأنها ذلك بالنسبة إلىٰ القدرة القاهرة الربانية التي يتأتىٰ بها كل مقدور، ولا يتخلف عنها أمر من الأمور، من قولهم: هو محقوق بكذا، وحقيق به، وقال الضحاك: وحقت؛ أي: أطاعت، وحق لها أن تطيع ربها؛ لأنه خلقها.

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣﴾؛ أي: بسطت بإزالة جبالها وآكامها عن مقرها، وتسويتها بحيث صارت كالصحيفة الملساء، أو زيدت سعة وبسطة من أحد وعشرين جزءاً إلىٰ تسعة وتسعين جزءاً، لوقوف الخلائق عليها للحساب، وإلا لم تسعهم، من مده: بمعنىٰ: أمده؛ أي: زاده، وفي الحديث: «إذا كان يوم القيامة.. مد الله الأرض مد الأديم، حتىٰ لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه»، يعني: لكثرة الخلائق فيها، وقوله: «مد الأديم»؛ لأن الأديم إذا مد زال عنه كل انثناء فيه واستوىٰ، وفي بعض الروايات: «مد الأديم العكاظي»، قال في «القاموس»: ـ هو كغراب ـ سوق بصحراء بين النخلة والطائف، كانت تقوم هلال ذي القعدة، وتستمر عشرين يوماً تجتمع قبائل العرب، فيتعاكظون؛ أي: يتفاخرون ويتناشدون، ومنه مد الأديم العكاظي. انتهى..

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾؛ أي: رمت ما في جوفها من الموتىٰ والكنوز إلى ظاهرها، نظير قوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾، وهو من الإسناد المجازي، وإلا فالإلقاء والإخراج لله تعالى.

فإن قلت: إخراج الكنوز يكون وقت خروج الدجال لا يوم القيامة؟

قلت: يوم القيامة وقت متسع يجوز اعتباره من وقت خروجه ولو مجازاً؛ لأنه من أشراطه الكبرىٰ، فيكون إخراج الكنوز عند قرب الساعة، وإخراج الموتىٰ عند البعث ﴿وَتَخَلَّتْ﴾؛ أي: وخلت عما فيها غاية الخلو حتىٰ لا يبقىٰ فيها شيء منه، كأنها تكلفت في ذلك أقصى جهدها، كما يقال: تكرم الكريم، وترحم الرحيم، إذا بلغا جهدهما في الكرم والرحمة، وتكلفا فوق ما في طبعهما. ﴿وَأَذِنَتْ﴾ وانقادت ﴿لِرَبِّهَا﴾؛ أي: لأمر ربها في الإلقاء والتخلي. ﴿وَحُقَّتْ﴾؛ أي: جعلت حقيقة حرية بذلك الانقياد؛ أي: شأنها ذلك بالنسبة إلى القدرة الربانية، وذكره مرتين، لأن الأول متصل بالسماء، والثاني بالأرض، وإذا اتصل كل واحد بغير ما اتصل به

الآخر.. لم يكن تكراراً، وجواب ﴿إذا﴾ محذوف تقديره: أي: وإذا وقعت هذه الأمور.. كان من الأهوال ما تقصر عن بيانه العبارة، وقيل: إن الجواب قوله: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾؛ أي: فأنت ملاقيه، وبه قال الأخفش، وقال المبرد: إن في الكلام تقديماً وتأخيراً؛ أي: يا أيها الإنسان إنك كادح إلىٰ ربك كدحاً فملاقيه إذا السماء انشقت. وقال المبرد أيضاً: إن الجواب قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾﴾، وبه قال الكسائي، والتقدير: إذا السماء انشقت، فمن أوتي كتابه بيمينه.. فحكمه كذا، وقيل: هو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ على إضمار الفاء، وقيل إنه: يا أيها الإنسان علىٰ إضمار القول؛ أي: يقال له يا أيها الإنسان، وقيل: الجواب محذوف تقديره: بعثتم، أو لاقىٰ كل إنسان عمله، وقيل: هو ما صرح به في سورة التكوير؛ أي: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾.

وهذا كله على تقدير: أن ﴿إذا﴾ شرطية، وقيل ليست شرطية، بل هي مجردة عن معنىٰ الشرط منصوبة بفعل محذوف؛ أي: اذكر يا محمد للناس قصة وقت انشقاق السماء، وقصة وقت مد الأرض، وقيل غير ذلك مما لا طائل تحته، والأول أولىٰ وأوضح.

وحاصل معنى الآيات[1]: إذا انشقت السماء لفساد تركيبها، واختلال نظامها حينما يريد الله سبحانه خراب هذا العالم بحدث من الأحداث، كأن يمر كوكب في سيره بالقرب من كوكب آخر، فيتجاذبان ويتصادمان، فيضطرب نظام العالم العلوي بأسره، ويحدث من ذلك غمام يظهر في مواضع متفرقة من هذا الفضاء الواسع.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾؛ أي: استمعت، وانقادت لتأثير قدرته، وفعلت فعل المطواع الذي إذا أمر أنصت وأذعن وامتثل ما أمر به، وفي الحديث: «ما أذن الله لشيء إذنه لنبي يتغنىٰ بالقرآن». ﴿وَحُقَّتْ﴾؛ أي: وحق لها أن تمتثل؛ لأنها مخلوقة من مخلوقاته، وهي في قبضته، فإن أراد تبديد نظامها.. فعل، ولم يكن لها أن تعصي إرادته.

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾﴾؛ أي: وإذا اضطربت الأرض، ودكت جبالها،

---

(١) المراغي.

وتقطعت أوصالها، وفقدت ما بينها من التماسك، فليس لها هذا الاندماج المشاهد الآن، بل تمد مد الأديم العكاظي، كما روي عن ابن عباس: والأديم: الجلد، والعكاظي: المدبوغ في عكاظ. والمراد: أنه لا انشقاق فيها، ولا اعوجاج.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾؛ أي: رمت ما في جوفها من الموتىٰ والمعادن، وأخرجت كل ذلك إلى ظاهرها، ونحو هذا قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾، وقوله: ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾. ﴿وَتَخَلَّتْ﴾؛ أي: خلت من جميع ما في جوفها، وربما قذفته الحركة العنيفة إلى ما يبعد عن سطحها، فيخلو منه باطن الأرض وظاهرها، وهي في ذلك خاضعة لأوامر ربها، منقادة لمشيئته.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥﴾؛ أي: واستمعت وأطاعت أوامره؛ لأنها في قبضة القدرة الإلهية تصرفها في الفناء، كما صرفتها في الابتداء. وجواب ﴿إِذَا﴾ الذي صدرت به السورة محذوفة، كما مر آنفاً؛ لإرادة التهويل علىٰ المخاطبين، فكأنه قيل: إذا كان الأمر كذا وكذا مما تقدم ذكره.. ترون جزاء ما عملتم من خير أو شر، فاكدحوا واجتهدوا لعمل ذلك اليوم تفوزوا بالنعيم.

وقصارى ذلك[1]: وصف أحوال العالم يوم القيامة، يوم يقوم الناس لرب العالمين، وأنه يكون علىٰ غير حاله التي هو عليها في هذه الحياة، فتبدل الأرض غير الأرض، والسموات غير السموات، ويبرز الناس للحساب علىٰ ما قدموا في حياتهم من عمل، فيجازيهم علىٰ الإحسان إحساناً وعلى الإساءة سوءاً، وعلينا أن نؤمن بذلك كله، ونكل علم حقيقته ومعرفة كنهه إلى الله تعالى الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ المراد به: جنس الإنسان، فيشمل المؤمن والكافر، وقيل: هو الإنسان الكافر، والأول أولىٰ لما سيأتي من التفصيل؛ أي: يا جنس الإنسان الشامل للمؤمن والكافر والعاصي، فالخطاب عام لكل مكلف على سبيل البدل، ويقال: هذا أبلغ من العموم؛ لأنه يقوم مقام التنصيص في النداء علىٰ مخاطبة كل

---

(١) المراغي.

واحد بعينه، كأنه قيل: يا فلان ويا فلان إلىٰ غير ذلك، ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾؛ أي[1]: جاهد ومجد؛ أي: ساع باجتهاد ومشقة وكد ﴿إِلَىٰ﴾ لقاء ﴿رَبِّكَ﴾؛ أي: إلى وقت لقائه، وهو الموت وما بعده من الأحوال الممثلة باللقاء مبالغ في ذلك، وفي الخبر: أنهم قالوا يا رسول الله، فيما نكدح، وقد جفت الأقلام، ومضت المقادير، فقال: «اعملوا، فكل ميسر لما خلق له»، وقوله: ﴿كَدْحًا﴾؛ أي: اجتهاداً بليغاً، مصدر مؤكد للوصف؛ أي: إنك مجتهد وساع في أشغالك من غير فرق بين أن يكون ذلك الشغل خيراً أو شراً؛ أي: مجتهد اجتهاداً بليغاً، وساع سعياً شديداً من غير فترة إلى لقاء ربك؛ أي: إلى انقضاء أجلك لا فراغ لك؛ أي: إنك مشغول بعملك مدة حياتك ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ معطوف علىٰ ﴿كَادِحٌ﴾: أي: فملاقٍ له؛ أي: لجزاء عملك من خير أو شر عقيب لقاء ربك لا محالة، من غير صارف يلويك عنه، ولا مفر لك منه، ويقال: المعنى: إنك عامل لربك عملاً فملاقٍ عملك يوم القيامة، يعني: أن جدك وسعيك إلى مباشرة الأعمال في الدنيا هو في الحقيقة سعي إلى لقاء جزائها في العقبىٰ، فملاق ذلك الجزاء لا محالة، فعليك أن تباشر في الدنيا بما ينجيك في العقبى، واحذر عما يهلكك فيها، ويوقعك في الخجالة والافتضاح من سوء المعاملة، وفي الحديث: «النادم ينتظر الرحمة، والمعجب ينتظر المقت، وكل عامل سيقدم إلى ما أسلف».

قال القتيبي: معنى الآية: إنك كادح؛ أي: إنك عامل ناصب في طلب معيشتك وكسبك عملاً شديداً لا فترة فيه إلى لقاء ربك بالموت فملاقيه؛ أي: فأنت ملاقٍ ربك بعملك، فمجازيك عليه خيراً أو شراً، وقيل: فملاق كتاب عملك؛ لأن العمل قد انقضىٰ؛ أي[2]: إنك يا ابن آدم متعب نفسك في العمل في دنياك تعباً حتى ترجع به إلىٰ ربك في الآخرة، فملاق ذلك العمل خيراً كان أو شراً في الكتاب الذي فيه بيانه.

وحاصل المعنى[3]: أي أيها الإنسان إنك عامل في هذه الحياة، ومجد في

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

(٣) المراغي.

عملك، ومبالغ في إدراك الغاية إلىٰ أن تنتهي حياتك، وإن كنت لا تشعر بجدك، أو تشعر به، وتلهو وكل خطوة في عملك فهي في الحقيقة خطوة إلىٰ أجلك، وهناك لقاء الله تعالى، فالموت يكشف عن الروح غطاء الغفلة، ويجلو لها وجه الحق، فتعرف من الله ما كانت تنكره، ويوم البعث يرتفع الالتباس، ويعرف كل عامل ما جر إليه عمله، والناس حينئذٍ صنفان:

١ ـ ﴿فَأَمَّا مَنْ﴾ وهو المؤمن السعيد، و﴿مَنْ﴾ موصولة، وهو تفصيل لما أجمل فيما قبله ﴿أُوتِيَ﴾ وأعطي؛ أي: يؤتىٰ، وعبر بالماضي لتحققه. ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾ المكتوب فيه أعماله التي كدح في كسبها ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾؛ لكون كدحه بالسعي فيما يكتبه كاتب اليمين.

والحكمة في الكتابة مع أن الله سبحانه لا يخفىٰ عليه شيء[1]: أن المكلف إذا علم أن أعماله تكتب وتعرض علىٰ رؤوس الأشهاد.. كان أزجر عن المعاصي، وأن العبد إذا وثق بلطف سيده، واعتمد علىٰ عفوه وستره.. لم يحتشم احتشامه من خدمة المطلعين عليه. ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ﴾ يوم القيامة بعد مدة مقدرة علىٰ ما تقتضيه الحكمة ﴿حِسَابًا يَسِيرًا﴾؛ أي: سهلاً لا مناقشة فيه، ولا اعتراض بما يسوءه ويشق عليه، كما يناقش أصحاب الشمال. والحساب: بمعنى المحاسبة، والمراد به: عد أعمال العباد، وإظهارها للمجازاة، وعن الصديقة رضي الله عنها: هو ـ أي الحساب اليسير ـ أن يعرف ذنوبه ثم يتجاوز عنه. يعني: أن يعرض عليه أعماله، ويعرف أن الطاعة منها هذه، والمعصية هذه، ثم يثاب علىٰ الطاعة، ويتجاوز عن المعصية، فهذا هو الحساب اليسير؛ لأنه لا شدة علىٰ صاحبه ولا مناقشة، ولا يقال له: لم فعلت هذا؟، ولا يطالب بالعذر ولا بالحجة عليه، فإنه متىٰ طولب بذلك.. لم يجد عذراً ولا حجةً، فيفتضح. قالوا إنَّ عصاة المؤمنين داخلة في هذا القسم، فقوله: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ من وصف الكل بوصف البعض؛ أي: فالعصاة[2]، وإن لم يكن لهم حساب يسير بالنسبة إلىٰ المطيعين، لكن حسابهم كالعرض بالنسبة إلىٰ مناقشة أصحاب الشمال، فأصحاب اليمين شاملة لهم، وقد

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

يقال: كتاب عصاة المؤمنين يعطىٰ عند خروجهم من النار، وقيل: يجوز أن يعطوا من الشمال لا من وراء ظهورهم، وفيه أن الإعطاء من الشمال ومن وراء الظهر أمر واحد. وقيل: لم تتعرض الآية للعصاة الذين يدخلهم الله النار، وهو الظاهر، وقوله ﷺ في بعض صلاته: «اللهم حاسبني حساباً يسيراً»، وإن دل علىٰ أن للأنبياء كتاباً، لكن الظاهر إرشاد الأمة وتعليمهم، وإلا فهم معصومون داخلون الجنة بلا حساب ولا كتاب.

﴿وَيَنقَلِبُ﴾؛ أي: يرجع المحاسب حساباً يسيراً بعد حسابه؛ أي: ينصرف ويرجع من مقام الحساب اليسير ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ الذين هم في الجنة من عشيرته المؤمنين، أو إلىٰ أهله الذين كانوا له في الدنيا من الزوجات والأولاد، أو إلىٰ من أعده الله له في الجنة من الحور العين والولدان المخلدين، أو إلىٰ جميع هؤلاء، أو إلىٰ أهله الذين هم رفقاؤه في طريق السعادة والكرامة حال كونه ﴿مَسۡرُورٗا﴾؛ أي: مبتهجاً بحاله، وكونه من أهل النجاة مستبشراً بما أوتي من الخير والكرامة، قائلاً: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾. قال صاحب «الروح»: فهذا الانقلاب يكون في المحشر قبل دخول الجنة، لا كما قال في «عين المعاني» من أنه يدل علىٰ أن أهله يدخلون الجنة قبله. انتهىٰ. ودعوة الناس إلىٰ قراءة الكتاب علامة الفرح والنشاط وقوة العزيمة.

وحاصل المعنى(١): أي فأما من عرض عليه سجل أعماله، وتناوله بيمينه، فإنه يحاسب يسير الحساب؛ إذ تعرض عليه أعماله، فيعرف بطاعته وبمعاصيه، ثم يثاب علىٰ ما كان منها طاعة، ويتجاوز له عما كان منها معصية، وقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم حاسبني حساباً يسيراً» قلت: وما الحساب اليسير؟ قال: «ينظر في كتابه، ويتجاوز عن سيئاته، فأما من نوقش.. فقد هلك».

ومن حوسب هذا الحساب اليسير.. يرجع إلىٰ أهله المؤمنين مسروراً مبتهجاً قائلاً: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾.

---

(١) المراغي.

٢ - ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ﴾ وأعطي ﴿كِتَابَهُ﴾؛ أي: صحيفة عمله، وتكرير[1] ﴿كِتَابَهُ﴾ بدون الاكتفاء بالإضمار لتغاير الكتابين، وتخالفهما بالاشتمال والحكم في المآل؛ أي: يؤتىٰ كتاب عمله ﴿وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾؛ أي: خلف ظهره؛ أي: أوتي بشماله وراء ظهره وجانبه، و ﴿وَرَاءَ﴾ ظرف لـ﴿أُوتِيَ﴾ مستعمل في المكان. وقال الكلبي: تغل يمينه، ثم تلوىٰ يده اليسرىٰ من ورائه، فيعطىٰ كتابه بشماله، وهي خلف ظهره، فلا مخالفة حينئذٍ بين ما هنا، وبين ما في الحاقة حيث لم يذكر فيها الظهر، بل اكتفىٰ بالشمال. قال الإمام: ويحتمل أن يكون بعضهم يعطىٰ كتابه بشماله، وبعضهم من وراء ظهره. وقال قتادة ومقاتل: تفك ألوح صدره وعظامه، ثم تدخل يده اليسرىٰ، وتخرج من ظهره، فيأخذ كتابه كذلك. ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا﴾؛ أي: إذا قرأ كتابه ﴿ثُبُورًا﴾؛ أي: هلاكاً، فيقول: يا ثبوراه، يا ويلاه؛ أي: يتمنىٰ[2] لنفسه الثبور، وهو الهلاك، ويدعوه: يا ثبوراه تعال فهذا أوانك، وأنىٰ له ذلك، يعني: لما كان إيتاء الكتاب من غير يمينه علامة كونه من أهل النار.. كان كلامه: واثبوراه، ولا شك أن هذا قول المخذول الكاره لما عرض عليه. قيل: الثبور: مشتق من المثابرة علىٰ الشيء، وهو المواظبة عليه، وسمي هلاك الآخرة ثبوراً؛ لأنه لازم لا يزول، كما قال تعالى: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾؛ أي: يدخلها ويقاسي حرها وعذابها من غير حائل، وهذا يدل علىٰ أن دعاءهم بالثبور قبل الصلي، وبه صرح الإمام، وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ فيدل علىٰ أنه بعده، ولا منافاة في الجمع، فإنهم يدعونه أولاً وآخراً بل دائماً علىٰ أن الواو لمطلق الجمع لا للترتيب.

وقرأ قتادة وأبو جعفر وعيسى وطلحة والأعمش وعاصم وأبو عمرو وحمزة[3]: ﴿وَيَصْلَىٰ﴾ بفتح الياء مبنياً للفاعل، وباقي السبعة وعمر بن عبد العزيز وأبو الشعثاء والحسن والأعرج: بضم الياء، وفتح الصاد، واللام المشددة، وأبو الأشهب وخارجة عن نافع وأبان وعاصم وعيسى أيضاً والعتكي وجماعة عن أبي عمرو: بضم الياء ساكن الصاد مخفف اللام مبنياً للمفعول من المتعدي بالهمزة،

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

كما بني ويصلىٰ المشدد للمفعول من المتعدي بالتضعيف.

والمعنى[١]: أي وأما الذين أكثروا من ارتكاب الجرائم، واجتراح المعاصي، فيؤتون كتبهم بشمالهم من وراء ظهورهم، ومد اليسار إلى الكتاب دليل الكراهة، وأظهر في الدلالة على الكراهة، والنفور: أن يستدبره ويعرض عنه، فيكون من وراء ظهره.

وقصارى ما سلف: أن من عرض عليه كتابه، وقدم إليه ليأخذه، فاندفع إليه بعزيمة صادقة لشعوره بأنه مستودع الصالحات، وسجل البر والكرامات، فشأنه: كذا وكذا، ومن قدم إليه كتابه، وعرض عليه عمله، فخزيت نفسه وخارت عزيمته، فمد إليه يساره، أو أعرض عنه، فولاه ظهره لشعوره بأنه ديوان السيئات، وسجين المخازي، فأمره: كيت وكيت، يرشد إلى ذلك ما ورد من التفصيل في سورة الحاقة: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ إلخ.

والخلاصة: أن إيتاء الكتاب باليمين أو باليسار، أو من وراء الظهر تصوير لحال المطلع علىٰ أعماله في ذلك اليوم، فمن الناس من إذا كشف له عمله.. ابتهج واستبشر، وتناول كتابه بيمينه، ومنهم من إذا تكشفت له سوابق أعماله.. عبس وبسر، وأعرض عنها وأدبر، وتمنى لو لم تكشف له، وتناولها باليسار، أو من وراء الظهر، وحينئذٍ يدعو: واثبوراه؛ أي: يا هلاك أقبل، فإني لا أريد أن أبقىٰ حياً، علماً منه بأن ذلك داعٍ إلىٰ طول العذاب، وأنه سيدخل النار ويقاسي سعيرها.

ثم ذكر سبحانه سببين في استحقاقه للعذاب في الآخرة، فقال:

١ - ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: لأن ذلك المعطى كتابه وراء ظهره، فالجملة[٢] مستأنفة مسوقة لبيان علة ما قبلها ﴿كَانَ﴾ في حياته الدنيا ﴿فِىٓ أَهْلِهِۦ﴾؛ أي: فيما بين أهله وعشيرته أو معهم، علىٰ أنهم جميعاً كانوا مسرورين، كما يقال: جاءني فلان في جماعة، أي: معهم ﴿مَسْرُورًا﴾؛ أي: فرحاً بطراً، لا يفكر في أمور الآخرة، ويقدم علىٰ المعاصي ظناً منه أن لذاتها لا توجب الحسرة، ولا تورث التردي في نار

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

الجحيم، كديدن الفجار الذين لا يخطر ببالهم أمور الآخرة، ولا يتفكرون في العواقب، كسنّة الصلحاء والمتقين، كما قال تعالىٰ حكاية عنهم؛ ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾، ومن ثمَّ أبدله الله بهذا النعيم الزائل عذاباً لا ينقطع، وآلاماً لا تنفذ.

والحاصل: أنه كان الكافر في الدنيا فارغاً عن همِّ الآخرة، وكان له مزمار في قلبه، فجوزي بالغم الباقي، بخلاف المؤمن، فإنه كان له نائحة في قلبه، فجوزي بالسرور الدائم.

٢ ـ ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ﴾؛ أي: تيقن، كما في تفسير الفاتحة للفناري، وقال في «فتح الرحمن» الظن هنا علىٰ بابه بمعنىٰ الحسبان، لا الظن الذي بمعنىٰ اليقين، وهو تعليل لسروره في الدنيا؛ أي: إن هذا الكافر ظن في الدنيا. ﴿أَن﴾ مخففة من الثقيلة سادة مع ما في حيزها مسد مفعولي ﴿ظَنَّ﴾ أو أحدهما علىٰ الخلاف المشهور؛ أي: ظن أن الشأن والحال ﴿لَّن يَحُورَ﴾ هو؛ أي: لن يرجع إلىٰ ربه بالبعث.

والمعنى[1]: أنه ظن أن لن يرجع إلىٰ ربه، وأنه لن يبعث الخلق لحسابهم علىٰ ما قدموا، ولو علم أن الله يبدل سروره حزناً وغماً.. لأقلع عما هو فيه، ولترك هذا السرور العاجل السريع الفناء، وطلب من السرور ما يبقىٰ ما بقيت الجنة التي لا يفنىٰ نعيمها، ولا يزول سرور أهلها.

وفي الآية[2] إيماء إلىٰ أن المسخرين لشهواتهم، الساعين وراء لذاتهم، ليسوا بظانين فضلاً عن أن يكونوا مستيقنين بأنهم يرجعون إلىٰ ربهم ليحاسبهم، بل الراجح عندهم: أنهم لا يحاسبون، وأن الله سبحانه مخلف وعده، وهذا هو الذي ينسيهم ذكره عند كل جرم يجرمونه، فهم وإن كانوا يزعمون الإيمان بالله، وبوعده ووعيده، فهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، ثم رد عليه ظنه الخاطىء، فقال: ﴿بَلَىٰٓ﴾ إيجاب لما بعد ﴿لَن﴾؛ أي: بلىٰ ليحورن ألبتة، وليس الأمر كما يظن ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ﴾ الذي خلقه ﴿كان به﴾، وبأعماله الموجبة للجزاء، والجار متعلق بقوله: ﴿بَصِيرًا﴾ بحيث لا يخفىٰ منها خافية، فلا بد من رجعه وحسابه وجزائه عليها حتماً؛ إذ لا

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

يجوز في حكمته أن يهمله، فلا يعاقبه علىٰ سوء أعماله، وهذا زجر لجميع المكلفين عن المعاصي كلها. قال الواسطي رحمه الله تعالى: كان بصيراً به، إذ خلقه لماذا خلقه، ولأي شيء أوجده، وما قدر عليه من السعادة أو الشقاوة، وما كتب له أو عليه من أجله ورزقه. انتهىٰ.

وحاصل المعنى[1]: أي بلىٰ ليحورن، وليبعثن، وليرجعن إلىٰ ربه، وليحاسبنه علىٰ عمله حتىٰ علىٰ النقير والقطمير، فيجزىٰ علىٰ الخير خيراً، وعلى الشر شراً، فإن الذي يخلق الإنسان مستعداً لما لا يتناهىٰ من الكمال، وبما وهبه من العقل، لا ينشئه هذه النشأة الرفيعة، لتكون غايته غاية سائر الحيوان، بل تقتضي حكمته أن يجعل له حياة بعد هذه الحياة، ويثمر فيها أعماله، ويوافي فيها كماله.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ كلمة ﴿لا﴾ زائدة للتوكيد، كما مر مراراً، و ﴿الفاء﴾: استئنافية؛ أي: فأقسم لكم أيها العباد ﴿بِٱلشَّفَقِ﴾، وهي[2] الحمرة التي تشاهد في أفق المغرب بعد الغروب، وبغيبوبتها يخرج وقت المغرب، ويدخل وقت العشاء عند عامة العلماء، أو البياض الذي يعقبها، ولا يدخل وقت العشاء إلا بزواله، سمي به علىٰ كل من المعنيين لرقته، لكن مناسبته لمعنىٰ البياض أكثر، وهو من الشفقة التي هي عبارة عن رقة القلب، ولا شك أن الشمس ـ أعني: ضوءها ـ يأخذ في الرقة والضعف من غيبة الشمس إلىٰ أن يستولي سواد الليل علىٰ الآفاق كلها. وعن عكرمة ومجاهد: الشفق: هو النهار، بناءً علىٰ أن الشفق هو أثر الشمس، وهو كوكب نهاري، وأثره هو النهار، فعلىٰ هذا يقع القسم بالليل والنهار اللذين أحدهما معاش، والآخر سكن، وبهما قوام أمور العالم، وفي «المفردات»: الشفق: اختلاط ضوء النهار بسواد الليل عند غروب الشمس.

﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧﴾ قال الراغب: الوسق: جمع المتفرق؛ أي: وأقسم لكم بالليل وبما جمعه وما ضمه وستره بظلمته، فـ ﴿ما﴾ موصولة، يقال: وسقه فاتسق واستوسق، يعني: أن كلاً منهما مطاوع لوسق؛ أي: جمعه فاجتمع.

و﴿ما﴾ عبارة عما يجتمع بالليل، ويأوي إلى مكانه من الدواب والحشرات والهوام والسباع، وذلك أنه إذا أقبل الليل.. أقبل كل شيء إلىٰ مأواه مما كان

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

منتشراً بالنهار، وقيل: يجوز أن يكون المراد بما جمعه الليل: العباد المجتهدين بالليل؛ لأنه تعالىٰ قد مدح المستغفرين بالأسحار، والأول أولىٰ.

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: اجتمع وتكامل وتم بدراً ليلة أربع عشرة. قال في «فتح الرحمن»: امتلأ في الليالي البيض. وقال الفراء؛ امتلاؤه، واجتماعه، واستواؤه ليلة ثالث عشر ورابع عشر إلىٰ ست عشرة. أقسم[1] سبحانه بهذه الأشياء؛ لأن في كل منها تحولاً من حال إلى آخر، فناسبت المقسم عليها، يعني: أن الله تعالى أقسم بتغيرات واقعة في الأفلاك والعناصر علىٰ تغير أحوال الخلق، فإن الشفق حالة مخالفة لما قبلها، وهو ضوء النهار، ولما بعدها، وهو ظلمة الليل، وكذا قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾﴾ فإنه يدل علىٰ حدوث ظلمة بعد نور، وعلىٰ تغير أحوال الحيوانات من اليقظة إلىٰ النوم، وكذا قوله: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾﴾ فإنه يدل علىٰ حصول كمال القمر بعد أن كان ناقصاً، وقوله: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا﴾ مفعول ﴿تركبن﴾ ﴿عَن طَبَقٖ﴾؛ أي: بعد طبق، جواب القسم؛ أي: لتلاقن أيها العباد حالاً بعد حال، كل واحدة منها مطابقة لأختها في الشدة والفظاعة، يقال: ما هذا يطبق هذا؛ أي: لا يطابقه. قال الراغب: المطابقة من الأسماء المتضايقة، وهو أن يجعل الشيء فوق آخر بقدره، ومنه: طابقت النعل بالنعل، ثم يستعمل الطباق في الشيء الذي يكون فوق الآخر تارة، وفيما يوافق غيره أخرى. وقيل: الطبق: جمع طبقة، وهي المرتبة، وهو الأوفق للركوب المنبىء عن الاعتلاء.

والمعنىٰ: لتركبن أحوالاً بعد أحوال هي طبقات في الشدة، بعضها أرفع من بعض، وهي الموت وما بعده من مواطن القيامة ودواهيها إلى حين المستقر في إحدى الدارين.

وقرأ عمر وعبد الله وابن عباس ومجاهد والأسود وابن جبير ومسروق والشعبي وأبو العالية وابن وثاب وطلحة وعيسى والأخوان ـ حمزة والكسائي ـ وابن كثير: ﴿لتركبَن﴾ بتاء الخطاب وفتح الباء، فقيل: هو خطاب للرسول الله ﷺ؛ أي: لتركبن يا محمد حالاً بعد حال في معالجة الكفار، فقال ابن عباس: لتركبن يا محمد سماعاً بعد سماع، وقيل: عدة له بالنصر؛ أي: لتركبن أمر العرب قبيلاً بعد

---

(١) روح البيان.

قبيل، وفتحاً بعد فتح كما كان ووجد بعد ذلك، وقال الزمخشري: وقرىء ﴿لتركبن﴾ علىٰ خطاب الإنسان في: ﴿أيها الإنسان﴾؛ أي: لتركبن أيها الإنسان حالاً بعد حال من كونك نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم حياً وميتاً وغنياً وفقيراً، وقال ابن مسعود: المعنىٰ: لتركبن السماء في أهوال القيامة حالاً بعد حال تكون كالمهل، وكالدهان، وتنفطر، وتنشق، فالتاء للتأنيث، وهو إخبار عن السماء بما يحدث لها، والضمير والفاعل عائد علىٰ السماء، وقرأ عمر وابن عباس أيضاً: بالياء من أسفل، وفتح الباء علىٰ ذكر الغائب، قال ابن عباس: ليركبن نبيكم ﷺ حالاً بعد حال، وقيل: الضمير الغائب يعود علىٰ القمر؛ لأنه يتغير أحوالاً من إسرار واستهلال وإبدار، وقال الزمخشري: ليركبن الإنسان، وقرأ عمر وابن عباس أيضاً وأبو جعفر والحسن وابن جبير وقتادة والأعمش وباقي السبعة بتاء الخطاب وضم الباء؛ أي: لتركبن أيها الإنسان، وقال الزمخشري: و ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ بالضم علىٰ خطاب الجنس؛ لأن النداء للجنس.

والمعنى: لتركبن أيها الناس الشدائد: الموت والبعث والحساب حالاً بعد حال، أو يكون الأحوال من النطفة إلىٰ الهرم، كما تقول: طبقة بعد طبق، وقال نحوه عكرمة، واختار أبو عبيدة وأبو حاتم هذه القراءة، قال: لأن المعنىٰ بالناس أشبه منه بالنبي ﷺ، وقال مكحول وأبو عبيدة: لتركبن سنن من قبلكم، وقال ابن زيد: المعنىٰ: لتركبن الآخرة الأولىٰ، وقرأ عمر أيضاً: ﴿ليركبن﴾ بياء الغيبة وضم الباء، قيل: أراد به الكفار، أي: يركبون حالاً بعد أخرىٰ من المذلة والهوان في الدنيا والآخرة، وقرأ ابن مسعود وابن عباس: ﴿لتركبن﴾ بكسر التاء، وهي لغة تميم، قيل: والخطاب للرسول الله ﷺ، وقرىء بالتاء وكسر الباء الموحدة علىٰ خطاب النفس. ومحل ﴿عَن طَبَقٍ﴾ النصب على أنه صفة لـ﴿طَبَقًا﴾؛ أي: طبقاً مجاوزاً لطبق، أو علىٰ الحال من ضمير ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾؛ أي: مجاوزين، أو مجاوزاً. وطبق الشيء: مطابقه؛ لأن كل حال مطابقة للأخرىٰ في الشدة، وعن مكحول: كل عشرين عاماً تجدون أمراً لم تكونوا عليه.

والمعنى(١): أي أقسم بهذه الأشياء التي إذا تدبر الإنسان أمرها.. استدل

---

(١) المراغي.

بجلالتها وعظمة شأنها علىٰ قدرة مبتدعها ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا﴾؛ أي: لتلاقن أيها الناس أموراً بعد أمور، وأحوالاً بعد أحوال إلى أن تصيروا إلى ربكم، وهناك الخلود في جنة أو نار. ويدخل في هذه الأحوال جميع الأطوار التي مرت به بعد أن كان نطفة في بطن أمه إلى أن صار شخصاً، وما مر به في حياته الأولىٰ من طفولة وشيخوخة، ثم موته، ثم حشره للحساب، ثم مصيره إلىٰ الجنة أو النار.

والخلاصة: لتركبن حالاً بعد حال، والحال الثانية تطابق الأولىٰ؛ أي: لتكونن في حياة أخرى تماثل هذه الحياة التي أنتم فيها، وتطابقها من حيث الحس والإدراك، والألم واللذة، وإن خالفت في بعض شؤونها الحياة الأولىٰ.

وبعد أن ذكر الأدلة القاطعة علىٰ صحة البعث والحساب.. أنكر عليهم استبعادهم له، فقال: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾، والاستفهام للإنكار، والفاء لترتيب ما بعدها من الإنكار والتعجيب علىٰ ما قبلها من أحوال يوم القيامة، أو من غيرها علىٰ الاختلاف السابق، و ﴿ما﴾: مبتدأ، و ﴿لَهُمْ﴾: خبره، وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حال من الضمير في ﴿لَهُمْ﴾.

والمعنى[1]: إذا كان حالهم يوم القيامة كما ذكر، وأردت التعجب من حالهم.. فأقول لك؛ أي شيء لكفار مكة، وأيُّ مانع لهم حال كونهم غير مؤمنين بمحمد ﷺ، وبما جاء به من القرآن، مع وجود موجبات الإيمان بذلك؛ أي: أي شيء يمنعهم من الإيمان مع تعاضد موجباته، وقوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ﴾ جملة شرطية، وقوله: ﴿لَا يَسْجُدُونَ﴾ جوابها، والجملة الشرطية مع جوابها في محل النصب علىٰ الحال من ضمير ﴿لَهُمْ﴾ عطفاً علىٰ جملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: أيُّ مانع لهم حال عدم سجودهم وخضوعهم واستكانتهم عند قراءة النبي ﷺ، أو واحد من أصحابه وأمته القرآن، فإنهم من أهل اللسان، فيجب عليهم أن يجزموا بإعجاز القرآن عند سماعه، وبكونه كلاماً إلهياً، ويعلموا بذلك صدق محمد ﷺ في دعوىٰ النبوة، فيطيعوه في جوامع الأوامر والنواهي، ويجوز أن يراد به نفس السجود عند تلاوة آية السجدة علىٰ أن يكون المراد بالقرآن آية السجدة بخصوصها لا مطلق القرآن، كما روي أنه ﷺ قرأ ذات يوم: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾، فسجد هو ومن معه من

---

(١) روح البيان.

المؤمنين، وقريش تصفق فوق رؤوسهم، وتصفر استهزاء، وبه احتج أبو حنيفة علىٰ وجوب السجدة، فإن الذم علىٰ ترك الشيء يدل علىٰ وجوب ذلك الشيء.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ سجد فيها، وكذا الخلفاء، وهي الثالثة عشرة من أربع عشرة سجدة تجب عندها السجدة عند الحنفية علىٰ التالي والسامع، سواء قصده أم لا، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في المفصل سجدة، وكذا قال الحسن، وهي غير واجبة عند الأئمة الثلاثة، ثم إن الأئمة الثلاثة يسجدون عند قوله: ﴿لَا يَسْجُدُونَ﴾، والإمام مالك: عند آخر السورة.

وحاصل معنى قوله: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾؛ أي: فأي[1] شيء حدث لهم حتىٰ جحدوا قدرة الله، وأنكروا صحة البعث، وكل شيء أمامهم ينادي بباهر قدرته، ويرشد إلىٰ عظيم سلطانه.

وقصارى ذلك: أنه لا شبهة لهم يصح أن يستمسكوا بها علىٰ إنكار البعث والحساب.

ومعنى قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾﴾؛ أي: وما حدث لهم حتىٰ صاروا إذا قرىء عليهم القرآن لا يعترفون بإعجازه، وبلوغه الغاية التي لا يمكن البشر أن يصلوا إليها، فأمرهم عجب، فهم أهل اللسان وأرباب البلاغة والبراعة، وذا يقتضي أن يعلموا إعجازه، ومتىٰ علموه.. استكانوا وخضعوا له، وأدركوا صحة نبوة الرسول الذي جاء به، ووجبت عليهم طاعته.

ثم بين السبب في عدم إيمانهم به، وانقيادهم له، فقال: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾﴾ بالقرآن الناطق بما ذكر من أحوال القيامة وأهوالها، مع تحقق موجبات تصديقه، ولذلك لا يخضعون عند تلاوته، وهذا من[2] وضع الظاهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالكفر، والإشعار بما هو العلة في عدم خضوعهم للقرآن، وفي بعض التفاسير: إن المراد: التكذيب بالقلب بمعنىٰ عدم التصديق، فيكون الإضراب هنا إضراب ترق، فإنَّ عدم الإيمان يكون بالشك أيضاً، والتكذيب من شدة الكفر، وقوة الإنكار الحاملة علىٰ الإضراب، وقال هنا: ﴿يُكَذِّبُونَ﴾، وفي سورة

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

البروج: ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ لمراعاة فواصل الآي في السورتين، مع صحة اللفظ وجودة المعنىٰ.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ مشدداً، والضحاك وابن أبي عبلة مخففاً، وبفتح الياء.

ومعنىٰ: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: إن[2] الدلائل الموجبة للإيمان جلية واضحة، لكنهم قوم معاندون مصرون علىٰ التكذيب؛ إما لأنهم يحسدون الرسول ﷺ. على ما أتاه الله من فضله، وإما لخوفهم من فوت المناصب الدينية والرياسات التقليدية، وإما لأنهم يأبون أن يخالفوا ما وجدوا عليه آباءهم من عقائد زائفة وأفعال مستهجنة.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾؛ أي: بما يضمرونه في قلوبهم، ويجمعونه في صدورهم من الكفر والحسد والبغي والبغضاء، فيجازيهم علىٰ ذلك في الدنيا والآخرة، فـ ﴿ما﴾ موصولة، يقال: أوعيت الشيء: إذا جعلته في وعاء؛ أي: ظرف، ثم استعير هو والوعي لمعنى الحفظ، أو بما يجمعونه في صحفهم من أعمال السوء، ويدخرونه لأنفسهم من أنواع العذاب علماً فعلياً تفصيلياً.

وقرأ أبو رجاء: ﴿بما يعون﴾ من وعىٰ يعي.

والمعنى[3]: أي واللّهُ سبحانه مطلع علىٰ ما في قلوبهم من أسباب الإصرار علىٰ الشرك، ودواعي العناد، والاستمرار علىٰ ما هم عليه.

﴿فَبَشِّرْهُم﴾؛ أي: فبشر يا محمد الذين كفروا ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: مؤلم غاية الإيلام جزاء استمرارهم علىٰ التكذيب والجحود، وإصرارهم علىٰ سيء العمل، وفاسد الاعتقاد، لأن علمه تعالىٰ بذلك علىٰ الوجه المذكور، موجب لتعذيبهم حتماً، وهو استهزاء بهم وتهكم، كما قال تعالى: ﴿الله يستهزىء بهم﴾؛ لأن البشارة هي الإخبار بالخبر السار، وقد استعملت هنا في الخبر المؤلم.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إيماناً صادقاً استثناء منقطع من الضمير المنصوب في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ الراجع إلىٰ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، والمستثنىٰ ـ وهم المؤمنون ـ

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي. (٣) المراغي.

خارج عنهم؛ أي: لكن الذين آمنوا بالله ورسوله إيماناً صحيحاً ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من الطاعات المأمور بها ﴿لَهُمۡ﴾ في الآخرة عند ربهم ﴿أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾؛ أي: غير مقطوع، بل متصل دائم، من: منَّه مناً، بمعنىٰ: قطعه قطعاً، أو غير ممنون به عليهم، فإن المنة تكدر النعمة، من: منَّ عليه منَّة، والأول هو الظاهر[1]، ولعل المراد من الثاني تحقيق الأجر، وأن المأجور استحق الأجر بعمله إطاعة لربه، وإن كان ذلك الاستحقاق من فضل الله، كما أن إعطاء القدرة علىٰ العمل والهداية إليه من فضله أيضاً، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً إن أريد من آمن منهم.

والمعنىٰ: أي لكن الذين آمنوا بالله ورسوله، وخضعوا للقرآن الكريم، وعملوا بما جاء فيه، فأولئك لهم أجر لا ينقطع مدده، ولا ينقص منه، وفي هذا ترغيب في الطاعة، وزجر عن المعصية.

الإعراب

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ﴿٣﴾ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٥﴾﴾.

﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان مضمن معنى الشرط، أو مجرد منه ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾: فاعل بفعل محذوف يفسره المذكور، تقديره: إذا انشقت السماء انشقت، والجملة المحذوفة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها علىٰ كونها فعل شرط لها، وجملة ﴿ٱنشَقَّتۡ﴾ مفسرة لا محل لها من الإعراب، وجواب ﴿إِذَا﴾ محذوف جوازاً، تقديره: إذا انشقت السماء لاقىٰ كل إنسان عمله، وجملة ﴿إِذَا﴾ مستأنفة، وقيل: لا جواب لها؛ لأنها مجردة عن معنىٰ الشرط، فهي منصوبة باذكر مقدراً نصب المفعول به ﴿وَأَذِنَتۡ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿أذنَت﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود علىٰ ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾، معطوفة علىٰ ﴿ٱنشَقَّتۡ﴾، ﴿لِرَبِّهَا﴾: متعلق بـ ﴿أذنَت﴾، ﴿وَحُقَّتۡ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿ٱنشَقَّتۡ﴾، وفي «الروح»: وحق هذه الجملة أن تكون معترضة مقررة لما قبلها، لا معطوفة عليه، وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ﴿٣﴾﴾ معطوف علىٰ قوله: ﴿إِذَا

---

(١) روح البيان.

﴿ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾، مماثل له في إعرابه، تقديره: وإذا مدت الأرض مدت، ﴿وَأَلۡقَتۡ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود علىٰ ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾، معطوف علىٰ مدت الأرض ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ﴿ألقت﴾ ﴿فِيهَا﴾: متعلق بمحذوف صلة لـ ﴿مَا﴾ الموصولة؛ أي: وألقت ما استقر فيها من الكنوز والموتىٰ ﴿وَتَخَلَّتۡ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾، معطوف علىٰ ﴿ألقت﴾، أي: صارت خالية عما فيها ﴿وَأَذِنَتۡ﴾: معطوف علىٰ ما قبلها ﴿لِرَبِّهَا﴾: متعلق بـ ﴿أذنت﴾، ﴿وَحُقَّتۡ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾، والجملة معطوفة علىٰ ما قبلها.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧
فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ۝١٠
فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادىٰ نكرة مقصودة مبني علىٰ الضم، و ﴿الهاء﴾: حرف تنبيه زائد تعويضاً عما فات ﴿أيُّ﴾ من الإضافة. ﴿ٱلۡإِنسَـٰنُ﴾: بدل من ﴿أي﴾، وجملة النداء مستأنفة، ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾: ناصب واسمه وخبره ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: متعلق بـ ﴿كَادِحٌ﴾. ﴿كَدۡحًا﴾: مفعول مطلق منصوب بـ ﴿كَادِحٌ﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾ جواب النداء لا محل لها من الإعراب، ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ملاقيه﴾: معطوف علىٰ ﴿كَادِحٌ﴾، ويجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف؛ أي: فأنت ملاقيه، فعلىٰ الأول يكون من عطف المفرد علىٰ المفرد، وعلى الثاني يكون من عطف الجمل، ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة، لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن كل إنسان كادح إلى ربه فملاق عمله، وأردت بيان تفصيل أحوالهم في ذلك اليوم.. فأقول لك: ﴿أما من أوتي﴾: ﴿أما﴾: حرف شرط وتفصيل ﴿مَنۡ﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ ﴿أُوتِيَ﴾ فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود علىٰ ﴿مَنۡ﴾ الموصولة، ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾: مفعول ثانٍ لـ ﴿أوتى﴾: لأنه بمعنىٰ: أعطي، ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿أُوتِيَ﴾، ﴿فَسَوۡفَ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أما﴾ واقعة في غير موضعها؛ لأن موضعها موضع ﴿أما﴾ ﴿سوف﴾: حرف استقبال، ﴿يُحَاسَبُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود علىٰ ﴿مَنۡ﴾ الموصولة، ﴿حِسَابًا﴾: مفعول مطلق

مبين للنوع ﴿يَسِيرًا﴾: صفة ﴿حِسَابًا﴾، وجملة ﴿يُحَاسَبُ﴾ في محل الرفع خبر لـ ﴿مَنْ﴾ الموصولة، والجملة من المبتدأ والخبر جواب ﴿أما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أما﴾ من فعل شرطها وجوابها في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة استئنافاً بيانياً لا محل لها من الإعراب، ﴿وَيَنقَلِبُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود علىٰ ﴿مَنْ﴾ الموصولة، معطوف على ﴿يُحَاسَبُ﴾، ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿يَنقَلِبُ﴾ ﴿مَسْرُورًا﴾: حال من فاعل ﴿يَنقَلِبُ﴾، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿أَمَّا﴾: حرف شرط، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ﴾: صلة ﴿مَنْ﴾ الموصولة ﴿وراء ظهره﴾: ﴿وَرَآءَ﴾ منصوب بنزع الخافض؛ أي: أوتي كتابه بشماله من وراء ظهره، و ﴿ظَهْرِهِۦ﴾: مضاف إليه ﴿فَسَوْفَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أما﴾، وجملة ﴿سوف يدعو﴾ خبر ﴿مَنْ﴾ الموصولة ﴿ثُبُورًا﴾: مفعول به لـ ﴿يَدْعُواْ﴾؛ أي: ينادي هلاكه بقوله: يا ثبوراه، لأن نداء ما لا يعقل يراد به التمني، فالدعاء بمعنىٰ الطلب بالنداء، وجملة ﴿مَنْ﴾ الموصولة جواب ﴿أَمَّا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أَمَّا﴾ في محل النصب معطوفة علىٰ جملة ﴿أما﴾ الأولى، وإن أردت الخوض والبيان في إعراب ﴿أَمَّا﴾ الشرطية، وما يتعلق بها، فراجع شروحنا علىٰ «متن الآجرومية» ﴿وَيَصْلَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود علىٰ ﴿مَنْ﴾ الموصولة معطوف علىٰ ﴿يَدْعُواْ﴾ ﴿سَعِيرًا﴾: مفعول به على التوسع لـ﴿يصلى﴾ مثل: سكنت الشام، ودخلت البيت.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿كَانَ﴾ خبره، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿فِىٓ أَهْلِهِۦ﴾: حال من الضمير المستكن في ﴿مَسْرُورًا﴾، و ﴿مَسْرُورًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿ظَنَّ﴾ خبره، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل جملة ﴿إن﴾ الأولىٰ، والظن هنا بمعنىٰ: العلم واليقين. ﴿أَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، ﴿لَن﴾: حرف نصب واستقبال، ﴿يَحُورَ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر منصوب بـ ﴿لَن﴾، وجملة ﴿لَّن يَحُورَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿أَن﴾ المخففة وجملة ﴿أن﴾ المخففة في تأويل مصدر ساد مسد مفعولي

﴿ظَنَّ﴾، ﴿بَلَىٰٓ﴾: حرف جواب لإيجاب ما بعد النفي ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿كَانَ﴾ خبره، و﴿بِهِۦ﴾ متعلق بـ ﴿بَصِيرًا﴾ و ﴿بَصِيرًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾، وما في حيزها جواب قسم مقدر بعد ﴿بَلَىٰٓ﴾؛ أي: بلىٰ والله إن ربه كان به بصيرا، أو تعليل لما أفادته ﴿بَلَىٰٓ﴾ من إيجاب لما بعد ﴿لَن﴾.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾﴾.

﴿فَلَآ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية ﴿لا﴾: زائدة تأكيداً للقسم، ﴿أُقۡسِمُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود علىٰ الله سبحانه، وجملة القسم مستأنفة ﴿بِٱلشَّفَقِ﴾: متعلق بـ ﴿أُقۡسِمُ﴾، ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾: معطوف علىٰ ﴿الشفق﴾، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿مَآ﴾: اسم موصول في محل الجر معطوف علىٰ ﴿ٱلَّيۡلِ﴾، ﴿وَسَقَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱلَّيۡلِ﴾، والجملة صلة ﴿مَآ﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: وما وسقه الليل، ﴿وَٱلۡقَمَرِ﴾: معطوف علىٰ ﴿الشفق﴾ أيضاً ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنىٰ الشرط في محل النصب على الظرفية، متعلق بفعل القسم، ﴿ٱتَّسَقَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود علىٰ ﴿وَٱلۡقَمَرِ﴾. ﴿وَٱلۡقَمَرِ﴾ معطوفة على ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾، والجملة في محل الخفض مضاف إليه لـ﴿إذا﴾؛ أي: وأقسم بالقمر وقت اتساقه وكماله ﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم ﴿تركبن﴾: فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل، والنون نون التوكيد الثقيلة. ﴿طَبَقًا﴾: مفعول به ﴿عَن طَبَقٖ﴾: صفة ﴿طَبَقًا﴾، وعن: بمعنىٰ: بعد؛ أي: لتركبن حالاً كائناً بعد حال، كل واحدة منهما مطابقة لأختها في الشدة، يعني: أهوال يوم القيامة، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب.

﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿فَمَا﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر،

تقديره: إذا كان حال يوم القيامة كما ذكر، وأردت التعجب من حالهم.. فأقول لك: أي شيء لكفار مكة، وأيُّ مانع لهم؟ ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ ﴿لَهُمْ﴾: خبر، وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في محل النصب حال من ضمير ﴿لَهُمْ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿وإذا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مضمن معنىٰ الشرط، متعلق بالجواب الآتي ﴿قرئ﴾: فعل ماضٍ مغير الصيغة ﴿عَلَيْهِمُ﴾: متعلق بـ ﴿قرئ﴾ ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾: نائب فاعل لـ ﴿قرئ﴾، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها علىٰ كونها فعل شرط لها، وجملة ﴿لَا يَسْجُدُونَ﴾ جواب الشرط لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة علىٰ جملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: وما لهم حال كونهم لا يسجدون وقت قراءة القرآن عليهم ﴿بَلِ﴾ حرف إضراب للإضراب الانتقالي ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿كَفَرُوا﴾ صلة الموصول، وجملة ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ خبر المبتدأ. والجملة الاسمية جملة إضرابية لا محل لها من الإعراب ﴿وَٱللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿أَعْلَمُ﴾ خبره، والجملة معطوفة علىٰ الجملة الإضرابية ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ ﴿أَعْلَمُ﴾ ﴿يُوعُونَ﴾: فعل مضارع وفاعل، مرفوع بثبات النون، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: بما يوعونه ويضمرونه، ﴿فَبَشِّرْهُم﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع ﴿بشرهم﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف مفرع علىٰ ﴿يُكَذِّبُونَ﴾، ﴿بِعَذَابٍ﴾: متعلق بـ ﴿بشرهم﴾. ﴿أَلِيمٍ﴾: صفة ﴿عذاب﴾ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء منقطع بمعنىٰ: لكن، أو متصل، وليس بالقوي، والمستثنى منه ضمير ﴿بشرهم﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول للجمع المذكر في محل الرفع مبتدأ، أو في محل النصب علىٰ الاستثناء، مبني علىٰ الفتح، أو علىٰ الياء، وجملة ﴿ءَامَنُوا﴾ صلة الموصول، ﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف علىٰ ﴿ءَامَنُوا﴾ ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿أَجْرٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾: صفة ﴿أَجْرٌ﴾، والجملة الاسمية خبر ﴿ٱلَّذِينَ﴾، وجملة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ جملة استدراكية لا محل لها من الإعراب، أو مستأنفة إن قلنا إن الاستثناء متصل.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ①﴾؛ أي: تشققت وتصدعت.

﴿وَأَذِنَتْ﴾؛ أي: استمعت لأمر ربها، يقال: أذنت لك؛ أي: استمعت كلامك، ومن استعمال الإذن في الاستماع قول الشاعر:

صُمٌّ إِذَا سَمِعُوْا خَيْرَاً ذُكِرْتُ بِهِ   وَإِنْ ذُكِرْتُ بِسُوْءٍ عِنْدَهُمْ أَذِنُوْا

وقول الآخر:

إِنْ يَأْذَنُوْا سُبَّةً طَارُوْا بِهَا فَرَحَاً   مِنِّيْ وَمَا أَذِنُوْا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوْا

وفي «المختار»: أذن له استمع، وبابه: طرب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ②﴾، ويقال: أذن يأذن أذناً إليه وله: استمع له معجباً، أو عام، ولرائحة الطعام: اشتهاه، وأذن بالشيء كسمع إذناً بالكسر، ويحرك، وأذاناً وأذانة: علم به، ﴿فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ﴾؛ أي: كونوا علىٰ علم، وأذنه الأمر وبه: أعلمه، وأذن له في الشيء، كسمع إذناً بالكسر، وأذيناً: أباحه له، واستأذنه: طلب منه الإذن، إلىٰ آخر ما في هذه المادة العجيبة.

﴿وَحُقَّتْ﴾؛ أي: حق لها أن تمتثل ذلك، والفاعل في الأصل هو الله تعالى؛ أي: حق الله تعالى عليها ذلك؛ أي: سمعه وطاعته؛ أي: أوجبه عليها، وألزمها به، واقتضت حكمته وجوده منها، وكلام البيضاوي، يقتضي أن نائب الفاعل هو ضمير السماء المستكن في الفعل من غير تقدير، ونصه: حقت؛ أي جعلت حقيقة بالاستماع والانقياد. ا هـ. وقال صاحب «الروح»: فحق هذه الجملة أن تكون اعتراضاً مقررةً لما قبلها، لا معطوفة عليه. ا هـ. كما مرَّ.

﴿مُدَّتْ﴾ من مده بمعنىٰ: أمده؛ أي: زاده.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ④﴾ ووصفت الأرض بذلك؛ أي: بالإلقاء والتخلية توسعاً، وإلا فالتحقيق أن المخرج لما فيها هو الله تعالى. ا هـ. «خطيب».

وقوله: ﴿ألقت﴾ فيه إعلال بالحذف، أصله: ألقي بوزن أفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ولما اتصلت بالفعل تاء التأنيث الساكنة.. التقى ساكنان، فحذفت الألف.

وقوله: ﴿وَتَخَلَّتْ﴾، وفيه أيضاً ما في ألقت من الإعلال، أصله: تخلي بوزن تفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم اتصلت بالفعل تاء التأنيث الساكنة، فالتقى ساكنان، فحذفت الألف.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾ ليس تكراراً مع مر؛ لأن الأول في السماء، وهذا في الأرض. ا هـ «خطيب». ومعنىٰ حقت، أي: حق لها أن تمتثل ذلك؛ أي: يجدر بها أن تكون كذلك، قال كثير:

فَإِنْ تَكُنِ ٱلْعُتْبَىٰ فَأَهْلاً وَمَرْحَبَاً وَحُقَّتْ لَهَا ٱلْعُتْبَىٰ لَدَيْنَا وَقَلَّتِ

﴿كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾؛ أي: جاهد مجد في عملك، قال شاعرهم:

وَمَضَتْ بَشَاشَةُ كُلِّ عَيْشٍ وَبَقِيْتُ أَكْدَحُ لِلْحَيَاةِ وَأَنْصَبُ

والكدح: جهد النفس في العمل والكد فيه، حتىٰ يؤثر فيها، من: كدح جلده إذا خدشه، وفي «المختار»: الكدح: العمل والسعي والكد والكسب، وهو الخدش أيضاً، وباب الكل: قطع. وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾؛ أي: ساع. وبوجهه كدوح؛ أي: خدوش، وهو يكدح لعياله، ويكتدح؛ أي: يكتسب. ا هـ.

﴿فَمُلَاقِيهِ﴾؛ أي: فملاق لعملك عقب ذلك؛ أي: لجزائه من خير أو شر.

﴿يَنقَلِبُ﴾؛ أي: يرجع ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾؛ أي: عشيرته المؤمنين، أو رفقائه في طريق السعادة والكرامة؛ أي: يرجع بنفسه من غير مزعج برغبة وقبول إلى أهله؛ أي: الذين أهل بهم في الجنة من الحور العين، والآدميات، والذريات، إذا كانوا مؤمنين. ا هـ. «خطيب».

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۝١١﴾، أي: يتمنىٰ هلاكاً وأنىٰ له، ويقول: واثبوراه، أقبل فهذا أوانك، والثبور: الهلاك، قيل: الثبور مشتق من المثابرة علىٰ الشيء، وهو المواظبة عليه، وسمي هلاك الآخرة ثبوراً؛ لأنه لازم لا يزول، كما مر، وفي «المصباح»: ثبر الله الكافر ثبوراً ـ من باب قعد ـ: أهلكه، وثبر هو ثبوراً: هلك، يتعدىٰ، ولا يتعدى.

﴿وَيَصْلَىٰ﴾: أي: يقاسي، أصله: يصلي بوزن يفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿سَعِيرًا﴾؛ أي: ناراً مسعرة متقدة ﴿أَن لَّن يَحُورَ﴾؛ أي: أصله: يحور بوزن يفعل، نقلت حركة الواو إلىٰ الحاء، فسكنت إثر ضم، فصارت حرف مد، فهو نظير: يقول، قال لبيد:

وَمَا ٱلْمَرْءُ إِلَّا كَٱلشِّهَابِ وَضَوْئِهِ ... يَحُورُ رَمَاداً بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ

والمراد: أنه ظن أنه لن يرجع إلىٰ الله للمجازاة تكذيباً للمعاد، من: الحور، وهو: الرجوع، والمحار: المرجع والمصير، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ما كنت أدري ما معنىٰ ﴿يَحُورَ﴾ حتىٰ سمعت أعرابيةً تقول لبنية لها: حوري حوري؛ أي: ارجعي. وحرْ إلى أهلك؛ أي: ارجع، ومنه الحديث: «نعوذ بالله من الحور بعد الكور»؛ أي: الرجوع عن حالة جميلة، والحواري: القصار؛ لرجعه الثياب إلىٰ البياض، وفي «المختار»: حار: رجع، وبابه: قال ودخل، والمصدر بوزن: قول، ودخول، يقال: حار حوراً وحؤراً ومحاراً ومحارة. هذا وتأتي حار بمعنى: صار، فترفع الاسم وتنصب الخبر.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾﴾ هي الحمرة التي تشاهد في أفق المغرب بعد الغروب. وعبارة «القاموس»: الشفق محركة: الحمرة في الأفق من الغروب إلىٰ العشاء الآخرة، أو إلىٰ قربها، أو إلىٰ قريب العتمة، وهذا هو الصحيح، ومنه قول الشاعر:

قُمْ يَا غُلَامُ أَعِنِّيْ غَيْرَ مُرْتَبِكٍ ... عَلَىٰ ٱلزَّمَانِ بِكَأْسٍ حَشْوُهَا شَفَقُ

﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: جمع وضم، يقال: وسق فاتسق واستوسق، ونظيره في وقوع افتعل واستفعل مطاوعين لثلاثيه: اتسع واستوسع، وفي «القاموس»: وسقه يسقه من باب ضرب: جمعه وحمله، ومنه: ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾﴾، ومنه سمي الوسق وسقاً: لجمعه الصيعان.

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: اجتمع نوره واستوى ليلة أربع عشرة، وهو افتعل من الوسق، وهو الضم والجمع، كما تقدم، وأمر فلان متسق؛ أي: مجتمع علىٰ ما يسر، وأصله: إوتسق من الوسق، أبدلت الواو فاء الكلمة تاء، لمجيئها قبل تاء الافتعال، ثم أدغمت في تاء الافتعال، وإبل مستوسقة؛ أي: مجتمعة.

قال الشاعر:

إِنَّ لَنَا قَلَائِصاً حَقَائِقَا   مُسْتَوْسِقَاتٍ لَمْ يَجِدْنَ سَائِقَا

﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾: لتلاقن، أصله: تركبونن، حذفت نون الرفع لتوالي الأمثال، ثم واو الجماعة لالتقاء الساكنين فصار: تركبن.

﴿طَبَقًا﴾ والطبق: الحال المطابقة لغيرها، قال الأقرع بن حابس:

إِنِّيْ ٱمْرُؤٌ قَدْ حَلَبْتُ ٱلدَّهْرَ أَشْطُرَهُ   وَسَاقَنِيْ طَبَقٌ مِنْهُ إِلَىٰ طَبَقِ

والمراد: تركبن أحوالاً بعد أحوال هي: طبقات في الشدة بعضها أرفع من بعض، وهي الموت وما بعده.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾﴾؛ أي: يجمعون في صدورهم من الإعراض والجحود والحسد والبغي، أصله: يوعيون بوزن يفعلون، استثقلت الضمة علىٰ الياء فحذفت، فلما سكنت التقىٰ ساكنان؛ فحذفت الياء، ثم ضمت العين لمناسبة الواو، وحذفت همزة أفعل أيضاً، فوزنه: يفعون يقال: أوعيت الشيء؛ أي: جعلته في وعاء؛ أي: ظرف، ثم استعير هو والوعي لمعنى الحفظ. كما مر.

﴿فَبَشِّرْهُم﴾: والبشارة: الإخبار بما يسر، واستعملت في العذاب تهكماً.

﴿مَمْنُونٍ﴾؛ أي: مقطوع، من قولهم: منَّ فلان الحبل: إذا قطعه.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾﴾ فقد شبهت حال السماء في انقيادها لتأثير قدرة الله تعالى، حيث أراد انشقاقها بانقياد المستمع المطواع للأمر، ثم حذف المشبه به، واستعير لفظ الإذن والاستماع المستعمل في غايته.

وقيل: فيه استعارة تمثيلية متفرعة على المجاز المرسل، يعني: إذا أطلق الإذن؛ وهو الاستماع في حق من له حاسة السمع، والاستماع بها يراد بها: الإجابة والانقياد مجازاً، وإذا أطلق في حق نحو السماء مما ليس في شأنه الاستماع والقبول يكون: استعارة تمثيلية.

ومنها: التعرض لعنوان الربوبية في قوله: ﴿لِرَبِّهَا﴾ مع الإضافة إلى ضمير السماء، للإشارة بعلة الحكم.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾﴾ فقد شبهت حال الأرض بحال المرأة الحامل، تلقي ما في بطنها عند الشدة والهول، ثم حذف المشبه به، واستعير لفظ الإلقاء.

ومنها: الطباق بين لفظ: ﴿السَّمَاءُ﴾ و ﴿الْأَرْضُ﴾.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾﴾ لأن الإلقاء والإخراج حقيقةً لله سبحانه وتعالى، لا للأرض.

ومنها: التعبير بالماضي في قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ﴾؛ أي: يؤتى إشعاراً بتحقق وقوعه، كما في «الشهاب».

ومنها: المقابلة بين قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾﴾، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾﴾.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾﴾؛ أي: تكرير كتابه بدون الاكتفاء بالإضمار، لتغاير الكتابين واختلافهما بالاشتمال والحكم في المآل.

ومنها: فن الالتزام في قوله: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾﴾ ويقال فيه: لزوم ما لايلزم، ومنهم من يسميه: الإعنات؛ وهو: أن يلتزم الشاعر في شعره، أو الناثر في نثره حرفاً أو حرفين فصاعداً قبل حرف الروي على قدر طاقته مشروطاً بعدم الكلفة، فقد التزم هنا السين قبل القاف في الكلمتين، ولأبي العلاء المعري ديوان التزم فيه ما لا يلزم.

ومنها: الجناس الناقص بين كلمتي: ﴿وَسَقَ﴾ و ﴿اتَّسَقَ﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾؛ لأنه كنى به عن شدة الأهوال التي يلقاها الإنسان.

ومنها: استعارة عن لـ(بعد) في قوله: ﴿عَنْ طَبَقٍ﴾؛ لأن لفظ (عن) يفيد البعد والمجاوزة، فكان مشابهاً للفظ (بعد) فصح استعمال أحدهما بمعنى الآخر، قال

ابن الشيخ: ﴿عَن﴾ هنا بمعنى: بعد؛ لأن الإنسان إذا صار إلى الشيء مجاوزاً عن شيء آخر، فقد صار إلى الثاني بعد الأول، فصح أنه يستعمل فيه بعد وعن معاً.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾﴾؛ للتسجيل علهيم بالكفر، وللإشعار بما هو العلة في عدم خضوعهم للقرآن؛ أي: للإشعار بأنهم لا يؤمنون، ولا يسجدون عند قراءة القرآن عليهم؛ لأنهم كافرون مكذبون. اهـ «كرخي».

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾﴾؛ لأن الإيعاء حقيقة في جعل الشيء في وعاء؛ أي: ظرف، ثم استعير لمعنىٰ الحفظ علىٰ طريقة الاستعارة التصرحية التبعية.

ومنها: الأسلوب التهكمي في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، لأن البشارة حقيقة في الإخبار بالخبر السار، وقد استعملت هنا في الخبر المؤلم استهزاءً بهم وتهكماً.

ومنها: توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآي مثل قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾﴾، وقوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾؛ لأنه من المحسنات البديعية.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب

* * *

خلاصة ما اشتملت عليه السورة الكريمة من المقاصد

اشتملت هذه السورة على مقصدين:

١ ـ أن الإنسان يلاقي نتائج أعماله يوم القيامة، فيأخذ كتابه بيمينه، أو من وراء ظهره.

٢ ـ أن الناس في الدنيا يتنقلون في أحوالهم طبقة بعد طبقة؛ إما في نعيم مقيم، وإما في عذاب أليم.

وصلى الله سبحانه وتعالى وسلم وبارك علىٰ سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين. آمين آمين[١].

* * *

(١) إلى هنا تمت سورة الانشقاق بعون الملك الخلاق، يوم الأربعاء وقت الضحوة، اليوم الحادي عشر من شهر رمضان المبارك من شهور سنة: ١١/ ٩/ ١٤١٦هـ. ألف وأربع مئة وست عشرة سنة من الهجرة النبوية علىٰ صاحبها أفضل الصلاة وأزكىٰ التحية.

سورة البروج

سورة البروج مكية بلا خلاف، نزلت بعد سورة الشمس، وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: نزلت: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١﴾ بمكة. وآياتها: اثنتان وعشرون آية. وكلماتها: مئة وتسع كلمات. وحروفها: أربع مئة وخمسة وستون حرفاً.

ومناسبتها لما قبلها من وجوه:

١ ـ اشتمالها علىٰ وعد المؤمنين، ووعيد الكافرين، مع التنويه بشأن القرآن وفخامته.

٢ ـ أنه ذكر في السورة السابقة أنه عليم بما يجمعون للرسول ﷺ والمؤمنين من المكر والخداع، وإيذاء من أسلم بأنواع من الأذىٰ، كالضرب، والقتل، والإلقاء في حمارة القيظ، وذكر هنا أن هذه شنشنة من تقدمهم من الأمم، فقد عذبوا المؤمنين بالنار، كما فعل أصحاب الأخدود، وفي هذه السورة عظة لقريش، وتثبيت من يعذَّبون من المؤمنين.

ومما ورد في فضائل هذه السورة:

ما أخرجه أحمد بسنده عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ: كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج، والسماء والطارق.

وما أخرجه الطيالسي وابن أبي شيبة في «المصنف» وأحمد والدارمي وأبو داوود والترمذي وحسنه، والنسائي وابن حبان والطبراني والبيهقي في «سننه» عن جابر بن سمرة: أن النبي ﷺ: كان يقرأ في الظهر والعصر بالسماء والطارق، والسماء ذات البروج.

وما روي عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة البروج.. أعطاه الله تعالىٰ بعدد كل يوم جمعة وعرفة تكون في الدنيا عشر حسنات»، ولكنه لا أصل له.

وسميت سورة البروج: لذكر البروج فيها، وكلها محكمة لا ناسخ ولا منسوخ فيها.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤
ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ
إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ
۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ۝١١ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ
لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ
۝١٦ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ۝١٧ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۝١٨ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ۝١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم
مُّحِيطٌۢ ۝٢٠ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾ .

المناسبة

قد تقدم لك بيان المناسبة بين هذه السورة والسورة التي قبلها، فبدأ هذه السورة بأنه أقسم فيها بما هو غيب وشهود، وهو السماء ذات البروج، فإن كوكبها مشهود نورها، مرئي ضوؤها معروفة حركتها في طلوعها وغروبها، وكذلك البروج نشاهدها وفيها غيب لا تعرفه الحس، وهو حقيقة الكواكب، وما أودع الله فيها من القوىٰ، وما فيها من عوالم لا نراها ولا ندرك حقيقتها، وأقسم بما هو غيب صرف، وهو اليوم الموعود، وما يكون فيه من حوادث البعث والحساب والعقاب والثواب، وأقسم بما هو شهادة صرفة، وهو الشاهد؛ أي: ذو الحسِّ، والمشهود: وهو ما يقع عليه الحس، فأقسم سبحانه بكل ما سلف علىٰ أن من قبلهم من المؤمنين الموحدين ابتلوا ببطش أعدائهم بهم، واشتدادهم في إيذائهم حتىٰ خدوا لهم الأخاديد، وملؤوها بالنيران، وقذفوهم فيها، ولم تأخذهم بهم رأفة، بل كانوا يتشفون برؤية ما يحل بهم، وهم مع ذلك قد صبروا، وانتقم الله تعالىٰ من أعدائهم، وممن أوقع بهم، وأخذهم بذنوبهم أخذ عزيز مقتدر.

ولئن صبرتم أيها المؤمنون علىٰ الأذى ليوفينكم أجركم، وليأخذن أعداءكم، ولينزلن بهم ما لا قبَل لهم به، وقد حكىٰ هذا القصص ليكون تثبيتاً لقلوب

المؤمنين، ووعداً لعباده الصالحين، وحملاً لهم علىٰ الصبر والمجاهدة في سبيله، ووعيداً للكافرين، وأنه سيحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ﴾ ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر قصة أصحاب الأخدود وبيَّن ما فعلوه من الإيذاء والتنكيل بالمؤمنين، وذيل ذلك بما يدل علىٰ أنه لو شاء لمنع بعزته وجبروته أولئك الجبابرة عن هؤلاء المؤمنين، وأنه إنْ أمهل هؤلاء الفجرة عن العقاب في الدنيا.. فهو لم يهملهم، بل أجَّل عقابهم ليوم تشخص فيه الأبصار.. ذكر ما أعد للكفار من العذاب الأليم جزاء ما اجترحت أيديهم من السيئات التي منها إيذاء المؤمنين، وما أعد للمؤمين من جميل الثواب، وعظيم الجزاء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالىٰ لما ذكر وعيد الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات، ووعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ووصف ما أعد لهم من الثواب كفاء أعمالهم.. أردف ذلك كله بما يدل علىٰ تمام قدرته علىٰ ذلك؛ ليكون ذلك بمثابة توكيد لما سبق من الوعيد والوعد، فالملك لا يعظم سلطانه وهيبته في النفوس إلا بأمرين:

١ ـ الجود الشامل، والإنعام الكامل، وبذا يرجىٰ خيره.

٢ ـ الجيوش الجرارة، والأساطيل العظيمة التي توقع بأعدائه، وتنكل بهم، وبذلك يهاب جنابه، وإليهما أشار بقوله فيما سلف: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾، وهنا زاد الأمر إيضاحاً، بقوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ...﴾ إلىٰ آخر السورة، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر قصص أصحاب الأخدود وبين حالهم، ووصف ما كان من إيذائهم للمؤمنين.. أردف ذلك ببيان أن حال الكفار في كل عصر، وشأنهم مع كل نبي وشيعته جارٍ علىٰ هذا النهج، فهم دائماً يؤذون المؤمنين ويعادونهم، ولم يرسل الله نبياً إلا لقي من قومه مثل ما لقي هؤلاء من أقوامهم، والغرض من هذا كله تسلية النبي ﷺ وصحبه، وشد عزائمهم علىٰ التذرع بالصبر، وأن كفار قومه سيصيبهم مثل ما أصاب الجنود فرعون وثمود.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ وهي لغة: كل جرم علوي، فدخل فيه العرش والكرسي، ولكن المراد هنا: ما عداهما من السموات السبع. ﴿ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ أي: صاحبة البروج الاثني عشر، وهي الطرق التي تسير فيها الكواكب السبعة السيارة المجموعة في قول بعضهم:

زُحَلٌ شَرَىٰ مِرِّيْخَهُ مِنْ شَمْسِهِ ... فَتَزَاهَرَتْ لِعُطَارِدَ ٱلأَقْمَارُ

وتلك البروج اثنتا عشرة برجاً، وهي: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت، وجمعها بعضهم في بيتين:

حَمَلَ ٱلثَّوْرُ جَوْزَةَ ٱلسَّرَطَانِ ... وَرَعَىٰ ٱللَّيْثُ سُنْبُلَةَ ٱلْمِيْزَانِ

وَرَمَىٰ عَقْرَبٌ بِقَوْسٍ لِجَدْيٍ ... نَزَحَ ٱلدَّلْوُ بِرْكَةَ ٱلْحِيْتَانِ

وفي برج الحمل، حيث تم العشرون منه كان مولد النبي ﷺ في منزلة البطين عند طلوع الغفر، والبروج: جمع برج، وهو القصر، ثم إنه شبهت بروج السماء بالقصر التي تنزل فيها الأكابر والأشراف؛ لأنها منازل السيارات، ومقر الثوابت.

والمعنى: أقسم بالسماء ذات المنزل والمحال، والطرق التي تسير فيها الكواكب السبعة السيارة. وفي «البيضاوي»: يعني: البروج الاثني عشر، شبهت بالقصور؛ لأنها تنزلها السيارات، كما أن القصور ينزلها الأكابر والأشراف، سميت تلك الطرق بروجاً لظهورها؛ لأن أصل معنىٰ البرج: الأمر الظاهر، من التبرج، ثم صار حقيقة في العرف للقصر العالي؛ لظهوره، ويقال: لما ارتفع من سور المدينة برج أيضاً، كما في «الشهاب». وقيل: المراد بالبروج: هي النجوم التي هي منازل القمر، وهي ثمانية وعشرون نجماً، ينزل القمر كل ليلةٍ في واحد منها، لا يتخطاها ولا يتقصر عنه، وإذا صار القمر إلىٰ آخر منازله.. دق واستقوس، ويستتر ليلتين، إن كان الشهر ثلاثين يوماً، وإن كان تسعة وعشرين، فليلة واحدة، وإطلاق البروج علىٰ هذه النجوم مبني علىٰ تشبيهها بالقصور من حيث إن القمر ينزل فيها، ولظهورها أيضاً بالنسبة إلىٰ بعض الناس، كالعرب؛ لأن البرج ينبىء عن الظهور مع الاشتمال علىٰ المحاسن، يقال: تبرجت المرأة؛ أي: تشبهت بالبرج في إظهار

المحاسن، وأما البروج الاثنا عشر، فليس لها ظهور؛ حيث لا تدرك حساً؛ لأنها عبارة عن مجموع هذه المنازل الثمانية والعشرين، لأن البروج الاثني عشر منقسمة إلىٰ هذه المنازل الثمانية والعشرين، والشمس تسير في تمام هذه البروج الاثني عشر في كل سنة، والقمر في كل شهر، وقد تعلقت بها منافع العباد ومصالحهم، فأقسم الله تعالىٰ بها إظهاراً لقدرها وشرفها.

تنبيه: واعلم أن البروج الاثني عشر: ستة منها في شمال خط الاستواء، وستة منها في جنوبه، فالتي في شماله ثلاثة ربيعية، وهي: الحمل والثور والجوزاء، وابتداء الحمل من الاعتدال الربيعي، ويصادف اليوم الثالث والعشرين من شهر مارس آذار، وثلاثة صيفية، وهي: السرطان والأسد والسنبلة، وابتداء السرطان من نقطة الانقلاب الصيفي، ويصادف اليوم الثالث والعشرين من شهر يونيو حزيران.

والستة التي في جنوب خط الاستواء، ثلاثة منها خريفية، وهي الميزان والعقرب والقوس، وابتداء الميزان من الاعتدال الخريفي، ويصادف اليوم الرابع والعشرين من شهر سبتمبر أيلول، وثلاثة شتائية، وهي: الجدي والدلو والحوت، وابتداء الجدي من الانقلاب الشتوي، ويصادف اليوم الثالث والعشرين من شهر كانون أول ديسمبر، فتكون السنة الشمسية ثلاث مئة وخمسة وستين يوماً وربع يوم، وهي مدة رجوع الشمس إلىٰ النقطة التي فارقتها من تلك البروج، وكل برج ثلاثون درجةً، فمجموعها: (٣٦٠) ثلاث مئة وستون درجة، كل درجة بمقدار أربع دقائق، ومجموعها: أربع وعشرون ساعة، والشمس ـ كما مر ـ تقطع هذه البروج كلها مرة في السنة كل برج في شهر، وبها تتم دورة الفلك، ويقطعها القمر في ثمانية وعشرين يوماً وكسور، ومن أراد الخوض في هذا الباب.. فليراجع الكتب المدونة في فن الميقات.

وقد أقسم الله سبحانه بهذه الكواكب لما فيها من عجيب الصنعة، وباهر الحكمة، ولما فيها من مصالح ومنافع للناس في هذه الحياة، تدل علىٰ أن لها صانعاً حكيماً مدبراً إلا أنه يحثنا علىٰ البحث عن هذه العوالم؛ لنستدل بذلك علىٰ عظيم قدرته، وجليل حكمته.

﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢﴾؛ أي: الموعود به، ففيه الحذف والإيصال، وهو يوم القيامة، قال الواحدي: في قول جميع المفسرين: وهو يوم الفصل والجزاء الذي وعده الله تعالىٰ به علىٰ ألسنة رسله، وهو يوم تفرد فيه ربنا بالملك والحكم، أقسم الله تعالى به تنبيهاً على عظم قدره وشأنه. ﴿وَشَاهِدٖ﴾؛ أي: وأقسم بشاهد؛ أي: بكل حاضر. وشاهد يشهد في ذلك اليوم، الأولين والآخرين، والإنس والجن، والملائكة والأنبياء والمرسلين. ﴿وَمَشۡهُودٖ﴾؛ أي: وبكل ما يشاهد ويرىٰ في ذلك اليوم من العجائب، فالشاهد بمعنىٰ الحاضر من الشهود، بمعنىٰ: الحضور، لا بمعنىٰ الشاهد الذي تثبت به الدعاوىٰ والحقوق، وتنكيرهما للإبهام في الوصف؛ أي: وشاهد ومشهود لا يكتنه وصفهما، وإلا فلا يقسم بنكرة؛ لأنه لا يدرىٰ من هي، وكذا إذ لوحظ فيها معنىٰ العموم اندرج فيها المعرفة، فحسن القسم بها. كذا في «البحر».

وقيل: المشهود: يوم الجمعة، والشاهد: من يحضره من المسلمين للصلاة ولذكر الله سبحانه. وفي الحديث: «ما طلعت شمس ولا غربت على يوم أفضل من يوم الجمعة، فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله فيها خيراً إلا استجاب له، ولا يستعيذ من سوء إلا أعاذه منه». وفيه أيضاً: «أكثروا عليَّ من الصلاة يوم الجمعة، فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة»، وقيل: المشهود: يوم عرفة، والشاهد: من يحضره من الحجاج، وحسن القسم بهما مع كونهما نكرةً تعظيماً لأمر الحج وعددهم. وقيل: الشاهد: كل يوم، والمشهود: أهله، فيكون المشهود بمعنىٰ المشهود عليه، والشاهد من الشهادة، كما قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: ما من يوم إلا وينادي: إني يوم جديد، وإني علىٰ ما يفعل فيَّ شهيد، فاغتنمني، فلو غابت شمس لم تدركني إلى يوم القيامة. وقيل: الشاهد: هو الله تعالى، لقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾، وقيل: الشاهد: محمد ﷺ، لقوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ﴾. قال أبو حيان: وقد اختلف في تفسير الشاهد والمشهود على سبع وعشرين قولاً، ولكل قول مُمْتَسكٌ، والقول الظاهر المناسب لما قبله من تلك الأقوال: ما قلنا أولاً؛ أي: تفسير الشاهد بمن يشهد يوم القيامة، والمشهود بيوم القيامة لقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾. وقيل: المعنىٰ: أقسم بجميع ما خلق الله سبحانه في هذا الكون مما يشهده الناس ويرونه رأي العين، فمنهم من يتدبر ويستفيد

من النظر إليه، ومنهم من لا يستفيد من ذلك شيئاً.

وقصارى ذلك: أنه سبحانه وتعالىٰ أقسم بالعوالم كلها ليلفت الناظرين إلىٰ ما فيها من العظم والفخامة، وليعتبروا بما حضر، ويبذلوا جهدهم في درك حقيقة ما استتر.

وقوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾﴾؛ أي: لعنوا وأخذوا، ونزل بهم نكال الدنيا، وعذاب الآخرة، جواب القسم، واللام فيه مضمرة؛ أي: أقسمت بهؤلاء المذكورات علىٰ أن أصحاب الأخدود لعنوا وطردوا وأبعدوا من رحمة الله تعالىٰ بسبب ما فعلوه من تعذيب المؤمنين، وهذا هو الظاهر، وبه قال الفراء وغيره، وقيل: أصله: لقد قتل أصحاب الأخدود؛ فحذفت اللام وقد، وعلىٰ هذا تكون الجملة خبرية، والأظهر أن الجملة دعائية دالة علىٰ الجواب، لا خبرية، والجواب محذوف تقديره: أقسم بهذه الأشياء علىٰ أن كفار قريش ملعونون، كما لعن أصحاب الأخدود. وقيل: تقدير الجواب: لتبعثن، واختاره ابن الأنباري.

وإنما احتيج إلىٰ حذف اللام وقد؛ لأن المشهور عند النحاة: أن الماضي المثبت المتصرف إذا وقع جواباً للقسم.. تلزمه اللام، وقد لا يجوز الاقتصار علىٰ أحدهما إلا عند طول الكلام، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾، أو في ضرورة. ا هـ «شهاب».

وجه الأظهرية: أن السورة وردت لتثبيت المؤمنين على الإيمان، وتصبيرهم علىٰ أذية الكفرة، وتذكيرهم بما جرىٰ علىٰ من تقدمهم من التعذيب علىٰ الإيمان، وصبرهم علىٰ ذلك حتىٰ يأنسوا بهم، ويصبروا علىٰ ما كانوا يلقون من قومهم، ويعلموا أن هؤلاء عند الله بمنزلة أولئك المعذبين، ملعونون مثلهم، أحقاء بأن يقال فيهم ما قد قيل فيهم، فظهر من هذا التقرير أنه ليس دعاء علىٰ أصحاب الأخدود من قبل المقسم، وهو الله تعالى؛ لأنه ليس بعاجز، والأخدود: الخد في الأرض، وهو الشق العظيم المستطيل في الأرض كالنهر، غامض؛ أي: عميق القرار، وأصل ذلك: من خدي الإنسان، وهما ما اكتنفا الأنف علىٰ اليمين والشمال، وفي «عين المعاني»: ومنه الخد لمجاري الدموع عليه، ومنه المخدة؛ لأن الخد يوضع عليها.

وأصحاب الأخدود كانوا ثلاثة[1]، وهم: أنطيانوس الرومي بالشام، وبخت نصر بفارس، ويوسف ذو نواس بنجران، وهو بتقديم النون وتأخير الجيم موضع باليمن، فتح سنة عشر، سمي بنجران بن زيدان بن سبأ، شق كل واحد منهم شقاً عظيماً في الأرض كان طوله أربعين ذراعاً، وعرضه اثني عشر ذراعاً، وهو الأخدود، وملؤوه ناراً، وألقوا فيه من لم يرتد عن دينه من المؤمنين في زمانهم. قالوا: والقرآن إنما نزل في الذين بنجران، يعني أن أصحاب الأخدود هم: ذو نواس الحميري اليهودي، يوسف بن شرحبيل وجنوده، وذلك أن عبداً صالحاً يقال له: عبد الله بن التامر، وقع إلىٰ نجران، وكان على دين عيسىٰ عليه السلام، فدعاهم فأجابوه، فسار إليهم ذو نواس بجنود من حمير، فخيرهم بين النار واليهودية، فأبوا، فحفر الخنادق، وأضرم فيها النيران، فجعل يلقي كل من اتبع ابن التامر حتىٰ أحرق نحواً من اثني عشر ألفاً، أو عشرين ألفاً، أو سبعين ألفاً، وذو نواس اسمه: زرعة بن حسان ملك حمير وما حولها، وكان أيضاً يسمىٰ. يوسف بن شرحبيل في الفترة قبل أن يولد النبي ﷺ بسبعين سنة، وكانت له غدائر من شعر؛ أي: ذوائب تنوس؛ أي: تضطرب، فسمي ذا نواس.

روي: أنه انفلت من أهل نجران رجل اسمه: دوس ذو ثعلبان، ووجد إنجيلاً محترقاً بعضه، فأتىٰ به ملك الحبشة، وكان نصرانياً فقال: إن أهل دينك أوقدت لهم نار فأحرقوا بها وأحرقت كتبهم، وهذا بعضها، فأراه الذي جاء به ففزع لذلك، فكتب إلىٰ صاحب الروم يستمده نجارين يعملون له السفن، فبعث إليه صاحب الروم من عمل له السفن، فركبوا فيها، فخرجوا إلىٰ ساحل اليمن، فخرج إليهم أهل اليمن فلقوهم بتهامة واقتتلوا، فلم يرَ ملك حمير له بهم طاقة، وتخوف أن يأخذوه، فضرب فرسه حتىٰ وقع في الحرب فمات فيه، أو ألقىٰ نفسه في البحر، فاستولى الحبشة على حمير وما حولها، وتملكوا، وبقي الملك لهم إلى وقت مجيء الإسلام.

وروي عن علي رضي الله عنه: أن بعض ملوك المجوس وقع علىٰ أخته وهو سكران، فلما صحا ندم وطلب المخرج، فأمرته أن يخطب الناس فيقول أن قد أحل

---

(١) روح البيان.

نكاح الأخوات، ثم يخطبهم بعد ذلك ويقول: إن الله قد حرمه، فخطب، فلم يقبلوا منه، فقالت له: ابسط فيهم السوط، ففعل، فلم يقبلوا، فأمرته بالأخاديد وإيقاد النار، وطرح من أبىٰ فيها، فهم الذين أرادهم الله تعالىٰ بقوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾.

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد ومسلم والنسائي والترمذي والطبراني عن صهيب: أن رسول الله ﷺ قال: «كان ملك من الملوك فيمن كان قبلكم، وكان لذلك الملك كاهن يكهن له، فقال له ذلك الكاهن: انظروا لي غلاماً فهماً، أو قال: فطناً لقناً فأعلمه علمي، فإني أخاف أن أموت فينقطع منكم هذا العلم، ولا يكون فيكم من يعلمه، فقال: فنظروا له علىٰ ما وصف، فأمروه أن يحضر ذلك الكاهن، وأن يختلف إليه، فجعل الغلام يختلف إليه، وكان علىٰ طريق الغلام راهب في صومعة، فجعل الغلام يسأل ذلك الراهب كلما مر به، فلم يزل به حتىٰ أخبره فقال: إنما أعبد الله، فجعل الغلام يمكث عند هذا الراهب، ويبطىء علىٰ الكاهن، فأرسل الكاهن إلىٰ أهل الغلام أنه لا يكاد يحضرني، فأخبر الغلام الراهب بذلك، فقال له الراهب: إذا قال لك الكاهن: أين كنت؟ فقل: عند أهلي، وإذا قال لك أهلك: أين كنت؟ فأخبرهم أني كنت عند الكاهن، فبينما الغلام علىٰ ذلك إذ مر بجماعة من الناس كثير، قد حبستهم دابة يقال إنها كانت أسداً، فأخذ الغلام حجراً فقال: اللهم إن كان ما يقول ذلك الراهب حقاً.. فأسألك أن أقتل هذه الدابة، وإن كان ما يقول الكاهن حقاً.. فأسألك أن لا أقتلها، ثم رمىٰ فقتل الدابة، فقال الناس: من قتلها؟ فقالوا: الغلام، ففزع الناس، وقالوا: قد علم هذا الغلام علماً لا يعلمه أحد، فسمع أعمىٰ فجاءه فقال: إن أنت رددت عليَّ بصري.. فلك كذا وكذا، فقال الغلام لا أريد منك هذا، ولكن أرأيت إن رجع عليك بصرك.. أتؤمن بالذي رده عليك، فقال: نعم، فدعا الله تعالىٰ، فرد عليه بصره، فآمن الأعمىٰ، فبلغ الملك أمرهم، فبعث إليهم، فأتي بهم فقال: لأقتلن كل واحد منكم قتلة لا أقتل بها صاحبه، فأمر بالراهب والرجل الذي كان أعمى، فوضع المنشار على مفرق أحدهما فقتله، وقتل الأخر بقتلة أخرى، ثم أمر بالغلام فقال: انطلقوا به إلى جبل كذا وكذا، فألقوه من رأسه، فانطلقوا به إلىٰ ذلك الجبل، فلما انتهوا إلىٰ ذلك المكان الذي أرادوا أن يلقوه منه.. جعلوا يتهافتون من

ذلك الجبل، ويتردون حتى لم يبق منهم إلا الغلام، ثم رجع الغلام، فأمر به الملك أن ينطلقوا به إلىٰ البحر فيلقوه فيه، فانطلقوا به إلىٰ البحر، فغرَّق الله الذين كانوا معه وأنجاه، فقال الغلام للملك: إنك لن تقتلني حتىٰ تصلبني وترميني، وتقول إذا رميتني: بسم الله رب الغلام، فأمر به فصلب ثم رماه، فقال: بسم الله رب الغلام، فوقع السهم في صدغه، فوضع الغلام يده علىٰ موضع السهم، ثم مات، فقال الناس: لقد علم هذا الغلام علماً ما علمه أحد، فإنا نؤمن برب هذا الغلام، فقيل للملك؛ أجزعت أن خالفك ثلاثة، فهذا العالم كلهم قد خالفوك، قال: فخد أخدوداً، ثم ألقىٰ فيه الحطب والنار، ثم جمع الناس فقال: من رجع عن دينه تركناه، ومن لم يرجع ألقيناه في هذه النار، فجعل يلقيهم في تلك الأخدود»، فقال: «يقول الله ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥﴾ حتىٰ بلغ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾» فأما الغلام فإنه دفن، ثم أخرج، فيذكر أنه أخرج في زمان عمر بن الخطاب، وأصبعه علىٰ صدغه كما وضعها حين قتل، ولهذه القصة ألفاظ فيها بعض اختلاف، وقد رواها مسلم في أواخر «الصحيح» عن هدبة بن خالد عن حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ عن صهيب. وأخرجها أحمد عن طريق عفان عن حماد به. وأخرجها النسائي عن أحمد بن سليمان عن حماد بن سلمة به. وأخرجها الترمذي عن محمود بن غيلان وعبد بن حميد عن عبد الرزاق عن معمر عن ثابت به. وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ قال: هم الحبشة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: هم ناس من بني إسرائيل، خدوا أخدوداً في الأرض أوقدوا فيه ناراً، ثم أقاموا علىٰ ذلك الأخدود رجالاً ونساءً، فعرضوا عليها. انتهىٰ من «الشوكاني».

﴿ٱلنَّارِ﴾ بدل[1] اشتمال من الأخدود، لأن الأخدود مشتمل علىٰ النار، وهو بها يكون مهيباً مشتد الهول، والتقدير: النار فيه، أو أقيم أل مقام الضمير علىٰ اختلاف مذهبي أهل البصرة والكوفة. ﴿ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ صفة للنار؛ أي: صاحبة الوقود الكثيرة، وهو بفتح الواو: ما يوقد به، وفيه وصف لها بغاية العظم وارتفاع اللهب، وكثرة ما يوجبه من الحطب، وأبدان الناس ما يدل عليه التعريف الاستغراقي، ولو

---

(١) روح البيان.

لم يحمل علىٰ هذا المعنى.. لم يظهر فائدة التوصيف، إذ من المعلوم أن النار لا تخلو من حطب.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ٱلنَّارِ﴾ بالجر، وهو بدل اشتمال، أو بدل كل من كل على تقدير محذوف؛ أي: أخدود النار، وقرأ قوم: ﴿النارُ﴾ بالرفع، قيل: علىٰ معنى قتلهم، ويكون أصحاب الأخدود إذ ذاك المؤمنين، وقتل علىٰ حقيقته، وقرأ الحسن وأبو رجاء وأبو حيوة وعيسى: ﴿الوُقود﴾ بضم الواو، وهو مصدر، والجمهور: بفتحها، وهو ما يوقد به، وقد حكىٰ سيبويه أنه بالفتح أيضاً مصدر كالضم.

والمعنى: أن أصحاب الأخدود هم أصحاب النار التي لها من الحطب الكثير ما يشتد به لهيبها لا جرم يكون حريقها عضيماً، ولهيبها متطايراً.

وقوله: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦﴾ ظرف[2] لـ ﴿قُتِلَ﴾، والضمير لأصحاب الأخدود، وقعود: جمع قاعد؛ أي: لعنوا حين أحرقوا المؤمنين بالنار قاعدين حولها في مكان مشرف عليها من حافات الأخدود، ولفظ ﴿عَلَىٰ﴾ مشعر بذلك، تقول: مررت عليه، تريد مستعلياً بمكان يقرب منه، وفي بعض التفاسير: علىٰ سرر وكراسي قعود عند النار، ولو قعدوا علىٰ نفس النار لاحترقوا، فالقاتلون كانوا جالسين في مكان مشرف أو نحوه، ويعرضون المؤمنين علىٰ النار، فمن كان يترك دينه تركوه، ومن كان يصر ألقوه في النار وأحرقوه، وكان ﷺ إذا ذكر أصحاب الأخدود تعوذ بالله من جهد البلاء، وهو الحالة التي يختار عليها الموت، أو كثرة العيال والفقر.. كما في «القاموس». والجهد بالفتح: المشقة، وجهد عيشه كفرح: نكد واشتد.

والمعنىٰ[3]: أي قتلوا ولعنوا حين أحرقوا المؤمنين بالنار، وهم قاعدون حولها يشرفون عليهم، وهم يعذبون بها ويحرقون فيها، كما أشار إلىٰ ذلك بقوله: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾ جمع شاهد؛ أي: إن أولئك الجبابرة الذين أمروا بإحراق المؤمنين كانوا حضوراً عند تعذيبهم، يشاهدون ما يفعله بهم أتباعهم، فـ ﴿عَلَىٰ﴾ بمعنىٰ: مع، والتقدير: وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين شهود؛ أي:

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان. (٣) المراغي.

حضور، وفي هذا إيماء إلىٰ قسوة قلوبهم، وتمكن الكفر منهم إلىٰ ما فيه من إشارة إلىٰ قوة اصطبار المؤمنين، وشدة جلدهم، ورباط جأشهم، واستمساكهم بدينهم. أو المعنى[1]: أي: يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأن أحداً منهم لم يقصر فيما أمر به، وفوض إليه من التعذيب بالإحراق من غير ترحم وإشفاق. أو المعنىٰ: أنهم شهود يشهدون بما فعلوا بالمؤمنين يوم القيامة، يعني: تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون.

قال الزجاج: أعلم الله سبحانه قصة قوم بلغت بصيرتهم حقيقة إيمانهم إلىٰ أن صبروا على أن يحرقوا بالنار في الله، هذا هو الذي يستدعيه النظم الكريم، وتنطبق به الروايات المشهورة، وقد ذهب بعضهم إلىٰ أن الجبابرة لما ألقوا المؤمنين في النار، وهم قعود حولها.. علقت بهم النار، وفي رواية: ارتفعت فوقهم أربعين ذراعاً، فوقعت عليهم فأحرقتهم، ونجىٰ الله المؤمنين سالمين، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله، وقبض الله أرواحهم قبل أن تمسهم النار، كما فعل ذلك بآسية امرأة فرعون على ما سبق، وعلىٰ ذلك حملوا قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾؛ أي: لهم عذاب جهنم في الآخرة، ولهم عذاب الحريق في الدنيا.

﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾؛ أي: وما أنكر أولئك الجبابرة علىٰ المؤمنين، وما عابوا عليهم، وما كرهوا منهم ﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: إلا إيمانهم وتصديقهم بوحدانية الله سبحانه وعبادتهم له ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾؛ أي: الغالب علىٰ كل متكبر عال ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾؛ أي: المحمود في كل حال. قال الزجاج: ما أنكروا عليهم ذنباً إلا إيمانهم بالله، والاستثناء[2] فيه مفرغ مفصح عن براءتهم مما يعاب وينكر بالكلية، علىٰ منهاج قوله:

وَلَا عَيْبَ فِيْهِمْ غَيْرَ أَنَّ ضُيُوْفَهُمْ ... تُلَامُ بِنِسْيَانِ ٱلأَحِبَّةِ وَٱلْوَطَنْ

وقول الآخر:

وَلَا عَيْبَ فِيْهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوْفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُوْلٌ مِنْ قِرَاعِ ٱلْكَتَائِبِ

فهو من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم، لأن ما أنكره ليس منكراً في الواقع،

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

وغير حقيق بالإنكار، كما أن ما جعله الشاعر عيباً ليس عيباً، ولا ينبغي أن يعد عيباً، ولا يضر ذلك كون الاستثناء في قول الشاعر مبنياً علىٰ الادعاء بخلاف ما في نظم القرآن، فإنهم أنكروا الإيمان حقيقة، وعبر بلفظ المضارع في قوله: ﴿أَن يُؤْمِنُوا﴾ مع أن الإيمان وجد منهم في الماضي؛ لإرادة الاستمرار والدوام عليه، فإنهم ما عذبوهم لإيمانهم في الماضي، بل لدوامهم عليه في الآتي، ولو كفروا في المستقبل لم يعذبوا علىٰ ما مضى، فكأنه قيل: إلا أن يستمروا علىٰ إيمانهم، وأما قوله تعالى حكاية عن سحرة فرعون: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ فلأن مجرد إيمان السحرة بموسى عليه السلام كان منكراً واجب الانتقام عندهم.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿نَقَمُوا﴾ بفتح القاف، وقرأ زيد بن علي وأبو حيوة وابن أبي عبلة بكسرها، والفصيح: الفتح.

والمعنىٰ[2]: أي إن هؤلاء الكفار لم يعاقبوا المؤمنين إلا علىٰ شيء لا يجوز العقاب عليه، بل ينبغي لكل أحد أن يكون عليه، ويدعو غيره إلىٰ التمسك به، وهو الإيمان بالله تعالى العزيز الغالب الذي يخشى عقابه، وتهاب صولته، المنعم الذي يرجىٰ ثوابه وترتقب نعماؤه.

ثم أكد استحقاقه للعزة والحمد بقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: لأنه مالك الأمر كله فيهما، فلا مفر لأولئك الظالمين من سلطانه، ومن كان هذا شأنه.. فهو حقيق بأن يؤمن به ويوحد، ووصفه[3] تعالى بكونه عزيزاً غالباً يخشىٰ عقابه، حميداً منعماً يرجىٰ ثوابه، وتأكيد ذلك بقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ للإشعار بمناط إيمانهم، وأخر هذه الصفة - أعني: صفة الملك -، لأن الملك التام لا يحصل إلا عند حصول الكمال في القدرة التي دل عليها ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾، وفي العلم الذي دل عليه ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾، لأن من لا يكون تام العلم لا يمكن أن يفعل الأفعال الحميدة.

وفي «كشف الأسرار»: وإنما وصف ذاته بهذه الصفات.. ليعلم أنه لم يمهل الكفار لأجل أنه غير قادر، لكنه أراد أن يبلغ بهؤلاء المؤمنين مبلغاً من الثواب لم

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

يكونوا يبلغونه إلا بمثل ذلك الصبر، وأن يعاقب أولئك الكافرين عقاباً لم يكونوا يستوجبونه إلا بمثل ذلك الفعل، وكان قد جرىٰ بذلك قضاؤه علىٰ الفريقين جميعاً في سابق تدبيره وعلمه، وفيه تشنيع علىٰ الكفار بغاية جهلهم، حيث عدوا ما هو منقبة هي سبب المدح منقصةً هي سبب القدح.

ثم وبخهم علىٰ ما صنعوا بالمؤمنين، وأوعدهم بأنهم سيلاقون جزاء ما فعلوا، فقال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أقوال الفريقين وأفعالهم وأحوالهم وشؤون غيرهما ﴿شَهِيدٌ﴾؛ أي: مطلع، فهو عليم بما يكون من خلقه، ومجازيهم عليه، لا تخفىٰ عليه منهم خافية، وفي هذا وعيد شديد لأصحاب الأخدود، ووعد خير لمن عذبوه علىٰ دينه من أولئك المؤمنين، فإن علمه تعالىٰ بجميع الأشياء التي من جملتها أعمال الفريقين يستدعي توفير جزاء كل منهما حتماً. قال الإمام القشيري: الشهيد: العليم، ومنه قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: علم الله، والشهيد: الحاضر، وحضوره بمعنىٰ: علمه ورؤيته وقدرته، والشهيد: مبالغة من الشاهد، وإذا علم العبد أن الله تعالىٰ شهيد يعلم أفعاله، ويرىٰ أحواله.. سهل عليه ما يقاسيه لأجله. قالوا: ودلت هذه القصة علىٰ أن المكره علىٰ الكفر بنوع من العذاب، الأولى له أن يصبر علىٰ ما خوف منه، وإن كان إظهار الكفر كالرخصة في ذلك.

حُكي: أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب النبي ﷺ، فقال لأحدهما: تشهد أني رسول الله، فقال: نعم، فتركه، وقال للآخر مثله، فقال: لا بل أنت كذاب، فقتله، فقال النبي ﷺ: «أما الذي تركه فأخذ بالرخصة، فلا تبعة عليه، وأما الذي صبر.. فأخذ بالفضل، فهنيئاً له».

ثم بين سبحانه ما أعد لأولئك الذين فعلوا بالمؤمنين ما فعلوا من التحريق فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بالإحراق وغيره بسبب إيمانهم؛ أي: إن[1] الذين محنوهم في دينهم وآذوهم وعذبوهم بأي عذاب كان ليرجعوا عنه، كأصحاب الأخدود ونحوهم، كما روي أن قريشاً كانوا يعذبون بلالاً وأضرابه، فالموصول للجنس، وإنما لم يدفع البلاء قبل الابتلاء؛ لأن أهل الولاء لا يخلو عن البلاء:

---

(١) روح البيان.

وَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ٱلصَّفَاءُ لِعَاشِقٍ وَجَنَّةُ عَدْنٍ بِٱلْمَكَارِهِ حُفَّتِ

﴿ثُمَّ﴾؛ أي: بعد ما فعلوا ما فعلوا من الفتنة ﴿لَمْ يَتُوبُوا﴾ عن كفرهم وفتنتهم، فإن ما ذكر من الفتنة في الدين لا يتصور من دين الكافر قطعاً، وفي إيراد ﴿ثُمَّ﴾: إشعار بكمال حلمه وكرمه حيث لا يعجل في القهر ويقبل التوبة، وإن طالت مدة الحوبة. قال الإمام: وذلك يدل على أن توبة القاتل عمداً مقبولة. ﴿فَلَهُمْ﴾ في الآخرة بسبب كفرهم، والفاء لتضمن المبتدأ معنىٰ الشرط، ولا يضر نسخه بإن خلافاً للأخفش.

﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ يعذبون به أبداً ﴿وَلَهُمْ﴾ بسبب فتنتهم للمؤمنين ﴿عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾؛ أي: عذاب عظيم زائد في الإحراق علىٰ عذاب سائر أهل جهنم، فظهرت المغايرة بين المعطوفين، وإن كان كل منهما حاصلاً في الآخر، ويحتمل[1] أن يكون المراد بعذاب جهنم: بردها وزمهريرها، وبعذاب الحريق: حرها، فيرددون بين برد وحر، علىٰ أن يكون الحر لإحراقهم المؤمنين في الدنيا، والبرد لغيره، كما قالوا الجزاء من جنس العمل، والحريق: اسم بمعنىٰ الاحتراق، كالحرقة.

يقول الفقير: الظاهر: أن الحريق هنا بمعنىٰ: المحرق، كالأليم بمعنىٰ: المؤلم، فيكون إضافة العذاب إلىٰ الحريق، من قبيل إضافة الموصوف إلىٰ صفته، ويستفاد زيادة الإحراق من المقابلة، فإن العطف من باب الترقي بحسب العذاب المترتب علىٰ الترقي من حيث العمل.

والمعنى[2]: أي: إن الذين امتحنوا المؤمنين والمؤمنات بالتعذيب ليردوهم عن دينهم، وثبتوا علىٰ كفرهم، ولم يتوبوا حتىٰ أخذهم الموت، أعد الله لهم عذاباً في جهنم بالحريق وقد كان الضالون من كل أمة يؤذون أهل الحق والدعاة إليه حرصاً على ما ألفوا من الباطل، وتشيعاً لما وجدوا عليه أنفسهم وآباءهم الأقربين علىٰ غير بصيرة، ولا استشارة للعقل السليم، ولا يزال هذا شأنهم إلى يوم الدين، انظر إلىٰ أصحاب الأخدود.. تجدهم قد عرضوا المؤمنين علىٰ النار، وأحرقوهم بها، وإلىٰ كفار قريش.. ترهم قد فتنوا المؤمنين بالكثير من الإيذاء، فعذبوا آل ياسر

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

بفنون من العذاب، وعذبوا بلالاً بما لا يحصىٰ من ضروب الأذى، وفعلوا مثل هذا بكثير من أكابر المؤمنين، حتىٰ لقد آذوا الرسول الأكرم، وألحقوا به كثيراً من العنت والأذىٰ، فرموه بالحجارة حتىٰ أدموه، بل فعلوا معه أكثر من هذا، فخرجوا بخيلهم ورجلهم يقاتلونه وأصحابه، ويتمنون إن تمكنوا منه أن يقتلوه، ولكن الله منعه منهم، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾.

وفي قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ إيماء إلىٰ أنهم لو تابوا قبل موتهم.. غفر الله لهم ما قدموا قبل التوبة من ذنب، كما مر.

وبعد أن ذكر ما أعد لأعدائه من النكال والعذاب الأليم.. أرشد إلىٰ ما يكون لأوليائه من النعيم المقيم؛ ليكون ذلك أنكىٰ للأعداء، وأشد في غيظهم، وأبعث للأسىٰ والحزن في نفوسهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ على الإطلاق من المفتونين وغيرهم، والمعنىٰ: إن الجامعين بين الإيمان وعمل الصالحات ﴿لَهُمْ﴾ بسبب ما ذكر من الإيمان، والعمل الصالح الذي من جملته الصبر علىٰ أذى الكفار، وإحراقهم. إيراد[1] الفاء أولاً، وتركها ثانياً يدل علىٰ جواز الأمرين. ﴿جَنَّـٰتٌ﴾ يجازون بها بمقابلة النار ونحوها ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ الأربعة، يجازون بذلك بمقابلة الاحتراق والحرارة ونحو ذلك. قال في «الإرشاد»: إن[2] أريد بالجنات الأشجار، فجريان الأنهار من تحتها ظاهر، وإن أريد بها الأرض المشتملة عليها، فالتحتية باعتبار جزئها الظاهر، وهو الشجر، فإن أشجارها ساترة لساحتها، كما يعرب عنه اسم الجنة. انتهىٰ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور العظيم الشأن، وهو حصول الجنات لهم ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي لا يعدله فوز آخر، وتصغر عنده الدنيا وما فيها من فنون الرغائب بحذافيرها، فالحصر إضافي. قال في «برهان القرآن»: ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلْفَوْزُ﴾: خبره، و ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾: صفته، وليس له في القرآن نظير، والفوز النجاة من الشر، والظفر بالخير، فإن أشير بذلك إلىٰ الجنات نفسها، فهو مصدر أطلق علىٰ المفعول مبالغةً، وإلا فهو مصدر علىٰ حاله.

---

(١) روح البيان. (٢) أبو السعود.

قال الإمام[1]: إنما قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ﴾، ولم يقل: تلك؛ لدقيقة لطيفة، وهي أن قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلىٰ إخبار الله سبحانه بحصول هذه الجنات، ولو قال: تلك.. لكانت الإشارة إلىٰ نفس الجنات، وإخبار الله تعالىٰ عن ذلك يدل علىٰ كونه راضياً، و﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾: هو رضى الله سبحانه، لا حصول الجنة. يقول الفقير: عندي أن حصول الجنات هو الفوز الكبير، وحصول رضىٰ الله سبحانه هو الفوز الأكبر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، وإنما لم يقل تلك لأن نفس الجنات من حيث هي ليست بفوزه، وإنما الفوز حصولها ودخولها.

ومعنىٰ الآية[2]: أي إن الذين أقروا بوحدانية الله تعالى، وعملوا صالح الأعمال ائتماراً بأوامره، وكفوا عن نواهيه ابتغاء رضوانه، لهم بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار، وهذا هو الظفر الكبير لهم، كفاء ما قدموا من إيمان وطاعة لربهم.

وجملة قوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ مستأنفة لخطاب النبي ﷺ، مبينة لما عند الله تعالى من الجزاء لمن عصاه، والمغفرة لمن أطاعه، إيذاناً بأن لكفار قومه نصيباً موفوراً من مضمونه، كما ينبيء عنه التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلىٰ ضميره ﷺ، والبطش: تناول الشيء بصولة، والأخذ بعنف وشدة، يقال: يد باطشة. وحيث وصف البطش بالشدة فقد تضاعف وتفاقم، وهو بطشه بالجبابرة والظلمة، وأخذه إياهم بالعذاب والانتقام، وإن كان بعد إمهال، فإنه عن حكمة لا عن عجز؛ أي: إن أخذ ربك للظلمة والجبابرة لشديد، ومثل هذا قوله: ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

والمعنى[3]: إن انتقامه من الجبابرة والظلمة، وأخذه إياهم بالعقوبة.. لهو الغاية في الشدة، والنهاية في الأذى والألم، وفي هذا إرهاب لقريش ومن معها، وتعزية لرسول الله ﷺ ولمن تبعه.

وقد زاد سبحانه أمر قدرته توكيداً فقال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ﴾ وحده ﴿يُبْدِئُ﴾، وقرىء ﴿يبدأ﴾ من بدأ ثلاثياً، حكاه أبو زيد؛ أي: يبدأ الخلق، ويخرجهم من العدم إلىٰ

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) المراغي.

الوجود، ثم يميتهم ويعيدهم أحياءً بعد الموت للمجازاة علىٰ الخير والشر من غير دخل لأحد في شيء منهما، ففيه مزيد تقدير لشدة بطشه، ومن كان قادراً علىٰ الإيجاد والإعادة إذا بطش كان بطشه في غاية الشدة، وبهذا ظهر التعليل بهذه الجملة لما سبق من شدة البطش. ا هـ «شهاب». كذا قال الجمهور. وقيل: يبدىء البطش بالكفرة في الدنيا، ويعيده لهم في الآخرة، واختار هذا ابن جرير، والأول أولىٰ.

والمعنىٰ: أنه يخلق الخلق ابتداءً، ثم يعيدهم بعد أن صيَّرهم تراباً، وإذا كان قادراً علىٰ البدء والإعادة.. فهو قادر على شديد البطش بهم؛ لأنهم تحت قبضته، وخاضعون لسلطانه، فكأنه سبحانه يقول: إن مرجعكم إلىٰ ربكم، فإذا لم يعاقبكم في هذه الحياة علىٰ ما تعملون مع أوليائه، فلا تظنوا أن ذلك إهمال منه أو تقصير في شأنهم، بل أخر ذلك ليوم ترجعون إليه، وهو اليوم الذي سيكون فيه البطش والانتقام منكم. وقيل: المعنىٰ: أنه[1] يبدىء البطش والعذاب في الآخرة، ثم يعيده فيها، كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن أهل جهنم تأكلهم النار، حتىٰ يصيروا فيها فحماً، ثم يعيدهم خلقاً جديداً، فهو المراد من الآية، أو المعنىٰ: يبدىء من التراب، ويعيده فيه، أو يبدىء من النطفة، ويعيده في الآخرة، يقال: بدأ الله الخلق وأبدأهم، فهو بادئهم ومبدئهم، بمعنىٰ واحد، والمبدىء: المظهر ابتداءً، والمعيد: المنشىء بعد ما عدم، فالإعادة ابتدأ ثانٍ. قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: المبدىء المعيد: معناه: الموجد، لكن الإيجاد إذا لم يكن مسبوقاً بمثله يسمىٰ: إبداءً، وإن كان مسبوقاً بمثله يسمىٰ: إعادةً، والله تعالى بدأ خلق الإنسان، ثم هو الذي يعيدهم؛ أي: يحشرهم، فالأشياء كلها منه بدت، وإليه تعود، وبه بدت وبه تعود. انتهىٰ.

قال الإمام القشيري رحمه الله: إن الله تعالى يبدىء فضله وإحسانه لعبيده، ثم يعيده ويكرره، فإن الكريم من يرب صنائعه، وخاصية الاسم المبدىء: أن يقرأ على بطن الحامل سحراً تسعاً وعشرين مرة، فإن ما في بطنها يثبت ولا يزلق، وخاصية الاسم المعيد: يذكر مراراً لتذكار المحفوظ إذا نسي لا سيما إذا أضيف له الاسم

---

(١) روح البيان.

المبدىء.

ثم ذكر سبحانه خمسة أوصاف من صفات الرحمة والجلال فقال:

١ - ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾؛ أي: كثير المغفرة لمن تاب عن الكفر وآمن، وكذا لمن تاب عن غيره من المعاصي، ولمن لم يتب أيضاً إن شاء فتجاوز عن سيئاته.

٢ - ﴿ٱلْوَدُودُ﴾؛ أي: المحب لمن أطاع أو تاب، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾، فالودود: فعول بمعنىٰ الفاعل ههنا، وهو الذي يقتضيه المقام، وقال سهل رحمه الله تعالى: الودود: المحب إلىٰ عباده بإسباغ النعم عليهم ودوام العافية، فيكون بمعنىٰ المفعول؛ لأنه يحبه عباده الصالحون، ومحبة العبد لله طاعته له، وموافقته لأمره، أو تعظيمه له، وهيبته في قلبه، وخاصية الاسم الودود. حصول محبة الله ومحبة طاعته لذاكره.

٣ - ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾؛ أي: خالق العرش ومالكه، وقيل: المراد بالعرش: الملك مجازاً؛ أي: ذو السلطنة القاهرة على المخلوقات السفلية، والمخلوقات العلوية، وإن لم يكن علىٰ السرير، يقال: ثُلَّ عرش فلان: إذا ذهب سلطانه، ومنه قول الشاعر:

إِنْ يَقْتُلُوْكَ فَقَدْ ثَلَلْتَ عُرُوْشَهُمْ ... بِعُتَيْبَةَ بْنِ ٱلْحَارِثِ بْنِ شِهَابِ

٤ - ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ بالرفع علىٰ أنه صفة لـ﴿ذُو﴾، وهو الشريف ذاته، الجميل أفعاله، الجزيل عطاؤه، وهو الماجد أيضاً، ولكن دل أحدهما علىٰ المبالغة.

وقرىء بالجر علىٰ أنه صفة لـ﴿ٱلْعَرْشِ﴾، أو صفة لـ﴿ذي﴾، ومجد العرش: علوه في الجهة، وعظم قدره، وحسن صورته وتركيبه، فإنه أحسن الأجسام تركيباً وصورة.

وقرأ الجمهور: ﴿ذُو﴾ بالواو، وابن عامر في رواية: ﴿ذي﴾ بالياء علىٰ أنه صفة لـ ﴿رَبِّكَ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾ ولا يضر الفصل بينهما؛ لأنها صفات الله سبحانه.

وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد وابن وثاب والأعمش والمفضل عن عاصم والأخوان حمزة والكسائي: ﴿ٱلْمَجِيدِ﴾ بكسر الدال علىٰ أنه صفة لـ﴿ٱلْعَرْشِ﴾، ومن

قرأ: ﴿ذي العرش﴾ بالياء، جاز في قراءته أن يكون ﴿المجيد﴾ بالخفض صفةً ﴿لذي﴾، واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة الجمهور: ﴿ذُو﴾ قالا: لأن المجد هو النهاية في الكرم والفضل، والله سبحانه هو المنعوت بذلك، والأحسن جعل هذه المرفوعات أخباراً عن ﴿هُوَ﴾، فيكون ﴿فَعَّالٌ﴾ خبراً عنه أيضاً؛ أي: هو سبحانه.

٥ - ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ من الإبداء والإعادة قال عطاء: لا يعجز عن شيء أراده، ولا يمنع منه شيء طلبه، وإنما قال: ﴿فَعَّالٌ﴾ بصيغة المبالغة؛ لأن ما يريد ويفعل في غاية الكثرة من الإحياء والإماتة، والإعزاز والإذلال، والإغناء والإقتار، والشفاء والإمراض، والتقريب والتعبيد، والعمارة والتخريب، والوصل والفرق، والكشف والحجاب، وغير ذلك.

ثم ذكر سبحانه خبر الجموع الكافرة فقال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾، والجملة مستأنفة مقررة لما تقدم من شدة بطشه سبحانه، وكونه فعالاً لما يريده، وفيه تسلية لرسوله ﷺ، والاستفهام فيه للتقرير؛ أي: قد أتاك وجاءك يا محمد ﴿حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾؛ أي: خبر الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائها، المتجندة عليهم في ماضي الأزمان، ثم بينهم فقال: ﴿فِرْعَوْنَ﴾ بدل من الجنود، مع أنه غير مطابق ظاهراً للمبدل منه في الجمعية؛ لأن المراد بفرعون هو وقومه، ويحتمل أن يكون على حذف المضاف؛ أي: جنود فرعون ﴿وَثَمُودَ﴾ قوم صالح، معطوف على ﴿فِرْعَوْنَ﴾؛ أي: قد أتاك[١] حديث هؤلاء، وعرفت ما فعلوا من التكذيب، وما فعل بهم من التعذيب، فذكر قومك بشؤون الله فيهم، وأنذرهم أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك حين كذبوا أنبيائهم، وقد كانوا سمعوا قصة فرعون وجنوده قوم موسىٰ عليه السلام، ورأوا آثار هلاك ثمود قوم صالح عليه السلام؛ لأنها كانت في ممرهم وفي بلادهم، وقصتهم مشهورة قد تكرر في الكتاب العزيز ذكرها في غير موضع، واقتصر علىٰ الطائفتين لاشتهار أمرهما عند أهل الكتاب، وعند مشركي العرب، ألا ترىٰ إلى زهير بن أبي سلمىٰ وقوله:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَهْلَكَ تُبَّعَاً وَأَهْلَكَ لُقْمَانَ بْنَ عَادٍ وَعَادِيَا

(١) روح البيان.

وَأَهْلَكَ ذَا ٱلْقَرْنَيْنِ مِنْ قَبْلِ مَا نَوَىٰ   وَفِرْعَوْنَ جَبَّاراً طَغَىٰ وَٱلنَّجَاشِيَا

وأخَّر ثمود مع تقدمه على فرعون زماناً؛ لرعاية الفواصل، وكان فرعون من المتأخرين في الهلاك، فدل بقصته وقصة ثمود علىٰ أمثالها من قصص الأمم المكذبة وهلاكهم.

ثم أضرب عن مماثلة هؤلاء المشركين في عصره ﷺ لمن تقدم ذكره، وبين أنهم أشد منهم في الكفر والتكذيب فقال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من قومك ﴿فِى﴾ أشد ﴿تَكْذِيبٍ﴾ لك ولما جئت به، ولم يعتبروا بمن كان قبلهم من الأمم المكذبة المهلكة، فهؤلاء أشد منهم في الكفر والطغيان، وتنكير ﴿تَكْذِيبٍ﴾ للتعظيم، كأنه قيل: ليسوا مثلهم في ذلك، بل هم أشد منهم في استحقاق العذاب واستيجاب العقاب، فإنهم مستقرون في تكذيب شديد للقرآن الناطق بذلك، لكن لا أنهم يكذبون بوقوع الحادثة، بل يكذبون كون ما نطق قرآناً من عند الله مع وضوح أمره وظهور حاله بالبينات الباهرة.

وحاصل معنى الآيات: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: هل[1] بلغك يا محمد ما صدر من أولئك الجنود من التمادي في الكفر والضلال، وما حل بهم من العذاب والنكال.

والخلاصة: أنه قد أتاك خبرهم، وعرفت ما فعلوا وما جازاهم ربهم به، فذكر قومك بأيام الله، وأنذرهم أنه سيصيبهم ما أصاب أماثلهم من أهل الضلال.

ثم بين من هم أولئك الجنود، فقال: ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾، وحديث هذين مشهور متعارف بينهم، فقد كانوا يعرفون من يهود المدينة وغيرهم ما كان من فرعون مع كليم الله موسى عليه السلام من العناد، والإصرار على الكفر، وما كان من عاقبة أمره، وأن الله أغرقه في اليم هو وقومه، وأذاقه الوبال في الآخرة والأولىٰ، كما كانوا يعرفون قصة ثمود مع صالح عليه السلام، وأنهم عقروا الناقة التي جعلها الله لهم آية، فدمر بلادهم وأهلكهم، ولم يترك لهم من باقية، وهم يمرون علىٰ ديارهم في أسفارهم ويسمعون أخبارهم.

---

(١) المراغي.

وخلاصة ذلك: أن الكفار في كل عصر متشابهون، وأن حالهم مع أنبيائهم لا تتغير ولا تتبدل، فهم في عنادهم واستكبارهم سواسية كأسنان المشط، فقومك أيها الرسول ليسوا ببدع في الأمم، فقد سبقتهم أمم قبلهم، وحل بهم من النكال ما سيحل بقومك إن لم يؤمنوا، فاصبر إن العاقبة للمتقين، وقد أشار إلىٰ أن هذه شنشنتهم في كل عصر ومصر فقال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾﴾؛ أي: إن الكفار في كل عصر غارقون في شهوة التكذيب حتىٰ لم يدع ذلك لعقلهم مجالاً للنظر، ولا متسعاً للتدبر، ولا يزالون في غمرة حتىٰ يؤخذوا علىٰ غرة فقال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مِن وَرَآئِهِم﴾؛ أي: من خلفهم ﴿مُّحِيطٌۢ﴾ بهم بالقدرة، وهو تمثيل لعدم نجاتهم من بأس الله بعدم فوت المحاط به المحيط إذا سد عليه مسلكه بحيث لا يجد هرباً منه؛ أي: إنه تعالىٰ مقتدر عليهم، وهم في قبضة لا يجدون مهرباً، ولا يستطيعون الفرار إذا أرادوا، فلا تجزع من تكذيبهم، واستمرارهم علىٰ العناد، فلن يفوتوني إذا أردت الانتقام منهم.

ثم رد علىٰ تماديهم في تكذيب القرآن، وادعائهم أنه أساطير الأولين فقال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾؛ أي: ليس الأمر كما قالوا، بل هذا الذي كذبوا به قرآن شريف عال الطبقة فيما بين الكتب الإلهية في النظم والمعنىٰ، متضمن للمكارم الدنيوية والأخروية، مكتوب ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ من التحريف ووصول الشياطين إليه، واللوح: كل صحيفة عريضة خشباً، أو عظماً. كما في «القاموس».

قال الراغب: اللوح واحد ألواح السفينة، وما يكتب فيه من الخشب ونحوه، والمراد به هنا ما قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الله خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء، دفتاه ياقوتة حمراء، طوله ما بين السماء والأرض، وعرضه ما بين المشرق والمغرب، ينظر الله فيه كل يوم ثلاث مئة وستين مرة، يحيي ويميت، يعز ويذل ويفعل ما يشاء، وفي صدر اللوح: لا إله إلا الله وحده، ودينه الإسلام، ومحمد عبده ورسوله، فمن آمن به وصدق وعده واتبع رسله.. أدخله الجنة. وقال بعض المفسرين: اللوح: شيء يلوح للملائكة، فيقرؤونه.

قلت: والمذهب الأسلم: أن يقال: اللوح المحفوظ شيء أخبرنا الله به، وأنه أودعه كتابه، ولكن لم يعرفنا حقيقته، فعلينا أن نؤمن به، وليس علينا أن نبحث فيما وراء ذلك مما لم يأتِ به خبر من المعصوم صلوات الله وسلامه عليه.

وقرأ الجمهور: ﴿قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ برفعهما علىٰ أنهما موصوف وصفة، وقرأ ابن سميفع ﴿قرآن مجيد﴾ بالإضافة، قال ابن خالويه: سمعت الأنباري يقول: معناه: بل هو قرآن رب مجيدٍ، ويجوز أن يكون من باب إضافة الموصوف لصفته، فيكون مدلوله ومدلول التنوين ورفع مجيد واحداً، وهذا أولىٰ؛ لتوافق القراءتين.

وقرأ الجمهور: ﴿فِى لَوْحٍ﴾ بفتح اللام ﴿مَّحْفُوظٍ﴾ بالخفض صفة للوح، واللوح المحفوظ: هو الذي فيه جميع الأشياء، معلَّق بالعرش. كما في القرطبي. وقرأ ابن يعمر وابن السميفع بضم اللام؛ أي: إنه يلوح، وهو ذو نور وعلو وشرف. قال ابن خالويه: اللوح: الهواء، وقال الزمخشري: يعني: اللوح فوق السماء السابعة الذي هو في اللوح المحفوظ من وصول الشياطين إليه، وقرأ الأعرج وزيد بن علي وابن محيصن ونافع بخلاف عنه: ﴿محفوظٌ﴾ بالرفع صفة للقرآن، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾؛ أي: هو محفوظ في القلوب لا يلحقه خطأ ولا تبديل.

الإعراب

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾: ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾: مجرور بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف وجوباً تقديره: أقسم، وجملة القسم مستأنفة استئنافاً نحوياً ﴿ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾: صفة لـ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ مجرور بالكسر، ﴿وَٱلْيَوْمِ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿اليومِ﴾: معطوف علىٰ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾، أو: ﴿الواو﴾: حرف قسم ﴿اليومِ﴾: مقسم به مجرور بواو القسم، فيكون قسماً مستقلاً ﴿ٱلْمَوْعُودِ﴾: صفة لـ ﴿ليوم﴾، ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾﴾ معطوفان أيضاً علىٰ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾، ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾﴾: فعل ماضٍ ونائب فاعل، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب، ولكنه محذوف الصدر، تقديره: أقسم بهذه الأشياء لقد قتل أصحاب الأخدود، وإنما احتيج لهذا الحذف؛ لأن المشهور عند النحاة: أن الماضي المثبت المتصرف الذي لم يتقدم معموله إذا وقع جواباً للقسم.. تلزمه اللام وقد، لا يجوز

الاقتصار علىٰ أحدهما إلا عند طول الكلام كما مر، أو هذه الجملة دالة علىٰ الجواب المحذوف، لا جواب تقديره: أقسم بهذه الأشياء: إن هؤلاء المشركين ملعونون، كما لعن أصحاب الأخدود. ﴿ٱلنَّارِ﴾: بدل اشتمال من الأخدود، مجرور بالكسرة؛ لأن الأخدود مشتمل عليها، ولا بد فيه من رابط تقديره: عند البصريين: النار فيه، وعند الكوفيين: ناره؛ لأن أل في البدل نابت عن الضمير عندهم، فكأنه مذكور ﴿ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ مضاف ومضاف إليه ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضىٰ من الزمان متعلق بـ ﴿قُتِلَ﴾؛ أي: لعنوا حين أحرقوا المؤمنين بالنار، قاعدين عليها، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، ﴿عَلَيْهَا﴾: متعلق بـ ﴿قُعُودٌ﴾، و ﴿قُعُودٌ﴾: خبر المبتدأ، وهو جمع: قاعد، والجملة الاسمية في محل الجر بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليها ﴿وَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿هُمْ﴾: مبتدأ ﴿عَلَىٰ مَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ ﴿شُهُودٌ﴾، وجملة ﴿يَفْعَلُونَ﴾ صلة ﴿ما﴾ الموصولة. ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بـ ﴿يَفْعَلُونَ﴾، ﴿شُهُودٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجر معطوفة علىٰ الجملة التي قبلها، أو في محل النصب حال من الضمير المستكن في ﴿قُعُودٌ﴾، وعلىٰ بمعنىٰ: مع، و ﴿شُهُودٌ﴾ بمعنىٰ: حضور، والمعنىٰ: وهم حضور مع ما يفعلون بالمؤمنين، لا يرقون لهم، ولا يرحمون لقسوة قلوبهم، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، أو حالية ﴿مَآ﴾: نافية، ﴿نَقَمُوا﴾؛ فعل وفاعل، ﴿مِنْهُمْ﴾: متعلق بـ ﴿نَقَمُوا﴾، والجملة معطوفة علىٰ ما قبلها، أو حال من فاعل ﴿يَفْعَلُونَ﴾، ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء مفرغ، وجملة ﴿أَن يُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ﴾ مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ ﴿نَقَمُوا﴾؛ أي: ما عابوا منهم، وما أنكروا منهم إلا الإيمان بالله سبحانه، و ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بـ ﴿يُؤْمِنُوا﴾ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾: صفتان للجلالة ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة ثالثة له، و ﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم، ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف علىٰ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملة الاسمية صلة الموصول، و ﴿وَٱللَّهُ﴾ مبتدأ، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾: متعلق بـ ﴿شَهِيدٌ﴾، و ﴿شَهِيدٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة مقررة لما قبلها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ
(١٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ (١١)
إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ (١٤) ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ (١٥)
فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٦)﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿فَتَنُوا۟﴾ صلة الموصولة، ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: مفعول به، ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب مع تراخ، ﴿لَمْ﴾: حرف نفي وجزم، ﴿يَتُوبُوا۟﴾ فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لَمْ﴾ والجملة معطوف علىٰ جملة ﴿فَتَنُوا۟﴾، ﴿فَلَهُمْ﴾ الفاء رابطة الخبر بالمبتدأ جوازاً، وإن كان منسوخاً لشبه المبتدأ بالشرط في العموم ﴿لهم﴾: خبر مقدم ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة من المبتدأ والخبر في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لذكر وعيد المجرمين أولاً، ثم يردفه بذكر ما أعد للمؤمنين، ﴿وَلَهُمْ﴾: خبر مقدم ﴿عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة علىٰ ما قبلها علىٰ كونها خبراً، لـ ﴿إِنَّ﴾. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿ءَامَنُوا۟﴾: صلة الموصول ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به معطوف علىٰ ﴿ءَامَنُوا۟﴾، ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم ﴿جَنَّٰتٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان ما أعد للمؤمنين، ولم تعطف علىٰ ما قبلها إيذاناً باستقلالها بالمقصودية، وترك الفاء الرابطة هنا إشعاراً بجواز الأمرين، كما مر ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع، ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ متعلق بـ ﴿تَجْرِى﴾، ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل ﴿تَجْرِى﴾، والجملة في محل الرفع صفة لـ ﴿جَنَّٰتٌ﴾، ولكنها سببية ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ صفة لـ ﴿ٱلْفَوْزُ﴾، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان علو درجة ما نالوا، ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾: ناصب واسمه ومضاف إليه ﴿لَشَدِيدٌ﴾: خبره، و ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، والجملة مستأنفة مسوقة لتسلية النبي ﷺ علىٰ ما يكابده من كفار مكة ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، لا الضمير فصل؛ لفقد الشرط، وجملة ﴿يُبْدِئُ﴾ خبر لـ ﴿هُوَ﴾، والجملة الابتدائية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة، وجملة ﴿وَيُعِيدُ﴾ معطوفة علىٰ جملة ﴿يُبْدِئُ﴾، ﴿وَهُوَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، ﴿ٱلْغَفُورُ﴾: خبر أول له ﴿ٱلْوَدُودُ﴾: خبر ثانٍ ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾: خبر ثالث ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ ـ بالرفع ـ: خبر رابع، وبالجر: صفة لـ ﴿ٱلْعَرْشِ﴾، ﴿فَعَّالٌ﴾: خبر خامس، والجملة الابتدائية معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾، واستدل النحاة بهذه الآيات علىٰ جواز تعدد الخبر لمبتدأ واحد، ﴿لِّمَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ ﴿فَعَّالٌ﴾، وجملة ﴿يُرِيدُ﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: لما يريده.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن

﴿وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ ۝٢٠ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝٢٢﴾.

﴿هَلْ﴾: حرف استفهام للاستفهام التقريري ﴿أَتَنكَ﴾: فعل ماض ومفعول به ﴿حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾ فاعل ومضاف إليه، والجملة جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب مسوقة لتقرير شدة بطشه تعالىٰ، ﴿فِرْعَوْنَ﴾: بدل من ﴿ٱلْجُنُودِ﴾ بدل كل من كل مجرور بالفتحة؛ لأنه غير منصرف للعلمية والعجمية، ولكنه علىٰ تقدير مضاف؛ أي: قوم فرعون، ﴿وَثَمُودَ﴾: معطوف علىٰ ﴿فِرْعَوْنَ﴾ مجرور بالفتحة للعلمية والتأنيث المعنوي، كزينب. ﴿بَلِ﴾: حرف عطف وإضراب عن محذوف إضراباً انتقالياً تقديره: ليس هؤلاء مثل من تقدم قبلهم من الأمم، بل هم أشد تكذيباً ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿كَفَرُوا﴾ صلة الموصول، ﴿فِى تَكْذِيبٍ﴾: خبر عن الموصول والجملة الاسمية معطوفة علىٰ تلك المحذوفة، ﴿وَٱللَّهُ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿الله﴾: مبتدأ، ﴿مِن وَرَآئِهِم﴾: متعلق بـ ﴿مُّحِيطٌ﴾، و ﴿مُّحِيطٌ﴾: خبر عن لفظ الجلالة، والجملة معطوفة علىٰ ما قبلها ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب للإضراب الانتقالي عن بيان شدة كفرهم إلى وصف القرآن بما ذكر، والمعنىٰ: ليس ما كذب هؤلاء مثل ما كذب من قبلهم، بل ما كذبوه ﴿قُرْءَانٌ﴾ موصوف بهذه الصفات العالية، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ ﴿قُرْءَانٌ﴾: خبر ﴿مَّجِيدٌ﴾: صفة ﴿قُرْءَانٌ﴾، والجملة معطوفة علىٰ تلك الجملة المحذوفة، ﴿فِى لَوْحٍ﴾: صفة ثانية لـ ﴿قُرْءَانٌ﴾، ﴿مَّحْفُوظٍ﴾: صفة لـ ﴿لَوْحٍ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ والسماء في اللغة: كل جرم علوي، فدخل فيه السحاب والعرش، واصطلاحاً: الأفلاك السبعة التي هي مركز الكواكب، والنجوم من السبعة السيارة والثوابت.

﴿ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ جمع: برج، وهو في الأصل: الركن والحصن والقصر، وكل بناء مرتفع علىٰ شكل مستدير، أو مربع يكون منفرداً، أو قسماً من بناية عظيمة، والبرج أيضاً: أحد بروج السماء، وهي بحسب تعبير اللغويين اثنا عشر: الحمل والثور إلىٰ آخر ما مر، وأصل هذه المادة للظهور يعني: أن أصل معنى البرج الأمر الظاهر من التبرج، ثم صار حقيقة في العرف للقصر العالي لظهوره، ويقال لما ارتفع من سور المدينة: برج أيضاً.

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢﴾ هو يوم القيامة؛ لأن الله قد وعد به.

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ والشاهد والمشهود: جميع ما خلق الله تعالىٰ في هذا العالم، فإن كل ما خلقه شاهد علىٰ جليل قدرته، وعظيم حكمته:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ ٱلْوَاحِدُ

ومشهود أيضاً لكل ذي عينين.

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾ الأخدود مفرد، وجمعه: أخاديد، والخد بفتح الخاء: بمعنىٰ الأخدود، وجمعه: خدود، وهو الشق في الأرض، يحفر مستطيلاً، والأخاديد أيضاً: آثار الضرب بالسوط، ومنه: أخاديد الأرشية في البئر، وهي تأثير جرها فيه، ويقال للشيخ: قد تخدد، ويراد: قد تشنج جلده، وأصحاب الأخدود: قوم كافرون ذو بأس وقوةٍ، رأوا قوماً من المؤمنين، فغاظهم إيمانهم، فحملوهم علىٰ الكفر، فأبوا، فشقوا لهم شقاً في الأرض، وحشوه ناراً، وألقوهم فيه، وكان هؤلاء الغلاظ الأكباد علىٰ جوانب الشق يشهدون الإحراق ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾؛ أي: عابوا عليهم الإيمان. وفي «المختار»: نقم الأمر: كرهه، وبابه: ضرب، ونقم من باب فهم لغة. اهـ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ أي: ابتلوهم، وامتحنوهم، وعذبوهم بالنار، يقال: فتنت الشيء: إذا حرقته بالنار، والعرب تقول: فتن فلان الدينار: إذا أدخله الكور لينظر جودته، وفي «المختار»: الفتنة: الاختبار، والامتحان، تقول: فتن الذهب يفتنه بالكسر فتنةً ومفتوناً أيضاً: إذا أدخله النار لينظر جودته، ودينار مفتون، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ أي: حرقوهم، ويسمىٰ الصائغ: الفتان، وكذا الشيطان، وقال الخليل: الفتن: الإحراق، قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣﴾. انتهىٰ.

﴿عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾؛ أي: العذاب المحرق، فهو من إضافة الموصوف، إلىٰ الصفة، وهو عذاب جهنم ذكر تفسيراً وبياناً له، وفي «المفردات»: الحريق: النار، وكذا الحرق بالتحريك: النار أو لهبها. كما في «القاموس». وحرق الشيء: إيقاع الحرارة فيه من غير لهب كحرق الثوب بالدق، والإحراق: إيقاع نار ذات لهب في شيء، ومنه استعير أحرقني بلومه: إذا بالغ في أذيته بلوم.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ تسيل الأنهار تحت أسرتها وغرفها، وجميع أماكنها، يتلذذون ببردها في نظير ذلك الحر الذي صبروا عليه في الدنيا، ويزول عنهم برؤية ذلك مع خضرة الجنان جميع المضار والأحزان. ا هـ «خطيب».

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾ البطش: الأخذ بعنف وشدة. وفي «المختار»: البطشة: السطوة، والأخذ بعنف، وقد بطش به ـ من باب ضرب ونصر ـ وباطشه مباطشةً. ا هـ.

﴿وَيُعِيدُ﴾ أصله: يعود بوزن يفعل، نقلت حركة الواو إلىٰ العين، فسكنت إثر كسرة، فقلبت ياء حرف مد، وحذفت منه همزة أفعل، فصار يعيد.

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾؛ أي: الذي يعفو ويستر ذنوب عباده بمغفرته.

﴿ٱلْوَدُودُ﴾؛ أي: الذي يحب أولياءه، ويتودد إليهم بالعفو عن صغار ذنوبهم.

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾؛ أي: صاحب الملك، والسلطان، والقدرة النافذة.

﴿ٱلْمَجِيدُ﴾؛ أي: السامي القدر المتناهي في الكرم والجود، تقول العرب: في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار؛ أي: تناهيا في الاحتراق حتىٰ يقتبس منهما.

﴿حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾ الجنود: تطلق تارة علىٰ العسكر، وتطلق أخرىٰ علىٰ الأعوان، والمراد بهم هنا: الجماعات الذين تجندوا علىٰ أنبياء الله تعالى، واجتمعوا علىٰ أذاهم.

﴿فِرْعَوْنَ﴾ هو طاغية مصر صاحب موسى عليه السلام.

﴿وَثَمُودَ﴾ قبيلة بائدة من العرب، لا يعرف من أخبارها إلا ما قصه الله علينا.

﴿مُّحِيطٌۢ﴾؛ أي: هم في قبضته تعالىٰ وحوزته، كمن أحيط به فانسدت عليه المسالك.

﴿مَّجِيدٌ﴾، أي: شريف عالي المرتبة من بين الكتب الإلهية في النظم والمعنى، متضمن للمكارم الدنيوية والأخروية.

﴿فِى لَوْحٍ﴾ قال الراغب: اللوح ـ بفتح اللام ـ: واحد ألواح السفينة، وكل صحيفة عريضة خشباً وعظماً، وهو هنا مخلوق عظيم خلق للبقاء كالعرش، كتب الله فيه الكائنات.

﴿مَّحْفُوظٍ﴾؛ أي: من التحريف والتغيير والتبديل.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة التصريحية الأصلية في قوله: ﴿ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾؛ لأن البروج حقيقة في القصور التي تنزل فيها الأكابر والأشراف، فاستعيرت لمنازل الكواكب السيارة، ومقر الثوابت منها بجامع العلو في كل منهما.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾.

ومنها: تنكيرهما للإبهام في الوصف؛ أي: وشاهد ومشهود لا يكتنه وصفهما.

ومنها: تأكيد المدح بما يشبه الذم في قوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ وهو أن يستثنىٰ من صفة ذم منفية صفة مدح، أو أن يثبت لشيء صفة مدح، ويؤتىٰ بعدها بأداة الاستثناء تليها صفة مدح أخرى:

ومن الأول: بيت النابغة في مديح الغسانيين:

وَلَا عَيْبَ فِيْهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوْفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُوْلٌ مِنْ قِرَاعِ ٱلْكَتَائِبِ

وقول ابن الرقيات ـ وقد اقتبس لفظ القرآن، ورمق سماء بلاغته ـ:

وَمَا نَقَمُوْا مِنْ أُمَيَّةَ إِلَّا ... أَنَّهُمْ يَحْلُمُوْنَ إِنْ غَضِبُوْا

ومنه قول ابن نباتة المصري:

وَلَا عَيْبَ فِيْهِ غَيْرَ أَنِّيْ قَصَدْتُهُ ... فَأَنْسَتْنِيَ ٱلأَيَّامُ أَهْلاً وَمَوْطِنَا

وقول المعري:

تُعَدُّ ذُنُوْبِيْ عِنْدَ قَوْمٍ كَثِيْرَةً ... وَلَا ذَنْبَ لِيْ إِلاَّ ٱلْعُلاَ وَٱلْفَضَائِلُ

وأما الثاني: فقليل في الشعر، ومنه قول بعضهم:

مَا فِيْكِ مِنَ ٱلْجَمَالِ سِوَىٰ ... أَنَّكِ مِنْ أَقْبَحِ ٱلْقَبِيْحَاتِ

ومنها: التعبير بلفظ المضارع في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ﴾ مع أن الإيمان قد وجد منهم في الماضي لإرادة الاستمرار والدوام عليه، فإنهم ما عذبوهم لإيمانهم في الماضي، بل لدوامهم عليه في الآتي، ولو كفروا في المستقبل لم يعذبوا علىٰ ما مضى، فكأنه قيل: إلا أن يستمروا علىٰ إيمانهم.

ومنها: وصفه تعالىٰ بكونه عزيزاً حميداً، له ملك السموات والأرض في قـــولـــه: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٨ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٩﴾ للإشعار بمناط إيمانهم وموجبه.

ومنها: تأخير صفة الملك عن ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾؛ لإفادة أن الملك التام لا يحصل إلا عند حصول الكمال في القدرة التي دل عليها ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾، وفي العلم الذي دل عليه ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾؛ لأن من لم يكن تام القدرة والعلم.. لا يمكنه أن يفعل الأفعال الحميدة.

ومنها: إيراد ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾ إشعاراً بكمال حلمه وكرمه؛ حيث لم يعجل في القهر ويقبل التوبة، وإن طالت مدة الحوبة.

ومنها: الطباق بين ﴿يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾.

ومنها: المقابلة بين مصير المجرمين ومصير المؤمنين في قوله؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ الآية، وقوله؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي﴾.

ومنها: تأخير ﴿ثمود﴾ عن ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾ مع تقدمهم علىٰ فرعون زماناً في قوله: ﴿فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ١٨﴾ لرعاية الفواصل.

ومنها: تنكير التكذيب في قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ١٩﴾؛ لإفادة التعظيم، كأنه قيل: ليسوا مثلهم في ذلك، بل هم أشد منهم في الكفر والطغيان والتكذيب.

ومنها: المجاز المرسل أيضاً في قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ١٩﴾ علاقته الحالية؛ لأن التكذيب معنىً من المعاني، ولا يحل الإنسان فيه، وإنما يحل في مكانه، فاستعمال التكذيب في مكانه مجاز أطلق فيه الحال وأريد المحل، فعلاقته الحالية.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ۝٢٠﴾ حيث مثل عدم نجاتهم من بأس الله بعدم فوت المحاط به عن المحيط الذي سد عليه مسلكه، بحيث لا يمكنه الهرب منه.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

مقاصد هذه السورة

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ إظهار عظمة الله تعالىٰ وباهر قدرته.

٢ ـ بيان وعيد المجرمين الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات، ووعد الصابرين علىٰ فتنتهم.

٣ ـ بيان شدة بطشه تعالى للظلمة والجبابرة.

٤ـ بيان بعض صفاته التي تدل على شدة بطشه.

٥ ـ ذكر بعض الظلمة والجبابرة من الأمم المكذبة المهلكة؛ لتكون عبرة لمن حذا حذوها من هذه الأمة.

٦ ـ ذكر تكذيب المشركين لهذا القرآن أشد تكذيب.

٧ ـ ذكر بعض صفات القرآن الكريم[1].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً

* * *

---

(١) تمت سورة البروج بعون الله الذي إليه الرجوع والعروج، منتصف ليلة الإثنين السادس عشر من شهر رمضان المبارك من شهور سنة ١٦/ ٩/ ١٤١٦هـ ألف وأربع مئة وست عشرة من الهجرة النبوية علىٰ صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين. آمين.

سورة الطارق

سورة الطارق مكية بلا خلاف نزلت بعد سورة البلد، وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾ بمكة. وآياتها: سبع عشرة آية. وكلماتها: اثنتان وسبعون كلمة. وحروفها مئتان وأحد وسبعون حرفاً.

مناسبتها لما قبلها من أوجه:

١ ـ أنه ابتدأ هذه بالقسم بالسماء كما بدأ السابقة بالحلف بها.

٢ ـ أنه ذكر في السابقة تكذيب الكفار للقرآن، وهنا وصف القرآن بأنه قول فصل وما هو بالهزل، رداً علىٰ أولئك المكذبين.

٣ ـ أنه ذكر في هذه وعيد الكافرين بقوله: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ تسليةً للنبي ﷺ، كما ذكر في السابقة وعيد أصحاب الأخدود.

وعبارة أبي حيان: مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر فيما قبلها تكذيب الكفار للقرآن.. نبه هنا علىٰ حقارة الإنسان، ثم استطرد منه إلىٰ أن هذا القرآن قول فصل جد لا هزل فيه ولا باطل يأتيه، ثم أمر نبيه بإمهال الكافرين المكذبين، وهي: آية الموادعة منسوخة بآية السيف.

الناسخ والمنسوخ فيها: قال ابن حزم رحمه الله تعالى: سورة الطارق كلها محكمة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ إلا آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ۝١٧﴾ فهي نزلت موادعة، ثم نسخت بآية السيف.

سبب نزولها: ما روي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ قاعداً يوماً مع أبي طالب، فانحط نجم، فامتلأت الأرض نوراً، ففزع أبو طالب وقال: أي شيء هذا؟ فقال: «هذا نجم رمي به، وهو آية من آيات الله تعالى»، فعجب أبو طالب، ونزل: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾.

فضلها: ومما ورد في فضلها ما روي عن محارب بن دثار عن جابر قال:

صلى معاذ المغرب بالناس، فقرأ فيها البقرة والنساء، فقال له النبي ﷺ: «أفتَّان أنت يا معاذ؟ كان يكفيك أن تقرأ بالسماء والطارق والشمس وضحاها».

تسميتها: سميت بالطارق لذكره في أولها.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ﴿٤﴾ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ﴿٦﴾ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ﴿٨﴾ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٧﴾﴾

المناسبة

تقدم لك بيان المناسبة بين أول هذه السورة والسورة التي قبلها.

واعلم: أن الله سبحانه أقسم في مستهل هذه السورة بالسماء ونجومها الثاقبة، إن النفوس لم تترك سدى، ولم ترسل مهملة، بل قد تكفل بها من يحفظها ويحصي أعمالها، وهو الله سبحانه، وفي هذا وعيد للكافرين، وتسلية للنبي ﷺ وأصحابه، فكأنه يقول لهم: لا تحزنوا لإيذاء قومكم لكم، ولا يضق صدركم لأعمالهم، ولا تظنن أنا نهملهم ونتركهم سدىٰ، بل سنجازيهم علىٰ أعمالهم بما يستحقون، لأنا نحصي عليهم أعمالهم، ونحاسبهم عليها يوم يعرضون علينا. ﴿فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا ﴿٨٤﴾﴾ والعد إنما يكون للحساب والجزاء.

قوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين[1] أن الإنسان لم يترك سدىٰ، ولم يخلق عبثاً.. نبهه إلىٰ الدليل الواضح علىٰ صحة معاده، وأنه لا بد أن يرجع إلىٰ ربه ليجازيه علىٰ ما عمل، فذكره بنفسه، ولفت نظره إلىٰ كيفية خلقه ومنشئه، وأنه خلق من الماء الدافق الذي لا تصوير فيه، ولا تقدير للآلات التي يظهر فيها عمل الحياة كالأعضاء وغيرها، ثم أنشأه خلقاً كاملاً مملوءاً بالحياة والعقل والإدراك، قادراً علىٰ القيام بالخلافة في الأرض.

---

(١) المراغي.

فالذي خلقه علىٰ هذه الأعضاء قادر أن يعيده إلىٰ الحياة في يوم تنكشف فيه المستورات، وتبين الخفايا، فيكون إبداؤها زيناً في وجوه بعض الناس، وشيناً في وجوه بعض آخرين، وليس للمرء حينئذٍ قوة يدفع بها عن نفسه ما يحل به من العذاب، ولا ناصر يعينه على الخلاص من الآلام.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ. . .﴾ إلىٰ آخر السورة، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين قدرته علىٰ إعادة الإنسان بعد الموت، ولفت النظر إلى التدبر إلىٰ برهان هذه القدرة. . شرع يثبت صحة رسالة رسوله الكريم إلىٰ الناس، وصحة ما يأتيهم به من عند الله، وأهم ذلك القرآن الكريم الذي كانوا يقولون عنه إنه أساطير الأولين، فأقسم بالسماء التي تفيض بمائها، والأرض التي تقيم أمور المعاش للناس والحيوان بنباتها، إنه لقول حق لا ريب فيه، ثم بين أنه عليم بأن الذين يدافعون عن تلك الأباطيل التي هم عليها قوم ماكرون لا يريدون بك إلا سوءاً، وسيأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون، فلا يحزنك ما ترىٰ منهم، ولا تستبطىء حلول النكال بهم، بل أمهلهم قليلاً وسترىٰ ما سيحل بهم، ولا يخفىٰ ما في هذا من وعيد شديد بأن ما سيصيبهم قريب، سواء كان في الحياة الدنيا، أو فيما بعد الموت، ووعد للنبي ﷺ، ولكل داعٍ إلىٰ الحق بأنهم سيبلغون من النجاح ما يستحقه عملهم، وأن المناوئين لهم هم الخاسرون.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ. . .﴾ الآيات، سبب نزول هذه الآيات[1]: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: نزلت في أبي الأشد، كان يقوم علىٰ أديم فيقول: يا معشر قريش، من أزالني عنه فله كذا، ويقول: إن محمداً يزعم أن خزنة جهنم تسعة عشر، فأنا أكفيكم وحدي عشرة، واكفوني أنتم تسعة، فأنزل الله سبحانه هذه السورة.

---

(١) لباب النقول.

التفسير وأوجه القراءة

أقسم سبحانه وتعالى في بداية هذه السورة الكريمة بالسماء والطارق فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾ والسماء: كل ما علانا، فكأنه تبارك وتعالىٰ أقسم بالعالم العلوي وما فيه، ثم خصص بعض ما في ذلك العالم السماوي، فأقسم بالطارق.

والطارق في الأصل[1]: اسم فاعل من طرق طرقاً وطروقاً إذا جاء ليلاً. قال الماوردي: وأصل الطرق: الدق، ومنه سميت المطرقة؛ لأنه يطرق بها الحديد، وسمي الطريق؛ لأنه يضرب بالرجل، وسمي قاصد الليل طارقاً لاحتياجه إلىٰ طرق الباب غالباً؛ حيث إن الأبواب مغلقة في الليل، ثم اتسع في كل ما ظهر بالليل كائناً ما كان، ثم اتسع في التوسع حتىٰ أطلق علىٰ الصور الجالية البادية بالليل، والمراد هنا: الكوكب البادي بالليل.

قال الراغب: عبر عن النجم بالطارق؛ لاختصاص ظهوره بالليل.

قالت هند بنت عتبة يوم أحد:

نَحْنُ بَنَاتُ طَارِقِ ... نَمْشِي عَلَىٰ ٱلنَّمَارِقِ

أي: أبونا كالنجم شرفاً وعلواً. قال الشاعر:

يَا رَاقِدَ ٱللَّيْلِ مَسْرُوْرَاً بِأَوَّلِهِ ... إِنَّ ٱلْحَوَادِثَ قَدْ يَطْرُقْنَ أَسْحَارَا

لَا تَفْرَحَنَّ بِلَيْلٍ طَابَ أَوَّلُهُ ... فَرُبَّ آخِرِ لَيْلٍ أَجَّجَ ٱلنَّارَا

قال سهل رحمه الله: وما طرق علىٰ قلب محمد من زوائد البيان والإنعام. انتهى.

وقد أكثر سبحانه[2] في القرآن الحلف بالسماء، وبالشمس، وبالقمر، وبالليل، لأن في أحوالها وأشكالها، وسيرها ومطالعها ومغاربها من عجائب وغرائب دلائل لمن يتدبر ويتفكر بأن لها خالقاً مدبراً يقوم بشؤونها، ويحصي أمرها، لا يشركه سواه في هذا الإبداع والصنع.

وقد اختلف في الطارق[3]، هل هو نجم معين، أو جنس النجم؟ فقيل: هو

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) الشوكاني.

زحل، وقيل: الثريا، وقيل: هو الذي ترمىٰ به الشياطين، وقيل: هو جنس النجم، قال في «الصحاح»: والطارق: النجم الذي يقال له: كوكب الصبح، ثم بين سبحانه ما هو الطارق تفخيماً لشأنه بعد تعظيمه بالإقسام به، فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢﴾؛ أي:[1] أيُّ شيء أعلمك يا محمد بالطارق، فإنه لا يناله إدراك الخلق إلا بالتلقي من الخلاق العليم، كأنه قيل: ما هو؟ فقيل: هو ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾؛ أي: الكوكب المضيء، تقول العرب: وما أدراك ما كذا؟ أي: وأي شيء يعلمك حقيقته وهو أسلوب من كلامهم، يراد به التفخيم والتعظيم، كأنه في فخامة أمره لا يمكن الإحاطة به ولا إدراكه.

قال سفيان: كل ما في القرآن: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أخبره، وكل شيء قال فيه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ لم يخبره.

ثم فسر هذا الطارق بقوله: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾، وارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف، والجملة مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدَّر، كأنه قيل: ما هو؟ فقيل: هو النجم الثاقب، كما مر آنفاً، ولم يقل: والنجم الثاقب مع أنه أخصر وأظهر، فعدل عنه تفخيماً لشأنه، فأقسم أولاً بما يشترك فيه هو وغيره وهو الطارق، ثم سأل عنه بالاستفهام تفخيماً لشأنه ثانياً، ثم فسره بالنجم إزالة لذلك الإبهام الحاصل بالاستفهام.

والمعنى[2]: أي لا أقسم بكل طارق من الكواكب، بل أقسم بطارق معين هو النجم الثاقب؛ أي: الذي يثقب الظلام، ويهتدى به في ظلمات البر والبحر، ويوقف به على أوقات الأمطار وغيرها من أحوال يحتاج إليها الإنسان في معاشه؛ وهو الثريا عند جمهرة العلماء؛ لأن العرب تسميه النجم ويسمى كوكب الصبح، ويرى الحسن أن المراد كل كوكب؛ لأن له ضوءاً ثاقباً لا محالة؛ أي: في نفسه، وإن حصل التفاوت بالنسبة، أو المعهود بالثقب، فهو من باب ركب السلطان، وهو زحل الذي في السماء السابعة لا يسكنها غيره؛ لأنه يثقب بنوره سمك سبع سموات؛ لأنه إذا أخذت النجوم أمكنتها من السماء.. هبط زحل من السابعة، فكان معها في سمائها، ثم يرجع إلى مكانه من السابعة، فهو طارق حين ينزل وحين يصعد.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه، فقال: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾ والجملة جواب[1] القسم وما بينهما اعتراض جيء به لتأكيد فخامة المقسم به المستتبع لتأكيد مضمون الجملة المقسم عليها، و ﴿إِنْ﴾ نافية، و ﴿لَمَّا﴾ بمعنى: إلا. قال الزجاج: استعملت ﴿لما﴾ في موضع ﴿إلا﴾ في موضعين:

أحدهما: بعد إن النافية.

والآخر: في باب القسم، تقول: سألتك لما فعلت بمعنى: إلا فعلت، وعدي الحفظ بـ ﴿على﴾؛ لتضمنه معنى الهيمنة، والمعنى: ما كل نفس من النفوس الطيبة والخبيثة إنسانية أو جنية إلا عليها حافظ مهيمن رقيب؛ وهو الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾.

والخلاصة: أي أحلف[2] بالسماء وبالنجم الثاقب أن للنفوس رقيباً يحفظها ويدبر شؤونها في جميع أطوار وجودها، حتى ينتهي أجلها، وذلك الحافظ والرقيب هو ربها المدبر لشؤونها، المصرف لأمورها في معاشها ومعادها.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿إِنْ﴾: خفيفة، ﴿كُلُّ﴾: رفعاً، ﴿لما﴾ خفيفة فهي عند البصريين: مخففة من الثقيلة، و ﴿كُلُّ﴾؛ مبتدأ، واللام هي الداخلة للفرق بين إنْ النافية وإن المخففة، و ﴿ما﴾: زائدة، و ﴿حَافِظٌ﴾: خبر المبتدأ، و ﴿عَلَيْهَا﴾: متعلق به، والمعنى عليه: إنه أي: إن الشأن والحال كل نفس لعليها حافظ.

وعند الكوفيين: ﴿إن﴾: نافية، و ﴿اللام﴾: بمعنى إلا، و ﴿ما﴾: زائدة، و ﴿كُلُّ﴾ و ﴿حَافِظٌ﴾: مبتدأ وخبر، والمعنى عليه: ما كل نفس إلا عليها حافظ، والترجيح بين المذهبين مذكور في علم النحو.

وقرأ الحسن والأعرج وقتادة وعاصم وابن عامر وحمزة وأبو عمرو ونافع بخلاف عنهما: ﴿لَمَّا﴾ مشددة، وهي بمعنى: إلا، لغة مشهورة في هذيل وغيرهم، تقول العرب: أقسمت عليك لما فعلت كذا، أي: إلا فعلت، قاله الأخفش، فعلى هذه القراءة يتعين أن تكون ﴿إن﴾ نافية، والمعنى: ما كل نفس إلا عليها حافظ،

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي. (٣) البحر المحيط.

وحكى هارون أنه قرىء ﴿إن﴾ بالتشديد ﴿كلَّ﴾ بالنصب، فاللام هي الداخلة في خبر ﴿إن﴾ و ﴿ما﴾ زائدة، و﴿حَافِظٌ﴾: خبر ﴿إنَّ﴾، والمعنى: إن كل نفس لعليها حافظ، والظاهر[1] عموم كل نفس، وقال ابن سرين وقتادة وغيرهما: إن كل نفس مكلفة عليها حافظ يحصي أعمالها ويعدها للجزاء عليها، فيكون في الآية وعيد وزجر، وما بعد ذلك يدل عليه واختلف في الحافظ: فقيل: الحافظ: هم الحفظة من الملائكة الذين يحفظون عليها عملها وقولها وفعلها، ويحصون ما تكسب من خير وشر، وقيل: الحافظ: هو الله سبحانه، وقيل: هو العقل يرشدهم إلىٰ المصالح، ويكفهم عن المفاسد، والأول أولىٰ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾﴾، وقوله: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾، وقوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ﴾، والحافظ في الحقيقة: هو الله سبحانه وتعالى، كما في قوله: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ وحفظ الملائكة من حفظه؛ لأنهم بأمره.

ولما ذكر[2] أن كل نفس عليها حافظ.. أتبع ذلك بوصية الإنسان بالنظر في أول نشأته الأولىٰ حتىٰ يعلم أن من أنشأه قادر علىٰ إعادته وجزائه، فيعمل لذلك، ولا يملي علىٰ حافظ إلا ما يسره في عاقبته فقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ﴾؛ أي:[3] ليتفكر الإنسان المركب من الجهل والنسيان، المنكر للنشور والحشر والميزان ﴿مِمَّ﴾؛ أي: من أي شيء، فأصله مما حذفت الألف تخفيفاً كما مرَّ في ﴿عَمَّ﴾؛ أي: من أي شيء ﴿خُلِقَ﴾ حتىٰ يتضح له أن من قدر علىٰ إنشائه من مواد لم تشم رائحة الحياة قط، فهو قادر علىٰ إعادته، بل أقدر علىٰ قياس العقل، فيعمل ليوم الإعادة والجزاء ما ينفعه يومئذٍ ويجديه، ولا يملي حافظه ما يرديه. والفاء في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن كل نفس عليها حافظ، وأردت معرفة قدرة ذلك الحافظ.. فأقول لك: لينظر الإنسان مم خلق؛ أي: لينظر بعقله، ويتدبر بقلبه في مبدأ خلقه، ليتضح له قدرة حافظه الذي وهب له العقل، وأنه إذا قدر علىٰ إنشائه من مواد لم تشم رائحة الحياة قط.. فهو علىٰ إعادته أقدر، فليعمل بما به يسر حين الإعادة.

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر لمحيط.

(٣) روح البيان.

ثم أجاب عن الاستفهام بقوله: ﴿خُلِقَ﴾ الإنسان ﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾؛ أي: مدفوق، وهي قراءة زيد بن علي؛ أي: مصبوب في الرحم، والجملة مستأنفة[1] واقعة في جواب استفهام مقدر، كأنه قيل: مم خلق؟ فقيل: خلق من ماء ذي دفق، وهو صب فيه دفع وسيلان بسرعة، يقال: دفق دفقاً ـ من باب نصر ـ: إذا سال بشدة وسرعة، وإنما أوِّل بالنسبة، نظير تامر ولابن؛ لأن الصب لا يتصور من النطفة، لظهور أنها مصبوبة لا صابة، فتوصيفه بأنه دافق لمجرد نسبة مبدأ الاشتقاق إلىٰ ذات الموصوف به مع قطع النظر عن صدوره منه. وقال بعضهم: دافق؛ أي: مدفوق ومصبوب في الرحم، نحو سر كاتم؛ أي: مكتوم، وعيشة راضية؛ أي: مرضية، فهو فاعل بمعنى: مفعول، والمراد به: الممتزج من الماءين في الرحم، كما ينبىء عنه ما بعده في الآية، وللنظر إلىٰ امتزاجهما عبر عنهما بصيغة الإفراد، أعني قوله: ﴿مِن مَّآءٍ﴾، ووصف الماء الممتزج بالدافق من قبيل توصيف المجموع بوصف بعض أجزائه؛ لأن الدافق هو ماء الرجل فقط.

﴿يَخْرُجُ﴾ ذلك الدافق الممتزج في الرحم ﴿مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ﴾ للرجل ﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ للمرأة، والصلب: الشديد، وباعتباره سمي الظهر صلباً؛ أي: يخرج من بين ظهر الرجل وترائب المرأة، وهي ضلوع صدرها، وعظام نحرها؛ حيث تكون القلادة، وكل عظم من ذلك تريبة.

وعن علي وابن عباس رضي الله عنهم: بين الثديين، وفي «القاموس»: الترائب: عظام الصدر، أو ما ولي الترقوتين منه، أو بين الثديين والترقوتين، أو أربع أضلاع من يمنة الصدر، وأربع من يسرته، أو اليدان والرجلان والعينان، أو موضع القلادة. انتهى.

ومن ذلك يتحمل الوالد مصالح معيشة الولد، وتشتد رقة الوالدة ومحبتها للولد، وإيراد ﴿بَيْنِ﴾[2] إشارة إلىٰ ما يقال: إن النطفة تتكون من جميع أجزاء البدن، ولذلك يشبه الولد والديه غالباً، فيجتمع ماء الرجل في صلبه، ثم يجري منه، ويجتمع ماء المرأة في ترائبها، ثم يجري منها، وفي «قوت القلوب»: أصل المني: هو الدم يتصاعد في خرزات الصلب، وهناك مسكنه، فتنضجه الحرارة، فيستحيل

---

(١) روح البيان.　　(٢) روح البيان.

أبيض، فإذا امتلأت منه خرزات الصلب ـ وهو الفقار ـ طلب الخروج من مسلكه، وهو عرقان متصلان إلىٰ الفرج، منهما ينزل المني، وفي «أسئلة الحكم»: بين طريق البول وطريق المني جلد رقيق، يكاد لا يتشخص؛ كيلا يختلط المني بماء البول، فيفسد حرارة جوهره. انتهىٰ.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَخْرُجُ﴾ مبنياً للفاعل، وقرأ ابن أبي عبلة وابن مقسم مبنياً للمفعول، وقرأ الجمهور: ﴿مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ﴾ بضم الصاد وسكون اللام، وقرأ ابن أبي عبلة وابن مقسم وأهل مكة وعيسى: بضم الصاد واللام، وقرأ اليماني: بفتحهما، ويقال: صالب بوزن قالب، ومنه قول العباس بن عبد المطلب في أبياته المشهورة التي مدح بها النبي ﷺ:

تُـنْـقَـلُ مِـنْ صَـالِـبٍ إِلَـىٰ ٱلـرَّحِـمْ

وقد تقدمت اللغات في الصلب في سورة النساء عند تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ كما سيأتي بيانها أيضاً في مبحث التصريف، وقال في «الصحاح»: التريبة واحدة الترائب، وهي عظام الصدر، قال أبو عبيدة: جمع التريبة: ترائب، والمعنىٰ: أي خلق من ماء مدفوق يخرج من الظهر والترائب لكل من الرجل والمرأة، فهو إنما يكون مادة لخلق الإنسان إذا خرج من بين الرجل والمرأة، ووقع في رحم المرأة.

والخلاصة[2]: أن الولد يتكوَّن من مني مدفوق من الرجل، فيه جرثومة حية دقيقة لا ترى إلا بالآلة المكبرة (الميكرسكوب)، ولا تزال تجري حتىٰ تصل إلى جرثومة نظيرتها من جراثيم المرأة، وهي البويضة، ومتى التقت الجرثومتان.. اتحدتا، وكونتا جرثومة الجنين.

والضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ للخالق، فإن قوله: ﴿خُلِقَ﴾ يدل عليه؛ أي: إن الخالق الذي خلق الإنسان ابتداء مما ذكر ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ﴾؛ أي: علىٰ إعادته بعد موته ﴿لَقَادِرٌ﴾؛ أي: لبين القدرة، بحيث لا يرىٰ له عجز أصلاً، وتقديم[3] الجار والمجرور علىٰ عامله، وهو ﴿لَقَادِرٌ﴾ للاهتمام به من حيث إن الكلام فيه بخصوصه،

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

فهو لا ينافي قادريته علىٰ غيره، والضمير في ﴿رَجْعِهِۦ﴾ عائد على ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾، قال بعضهم: خلقه لإظهار قدرته، ثم رزقه لإظهار الكرم، ثم يميته لإظهار الجبروت، ثم يحييه لإظهار الثواب والعقاب.

والمعنىٰ: أي إن الذي قدر علىٰ خلق الإنسان ابتداء من هذه المادة قادر علىٰ أن يرده حياً بعد أن يموت بالبعث، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وأصرح منهما قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

وقال مجاهد[1]: علىٰ أن يرد الماء في الإحليل، وقال عكرمة والضحاك: علىٰ أن يرد الماء في الصلب، وقال مقاتل بن حيان: يقول: إن شئت رددته من الكبر إلىٰ الشباب، ومن الشباب إلىٰ الصبا ومن الصبا إلىٰ النطفة، وقال ابن زيد: إنه علىٰ حبس ذلك الماء حتىٰ لا يخرج لقادر، والأول أظهر، ورجحه ابن جرير والثعلبي والقرطبي.

ثم بين وقت الرجع فقال: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ ظرف لرجعه، ولا يضر الفصل بالأجنبي للتوسع في الظروف، وقيل: العامل في الظرف ﴿لَقَادِرٌ﴾، واعترض عليه بأنه يلزم عليه تخصيص القدرة بهذا اليوم، وقيل: العامل فيه مقدر؛ أي: يرجعه يوم تبلىٰ السرائر، وقيل: العامل فيه مقدر، وهو اذكر، فيكون مفعولاً به. ومعنىٰ ﴿تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾: أي: تعرف وتكشف، والسرائر[2]: جمع سريرة بمعنىٰ السر، وهي التي تكتم وتخفىٰ؛ أي: يوم يتعرف فيه، ويتصفح ما أسر في القلوب من العقائد والنيات وغيرها، وما أخفىٰ من الأعمال، ويميز بين ما طاب منها وما خبث، والإبلاء: هو الابتلاء والاختبار، وإطلاق الإبلاء علىٰ الكشف والتمييز من قبيل إطلاق اسم السبب على المسبب؛ لأن الاختبار يكون للتعريف والتمييز، وابتلاء الله عباده بالأمر والنهي يكون لكشف ما علم منهم في الأزل من الطاعة أو العصيان. وقال بعضهم: المراد بالسرائر: الفرائض، كالصوم والصلاة والزكاة والغسل من الجنابة، فإنها سر بين العبد وبين ربه، ولو شاء العبد أن يقول: فعلت ذلك، ولم يفعله أمكنه، وإنما تظهر صحة تلك السرائر يوم القيامة. قال ابن عمر

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

رضي الله عنهما: يبدي الله تعالىٰ يوم القيامة كل سر، فيكون زيناً في وجوه، وشيناً في وجوه، يعني: من أدىٰ الأمانات كان وجهه مشرقاً، ومن ضيعها كان وجهه أغبر أسود مظلماً.

والمعنىٰ[1]: أي هو سبحانه قادر على أن يعيد الإنسان إلى الحياة في اليوم الذي تنكشف فيه السرائر، وتتضح الضمائر، ويتميز الطيب من الخبيث، فلا يبقىٰ في سريرة سر، بل تنقلب كل خفية إلىٰ الجهر، ولا يكون جدال ولا حجاج، ولا يبقىٰ لذوي الأعمال إلا انتظار الجزاء علىٰ ما قدموا، فإما حلول في نعيم، وإما مصير إلىٰ عذاب أليم ﴿فَمَا لَهُۥ﴾؛ أي: فما للإنسان، و ﴿ما﴾ نافية ﴿مِن قُوَّةٖ﴾ في نفسه يمتنع بها من العذاب الذي حل به ﴿وَلَا نَاصِرٖ﴾ من خارج ينتصر به؛ إذ كل نفس يومئذٍ رهينة بما كسبت، مشغولة بجزاء ما جرت عليه خيراً كان أو شراً، فالمراد[2] بالقوة المنفية: هي القوة الثابتة له في نفسه، لا القوة مطلقاً، وإلا لم يبق للعطف فائدة؛ لأن القوة المستفادة من الغير قوة أيضاً، وقد نفيت أولاً، والقوة عبارة عن شدة البنية وصلابتها المضادة للضعف، وفي «التعريفات»: هي تمكن الحيوان من الأفعال الشاقة، ونصر المظلوم إعانته علىٰ الظالم، وخلاصه منه.

والحاصل: أن القوة التي يدافع بها الإنسان عن نفسه[3]؛ إما من ذاته، وقد نفاها بقوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ﴾ وإما من غيره، وقد نفاها بقوله: ﴿وَلَا نَاصِرٖ﴾؛ أي: فلا تكون لأحد قوة علىٰ الإفلات مما قدر له من جزاء عمله إن كان مسيئاً، ولا ناصر ينصره فيحميه مما حتم أن يقع عليه.

والخلاصة[4]: أي فما للإنسان من قوة في نفسه يمتنع بها من عذاب الله، ولا ناصر ينصره مما نزل به. قال عكرمة: هؤلاء الملوك مالهم يوم القيامة من قوة ولا ناصر، قال سفيان: القوة: العشيرة، والناصر: الحليف، والأول أولىٰ.

﴿وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾﴾: ﴿ذَاتِ﴾: مؤنث ذو، بمعنى: صاحب، والرجع: المطر، سمي رجعاً. لما أن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بحار

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.
(٤) الشوكاني.

الأرض، ثم يرجعه إلى الأرض، أو أرادوا بذلك التفاؤل ليرجع، ولذلك سموه: أوباً؛ ليؤوب، فيكون الرجع مصدراً من اللازم بمعنىٰ الرجوع، لا من المتعدي. وقال الراغب: سمي المطر رجعاً لرد الهواء ما تناله من الماء. وقال الزجاج: الرجع: المطر؛ لأنه يجيء ويرجع ويتكرر، وفي «كشف الأسرار»: لأنه يرجع كل عام ويتكرر، وقيل: الرجع: الشمس والقمر والنجوم، يرجعن في السماء، تطلع من ناحية، وتغيب في أخرىٰ، قال الجرجاني في كتاب «إعجاز القرآن»، وابن زيد: وقيل: معنىٰ ﴿ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾: ذات الملائكة لرجوعهم إليها بأعمال العباد، وقال بعضهم: معنىٰ ﴿ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾: ذات النفع، ووجه تسمية المطر رجعاً: ما قاله القفال: لأنه مأخوذ من ترجيع الصوت، وهو إعادته، وكذا المطر لكونه يعود ويرجع مرة بعد أخرى سمي رجعاً.

﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢﴾ والصدع: ما تتصدع عنه الأرض، وتنشق من النبات إذ المحاكي للنشور هو تشقق الأرض، وظهور النبات منها لإظهار العيون، فالمراد بالصدع نبات الأرض سمي به؛ لأنه صادع للأرض، والأرض تتصدع به، والصدع في اللغة: الشق.

والحاصل: أن الصدع إذا كان اسماً للنبات، فكأنه قال: والأرض ذات النبات، وإن كان المراد به الشق، فكأنه قال: والأرض ذات الشق الذي يخرج منه النبات ونحوه، كالأموات. وقال مجاهد: والأرض ذات الطرق التي تتصدعها المشاة، وقيل: ذات الحرث؛ لأنه يصدعها، وقيل: ذات الأموات؛ لانصداعها عنهم عند البعث. وفي «المفردات»: الصدع[1]: شق في الأجسام الصلبة، كالزجاج والحديد ونحوها. وفي الآية إشارة إلىٰ أن السماء ذات الرجع كالأب، والأرض ذات الصدع كالأم، وما ينبت من الأرض كالولد.

والحاصل: أن الله سبحانه أقسم أولاً بالسماء مجردة عن التوصيف ـ أعني: أول السورة ـ وثانياً مقيدة بكونها ذات الرجع، وكذا بالأرض ذات الصدع إيماء إلىٰ المنة عليهم بكثرة المنافع، ودلالة علىٰ العلم التام، والقدرة الكاملة فيها.

والمعنىٰ[2]: أي أقسم لكم بالسماء ذات المطر، وهو أنفع شيء ينتظره

---

(١) روح البيان.　　(٢) المراغي.

المخاطبون من السماء، إذ يبدل جدبهم خصباً، ويعيد موات أرضهم حياً، ويصير به لهب صحرائهم هواءً عليلاً، وأقسم بالأرض التي تتصدع بالنبات والشجر والثمار مما به حياتهم، وحياة أنعامهم، وهم في بلاد قفراء جدباء، ونظير هذا قوله: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾ الآية.

ثم ذكر المقسم عليه فقال: ﴿إِنَّهُۥ﴾: أي: إن هذا[1] القرآن الذي من جملته ما تلي من الآيات الناطقة بمبدأ حال الإنسان ومعاده ﴿لَقَوْلٌ﴾؛ أي: لكلام؛ إذ القول كثيراً ما يكون بمعنىٰ المقول ﴿فَصْلٌ﴾؛ أي: فاصل بين الحق والباطل بالبيان عن كل واحد منهما مبالغ في ذلك كأنه نفس الفصل، كما قيل له فرقان بمعنىٰ: الفارق.

﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾؛ أي: هو كلام جد، وليس بالهزل، والهزل: اللعب، وفي «فتح الرحمن: الهزل: ما استعمل في غير ما وضع له من غير مناسبة ولا علاقة، والجد: ضده، وهو أن يقصد به المتكلم حقيقة كلامه؛ أي: ليس في شيء من القرآن شائبة هزل، بل كله جد محض لا هزل فيه، فمن حقه أن يهتدي به الغواة، وتخضع له رقاب العتاة، ويظهر من الآية أن من يؤم القرآن بهزل، أو يتفكه بمزاح به يكفر، وفي «هدية المهديين»: إذا أنكر رجل آية من القرآن، أو سخر بها، أو مزح بها، أو استهان بها فقد كفر، ومن قرأ القرآن علىٰ ضرب الدف أو القصبة أو المزمار أو سائر الملاهي.. فقد كفر؛ لأنه استهزأ به وأهانه، فينبغي للمؤمن أن يحترز من هذا كله وأمثاله، ويجتنب عنه. قال أبو حيان: ويجوز[2] أن يعود الضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ علىٰ الكلام الذي أخبر فيه ببعث الإنسان يوم القيامة، وابتلاء سرائره؛ أي: إن هذا القول قول جزم مطابق للواقع، لا هزل فيه، بل هو جد كله. انتهىٰ.

والمعنى: أي أقسم لكم أيها المشركون بالسماء والأرض الموصوفين بما ذكر علىٰ أن هذا القول الذي جاءكم به محمد ﷺ لقول حق، لا مجال للريب فيه، وهو جد لا هزل فيه، فمن حقه أن يهتدي به الغواة، وتخضع له رقاب الطغاة.

أخرج الترمذي والدارمي: عن علي كرم الله وجهه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون فتنة»، قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

فيه نبأ من قبلكم، وخبر من بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغىٰ الهدىٰ في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ فيه الأهواء، ولا تشبع منه العلماء، ولا تلتبس به الألسن، ولا يخلق علىٰ كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن لمَّا سمعته أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾، من قال به.. صدق، ومن حكم به.. عدل، ومن عمل به.. أجر، ومن هدي به.. هدي إلى صراط مستقيم».

ثم بين ما يدبرونه للمؤمنين، وما تحويه صدورهم من غل لهم فقال: ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ أي: إن أهل مكة ومعاندي قريش ﴿يَكِيدُونَ﴾ في إبطال أمره، وإطفاء نوره ﴿كَيْدًا﴾؛ أي: حسبما في قدرتهم؛ أي: يمكرون في إبطال ما جاء به رسول الله ﷺ من الدين الحق، قال الزجاج: يخاتلون النبي ﷺ، ويظهرون ما هم علىٰ خلافه. ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾؛ أي: أقابلهم[1] بكيد متين لا يمكن رده، وأستدرجهم من حيث لا يعلمون، وأجازيهم جزاء كيدهم، قيل: هو ما أوقع الله بهم يوم بدر من القتل والأسر.

وكيد المحدث العاجز الضعيف لا يقاوم كيد القديم القادر القوي، فتسمية الاستدراج والانتقام في الدنيا بالسيف، وفي الآخرة بالنار كيداً من باب المشاكلة؛ لوقوعه في مقابلة كسبهم جزاء له، وإلا فالكيد وهو المكر والاحتيال في إيصال المكروه إلىٰ الغير بخفية لا يجوز إسناده إليه تعالىٰ مراداً به معناه الحقيقي، وتسمية جزء الشيء باسم ذلك الشيء علىٰ سبيل المشاكلة، شائع كثير في كلامهم، نحو قوله تعالى؛ ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ﴾.

والمذهب الأسلم: إثبات الكيد له تعالىٰ كما أثبته لنفسه في هذه الآية وغيرها، ويقال في تفسيره: كيد الله هو صفة ثابتة له تعالىٰ؛ نثبتها ونعتقدها لا نكيفها ولا نمثلها، أثرها انتقامه تعالىٰ ممن كاد برسوله ﷺ. ﴿فَمَهِّلِ﴾ يا محمد؛ أي: أخر وأنظر ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: لا تستعجل بالانتقام منهم، ولا تدع عليهم

(١) روح البيان.

بالهلاك؛ أي: لا تسأل الله سبحانه تعجيل هلاكهم، وارضَ بما يدبره لك في أمورهم.

وقوله: ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾ بدل من ﴿مهل﴾، وهما ـ أي: التمهيل والإمهال ـ لغتان بمعنىٰ، مثل: نزل وأنزل، والإمهال: الإنظار، وتمهل في الأمر: اتأد فيه، وكرر الأمر بالإمهال، وخالف بين اللفظين لزيادة التسكين والتصبير. ا هـ «نسفي». وانتصاب ﴿رُوَيْدًا﴾ علىٰ أنه مصدر مؤكد لمعنىٰ الفعل المذكور، أو نعت لمصدره المحذوف، أي: أمهلهم إمهالاً رويداً؛ أي: قريباً أو قليلاً يسيراً، فإن كل آتٍ قريب، وفيه تسلية لرسول الله ﷺ بما فيه من الرمز إلىٰ قرب وقت الانتقام من الأعداء، وفي «كشف الأسرار»: وما كان بين نزول هذه الآية وبين وقعة بدر إلا زمان يسير، يقال: أَرْوَدَ يُرْوِدُ إذا رفق وتأنىٰ، ومنه: بني رويد كما في «المفردات»، وفي «الإرشاد»: هو في الأصل تصغير: رود بالضم، وهو المهل، أو إرواد مصدر أرود بالترخيم، ويأتي اسم فعل نحو: رويد زيداً؛ أي: أمهله، ويأتي حالاً نحو: سار القوم رويداً؛ أي متمهلين، ذكر معنىٰ هذا الجوهري، والبحث عنه مستوفىٰ في كتب النحو.

ولما كرر[1] الأمر بالإمهال توكيداً.. خالف بين اللفظين علىٰ أن الأول مطلق، وهذا الثاني مقيد بقوله: رويداً، وقرأ ابن عباس: ﴿أمَهلهم﴾ بفتح الميم، وشد الهاء موافقة للفظ الأمر الأول.

والمعنى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾﴾، أي[2]: أنهم يمكرون بالناس بدعوتهم إلىٰ مخالفة القرآن بإلقاء الشبهات كقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾، وقولهم: ﴿مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾، أو بالطعن فيه بكون الرسول ساحراً أو مجنوناً أو تبييتهم قتله، كما جاء في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾.

وبعدئذٍ ذكر ما قابلهم ربهم به، وما جازاهم عليه كفاء عملهم فقال: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾؛ أي: وأقابل كيدهم بنصر الرسول، وإعلاء دينه، وجعل كلمته العليا، وكلمة الذين كفروا السفلىٰ، وسمىٰ مجازاتهم كيداً منه للتجانس في اللفظ، كما

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

قال: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾، وقال عمرو بن كلثوم:

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِيْنَا

ثم أمر رسوله أن يتأنىٰ عليهم ليرى أخذه تعالىٰ لهم، فقال: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ﴾، أي: سر في دعوتك، ولا تستعجل عذابهم، فإنا سنمهلهم ليزدادوا إثماً حتىٰ إذا أخذناهم.. لم يبق لهم من راحم، ثم أكد طلب الإمهال وأقّته بوقت قريب فقال: ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾؛ أي: إنا سنمهلهم قليلاً، وسترى ما يحل بهم من العذاب والنكال، وفي هذا بعث للطمأنينة إلىٰ قلوب المؤمنين الذين كانوا يخشون صولة الكفار، ويحذرون اعتداءاتهم التي لا حد لها، وتخويف لهم من عاقبة إصرارهم علىٰ ما هم فيه من الكفر والمشاقة لله ورسوله وللمؤمنين، ونحو الآية قوله تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾.

فائدة: روي[1] عن همام مولىٰ عثمان رضي الله عنه أنه قال: لما كتبوا المصحف شكوا في ثلاث آيات، فكتبوا في كتف شاة، وأرسلوني إلى أبي بن كعب وزيد بن ثابت رضي الله عنهما، فدخلت عليهما، فناولتها أبياً، فقرأها، فإذا هي فيها ﴿لا تبديل للخلق﴾، فكتب ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾، وكان فيها: ﴿لم يتسن﴾، فكتب: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾، وكان فيها: ﴿فأمهل الكافرين﴾ فمحا الألف، وكتب ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ﴾، ونظر فيها زيد بن ثابت، فانطلقت بها إليهم، فأثبتوها في المصحف. وفيه إشارة إلىٰ أن الله تعالى حافظ للقرآن من التحريف والتبديل، لأنه أثبته في صدور الحفاظ، وإلى أن المشكلات يرجع فيها إلىٰ أهل الحل.

الإعراب

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَالسَّمَاءِ﴾: ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم ﴿السَّمَاءِ﴾: مقسم به مجرور بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف وجوباً تقديره: أقسم بالسماء، وجملة القسم مستأنفة، ﴿وَالطَّارِقِ﴾: قسم آخر أيضاً مماثل لما قبله في إعرابه معطوف

---

(١) روح البيان.

عليه، ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: اعتراضية ﴿مَآ﴾ اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿أَدْرَىٰكَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود على ﴿ما﴾ الاستفهامية، والكاف مفعول أول لـ ﴿أدرى﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر لـ ﴿مَآ﴾ الاستفهامية، وجملة الاستفهام جملة معترضة إنشائية لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين القسم وجوابه لتأكيد القسم، ﴿مَا﴾ اسم استفهام مبتدأ، ﴿ٱلطَّارِقُ﴾: خبر، والجملة الابتدائية في محل النصب سادة مسد المفعول الثاني لـ ﴿أَدْرَىٰكَ﴾، ﴿ٱلنَّجْمُ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو النجم، ﴿ٱلثَّاقِبُ﴾: صفة لـ ﴿ٱلنَّجْمُ﴾، والجملة الاسمية جملة اعتراضية لاعتراضها بين القسم وجوابه مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر، كما مر، كأنه قيل: ما هو الطارق؟ فأجاب بقوله: هو النجم الثاقب. ﴿إِن﴾: نافية، ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة تقدم النفي عليه، ﴿لَّمَّا﴾: ـ بالتشديد ـ: حرف بمعنىٰ إلا الحصرية، مبني علىٰ السكون ﴿عَلَيْهَا﴾: خبر مقدم ﴿حَافِظٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للمبتدأ الأول، وجملة المبتدأ الأول مع خبره جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وفي تخفيف ﴿لما﴾ تقول في إعراب الجملة ﴿إن﴾: مخففة من الثقيلة مهملة، وإلى هذا أشار ابن مالك في «خلاصته»:

وَخُـفِّـفَـتْ إِنَّ فَـقَـلَّ ٱلْـعَـمَـلُ ... وَتَـلْـزَمُ ٱلـلَّامُ إِذَا مَـا تُـهْـمَـلُ

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾: مبتدأ، و﴿لما﴾ ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، و ﴿مَآ﴾: زائدة ﴿عَلَيْهَا﴾: خبر مقدم، ﴿حَافِظٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة خبر للمبتدأ الأول، وجملة الأول جواب القسم.

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾.

﴿فَلْيَنظُرِ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره؛ إذا عرفت أن كل نفس عليها حافظ، وأردت بيان قدرة ذلك الحافظ.. فأقول لك: ﴿لينظر الإنسان﴾، ﴿اللام﴾: حرف جزم وطلب، ﴿ينظر﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾. فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿مِمَّ﴾: ﴿من﴾: حرف جر مبني بسكون علىٰ النون المدغمة في ميم ﴿ما﴾، و ﴿ما﴾ اسم استفهام في محل

الجر بـ ﴿من﴾ مبني بسكون علىٰ الألف المحذوفة فرقاً بينها وبين ﴿ما﴾ الموصولة، الجار والمجرور متعلق بـ ﴿خُلِقَ﴾ المذكور بعده، ﴿خُلِقَ﴾ فعل ماضٍ مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ والجملة الفعلية في محل النصب بقوله: ﴿فلينظر﴾ المعلق عنها بالاستفهام، ﴿خُلِقَ﴾ فعل ماضٍ مغيَّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾، ﴿مِن مَّآءٍ﴾: متعلق بـ ﴿مَّآءٍ﴾، ﴿دَافِقٍ﴾: صفة لـ ﴿مَآءٍ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر كأنه قيل: مم خلق؟ فأجيب بقوله: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾، و جملة ﴿يَخْرُجُ﴾ في محل الجر صفة ثانية لـ ﴿مَّآءٍ﴾، أو في محل النصب حال منه لتخصصه بالصفة ﴿مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ ﴿يَخْرُجُ﴾، ﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾: معطوف على ﴿ٱلصُّلْبِ﴾.

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾.

﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ﴾: متعلق بـ ﴿قادر﴾، ﴿لَقَادِرٌ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿قادر﴾ خبر ﴿إن﴾، والجملة مستأنفة ﴿يَوْمَ﴾: ظرف متعلق بـ ﴿رَجْعِهِۦ﴾، ولا يصح تعلقه بـ ﴿قادر﴾؛ لأنه تعالىٰ قادر علىٰ رجعه في كل وقت من الأوقات، ولا تختص قدرته بوقت دون وقت، ﴿تُبْلَى﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ﴿ٱلسَّرَآئِرُ﴾: نائب فاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ ﴿يَوْمَ﴾، ﴿فَمَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية ﴿لَهُۥ﴾ خبر مقدم، ﴿من﴾: زائدة، ﴿قُوَّةٍ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لَا﴾: زائدة زيدت لتأكيد نفي ما قبلها ﴿نَاصِرٍ﴾ معطوف علىٰ ﴿قُوَّةٍ﴾، والجملة الاسمية في محل الجر معطوفة علىٰ جملة ﴿تُبْلَى﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾: ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم، ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾: مقسم به مجرور بواو القسم، والجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف وجوباً تقديره: أقسم بالسماء، وجملة القسم مستأنفة ﴿ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾: صفة لـ﴿السماء﴾ ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ جملة قسمية مماثلة لما قبلها في إعرابه معطوفة عليه، ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه ﴿لَقَوْلٌ﴾: ﴿اللام﴾ حرف ابتداء، ﴿قول﴾: خبر ﴿إن﴾. ﴿فَصْلٌ﴾: صفة ﴿قول﴾، وجملة ﴿إن﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب، ﴿وَمَا هُوَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿ما﴾: حجازية تعمل عمل ليس، ﴿هُوَ﴾: في محل الرفع اسمها ﴿بِٱلْهَزْلِ﴾: ﴿الباء﴾: حرف جر

زائد، ﴿الهزل﴾: خبر لـ﴿ما﴾ الحجازية، وجملة ﴿ما﴾ الحجازية معطوفة علىٰ جملة ﴿إن﴾ علىٰ كونها جواب القسم لا محل لها من الإعراب، ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب اسمه، وجملة ﴿يَكِيدُونَ﴾ خبره، ﴿كَيْدًا﴾: مفعول مطلق، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة. واقعة في جواب سؤال نشأ من فحوىٰ الكلام، كأنه قيل: وماذا تسمىٰ مكابرتهم وعنادهم؟ فقيل: إنهم إلخ، ﴿وَأَكِيدُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿أكيد﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير مستتر يعود علىٰ الله سبحانه ﴿كَيْدًا﴾: مفعول مطلق مؤكد لعامله، والجملة الفعلية معطوفة علىٰ جملة ﴿إن﴾، ﴿فَمَهِّلِ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت كيدهم لك، وكيدي إياهم، وأردت النصرة عليهم.. فأقول لك: ﴿مهل الكافرين﴾: ﴿مهل﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير مستتر يعود علىٰ محمد، ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾: ﴿أمهل﴾: فعل أمر مبني علىٰ السكون، وفاعله ضمير يعود علىٰ محمد، و ﴿الهاء﴾: مفعول به، والجملة بدل كل من قوله: ﴿مهل الكافرين﴾، ﴿رُوَيْدًا﴾: مفعول مطلق معنوي لـ ﴿أمهل﴾، والأصل: إرواداً، فصغر تصغير ترخيم بحذف الزوائد؛ أي: أمهلهم إرواداً؛ أي: إمهالاً، فكأنه قال: أرودهم إرواداً؛ أي: أمهلهم إمهالاً، أو صفة لمصدر محذوف؛ أي: أمهلهم إمهالاً رويداً؛ أي: قليلاً يسيراً، كما مر، وإنما قلل الإمهال؛ لأن كل ما هو كائن آت قريب لا محالة، فهو قليل، والمراد به: يوم القيامة، وقيل: يوم بدر، كما مر ذلك كله.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾: كل ما علاك فأظلك، والطارق: هو الذي يجيئك ليلاً، ومنه قول امرىء القيس:

وَمِثْلِكِ حُبْلَىٰ قَدْ طَرَقْتُ وَمُرْضِعٍ   فَأَلْهَيْتُهَا عَنْ ذِيْ تَمَائِمَ مُحْوِلِ

وقوله أيضاً:

أَلَمْ تَرَيَانِيْ كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقَاً   وَجَدْتُ بِهَا طِيْبَاً وَإِنْ لَمْ تَطَيَّبِ

وفي «المصباح»: وطرقت الباب طرقاً، من باب قتل، وطرقت الحديدة: مددتها، وطرَّقتها بالتشديد: مبالغة، وطرق النجم طروقاً ـ من باب قعد ـ: إذا طلع،

وكل ما أتىٰ ليلاً فقد طرق، وهو طارق، والمطرقة بالكسر ما يطرق به الحديد، أما ابن جني: فقد منع أن يأتي الطروق نهاراً، قال: وأما قول العامة: نعوذ بالله من طوارق الليل. . فغلط، لأن الطروق لا يكون إلا بالليل، والصواب أن يقال: نعوذ بالله من طوارق الليل، وجوارح النهار؛ لأن العرب تقول: طرقه إذا أتاه ليلاً، وجرحه: إذا أتاه نهاراً. وفي «الصحاح»: والطارق: النجم الذي يقال له: كوكب الصبح، وهو الثريا.

﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣﴾ هو الذي يثقب ضوءه الظلام، كأن الظلام جلد أسود، والنجم يثقبه، ومعنىٰ الثاقب: المضيء لثقبه الظلام. قال أبو عبيدة: العرب تقول: أثقب نارك؛ أي: أضئها، وقيل: الثاقب: العالي، يقال: ثقب الطائر إذا علا في الهواء، وأسف: إذا دنا من الأرض، ودوم: إذا سكن جناحيه ليستقل. وعبارة «الأساس» و «اللسان»: ثقب الشيء بالمثقب، وثقب القداح عينه ليخرج الماء النازل، وثقب اللآلي والدر ودر مثقب، وعنده در عذارى لم يثقبن، ومن المجاز: كوكب ثاقب ودري شديد الإضاءة والتلألؤ، كأنه يثقب بالظلمة، فينفذ فيها ويدرؤها، ورجل ثاقب الرأي إذا كان جزلاً نظاراً، وثقب الطائر: إذا حلق كأنه يثقب السكاك، وثقب الشيب في اللحية: أخذ في نواصيها، وباب الجميع: دخل، ويقال: ثقب الشيء يثقبه ثقباً وثقوباً: جعل فيه منفذاً ومسلكاً، ونفذ فيه، وثقبت النار ثقوباً: إذ اتقدت واشتعلت، وثقب النجم: أضاء، وشهاب ثاقب: مضيء.

﴿مِن مَّآءٍ﴾ وأصل ماء: موه، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح، فصار: ماهاً، فاجتمع حرفان ضعيفان الألف والهاء، فقلبت الهاء همزة ليجاور الضعيف القوي، فصار ماء.

﴿دَافِقٍ﴾؛ أي: مدفوق من الدفق، وهو الصب؛ أي: مصبوب في الرحم، يقال: دفق يدفق دفقاً ـ من باب نصر ـ: إذا صب صباً فيه سيلان بسرعة؛ أي: منصب بدفع وسيلان وسرعة، ولم يقل: من ماءين، مع أن الولد مخلوق من ماء الرجل وماء المرأة؛ لامتزاجهما في الرحم، فصار كالماء الواحد، واتحادهما حين ابتدىء في خلقه. ا هـ «خطيب».

ودافق: من صيغ النسب، كلابن وتامر؛ أي: ذي دفق وصب، وهو صادق

علىٰ الفاعل والمفعول، أو مجاز في الإسناد، فأسند إلىٰ الماء ما لصاحبه مبالغةً، أو استعارة مكنية، أو تخييلية، أو مصرحة بجعله دافقاً؛ لأنه لتتابع قطراته كأنه يدفق بعضه بعضاً؛ أي: يدفعه، كما أشار إليه ابن عطية. ا هـ «شهاب».

﴿مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ﴾ والصلب: الشديد من كل شيء، يقال: هو صلب في دينه، وراع صلب العصا: إذا كان يعنف الإبل، وهو عظم في الظهر ذو فقار يمتد من الكاهل إلى العجب، أو أسفل الظهر، ويجمع علىٰ أصلاب وأصلب وصلبة، وهو المراد هنا، ويقال: هو من صلب فلان، أي: من نسله وولده، وفيه أربع لغات: بضم الصاد، وسكون اللام، والصلب بفتحتين، والصلب بضمتين، وقد قرىء بها جميعاً، وثمة لغة رابعة وهي الصالب، بوزن: قالب.

وقوله: ﴿مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ﴾؛ أي: من بين أجزائه، لأن بين إنما تضاف لمتعدد، وفي «القرطبي» ما يقتضي أن لفظ ﴿بين﴾ زائدة، ونصه: والمعنىٰ يخرج من الصلب والترائب، وحكىٰ القرطبي: أن ماء الرجل ينزل من الدماغ إلىٰ الصلب، ثم يجتمع في الأنثيين، وهذا لا يعارضه قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾؛ لأنه ينزل من الدماغ إلى الصلب، ثم يجتمع في الأنثيين. وقال ابن عادل: جاء في الحديث: «إن الولد يخلق من ماء الرجل، يخرج من صلبه العظم والعصب، ومن ماء المرأة، يخرج من ترائبها اللحم والدم».

﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ الترائب: عظام الصدر حيث تكون القلادة، وفي «المختار» والترائب: جمع تريبة، كصحيفة وصحائف. قال امرؤ القيس:

مُهَفْهَفَةٍ بَيْضَاءَ غَيْرِ مُفَاضَةٍ تَرَائِبُهَا مَصْقُوْلَةٌ كَٱلسَّجَنْجَلِ

يعني: المرأة، يقال في مفرده: تريب بغير هاء، ومنه قول المثقب العبدي:

وَمِنْ ذَهَبٍ يَلُوْحُ عَلَىٰ تَرِيْبٍ كَلَوْنِ ٱلْعَاجِ لَيْسَ بِذِيْ غُضُوْنِ

والترائب: جمع تريبة بوزن فعيلة، والهمزة فيه مبدلة من ياء فعيلة لوقوعها حرف مد ثالثاً زائداً في اسم مفرد مؤنث.

﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ أصل ﴿تُبۡلَى﴾: تبلي بوزن تفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿السَّرَآئِرُ﴾ جمع: سريرة بمعنىٰ: السر، وهي التي تكتم وتخفى، والهمزة في السرائر مبدلة من ياء فعيلة؛ لوقوعها حرف مد زائداً ثالثاً في اسم مفرد مؤنث، وفي «المختار»: السر الذي يكتم، وجمعه: أسرار، والسريرة مثله، والجمع: سرائر، والسرائر: كل ما أسر في القلوب من العقائد والنيات، وما أخفي من الأعمال، وبلاؤها: تعرفها وتصفحها، والتمييز بين ما طاب منها وما خبث، وعن الحسن: أنه سمع رجلاً ينشد:

سَيَبْقَى لَهَا فِيْ مُضْمَرِ ٱلْقَلْبِ وَٱلْحَشَا ... سَرِيْرَةُ وِدٍّ يَوْمَ تُبْلَىٰ ٱلسَّرَائِرُ

فقال: ما أغفله عما في السماء والطارق.

﴿وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾﴾ الرجع: المطر؛ لأنه يعود كل حين، كما مر بسط البحث فيه، فالسحاب تحمل الماء من الأمطار، ثم ترجعه إلىٰ الأرض، فالرجع في أصله: إعادة الشي إلىٰ حال أو مكان فيه أولاً، والمرة منه: الرجعة، كرجعة المرأة إلىٰ النكاح.

﴿ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ والصدع: الشق، لأن النبات يصدع الأرض؛ أي: يشقها عند الخروج، فالصدع: الشق الناشىء عن تفرق بعض أجزاء الأرض، وانفصال بعضها من بعض بالنبات.

﴿يَكِيدُونَ﴾ أصله: يكيدون بوزن: يفعلون، وأصل ﴿أكيد﴾ أكيد بوزن أفعل، نقلت حركة الياء في الموضعين إلى الكاف، فسكنت إثر كسرة، فصارت حرف مد.

﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ والفصل: الحكم الذي ينفصل به الحق من الباطل، ومنه: فصل الخصومات، وهو قطعها بالحكم الجازم، ويقال: هذا قول فصل؛ أي: قاطع للشر والنزاع. ا هـ «قرطبي».

﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾؛ أي: وما القرآن بالهزل، بل هو جد كله، فيجب أن يكون مهيباً في الصدور، معظماً في القلوب، يترفع به قارئه وسامعه عن أن يلم بهزل، أو يتفكه بمزاح، وأن يلقي ذهنه إلىٰ أن جبار السموات والأرض يخاطبه، فيأمره وينهاه، ويعده ويوعده، حتىٰ إن لم يستفزه الفزع والخوف، ولم تتبالغ فيه الخشية، فأدنىٰ أمره أن يكون جاداً غير هازل، فقد نفىٰ الله تعالىٰ عن المشركين ذلك في قوله: ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾﴾. ا هـ «خطيب».

وقوله أيضاً: ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾؛ أي: يعملون المكايد في إبطال أمره، وإطفاء نوره.

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾؛ أي: أقابلهم بكيدي في إعلاء أمره، وانتشار نوره.

﴿رُوَيْدًا﴾ مصغر رود: بوزن: عود الذي هو مصدر سماعي لأرود الرباعي، أو مصغر إرواد الذي هو مصدر قياسي لأرود الرباعي بحذف زوائده، و «المختار»: فلان يمشي علىٰ رود بوزن عود، أي: علىٰ مهل، وتصغيره: رويد، يقال: أرود في السير إرواداً ومرواداً بضم الميم وفتحها؛ أي: رفق، وتقول: رويدك عَمْراً؛ أي: أمهله، وهو تصغير ترخيم من إرواد مصدر: أرود يرود. ا هـ. ورود بوزن: عود مصدر أرود مصدراً سماعياً، أو اسم مصدر له. ا هـ. وفي «السمين»: واعلم أن رويداً يستعمل مصدراً بدلاً من اللفظ بفعله، فيضاف تارة كقوله: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾، ولا يضاف أخرى نحو: رويداً زيداً، ويقع حالاً نحو: ساروا رويداً؛ أي: متمهلين، ونعتاً لمصدر محذوف، نحو: ساروا رويداً؛ أي: سيراً رويداً. والله أعلم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: مجاز علىٰ مجاز في قوله: ﴿وَٱلطَّارِقِ﴾؛ لأن الطارق حقيقة فيمن يأتي ليلاً ويطرق الباب، ثم استعمل في كل ما ظهر بالليل كائناً ما كان، ثم استعمل في الكوكب البادي في الليل.

ومنها: الاستفهام للتفخيم والتعظيم في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾﴾، ثم تفسيره بما يخصه تفخيماً لشأنه، حيث قال: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾؛ حيث أسند إلىٰ الماء ما لصاحبه من الدفع مبالغة، وهو من استعمال فاعل بمعنىٰ مفعول، كسر كاتم، وعيشة راضية؛ أي: سر مكتوم، وعيشة مرضية، أو فيه استعارة تصريحية، حيث شبه هذا الماء لتتابع قطراته حتىٰ كأنه يدفق ويدفع بعضه بعضاً، بجامع تتابع السيلان في كل،

فاستعار له اسمه علىٰ طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾، فقد طابق بين عظم الظهر وعظم الصدر، وأفرد الأول، وجمع الآخر؛ لأن صدر المرأة تريبتها، فيقال للمرأة: ترائب يعني بها: التريبة، وما حواليها وما أحاط بها، أو يقال: إنه تعالىٰ أراد: يخرج من بين الأصلاب والترائب، فاكتفىٰ بالواحد عن الجماعة، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾، ولم يقل: والأرضين.

ومنها: الفصل في قوله: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾، وسياق الكلام يقتضي الوصل؛ لأنه قصد إشراكهما في الحكم، واتفقا فيه، وإنما عدل عنه تفخيماً لشأنه، فأقسم أولاً بما يشترك فيه هو وغيره، وهو الطارق، ثم سأل عنه بالاستفهام تفخيماً لشأنه ثانياً، ثم فسره بالنجم إزالة لذلك الإبهام الحاصل بالاستفهام.

ومنها: فن المماثلة في قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾، وهو تماثل ألفاظ الكلام كلها أو بعضها في الزينة دون التقفية، فالطارق والثاقب وحافظ متماثلة في الزينة دون التقفية، وأورد الشيخ عبد الغني النابلسي للقاضي يحيى بن أكثم بيتين في المماثلة:

إِنَّمَا ٱلدُّنْيَا طَعَامْ وَمُدَامٌ وَغُلَامْ

فَإِذَا فَاتَكَ هَذَا فَعَلَىٰ ٱلدُّنْيَا ٱلسَّلَامْ

ومنها: الكناية اللطيفة في قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾ كنىٰ بالصلب عن الرجل، وبالترائب عن المرأة، وهذا من لطيف الكنايات.

ومنها: الطباق بين ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ و ﴿ٱلْأَرْضِ﴾، وبين ﴿ٱلْفَصْلِ﴾ و ﴿الهزل﴾.

ومنها: تقديم الجار والمجرور علىٰ عامله في قوله: ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ للاهتمام به من حيث إن الكلام فيه بخصوصه، فهو لا ينافي قادريته علىٰ غيره.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾.

ومنها: فن المشاكلة في قوله: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ حيث سمىٰ الاستدراج والانتقام منهم في الدنيا بالسيف، وفي الآخرة بالنار كيداً علىٰ طريقة المشاكلة

لوقوعه في مقابلة كسبهم جزاءً له، وإلا فالكيد الذي هو بمعنىٰ المكر والاحتيال لا يجوز إسناده إليه تعالى مراداً به معناه الحقيقي؛ لأنه من صفات النقص والعجز، وتسمية جزاء الشيء باسم ذلك الشيء علىٰ سبيل المشاكلة شائع كثير، كما مر.

ومنها: الإطناب بتكرير الفعل مبالغة في الوعيد في قوله: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

* * *

مقاصد هذه السورة

اشتملت على المقاصد التالية:

١ ـ بيان كون حافظٍ علىٰ كل نفس.

٢ ـ إقامة الأدلة علىٰ أن الله قادر علىٰ بعث الخلق كرة أخرىٰ.

٣ ـ بيان أن القرآن منزل من عند الله تعالىٰ فاصل بين الحق والباطل ليس بهزل.

٤ ـ بيان كيدهم بالرسول ﷺ، وجزاء الله تعالى لهم علىٰ كيدهم.

٥ ـ أمر الرسول ﷺ بالإمهال لهم حتىٰ يحل بهم العذاب[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) تم تفسير سورة والطارق بعون خالق النجوم والبوارق عصر يوم الجمعة قبيل الغروب، اليوم العشرين من شهر رمضان المبارك من شهور سنة: ٢٠/٩/ ١٤١٦هـ ألف وأربع مئة وست عشرة من الهجرة النبوية علىٰ صاحبها أفضل الصلاة وأزكىٰ التحية، وصلى الله وسلم علىٰ سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين. آمين آمين.

سورة الأعلى

سورة الأعلىٰ، وتسمىٰ سورة: سبح، مكية في قول الجمهور، نزلت بعد سورة التكوير، وقال الضحاك: هي مدنية، وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة سبح اسم ربك الأعلى بمكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير وعائشة مثله، وأخرج البخاري وغيره عن البراء بن عازب قال: أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، فجعلا يقرآننا القرآن، ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي ﷺ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، حتىٰ رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله ﷺ، قد جاء فيما جاء، حتىٰ قرأت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ١﴾ في سور مثلها.

وآيها: تسع عشرة آية. **وكلماتها**: اثنتان وسبعون كلمة. **وحروفها**: مئتان وتسعون حرفاً.

ومناسبتها لما قبلها: أنه ذكر في تلك خلق الإنسان، وأشار إلىٰ خلق النبات بقوله: ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ١٢﴾، وذكر هنا خلق الإنسان في قوله: ﴿خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾، وخلق النبات في قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ٥﴾، وقصة النبات هنا أوضح وأكثر بسطاً، وقصة خلق الإنسان هناك أكثر تفصيلاً.

وعبارة أبي حيان: مناسبتها لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر فيما قبلها: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ٥﴾، كأن قائلاً قال: من خلقه علىٰ هذا المثال؟ فقيل: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ١﴾، وأيضاً لما قال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ١٣﴾.. قيل: هو ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾؛ أي: ذلك القول الفصل. انتهىٰ.

فضلها: ومما ورد في فضل هذه السورة: ما أخرجه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي عن النعمان بن بشير رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ: كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ١﴾، و ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ١﴾،

وإن وافق يوم جمعة قرأهما جميعاً، وفي لفظ: وربما اجتمعا في يوم واحد، فقرأهما. وفي هذا الباب أحاديث كثيرة.

ومما ورد في فضلها أيضاً: ما أخرجه أحمد والبزار وابن مردويه عن علي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾.

ومما ورد أيضاً: ما أخرجه مسلم وغيره عن جابر بن سمرة: أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾.

ومنه أيضاً: ما أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه والدارقطني والحاكم والبيهقي عن أبي بن كعب قال: كان رسول الله ﷺ يوتر بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، و ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾.

وأخرج أبو داود والترمذي ـ وقال: حديث حسن غريب ـ والنسائي وابن ماجه والحاكم ـ وصححه ـ والبيهقي عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يقرأ في الوتر في الركعة الأولى بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، وفي الثانية: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، وفي الثالثة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، والمعوذتين.

وبحديث عائشة هذا عمل الشافعي ومالك رحمهما الله تعالى، وأما عند أبي حنيفة وأحمد.. فالمستحب في الثالثة الإخلاص فقط، عملاً بحديث أبي بن كعب السابق.

وفي «الصحيحين»: أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «هلا صليت بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾». وسميت سورة الأعلى: لذكره فيها.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال ابن حزم رحمه الله تعالى: سورة الأعلى كلها محكم، فيها ناسخ، وليس فيها منسوخ، فالناسخ قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ
۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧
وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى
يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ
۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨
صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾.

المناسبة

قد تقدم لك بيان المناسبة بين هذه السورة و التي قبلها قريباً، ثم إنه سبحانه وتعالىٰ بدأ هذه السورة بأمر رسول الله ﷺ أن ينزه اسمه عن كل ما لا يليق به، واسم الله ما يعرف به، والله إنما يعرف بصفاته من كونه عالماً قادراً حكيماً خالقاً، فالله يأمرنا بتسبيح هذا الاسم؛ أي: تنزيهه عن أن نصفه بما لا يليق من شبه المخلوقات، أو ظهوره في واحد منها بعينه، أو اتخاذه شريكاً أو ولداً له، فلا تتجه عقولنا إليه إلا بأنه خالق المخلوقات، وهو الذي أوجدها وسواها، وأنه هو الذي أخرج المرعىٰ، ثم جعله جافاً حتىٰ لفظه السيل بجانب الوادي.

قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما أمر رسوله بتسبيح اسمه، وعلم أمته المأمورة بأمر الله له كيف يمكنها أن تعرف الاسم الذي تسبحه علىٰ نحو ما ذكرنا، ولا يكمل ذلك إلا بقراءة ما أنزل عليه من القرآن، فكان هذا مدعاة إلىٰ شدة حرصه ﷺ على حفظه.. وعده بأنه سيقرئه من كتابه ما فيه تنزيهه، وتبيين ما أوجب أن يعرف من صفاته، وأحكام شرائعه، كما وعده بأن ما يقرئه إياه لا ينساه.

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما وعد رسوله ﷺ بذلك الفضل العظيم، وهو حفظ القرآن، وعدم نسيانه.. أمره بتذكير عباده بما ينفعهم في دينهم ودنياهم، وتنبيههم من غفلاتهم،

وتوجيههم إلىٰ ما فيه الخير لهم، وبيَّن أن الذكرىٰ لا تنجع إلا في القلوب الخاشعة التي تخشىٰ الله، وتخاف عقابه، أما القلوب الجاحدة المعاندة.. فلا تجدي فيها الذكرى شيئاً، فهون على نفسك، ولا يحزننك جحدهم وعنادهم، كما أشار إلىٰ ذلك في آية أخرىٰ فقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾، ثم ذكر أن أولئك الجحدة العصاة يكونون في قعر جهنم، لا هم يموتون، ولا يسعدون بحياة طيبة.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ...﴾ إلىٰ آخر السورة، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر وعيد الذين أعرضوا عن النظر في الدلائل التي تدل علىٰ وجود الله تعالى، ووحدانيته، وإرسال الرسل، وعلىٰ البعث والحساب.. أتبعه بالوعد لمن زكىٰ نفسه، وطهرها من أدران الشرك والتقليد للآباء والأجداد بالفوز بالفلاح، والظفر بالسعادة في دنياه وآخرته، ثم ذكر أن من طبيعة النفوس حب العاجلة، وتفضيلها علىٰ الآجلة، ولو فكروا قليلاً.. لاستبان لهم أن الخير في تفضيل الثانية علىٰ الأولى، ثم أرشد إلىٰ أن أسس الدعوة الدينية في كل الأديان واحدة، فما في القرآن هو ما في صحف إبراهيم وموسىٰ عليهما السلام.

التفسير وأوجه القراءة

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾؛ أي: قل يا محمد أنت وأمتك: سبحان ربي الأعلى إذا أردتم تسبيحه تعالىٰ، وهو قول جماعة من الصحابة والتابعين، يدل عليه ما روي عن ابن عباس أن النبي ﷺ: قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، فقال: «سبحان ربي الأعلى»، ذكره البغوي بإسناد الثعلبي، وقيل: معناه: نزه ربك الأعلىٰ عن كل ما لا يليق به من صفات النقص والحدوث، وقال السدي: معناه: عظم ربك الأعلىٰ بوصفه بالكمالات، وتنزيهه من النقائص، فعلىٰ هذا يكون لفظ الاسم مقحماً لقصد التعظيم، كما في قول لبيد:

إِلَىٰ ٱلْحَوْلِ ثُمَّ ٱسْمُ ٱلسَّلَامِ عَلَيْكُمَا   وَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً كَامِلاً فَقَدِ ٱعْتَذَرْ

والمعنىٰ: سبح اسم ربك الأعلى عما يقوله الظالمون من اتخاذ صاحبة وولد وشريك. وقال ابن جرير: المعنىٰ: نزه اسم ربك عن أن يسمىٰ به أحد سواه، فعلىٰ هذا لا يكون لفظ ﴿ٱسْمَ﴾ مقحماً، وقيل: المعنىٰ: نزه تسمية ربك وذكرك إياه عن

أن تذكره إلا وأنت له خاشع معظم، ولذكره محترم. وقال الحسن: معنىٰ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾: صلِّ له، وقيل: المعنىٰ: صل بأسماء الله تعالى، لا كما يصلي المشركون بالمكاء والتصدية. وقيل: المعنىٰ: ارفع صوتك بذكر ربك الأعلى، ومنه قول جرير:

قَبَّحَ ٱلإِلَـهُ وُجُوْهَ تَغْلِبَ كُلَّمَا سَبَّحَ ٱلْحَجِيْجُ وَكَبَّرُوْا تَكْبِيْرَا

وقال ابن عباس: سبح؛ أي: صلِّ بأمر ربك الأعلى. وعن عقبة بن عامر قال: لما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾.. قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم»، ولما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾.. قال: «اجعلوها في سجودكم». أخرجه أبو داوود. وكانوا يقولون قبل ذلك في الركوع: اللهم لك ركعت. وفي السجود: اللهم لك سجدت. وفي هذا الحديث دلالة علىٰ أن لفظ الاسم مقحم، قاله سعدي المفتي، وعلىٰ أن الامتثال بالأمر يحصل بأن يقول: سبحان ربي العظيم أو الأعلى، بدون قراءة النظم القرآني، ولهذا قرأ علي وابن عمر رضي الله عنهم: سبحان ربي الأعلىٰ، الذي خلق فسوى، فإن قوله: ﴿سَبِّحِ﴾ أمر بالتسبيح، فلا بد أن يذكر ذلك التسبيح، وما هو إلا قول: سبحان ربي الأعلى.

وقيل معنىٰ الآية[1]: نزه اسم ربك عن إطلاقه على غيره تعالى بوجه يشعر بتشاركهما فيه، كأن يسمى الصنم والوثن بالرب والإله، ومنه: تسمية العرب مسيلمة الكذاب برحمان اليمامة، وكذا نزه اسمه عن ذكره، لا علىٰ وجه الإعظام والإجلال، ويدخل فيه أن يذكر اسمه عند التثاؤب، وحال الغائط، وكذا بالغفلة، وعدم الوقوف علىٰ معناه وحقيقته، وكذا بالغلط في لفظه أو في تركيبه، ومنه إكثار القسم بذكر اسمه من غير مبالاة. وقال جرير في الآية: ارفع صوتك بذكر اسم ربك الأعلىٰ، فإن ذكر المدلول إنما هو بذكر الاسم الدال عليه، وقال بعضهم: المعنىٰ: نزه مسمىٰ ربك؛ أي: ذاته عما يدخل في الوهم والخيال؛ لأن الاسم والمسمىٰ هنا واحد، فظهر من هذه التقادير: أن الاسم غير مقحم، وهو الظاهر.

و ﴿ٱلْأَعْلَى﴾ صفة للرب، وقيل: للاسم، والأول أظهر لما في الوجه الثاني من

---

(١) روح البيان.

التوجيه الآتي في مبحث الإعراب، وهو من العلو الذي هو القهر والغلبة، لا العلو في المكان. ا هـ «عمادي»، ومعنىٰ علوه تعالىٰ: أن يعلو عن أن يحيط به وصف الواصفين، ومعنىٰ أعلويته: أن له الزيادة المطلقة في العلو، قال بعضهم: ليس علوه علو جهة، ولا كبره كبر جثة سبحانه عن ذلك، بل علو استحقاق لنعوت الجلال والكبرياء، فمن عرف علوه وكبرياءه.. تواضع وتذلل بين يديه. وعبارة «الخطيب» هنا: أي: نزه ربك عن كل ما لا يليق به في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه، أما في ذاته.. فأن تعتقد أنها ليست من الجواهر والأعراض، وأما في صفاته.. فأن تعتقد أنها ليست محدثة، ولا متناهية ولا ناقصة، وأما في أفعاله.. فأن تعتقد أنه سبحانه لا اعتراض لأحد عليه في أمر من الأمور، وأما في أسمائه.. فأن لا تذكره سبحانه إلا بالأسماء التي لا توهم نقصاً بوجه من الوجوه، سواء ورد الإذن فيها، أم لم يرد، وأما في أحكامه سبحانه.. فأن تعلم أنه ما كلَّفنا لنفع يعود إليه، بل لمحض المالكية، وحكمته البالغة. انتهىٰ.

والخلاصة: أي نزه اسم ربك عن كل ما لا يليق بجلاله في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه، فلا تذكره إلا علىٰ وجه التعظيم له، ولا تطلق اسمه علىٰ غيره زاعماً أنه يشاركه في صفاته.

ثم وصف ذلك الرب الأعلىٰ بأوصاف، فقال:

٢ - ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ صفة أخرىٰ للرب علىٰ الوجه الأول الأظهر، ومنصوب علىٰ المدح علىٰ الثاني؛ لئلا يلزم الفصل بين الموصوف وصفته بصفة غيره، إذ يصير التركيب مثل قولك: جاءني غلام هند العاقل الحسنة، وهو ممتنع؛ أي: أنشأ وأوجد كل شيء، فسوى خلقه بأن جعل له ما به يتأتىٰ كماله، ويتسنىٰ معاشه.

والمعنىٰ: أي الذي خلق الكائنات جميعاً، فسوىٰ خلقها، وجعلها متسقة محكمة، ولم يأتِ بها متفاوتة غير ملتئمة دلالة علىٰ أنها صادرة عن عالم حكيم مدبر، أحسن تدبيرها فأحكم أسرها.

وعبارة الخازن: أي الذي خلق كل ذي روح، فسوى اليدين والرجلين والعينين، وقيل: خلق الإنسان مستوياً معتدل القامة. ا هـ.

٢ ـ ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ﴾ معطوف على الموصول الأول؛ أي: قدر أجناس الأشياء وأنواعها، وأفرادها ومقاديرها، وصفاتها وأفعالها وآجالها، كما قال ﷺ: «إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة»؛ أي: جعل أجناس الأشياء، وكذا أشخاص كل نوع بمقدار معلوم، وكذا جعل مقدار كل شخص في جثته وأوضاعه وسائر صفاته، كالحسن والقبح، والسعادة والشقاوة، والهداية والضلالة، والألوان والأشكال، والطعوم والروائح، والأرزاق والآجال، وغير ذلك بمقدار معلوم، كما قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾. ﴿فَهَدَىٰ﴾؛ أي: فوجه كل واحد منها إلى ما يصدر منه، وينبغي له طبعاً أو اختياراً، ويسره لما خلق له بخلقه الميول، والإلهامات، ونصب الدلائل، وإنزال الآيات، ولو تتبعت أحوال النباتات والحيوانات.. لرأيت في كل منها ما يحار فيه العقول.

وقرأ الجمهور: ﴿قَدَّرَ﴾ بتشديد الدال، فاحتمل أن يكون من القدر والقضاء، واحتمل أن يكون من التقدير والموازنة بين الأشياء، وقال الزمخشري: قدر لكل حيوان ما يصلحه، فهداه إليه، وعرفه وجه الانتفاع به. انتهى. وقرأ الكسائي: ﴿قدر﴾ مخفف الدال من القدرة، أو من التقدير والموازنة، وهدى عام لجميع الهدايات، قال الواحدي[1]: قال المفسرون: قدر خلق الذكر والأنثى من الدواب، فهدى الذكر للأنثى كيف يأتيها، وقال مجاهد: هدى الإنسان لسبيل الخير والشر، والسعادة والشقاوة. وروي عنه أيضاً: أنه قال في معنى الآية: قدر السعادة والشقاوة، وهدى للرشد والضلالة، وهدى الأنعام لمراعيها، وقيل: قدر أرزاقهم وأقواتهم، وهداهم لمعايشهم إن كانوا إنساناً، ولمراعيهم إن كانوا وحشاً، وقال عطاء: جعل لكل دابة ما يصلحها، وهداها له، وقيل: خلق المنافع في الأشياء، وهدى الإنسان لوجه استخراجها منها. وقال السدي: قدر مدة الجنين في الرحم تسعة أشهر، وأقل وأكثر، ثم هداه للخروج من الرحم، وقال الفراء: أي: ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ وأضل، فاكتفى بأحدهما، وفي تفسير الآية أقوال غير ما ذكرنا، والأولى عدم تعيين فرد أو أفراد مما يصدق عليه قدر فهدى إلا بدليل يدل عليه. ومع عدم

---

(١) الشوكاني.

الدليل يحمل علىٰ ما يصدق عليه معنىٰ الفعلين؛ إما على البدل، أو الشمول.

والمعنىٰ[1]: أي والذي قدر كل واحد من الكائنات علىٰ ما يستحقه، ويكون به استقرار شأنه، فقدر السموات وما فيها من الكواكب، وقدر الأرض وما فيها من المعادن، وما يظهر علىٰ وجهها من النبات، وما يعيش عليها من الحيوان، ثم هدىٰ كل دابة إلىٰ استعمال ما يصلحها، وما هو أمس بحاجتها بما خلق فيها من الميول والإلهامات لتحصيل ما لها من مقاصد وغايات.

والخلاصة[2]: قدر أجناس الأشياء وأنواعها وصفاتها وأفعالها وأقوالها وآجالها، فهدىٰ كل واحد منها إلى ما يصدر عنه، وينبغي له، ويسره لما خلق له، وألهمه إلىٰ أمور دينه ودنياه.

٣ ـ ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾﴾ معطوف علىٰ الموصول الأول أيضاً؛ أي: أنبت بكمال قدرته ما ترعاه الدواب غضاً طرياً من بين أخضر وأصفر، وأحمر وأبيض، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المرعىٰ: الكلأ الأخضر. ﴿فَجَعَلَهُ﴾؛ أي[3]: فجعل ذلك المرعىٰ والعشب بعد أن كان أخضر غضاً طرياً ﴿غُثَاءً﴾: مفعول ثانٍ لجعل؛ أي: هشيماً جافاً كالغثاء والقمام الذي يحمله السيل ويكون فوقه ﴿أَحْوَى﴾ صفة لـ ﴿غُثَاءً﴾؛ أي: أسود بعد اخضراره، لأن الغثاء إذا قدم وأصابته الأمطار اسود وتعفن، فصار أحوىٰ. وفي «الصحاح»: الرعي ـ بالكسر ـ: الكلأ، وبالفتح: المصدر، والمرعىٰ: الرعي؛ أي: الكلأ، أو المصدر؛ أي: الرعي بالفتح. ا هـ.

والغثاء: الدرين ـ وهو كأمير ـ: يبيس كل حطام حمض أو شجر أو بقل، قال الجوهري: الغثاء ـ بالضم والمد ـ: ما يحمل السيل من القماش، والقمش: جمع الشيء من ههنا وههنا، وذلك الشيء قماش ما علىٰ وجه الأرض من فتات الأشياء حتى يقال لرذالة الناس: قماش، والأحوىٰ: مأخوذ من الحوة، وهي سواد يضرب إلىٰ الخضرة، وفي «الصحاح»: الحوة: حمرة الشفة، وذلك أن الكلأ إذا جف ويبس اسودَّ، سواء كان جفافه واسوداده بتأثير حرارة الشمس أو برودة الهواء،

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

والفاء التعقيبية إشارة إلى قصر مدة الخضرة، ورمز إلىٰ مدة العمر، وسرعة زوال الدنيا ونعيمها، وانتصاب ﴿غُثَآءً﴾ علىٰ أنه مفعول ثانٍ، أو علىٰ الحال، وأحوىٰ: صفة له، وقال الكسائي: هو حال من المرعىٰ؛ أي: أخرج المرعىٰ حال كونه أحوىٰ؛ أي: أسود من شدة خضرته ونضارته لكثرة ريه. وحسن تأخير ﴿أَحْوَىٰ﴾ لأجل الفواصل.

ومعنىٰ الآية: أي والذي أنبت النبات جميعه لترعاه الدواب والنعم، فما من نبت إلا وهو يصلح أن يكون مرعىٰ لحيوان من الأجناس الحية ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾؛ أي: فجعل هذا المرعىٰ بعد أن كان أخضر هشيماً بالياً كالغثاء يميل لونه إلىٰ السواد، فهو سبحانه القادر على إنبات العشب، وعلىٰ تبديل حاله، لا الأصنام التي عبدها الكفرة الفجرة.

وقصارى ما سلف: أنا مأمورون أن نعرف الله جل شأنه بأنه القادر العالم الحكيم الذي شهدت بصفاته آثاره في خلقه، وأن لا ندخل في هذه الصفات ما لا يليق به، كما أدخل الملحدون الذين اتخذوا من دونه شركاء، أو وصفوه بما به يشبه خلقه. وإنما توجه إلينا الأمر بتسبيح الاسم دون الذات ليرشدنا إلىٰ أن مبلغ جهدنا أن نعرف الصفات بما يدل عليها، أما الذات.. فهي أعلىٰ وأرفع من أن تتوجه إليها عقولنا إلا بما نلحظ من هذه الصفات بما يدل عليها.

﴿سَنُقْرِئُكَ﴾؛ أي: سنجعلك قارئاً بأن نلهمك القراءة ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ ما تقرؤه، وهذه الجملة مستأنفة مسوقة لبيان هدايته تعالىٰ الخاصة برسول الله ﷺ إثر بيان هدايته تعالىٰ العامة لكافة مخلوقاته، وهي هدايته ﷺ لتلقي الوحي، وحفظ القرآن الذي هو هدى للعالمين، وتوفيقه ﷺ لهداية الناس أجمعين. قال الراغب في «المفردات»: وهذا إخبار وضمان من الله تعالىٰ أن يجعله بحيث لا ينسىٰ ما سمعه من الحق. انتهى. والسين؛ إما للتأكيد، وإما لأن المراد إقراء ما أوحى إليه حينئذٍ، وما سيوحىٰ إليه بعد ذلك، فهو وعد كريم باستمرار الوحي في ضمن الوعد بالإقراء.

---

(١) المراغي.

يقال: قرأ القرآن، فهو قارىء، وأقرأه غيره، فهو مقرىء؛ أي: علمه إياه، فهو معلم.

والمعنىٰ: سنقرئك ما نوحي إليك الآن وفيما بعد علىٰ لسان جبريل، فلا تنسىٰ أصلاً من قوة الحفظ والإتقان. وفي «كشف الأسرار»: سنجمع حفظ القرآن في قلبك، وقراءته في لسانك، حتىٰ لا تنسىٰ، كقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧﴾.

قال مجاهد والكلبي: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي.. لم يفرغ جبريل من آخر الآية حتىٰ يتكلم النبي ﷺ بأولها مخافة أن ينساها، فنزلت: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ استثناء مفرغ من أعم المفاعيل؛ أي: لا تنسىٰ مما تقرأه شيئاً من الأشياء إلا ما شاء الله أن تنساه أبداً، بأن نسخت تلاوته، فإن النسخ نوع من الإنساء، وطريق من طرقه، فكأنه بالنسخ محي من الصحف والصدور، فالمراد بالنسيان: هو النسيان الكلي الدائم، بحيث لا يعقبه التذكر بعده، ويجوز أن يراد به النسيان المتعارف الذي يعقبه التذكر بعده، وهو النسيان في الجملة علىٰ القلة والندرة؛ أي: فلا تنسىٰ إلا ما شاء الله نسيانه، ثم لا يبقىٰ المنسي منسياً دائماً، بل يعقبه التذكر كما هو المفهوم من المقام، ويؤيد هذا المعنىٰ: ما روي أنه ﷺ أسقط آيةً في قراءته في الصلاة فحسب أبي رضي الله عنه أنها نسخت، فسأله فقال ﷺ: «نسيتها».

وروي: أن بعض الصحابة رضوان الله تعالىٰ عليهم كان يقرأ القرآن في الليل، فقال: ﷺ: «لقد أذكرني آية أنسيتها»، ومن هذا كان ﷺ يقول في دعائه: «اللهم ارحمني بالقرآن العظيم، واجعله لي إماماً ونوراً وهدىٰ ورحمة، اللهم ذكرني منه ما نسيت، وعلمني منه ما جهلت، وارزقني تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، واجعله حجة لي يا رب العالمين». وكان ﷺ يقول: «إنما أنا بشر أُنسىٰ كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني»، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ﴾، ودل الكل علىٰ جواز جريان النسيان عليه، وإن لم يكن سهوه ونسيانه من قبيل سهو الأمة ونسيانهم، فإنه أهل الحضور الدائم.

وقيل[1]: معنى ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾: فلا تترك العمل به إلا ما شاء الله أن تتركه لنسخه ورفع حكمه، وقيل: المعنى: إلا ما شاء الله أن يؤخر إنزاله، وقيل: ﴿لَآ﴾ في قوله: ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ للنهي، والألف مزيدة لرعاية الفاصلة، كما في قوله: ﴿فاضلونا السبيلا﴾ يعني: فلا تغفل قراءته وتذكره، وقال الفراء: وهو سبحانه لم يشأ أن ينسي محمداً ﷺ شيئاً، وهو نظير قوله: تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ إلا أنَّ القصد من هذا الاستثناء بيان أنه لو أراد أن يصيره ناسياً.. لقدر علىٰ ذلك، كما جاء في قوله: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ وإنا لنقطع بأنه تعالىٰ ما شاء ذلك.

وقصارىٰ ذلك: أن فائدة هذا الاستثناء بيان أنه تعالىٰ قادر علىٰ أن ينسيه، وأن عدم النسيان فضل من الله تعالىٰ وإحسان، لا من قوته. وقال أبو حيان: ومناسبة قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ لما قبله: أنه لما أمر تعالىٰ بالتسبيح، وكان التسبيح لا يتم إلا بقراءة ما أنزل عليه من القرآن، وكان يتذكر في نفسه مخافة أن ينسى.. أزال عنه ذلك، وبشره بأنه تعالى يقرئه وأنه لا ينسىٰ، واستثنى ما شاء الله أن ينسيه لمصلحة من تلك الوجوه.

والمعنىٰ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾؛ أي[2]: سننزل عليك كتاباً تقرأه، ولا تنسى منه شيئاً بعد نزوله عليك، وقد كان ﷺ إذا نزل عليه القرآن أكثر من تحريك لسانه مخافة أن ينساه، فوعد بأنه لا ينساه.

وخلاصة ذلك: أنا سنشرح صدرك ونقوي ذاكرتك حتىٰ تحفظه بسماعه مرة واحدة، ثم لا تنساه بعدها أبداً.

ولما كان هذا الوعد علىٰ سبيل التأبيد يوهم أن قدرته تعالىٰ لا تسع تغييره.. جاء بالاستثناء فقال: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: فإن أراد أن ينسيك شيئاً لم يعجزه ذلك.

ثم أكد هذا الوعد مع الاستثناء فقال: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾، والجملة تعليل لما قبلها[3]؛ أي: يعلم ما ظهر وما بطن، والإعلان والإسرار، وظاهره

---

(١) الشوكاني. (٢) الراغي. (٣) الشوكاني.

العموم، فيندرج تحته ما قيل: إن الجهر ما حفظه رسول الله ﷺ من القرآن، وما يخفىٰ هو ما نسخ من صدره، ويدخل تحته أيضاً ما قيل: من أن الجهر هو إعلان الصدقة، وما يخفىٰ هو إخفاؤها، ويدخل تحته أيضاً ما قيل: إن الجهر جهره ﷺ بالقرآن، مع قراءة جبريل؛ مخافة أن يتفلت عليه، وما يخفىٰ ما في نفسه مما يدعوه إلى الجهر، وعلىٰ هذا يكون[1] المعنىٰ: أي: إنه تعالىٰ عالم بجهرك في القراءة مع قراءة جبريل عليه السلام، وعالم بالسر الذي في قلبك، وهو أنك تخاف النسيان، فلا تخف، فأنا أكفيك ما تخافه. و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ﴾. موصولة ولا يجوز أن تكون مصدرية لئلا يلزم خلوُّ الفعل من فاعل ولولا ذلك لكان كونها مصدرية أحسن لعطف مصدر مؤول علىٰ مثله صريح.. إلخ، كما في «السمين»، وكلٌّ من الجهر والإخفاء شامل لما كان من قبيل القول والعمل، والإخفاء لما في الضمائر من النسيان.

والمعنىٰ: أي يعلم سبحانه ما ظهر وما بطن من الأمور التي من جملتها ما أوحي إليك، فينسي ما يشاء إنساءه، ويبقي محفوظاً ما يشاء إبقاءه لما نيط بكل منهما من مصالح دينكم.

والحاصل[2]: أي إن الذي وعدك بأنه سيقرئك، وأنه سيجعلك حافظاً لما تقرأ فلا تنساه، عالم بالجهر والسر، فلا يفوته شيء مما في نفسك، وهو مالك قلبك وعقلك، وخافي سرك وجهرك، ففي مقدوره أن يحفظ عليك ما وهبك، وإن كان من خفيات روحك، ولو شاء لسلبه، ولن تستطيع دفعه؛ لأنه ليس في قدرتك أن تخفي عنه شيئاً.

ولما كان في الوعد بالإقراء الوعد بتشريع الأحكام، وفيها ما يصعب علىٰ المخاطبين احتماله.. أردف ذلك الوعد بما يزيده حلاوة في النفوس فقال: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ⑧﴾ معطوف علىٰ ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾، وما بينهما اعتراض؛ أي: ونوفقك للشريعة السمحة التي يسهل علىٰ النفوس قبولها، ولا يصعب علىٰ العقول فهمها، واليسرى[3]: فعلىٰ من اليسر: وهو السهولة، وضمن ﴿نيسرك﴾ معنىٰ التوفيق فعداه بدون اللام، وإلا فالعبارة المعتادة أن يقال: جعل الفعل الفلاني ميسراً لفلان، لا

---

(١) المراح. (٢) المراغي. (٣) روح البيان.

أن يقال: جعل فلان ميسراً للفعل الفلاني، كما في الآية، فإنه قيل: ونيسرك لليسرىٰ، لا ونيسر اليسرىٰ لك، فقد جعلت الآية الإنسان هو الميسر للفعل، وليس الفعل هو الميسر للإنسان من قبل أن الفعل لا يحصل إلا إذا وجدت العزيمة الصادقة، والإرادة النافذة لإيجاده مع التوفيق لسلوك أقوم الطرق التي توصل إليه، كما جاء في الحديث: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»، وأتىٰ بنون العظمة لتكون عظمة المعطي دليلاً علىٰ عظمة العطاء. وفي «الإرشاد»: تعليق التيسير به ﷺ مع أن الشائع تعليقه بالأمور المسخرة للفاعل، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾﴾ للإيذان بقوة تمكنه ﷺ من اليسرىٰ، والتصرف فيها بحيث صار ذلك ملكة راسخة له، كأنه ﷺ جبل عليها، كما في قوله ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له». انتهىٰ.

والمعنىٰ[1]: ونوفقك توفيقاً مستمراً للطريقة اليسرىٰ؛ أي: التي هي أيسر وأسهل في كل باب من أبواب الدين والدنيا علماً وتعليماً واهتداءً وهداية، فيندرج فيه تيسير طريق تلقي الوحي، والإحاطة بما فيه من أحكام الشريعة السمحة، والنواميس الإلهية، مما يتعلق بتكميل نفسه ﷺ، وتكميل غيره، كما يفصح عنه ﴿الفاء﴾ في قوله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾﴾؛ أي: فذكر الناس حسبما يسرناك له بما يوحىٰ إليك، واهدهم إلىٰ ما في تضاعيفه من الأحكام الشرعية، كما كنت تفعله إن نفع التذكير والعظة والنصيحة، وتقييد التذكير بنفع الذكرىٰ لما أن رسول الله ﷺ طالما كان يذكرهم، ويستفرغ فيه جهده حرصاً علىٰ إيمانهم، وكان لا يزيد ذلك بعضهم إلا كفراً وعناداً، فأمر ﷺ بأن يخص التذكير بمدار النفع في الجملة، بأن يكون من يذكره كلاً أو بعضاً ممن يرجىٰ منه التذكر، ولا يتعب نفسه في تذكير من لا يزيده التذكير إلا عتواً ونفوراً من المطبوع علىٰ قلوبهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾، فحرف الشك راجع إلىٰ النبي ﷺ، لا إلى الله تعالى.

وخلاصة المعنى[2]: أي فذكر الناس بما أوحينا به إليك، واهدهم إلىٰ ما فيه من بيان الأحكام الدينية، فإن أصر المعاندون علىٰ عنادهم، ولم يزدهم وعظك إلا

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

تمادياً في الجحود والإنكار.. فلا تذهب نفسك عليهم حسرات حرصاً علىٰ إيمانهم، وحزناً علىٰ بقائهم علىٰ كفرهم، وادع من تعلم أنه يجيبك ولا يجبهك ولا يؤذيك.

قال الواحدي[1]: المعنىٰ: فذكر إن نفعت الذكرىٰ أو لم تنفع؛ لأن النبي ﷺ بعث مبلغاً للإعذار والإنذار، فعليه التذكير في كل حال، نفع أو لم ينفع، ولم يذكر الحالة الثانية للاكتفاء، كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾؛ أي: والبرد، وقال الجرجاني: التذكير واجب، وإن لم ينفع.

والمعنىٰ: إن نفعت الذكرىٰ، أو لم تنفع. قال أبو حيان: والظاهر[2] أن الأمر بالتذكير مشروط بنفع الذكرىٰ، وهذا الشرط إنما يجيء به توبيخاً لقريش؛ أي: إن نفعت الذكرىٰ في هؤلاء الطغاة العتاة، ومعناه: استبعاد انتفاعهم بالذكرىٰ، فهو كما قال الشاعر:

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِيْ

كما تقول: قل لفلان وأعِذْ له إن سمعك، فقوله: إن سمعك، إنما هو توبيخ وإعلام أنه لن يسمع.

وقال الفراء والنحاس والزهراوي والجرجاني: معناه: فذكر وإن لم ينفع، فاقتصر علىٰ القسم الواحد لدلالته علىٰ الثاني، وقيل: ﴿إن﴾ بمعنىٰ: إذ، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وقيل: بمعنىٰ: قد، ذكره ابن خالويه، وهو بعيد جداً، وعبارة الرازي: واعلم[3] أنه ﷺ كان مبعوثاً إلىٰ الكل، فيجب عليه أن يذكِّرهم سواء نفعتهم الذكرىٰ أم لم تنفعهم، والجواب عن هذا الشرط: أنه تعالىٰ ذكر أشرف الحالتين، ونبه علىٰ الحالة الأخرى، كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾، والتقدير: فذكر إن نفعت الذكرىٰ أو لم تنفع، وأجيب عنه أيضاً: بأن التذكير العام واجب في أول الأمر، وأما التكرير.. فلعله إنما يجب عند رجاء حصول المقصود، فلهذا المعنىٰ قيده بهذا الشرط المذكور، والتذكير المأمور به حينئذٍ هل هو محصور في عشر مرات، أو غير محصور؟ والجواب: أن الضابط فيه

---

(١) الشوكاني. (٢) البحر المحيط. (٣) التفسير الكبير للرازي.

العرف. انتهىٰ.

ثم بين سبحانه الفرق بين من تنفعه الذكرىٰ ومن لا تنفعه، فقال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾؛ أي: سيتذكر بتذكيرك مَنْ من شأنه أن يخشىٰ الله حق خشيته، أو من يخشىٰ الله في الجملة، فيزداد ذلك بالتذكير، فيتفكر في أمر ما تذكر به، فيقف علىٰ حقيقته، فيؤمن به؛ أي: سيتعظ بوعظك من يخشىٰ الله، فيزداد بالتذكير خشيةً وصلاحاً، وفي «التفسير الكبير» للرازي: واعلم[1] أن الناس في أمر المعاد علىٰ ثلاثة أقسام: منهم من قطع بصحة المعاد ومنهم من جوز وجوده، ولكنه غير قاطع فيه بالنفي ولا بالإثبات، ومنهم من أصر علىٰ إنكاره؛ أي: المعاد، وقطع بأنه لا يكون، فالقسمان الأولان تكون الخشية حاصلة لهما، وأما القسم الثالث.. فلا خشية له ولا خوف، فلما قال الله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾﴾ بيَّن أن الذي تنفعه الذكرىٰ ﴿مَن يَخْشَىٰ﴾، ولما كان الانتفاع بالذكرىٰ مبنياً علىٰ حصول الخشية في القلب، وصفات القلوب لا يطلع عليها إلا الله.. وجب علىٰ الرسول تعميم الدعوة تحصيلاً للمقصود، فإن المقصود تذكير من ينتفع بالتذكير، ولا سبيل إليه إلا بتعميم التذكير، والسين في ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ بمعنىٰ: سوف، وسوف من الله واجب، كقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴿٦﴾﴾. اهـ «رازي».

والمعنى[2]: أي إنما ينتفع بتذكيرك من يخشىٰ الله تعالى، ويخاف عقابه؛ لأنه هو الذي يتأمل في كل ما تذكره له، فيتبين له وجه الصواب، ويظهر له سبيل الحق الذي يجب المعول عليه. وفي التعبير بقوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ إيماء إلىٰ أن ما جاء به الرسول بلغ حداً من الوضوح لا يحتاج معه إلا إلىٰ التذكير فحسب، وإنما الذي يحول بينهم وبين اتباعه واقتفاء آثاره تقليد الآباء والأجداد، فكأنهم عرفوه واستيقنوا صحته، ثم زالت هذه المعرفة بانتهاجهم خطة آبائهم من قبل، ثم أشار إلىٰ عدم جدواها بالنظر للمعاندين الجاحدين، فقال: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾؛ أي: يتجنب الذكرىٰ ويبتعد عنها، ولا يسمعها سماع قبول ﴿الْأَشْقَى﴾؛ أي: الزائد في الشقاوة من الكفرة لإصراره علىٰ الكفر، وانهماكه في المعاصي، ولتوغله في عداوة النبي ﷺ، مثل: الوليد بن المغيرة، وأبي جهل، وغيرهما، أو المراد بالأشقىٰ: الكافر مطلقاً؛ لأنه

---

(١) تفسير الرازي. (٢) المراغي.

أشقىٰ من الفاسق.

روي: أن من يخشى هو عثمان بن عفان رضي الله عنه، والأشقىٰ: رجل من المنافقين، وذلك أن المنافق كانت له نخلة مائلة في دار رجل من الأنصار، فسقط ثمرها في دار الأنصاري، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فأرسل إلىٰ المنافق، ولم يكن يعلم بنفاقه، فسأله أن يعطي النخلة للأنصاري علىٰ أن يعطيه الله نخلة في الجنة، فقال: أبيع عاجلاً بآجل؟ لا أفعل، فأعطاه عثمان رضي الله عنه حائط نخل له، فنزلت الآية، كما في «التكملة».

ثم وصف الأشقىٰ فقال: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾﴾؛ أي: يدخل النار العظيمة الفظيعة، وهي: الطبقة السفلىٰ من طبقات النار؛ لأنها أشد حراً من غيرها، فالكبرىٰ: اسم تفضيل؛ لأنه تأنيث الأكبر، والمفضل هو ما في أسفل دركات جهنم من النار التي هي نصيب الكفار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، والمفضل عليه ما في الدركات التي فوقها، فإن لجهنم نيراناً، ودركات متفاضلة، كما أن في الدنيا ذنوباً ومعاصي متفاضلة، فكما أن الكفار أشقىٰ العصاة، كذلك يصلون أعظم النيران، وقيل: الكبرىٰ[1]: نار جهنم، والصغرىٰ: نار الدنيا، يعني أن المفضل: نار الآخرة، والمفضل عليه: نار الدنيا؛ لقوله ﷺ: «ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، وقد غمست في ماء البحر مرتين ليدنىٰ منها، وينتفع بها، ولولا ذلك ما دنوتم منها». ويقال: إنها تتعوذ بالله من جهنم، وأن ترد إليها. يقول الفقير: الظاهر أن المراد بالنار الكبرىٰ هو العذاب الأكبر في قوله تعالى: ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾، وهو عذاب الآخرة، وأما العذاب الأصغر. فهو عذاب الدنيا، وعذاب البرزخ فإنه يصغر بالنسبة إلىٰ عذاب الآخرة.

والمعنىٰ: أي[2] ويبتعد عن هذه التذكرة المعاند المصر علىٰ الجحود عناداً واستكباراً، وهو الذي يذوق حر النار الكبرىٰ في دركات جهنم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾؛ إذ لا يليق بحكمة الحكيم المتعالي أن يسوي بين من اجترأ عليه وتهاون بأمره وارتكب أشنع الذنوب وأقبحها، ومن كان نقي الصحيفة ميمون النقيبة مطيعاً لأمره مؤدياً فرائضه منتهياً عن الفحشاء والمنكر.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

وقصارى ما سلف: أن الناس بالنظر إلىٰ دعوة الرسول ﷺ أقسام ثلاثة، كما مر عن الرازي:

١ ـ عارف صحتها، موقن بصدقها، لا يدور بخلده تردد ولا شك، وهذا هو المؤمن الكامل الذي يخشى ربه.

٢ ـ متردد متوقف إلىٰ أن يقوم لديه البرهان، فإذا هو سنح له بادر إلى التصديق بها، وهذا أدنىٰ من سابقه.

٣ ـ شقي معاند لا يلين قلبه للذكرىٰ، ولا تنال الدعوة من نفسه قبولاً، وهو شر الأقسام الثلاثة وأبعدها من الخير.

ثم بيَّن عاقبة هذا الأشقىٰ، ومآل أمره فقال: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ﴾ هذا الأشقىٰ ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في النار الكبرىٰ، فيستريح مما هو فيه من العذاب ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياة طيبة تنفعه كما يقال لمن ابتلي بالبلاء الشديد: لا هو حي ولا هو ميت، ومنه قول الشاعر:

أَلاَ مَا لِنَفْسٍ تَمُوْتُ فَيَنْقَضِيْ عَنَاهَا وَلاَ تَحْيَا حَيَاةً لَهَا طَعْمُ

وأتىٰ[1] بـ ﴿ثُمَّ﴾ المفيدة للتراخي، إيذاناً بتفاوت مراتب الشدة؛ لأن التردد بين الحياة والموت أشد وأفظع من الصلي بالنار.

والمعنىٰ: أي ومن شقي هذا الشقاء، ولقي هذا العذاب بتلك النار يخلد فيها، ولا يقف عذابه عند غاية، ولا يجد لآلامه نهاية، فلا هو يموت فيستريح، ولا يحيا الحياة الطيبة فيسعد بها، ونحو الآية قوله: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾، والعرب تقول لمن هو مبتلىٰ بمرض يقعده: لا هو حي فيرجىٰ، ولا ميت فينعىٰ.

﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾؛ أي: نجا من المكروه، وظفر بما يرجوه ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾؛ أي: تطهر من الكفر والمعاصي، بتذكره واتعاظه بالذكرىٰ، أو تكثره من التقوىٰ والخشية من الزكاء: وهو النماء، وأتىٰ[2] بكلمة ﴿قَدْ﴾ لما أن عند الإخبار بسوء حال المتجنب عن الذكرى في الآخرة، يتوقع السامع الإخبار بحسن حال المتذكر فيها وينتظره.

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾ بقلبه ولسانه ﴿فَصَلَّىٰ﴾؛ أي: أقام الصلوات الخمس كقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾؛ أي: كبر تكبيرة الإحرام فصلي، فالمراد بالذكر: تكبيرة الافتتاح أول الصلاة؛ لأنها لا تنعقد إلا بها، وهو قوله: الله أكبر، لكن لا يختص الذكر عند الحنفية بأن يقول: الله أكبر؛ لعموم الذكر، ودلَّ العطف بالفاء التعقيبية علىٰ عدم دخول التكبير في الأركان، كما تقوله الحنفية؛ لأن العطف يقتضي المغايرة بين المعطوفين، وهو حجة ضعيفة.

قال الإمام[(١)]: مراتب أعمال المكلف ثلاث:

فأولاها: إزالة العقائد الفاسدة عن القلب، وهي المرادة بالتزكي.

والثانية: استحضار معرفة الله بذاته وصفاته وأسمائه، وهي المرادة بالذكر؛ لأن الذكر بالقلب ليس إلا المعرفة.

والثالثة: الاشتغال بالخدمة والطاعة، وهي المرادة بالصلاة؛ فإنها عبارة عن التواضع والخشوع، فمن استنار قلبه بمعرفة جلال الله، لا بد وأن يظهر في جوارحه وأعضائه أثر الخشوع والخضوع. قال بعضهم: خلق الله وجهاً يصلح للسجدة، وعيناً تصلح للعبرة، وبدناً يصلح للخدمة، وقلباً يصلح للمعرفة، وسراً يصلح للمحبة، فاذكروا نعمة الله عليكم حيث زين ألسنتكم بالشهادة، وقلوبكم بالمعرفة، وأبدانكم بالعبادة.

والمعنىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾؛ أي: قد[(٢)] أدرك الفلاح، وظفر بالبغية من طهر نفسه، ونقاها من أوضار الكفر، وأزال عنها أدران الشرك والآثام، ومن هذا تعلم أن تزكية النفوس إنما يكون بالإيمان بالله، ونفي الشركاء، والتصديق بكل ما جاء به رسوله ﷺ مع صالح العمل، ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾؛ أي: وأحضر في قلبه صفات ربه من الجلال والكمال، فخضع لجبروته وقهره، فإن المرء متىٰ تذكر ربه العظيم.. وجل قلبه وخاف من سطوته وامتلأت نفسه خشية منه، ورهبة لجلاله، كما قال في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

ثم رد سبحانه علىٰ قوم ممن قست قلوبهم، ولم يأخذوا من العبادة إلا

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

بصورها، وظنوا أن ذلك هو غاية ما يطالب الله عباده به بقوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ﴾ وتختارون أيها الكفرة وأيها الناس مؤمنكم وكافركم ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ القريبة الزوال علىٰ الآخرة الباقية، وهذا إضراب عن كلام مقدر يدل عليه السياق، أي: لا تفعلون ذلك، بل تؤثرون اللذات الفانية في الدنيا.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿تُؤْثِرُونَ﴾ بتاء الخطاب للكفار، أو لجميع الناس، ويؤيدها قراءة أبي: ﴿بل أنتم تؤثرون﴾ وقرأ عبد الله وأبو رجاء والحسن والجحدري وأبوحيوة وابن أبي عبلة وأبو عمرو والزعفراني وابن مقسم: بياء الغيبة، قيل: المراد بالآية: الكفرة، والمراد بإيثار الحياة الدنيا: هو الرضا بها، والاطمئنان إليها، والإعراض عن الآخرة بالكلية، كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾ الآية، وقيل[2]: المراد بالآية: جميع الناس من مؤمن وكافر، والمراد بإيثارها: ما هو أعم من ذلك مما لا يخلو عنه غالب الناس من تأثير جانب الدنيا علىٰ الآخرة، والتوجه إلىٰ تحصيل منافعها، والاهتمام بها اهتماماً زائداً علىٰ اهتمامهم بالطاعات، والالتفات علىٰ الأول لتشديد التوبيخ، وعلىٰ الثاني كذلك في حق الكفرة، ولتشديد العتاب في حق المسلمين.

وفي «فتح الرحمن»: فالكافر يؤثرها إيثار كفر يرىٰ أن لا آخرة، والمؤمن يؤثرها إيثار معصية وغلبة نفس، إلا من عصم الله تعالىٰ. وفي «عين المعاني»: خطاب للأمة؛ إذ كل يميل إلىٰ الدنيا إما رغبة فيها، أو ادِّخاراً لثواب الآخرة.

وجملة قوله: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ في[3] محل النصب علىٰ الحال من فاعل ﴿تُؤْثِرُونَ﴾، مؤكدة للتوبيخ والعتاب؛ أي: تؤثرونها علىٰ الآخرة، والحال أن الآخرة خير في نفعها لما أن نعيمها مع كونه في غاية ما يكون من اللذات خالص عن شائبة الفائتة، أبدي لا انصرام له، وعدم التعرض لبيان تكدر نعيم الدنيا بالمنِّغصات، وانقطاعه عما قليل لغاية ظهوره. قال مالك بن دينار: لو كانت الدينا من ذهب يفنىٰ، والآخرة من خزف يبقى.. لكان الواجب أن يؤثر خزف يبقى على ذهب يفنى، فكيف والآخرة من ذهب يبقىٰ، والدنيا من خزف يفنىٰ. وفيه إشارة[4]

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) الشوكاني.
(٤) روح البيان.

إلىٰ أن ظواهر الأشياء بالنسبة إلىٰ حقائقها، كالقشر بالنسبة إلىٰ اللب، واللب خير من القشر وأبقىٰ؛ لأن لب الحب يحفظ زماناً طويلاً، وقشره إذا سلخ من اللب يطرح في النار، أو يرمىٰ بالمزابل، فيفنى بعد يومين أو أكثر، فأرباب القشر يؤثرون الأمور الظاهرة الخسيسة الدنية الفانية علىٰ الأمور الباطنة المعنوية الشريفة العزيزة الباقية؛ لكونهم محجوبين عن الآخرة، وأرباب اللب يختارون الآخرة، بل الله، كما قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ﴾.

والمعنىٰ: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾؛ أي[1]: أنتم كاذبون فيما زعمتم لأنفسكم من حسن العمل؛ لأنكم لو كنتم صادقين فيما ذهبتم إليه.. لكنتم تفضِّلون الآخرة علىٰ الدنيا، كما يرشد إلىٰ ذلك العقل، ويهدي إليه الشرع، فمتاع الآخرة دائم، ونعيمها لا يزول، ولا تنقيص فيه، ولا منٌّ، ومتاع الدنيا متاع زائل تشوبه الأكدار، وتحوط به الآلام، فمن استعجل هذا النعيم، واستحب زينة الدنيا.. لا يكون مصدقاً بالآخرة ونعيمها، أو يكون إيمانه إيماناً لا يجاوز طرف لسانه، ولا يصل إلىٰ قلبه، فلا يجازى عليه الجزاء الذي وعد به المؤمنون، وقد يقال في معنى الآيات: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾؛ أي: من تاب من الذنوب ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ﴾ يعني: إذا سمع الأذان خرج إلىٰ الصلاة ﴿فَصَلَّىٰ﴾ ثم ذم تارك الجماعة لأجل اشتغاله بالدنيا، فقال: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾﴾ يعني: تختارون عمل الدنيا علىٰ عمل الآخرة، وعمل الآخرة خيرٌ وأبقى من عمل الدنيا، والاشتغال بها وبزينتها.

ثم بين أن الأصول العامة التي جاءت في هذه الشريعة هي بعينها التي جاءت في جميع الشرائع السماوية فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ إشارة إلىٰ ما تقدم من فلاح من تزكَّىٰ ومن بعده. وقيل: إنه إشارة إلىٰ جميع السورة ﴿لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾؛ أي: لثابت في جميع الصحف السالفة، جمع: صحيفة، وهي: الكتاب.

قال الراغب: الصحيفة: المبسوط من كل شيء، كصحيفة الوجه، والصحيفة التي كان يكتب فيها، والمصحف: ما جعل جامعاً للصحف المكتوبة.

---

(١) المراغي.

والمعنىٰ: لثابت فيها، يعني: أن تطهير النفس عما لا ينبغي، وتكميل الروح بالمعارف، وتكميل الجوارح بالطاعة، والزجر عن الالتفات إلىٰ الدنيا، والترغيب في الآخرة، وفي ثواب الله تعالىٰ في دار كرامته، لا يجوز أن يختلف باختلاف الشرائع ﴿صُحُفِ﴾ جدِّك ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ الخليل عليه السلام. ﴿وَ﴾ صحف أخيك ﴿مُوسَىٰ﴾ الكليم عليه السلام، بدل من الصحف الأولى.

والمعنىٰ: أي إن ما أوحى به إلى نبيه ﷺ من أمر ونهي، ووعد ووعيد، هو بعينه ما جاء في صحف إبراهيم وموسى، فدين الله واحد، وإنما تختلف صوره، وتتعدد مظاهره، فإذا كان المخاطبون قد آمنوا بإبراهيم أو بموسى، فعليهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ؛ لأنه لم يأتِ إلا بما جاء في صحفهم، وإنما هو مذكر أو محي لما مات من شرائعهم.

وقصارى ذلك: أن الرسول ﷺ ما جاء إلا مذكراً بما نسيته الأجيال من شرائع المرسلين، وداعياً إلىٰ وجهها الصحيح الذي أفسده كر الغداة، ومرُّ العشي، كما طمس معالمه اتباع الأهواء واقتفاء سنن الآباء والأجداد.

وقرأ الجمهور: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ بضم الحاء في الموضعين. وقرأ الأعمش وهارون وعصمة كلاهما عن أبي عمرو: بسكونها فيهما. وفي كتاب «اللوامح»: قرأ العقيلي عن أبي عمرو: ﴿الصحف﴾ ﴿صحف﴾: بإسكان الحاء فهما لغة تميم.

وقرأ الجمهور: ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ بألف وبياء، والهاء مكسورة، وقرأ أبو رجاء: بحذفهما، والهاء مفتوحة، أو مكسورة، وقرأ أبو موسىٰ الأشعري وابن الزبير: ﴿إبراهام﴾ بألفين في كل القرآن، وقرأ مالك بن دينار: ﴿إبراهم﴾ بكسر الهاء، وبغير ياء في جميع القرآن، قال ابن خالويه: وقد جاء إبراهم، يعني: بألف وضم الهاء، وقد تقدم في سورة النجم الكلام علىٰ صحف إبراهيم وموسىٰ عليهما الصلاة والسلام.

الإعراب

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾

وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾﴾.

﴿سَبِّحِ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر يعود علىٰ محمد ﴿اسْمَ رَبِّكَ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة مستأنفة، وجعله الجلال مقحماً علىٰ حد قول لبيد:

إِلَىٰ الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلامِ عَلَيْكُمَا

ولا داعي لهذا التكلف، فإن التنزيه يقع علىٰ الاسم؛ أي: نزه اسم ربك عن أن يسمىٰ به صنم أو وثن. ﴿الْأَعْلَى﴾: صفة أولى لـ ﴿رَبِّكَ﴾، وأجاز ابن هشام أن يكون صفة لـ ﴿اسْمَ﴾ ﴿الَّذِي﴾: صفة ثانية لـ ﴿الرب﴾، وجملة ﴿خَلَقَ﴾ صلته، ومفعول ﴿خَلَقَ﴾ محذوف؛ أي: كل شيء ﴿فَسَوَّىٰ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿سوى﴾: معطوف علىٰ ﴿خَلَقَ﴾. ﴿وَالَّذِي﴾: معطوف علىٰ الموصول الأول، وجملة ﴿قَدَّرَ﴾ صلته، ﴿فَهَدَىٰ﴾: معطوف على ﴿قَدَّرَ﴾، ﴿وَالَّذِي﴾: معطوف أيضاً علىٰ الموصول الأول، وجملة ﴿أَخْرَجَ﴾ صلته، و﴿الْمَرْعَىٰ﴾: مفعول به لـ ﴿أَخْرَجَ﴾ ﴿فَجَعَلَهُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿جعله﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعول أول معطوف على ﴿أَخْرَجَ﴾، ﴿غُثَاءً﴾: مفعول ثان لـ ﴿جعل﴾ ﴿أَحْوَىٰ﴾: صفة لـ ﴿غُثَاءً﴾، أو حال من ﴿الْمَرْعَىٰ﴾، وأُخِّر عنه لرعاية الفواصل، وهنا أقوال متلاطمة في إعراب ﴿أَحْوَىٰ﴾ لا تخلو من الاعتراض ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾: ﴿السين﴾: حرف استقبال ﴿نقرئك﴾: فعل مضارع ومفعول به، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿فَلَا تَنسَىٰ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿لا﴾: نافية، ﴿تَنسَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود علىٰ محمد معطوف علىٰ ﴿نقرئك﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ من أعم المفاعيل ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿تَنسَىٰ﴾، وجملة ﴿شَاءَ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾، والعائد محذوف؛ أي: فلا تنسىٰ شيئاً من الأشياء إلا شيئاً شاء الله تعالىٰ نسيانك إياه، ﴿إِنَّهُ﴾: ناصب واسمه ﴿يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿الله﴾ ﴿الْجَهْرَ﴾: مفعول به، وجملة ﴿يَعْلَمُ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها، ﴿وما﴾: ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب معطوف علىٰ ﴿الْجَهْرَ﴾، وجملة ﴿يَخْفَىٰ﴾ صلة الموصول، ﴿وَنُيَسِّرُكَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿نيسرك﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود علىٰ الله، تقديره: نحن، ومفعول به معطوف علىٰ ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾، ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾: متعلق بـ ﴿نيسرك﴾: أي:

نيسرك لتبليغ الشريعة الإسلامية السمحة، ﴿فَذَكِّرْ﴾: ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب الشرط مقدر تقديره: إذا عرفت أنك من أرباب الفيوضات الكمالية، والفتوحات الربانية، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول: ﴿ذكر﴾.
﴿ذكر﴾: فعل أمر، وفاعله ضمير مستتر يعود علىٰ محمد، ومفعوله محذوف تقديره: فذكر الناس، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿إِن﴾ حرف شرط ﴿نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ فعل وفاعل في محل الجزم بـ ﴿إِن﴾ الشرطية علىٰ كونها فعل شرط لها، وجواب ﴿إِن﴾ محذوف معلوم مما قبلها تقديره: إن نفعت الذكرى.. فذكر، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية مستأنفة ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾: ﴿السين﴾: حرف استقبال، ﴿يذكر﴾: فعل مضارع ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل، والجملة مستأنفة، وجملة ﴿يَخْشَىٰ﴾: صلة ﴿مَن﴾ الموصولة ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿يتجنبها الأشقى﴾: فعل مضارع، ومفعول به، وفاعل، والجملة معطوفة علىٰ جملة ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾، ﴿ٱلَّذِى﴾: صفة لـ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ ﴿يَصْلَى﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ﴿ٱلنَّارَ﴾: مفعول به، ﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾: صفة لـ ﴿ٱلنَّارَ﴾، والجملة صلة الموصول..

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب مع تراخ ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَمُوتُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، معطوف علىٰ ﴿يَصْلَى﴾، ﴿فِيهَآ﴾: متعلق بـ ﴿يَمُوتُ﴾، ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾: فعل مضارع معطوف على ﴿يَمُوتُ﴾، ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق ﴿أَفْلَحَ﴾: فعل ماض، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿تَزَكَّىٰ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف علىٰ ﴿تَزَكَّىٰ﴾ ﴿فَصَلَّىٰ﴾: معطوف علىٰ ﴿ذَكَرَ﴾، ﴿بَلْ﴾: حرف عطف وإضراب علىٰ مقدر يدل عليه السياق، والتقدير: أنتم لا تفعلون ما فيه صلاح أمركم، بل تؤثرون، و ﴿تُؤْثِرُونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف علىٰ ذلك المحذوف ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾: مفعول به ﴿ٱلدُّنْيَآ﴾: صفة لـ ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾، ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿ٱلْـَٔاخِرَةُ﴾: مبتدأ ﴿خَيْرٌ﴾: خبر ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾: معطوف

علىٰ ﴿خَيْرٌ﴾، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تُؤْثِرُونَ﴾ ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿هَٰذَا﴾: اسمه ﴿لَفِي ٱلصُّحُفِ﴾ جار ومجرور، متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، و ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾: صفة لـ ﴿ٱلصُّحُفِ﴾، ﴿صُحُفِ﴾: بدل من ﴿ٱلصُّحُفِ﴾، ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾: مضاف إليه، ﴿وَمُوسَىٰ﴾: معطوف علىٰ ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ①﴾ سبح: أمر من التسبيح، وهو التنزيه.

﴿ٱلْأَعْلَى﴾: فيه إعلال بالقلب، أصله: الأعلي بوزن الأفعل، تحركت الياء، وانفتح ما قبله، فقلبت ألفاً، وأصل هذه الألف الواو؛ لأنه من: علا يعلو علواً.

﴿خَلَقَ﴾؛ أي: أوجد الكائنات.

﴿فَسَوَّىٰ﴾؛ أي: فسواها، ووضع خلقها علىٰ نظام كامل، لا تفاوت فيه ولا اضطراب، وأصله: سوي بوزن فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ﴾؛ أي: قدر لكل حي ما يصلحه مدة بقاءه.

﴿فَهَدَىٰ﴾؛ أي: هداه، وعرفه وجه الانتفاع بما خلق له.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ④﴾ والمرعىٰ: كل ما تخرجه الأرض من النبات والثمار والزروع المختلفة، وأصله: المرعي، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً﴾. والغثاء: بتخفيف الثاء المثلثة بوزن: غراب، وتشديدها ـ بوزن زنار ـ: ما يقذفه السيل إلىٰ جانب الوادي من الحشيش والنبات والقماش، قال الشاعر:

كَأَنَّ ظَمِيْئَاتِ ٱلْمُخَيْمِرِ غُدْوَةً ... مِنَ ٱلسَّيْلِ وَٱلْغَثَّاءِ فُلْكُ مُغَزَّلُ

وأصله: غثاو؛ لأنه من غثا يغثو، والهمزة فيه مبدلة من الواو لام الكلمة؛ لوقوعها متطرفة إثر ألف زائدة.

﴿أَحْوَىٰ﴾ أصله: أحوي بوزن أفعل، قلبت ياؤه ألفاً لتحركها بعد فتح من الحوة، وهو سواد يضرب إلىٰ الخضرة، والأحوىٰ: الذي يضرب لونه إلىٰ السواد

قال ذو الرمة:

لَمْيَاءُ فِيْ شَفَتَيْهَا حُوَّةٌ لَعَسٌ وَفِيْ اللِّثَاتِ وَفِيْ أَنْيَابِهَا شَنَبُ

وقيل: خضرة عليها سواد، والأحوىٰ: الظبي الذي في ظهره خطان من سواد وبياض، وفي «الصحاح»: الحوة: سمرة، وقال الأعلم: هي لون يضرب إلىٰ السواد، وقال أيضاً: الشديد الخضرة التي تضرب إلىٰ السواد، ويقال: رجل أحوىٰ، وامرأة حواء، وجمعهما: حو، نحو: أحمر وحمراء وحمر.

وفي «القاموس»: الحوة ـ بالضم ـ: سواد إلىٰ الخضرة، أو حمرة إلىٰ السواد، وحوي، كرضي حوىً.

﴿سَنُقْرِئُكَ﴾؛ أي: نجعلك قارئاً للقرآن. ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ أصله: تنسي بوزن: تفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿وَمَا يَخْفَىٰ﴾ أصله: يخفي بوزن يفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾ اليسرىٰ: فعلىٰ، من اليسر وهو السهولة، ويسرت كذا سهلت وهيأت، وضمن نيسرك معنىٰ: نوفقك، فعداه بدون اللام، كما مر، و﴿اليسرىٰ﴾: أعمال الخير التي تؤدي إلىٰ اليسر.

﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ أصله: سيتذكر، أبدلت تاء التفعل دالاً، ثم أدغمت في الذال فاء الكلمة. ﴿مَن يَخْشَىٰ﴾ أصله: يخشي بوزن يفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿ٱلْأَشْقَى﴾ أصله: الأشقي بوزن الأفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.
﴿يَصْلَى﴾: أصله: يصلي بوزن: يفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

وقوله: ﴿يَمُوتُ﴾ أصله: يموت بوزن يفعُل، نقلت حركة الواو إلى الميم، فسكنت إثر ضمة، فصارت حرف مد. ﴿يَحْيَىٰ﴾ أصله: يحيي بوزن يفعل، قلبت الياء الآخرة ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾؛ أي: فاز بالمطلوب، ونجا من المكروه.

﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾، أي: تطهر من دنس الرذائل، ورأسها: جحد الحق، وقسوة القلب، أصله: تزكي بوزن تفعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾؛ أي: ذكر في قلبه صفات ربه من الكبرياء والجلال.

﴿فَصَلَّىٰ﴾ أصله: صلي بوزن: فعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ومعنىٰ: صلّىٰ خشع وخضعت نفسه لأوامر بارئه. ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ﴾؛ أي: تفضلون.

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾ أصله: أبقي، تحركت الياء، وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً. ﴿لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ والصحف: جمع صحيفة، ككتيبة وكتائب، وقذيفة وقذائف.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: حذف المفاعيل ليفيد العموم في قوله: ﴿خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾، وقوله: ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾، أي: خلق كل شيء فسواه، وقدر كل شيء فهداه.

ومنها: الإتيان بسين الاستقبال في قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ لتأكيد الكلام.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾، وفي قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾﴾.

ومنها: الإتيان فيه بنون العظمة لتكون عظمة المعطي دليلاً علىٰ عظمة العطاء.

ومنها: جناس الاشتقاق بين ﴿ذَكِّرْ﴾، و ﴿الذِّكْرَىٰ﴾.

ومنها: المقابلة بين ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾، وبين ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾﴾.

ومنها: الالتفات من الغيبة في قوله: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾﴾ إلى الخطاب في قوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾ لتشديد التوبيخ في حق الكفرة وتشديد العتاب في حق المسلمين.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾﴾ مبالغة في رد إنكار المنكرين.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

الخاتمة: صحف موسى غير التوراة عشر، وكلها عبر، وكذا صحف إبراهيم عشر، وكلها أيضاً عبر، وروىٰ الآجري من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، فما كانت صحف إبراهيم؟، قال «كانت أمثالاً كلها، وفيها: أيها الملك المتسلط المبتلىٰ المغرور، وإني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلىٰ بعض، ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم، فإني لا أردها، ولو كانت من فم كافر.

وكان فيها أيضاً: وعلىٰ العاقل أن يكون له ثلاث ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، يفكر في صنع الله عزّ وجلّ له، ويتفكر فيما صنع هو، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب.

وفيها أيضاً: وعلىٰ العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً علىٰ شأنه، حافظاً للسانه، ومن عدَّ كلامه من عمله.. قل كلامه إلا فيما يعنيه».

قال: قلت: يا رسول الله، فما كانت صحف موسىٰ؟، قال: «كانت عبراً كلها، وفيها: عجبت لمن رأىٰ الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها.

وفيها أيضاً: عجبت لمن أيقن بالحساب غداً ثم هو لا يعمل» قال: قلت: فهل في أيدينا شيء مما كان في يدي إبراهيم وموسىٰ مما أنزل عليك؟ قال: «نعم، إقرأ يا أبا ذر: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾» وذكر الحديث إلى هنا.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة من المقاصد

اشتملت على المقاصد التالية:

١ ـ أمر النبي ﷺ ـ وأمته تبع له ـ بتسبيح الله سبحانه وتعالى عما لا يليق به ذاتاً وصفات وأسماء وأفعالاً.

٢ ـ الامتنان علىٰ عباده بخلق الكائنات، وتسويتها، وتقديرها، وهدايتها إلىٰ ما هو من مصالحها، وبإخراج المرعىٰ لهم ولأنعامهم.

٣ ـ الوعد لرسوله ﷺ بإقرائه القرآن وعدم نسيانه.

٤ ـ أمره بتذكير عباده بما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

٥ ـ ذكر وعيد من أعرض عن النظر في الدلائل، ووعد من زكىٰ نفسه وطهرها من أدران الشرك والمعاصي، وبيان أن هذا في الصحف الأولىٰ.

وصلى الله وسلم علىٰ سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين[1].

* * *

(١) تم تفسير سورة الأعلىٰ وقت السحر من ليلة الأربعاء الخامسة والعشرين من شهر رمضان المبارك من شهور سنة: ٢٥/ ٩/ ١٤١٦هـ. ألف وأربع مئة وست عشرة سنة من الهجرة النبوية علىٰ صاحبها أفضل الصلاة وأزكىٰ التحية، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

سورة الغاشية

سورة الغاشية مكية بلا خلاف، نزلت بعد سورة الذاريات، وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الغاشية بمكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.

وآياتها: ست وعشرون آية. وكلماتها: اثنتان وتسعون كلمة. وحروفها: ثلاث مئة وإحدىٰ وثمانون حرفاً.

ومناسبتها لما قبلها: أنه أشير في السابقة إلى المؤمن والكافر، والجنة والنار إجمالاً، وبسط الكلام فيها هنا. وعبارة أبي حيان: لما ذكر فيما قبلها ﴿فَذَكِّرْ﴾، وذكر النار والآخرة قال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ﴿١﴾﴾، فبسط الكلام فيها، وذكر أن الناس في الغاشية فريقان:

فريق في الجنة، وفريق في النار، ثم لفت الأنظار إلىٰ بعض الآثار الكونية، ثم أمر النبي ﷺ بالتذكير مع بيان أن المرجع إلىٰ الله وحده. وقال بعضهم: لما ختم سورة الأعلى بالترغيب في الآخرة حيث قال: ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ افتتح سورة الغاشية ببيان أحوال الآخرة التي رغب فيها، وعاد إليها في السورة السابقة، وكأن النبي ﷺ وضع سورة الغاشية بعد سورة الأعلى لشرح بداية هذه لخاتمة تلك.

فضلها: ومما ورد في فضلها: ما أخرجه أحمد ومسلم وأصحاب السنن عن النعمان بن بشير رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ: كان يقرأ في العيدين، وفي الجمعة بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾، و ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ﴿١﴾﴾، وإنْ وافق يوم الجمعة.. قرأهما جميعاً.

وفي لفظ: وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما. وفي الباب أحاديث كثيرة، ومنها: ما روي أنه ﷺ قال: «من قرأ سورة الغاشية حاسبه الله تعالى حساباً يسيراً»، ولكن لا أصل له.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال ابن حزم رحمه الله تعالى: سورة الغاشية كلها

محكم ليس فيها ناسخ ولا منسوخ إلا آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ نسخت بآية السيف، وسميت سورة الغاشية لذكر الغاشية فيها.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا
حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ
﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا
عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾
أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ
﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾
إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم
﴿٢٦﴾﴾.

التفسير وأوجه القراءة

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾﴾ قال[1] قطرب ـ من أئمة النحو ـ وغيره من المفسرين: أي: قد جاءك الآن يا محمد حديث الغاشية. قال المولىٰ أبو السعود رحمه الله تعالىٰ في «الإرشاد»: وليس بذاك، بل هو استفهام أريد به التعجيب مما في حيزه، والتشويق إلىٰ استماعه، والإشعار بأنه من الأحاديث البديعة التي حقها أن يتناقلها الرواة، ويتنافس في تلقيها الوعاة من كل حاضر وباد، والغاشية: الداهية الشديدة التي تغشىٰ الناس، وتغطيهم بشدائدها، وتكتنفهم بأهوالها، وهي القيامة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾، وقال: ﴿يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾، وعليه أكثر المفسرين، وقال سعيد بن جبير ومحمد بن كعب: الغاشية: النار تغشىٰ وجوه الكفار، كما في قوله: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾، وقيل: الغاشية: أهل النار؛ لأنهم يغشونها ويقتحمونها، والأول أولىٰ، يقال: غشيه يغشاه: أي: غطاه، وكل ما أحاط بالشيء من جميع جهاته فهو غاش له، قال الكلبي: المعنىٰ: إن لم يكن أتاك حديث الغاشية.. فقد أتاك الآن، وليس هذا الماضي إخباراً عن أمر سبق، بل هو إخبار عما وقع له في الحال انتهىٰ.

---

(١) روح البيان.

وقال المراغي: المعنىٰ: أي هل بلغك يا محمد نبأ يوم القيامة، وعلمت قصصه، فإننا سنعلمك شأنه الخطير، وهذا أسلوب من الكلام لا يراد منه حقيقة الاستفهام، بل يراد منه تعجيب السامع مما سيذكر بعد، وتشويقه إلى استماعه، وتوجيه فكره إلىٰ أنه من الأحاديث التي من حقها أن تتناقلها الرواة، ويحفظها الوعاة.

ثم فصل شأن أهل الموقف في ذلك اليوم، وذكر أن أهله فريقان: فريق الكفرة الفجرة، وفريق المؤمنين البررة، وقد أشار إلىٰ الأولين بقوله:

١ - ﴿وُجُوهٌ﴾؛ أي: وجوه من الكفرة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ تغشىٰ الغاشية الناس ﴿خَٰشِعَةٌ﴾؛ أي: ذليلة بما يظهر عليها من أنواع الخزي والهوان، وتذوقها من أنواع العذاب، وهذا كلام مستأنف وقع جواباً لسؤال نشأ عن الاستفهام التشويقي، كأنه قيل من جهته ﷺ: ما أتاني حديثها فما هو؟ فقيل: وجوه يومئذٍ إلخ، و ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف لما بعده من الأخبار الثلاثة، قال أبو حيان: والتنوين عوض من الجملة، ولم تتقدم جملة تصلح أن يكون التنوين عوضاً عنها، لكن لما تقدم لفظ ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾، وأل موصولة باسم الفاعل، فتنحل للتي غشيت؛ أي: للداهية التي غشيت.. علم أن التنوين عوض عن هذه الجملة التي انحل لفظ الغاشية إليها، وإلى الموصول الذي هو لفظ التي. انتهىٰ.

أي: وجوه من الكفار يوم إذ غشيت تلك الداهية الناس خاشعة؛ أي: ذليلة بأنواع الخزي والهوان، عاملة أعمالاً شاقة في النار، كجر السلاسل، وحمل الأغلال ﴿نَّاصِبَةٌ﴾؛ أي: تعبة بتلك الأعمال الشاقة، فإن الخشوع والخضوع والتطامن والتواضع كلها بمعنىٰ، ويكنىٰ بالجميع عما يعتري الإنسان من الذل والخزي والهوان، فـ ﴿وُجُوهٌ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء، بالنكرة وقوعها في معرض التفصيل، و ﴿خَٰشِعَةٌ﴾: خبره، قال الشيخ: لعل وجه الابتداء بالنكرة كون تقدير الكلام: أصحاب وجوه بالإضافة، إلا أن الخشوع والذل لما كان يظهر في الوجه.. حذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، وإنما قلنا: إن الذل يظهر في الوجه؛ لأنه ضد التكبر الذي محله الرأس والدماغ، والمراد بأصحاب الوجوه: هم الكفار بدلالة ما بعده من الأوصاف. ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ③﴾ بالرفع خبران آخران لـ﴿وُجُوهٌ﴾، إذ المراد بها أصحابها، كما أشرنا إليه آنفاً، أو خبران لمبتدأ محذوف،

وبالنصب علىٰ الحال، أو علىٰ الذم والناصبة: التعبة من النصب: وهو التعب، يقال: نصب ـ من باب علم ـ: إذا تعب في العمل.

والمعنىٰ: وجوه يومئذٍ تعمل أعمالاً شاقة تتعب فيها؛ لأنها في الدنيا تكبرت عن العمل لله، فأعملها الله سبحانه في الآخرة في أعمال شاقة، وهي جر السلاسل، وحمل الأغلال الثقيلة، كما قال: ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾، والخوض في النار: خوض الإبل في الوحل؛ أي: الطين الرقيق، والصعود في تلال النار، والهبوط في وهاده. وقال بعضهم: خشوع الظاهر ونصب الأبدان لا يقربان إلى الله تعالى، بل يقطعان عنه، وإنما يقرب منه سعادة الأزل، وخشوع السر من هيبة الله، وهو الذي يمنع صاحبه من جميع المخالفات، فالرهبانية والفلاسفة وأضرابهم من أهل الكفر والضلال والبدع والخرافات، إنما يضربون حديداً بارداً، ويتعبون أنفسهم في طريق الهوىٰ والسعي فيها. وقال ابن عباس والحسن وابن جبير وقتادة: عاملة في النار، ناصبة تعبة فيها؛ لأنها تكبرت عن العمل في الدنيا، وعملها في النار جرها السلاسل ونحوه، كما مر آنفاً. وقال ابن عباس أيضاً وزيد بن أسلم وابن جبير: عاملة في الدنيا ناصبة فيها؛ لأنها علىٰ غير هدى، فلا ثمرة لها إلا التعب، وخاتمته النار.

وقرأ الجمهور: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾ بالرفع فيهما. وقرأ ابن محيصن وعيسى وحميد وابن كثير في رواية عنه: بالنصب فيهما، كما مر بيان توجيهما.

﴿تَصْلَىٰ﴾؛ أي: تدخل تلك الوجوه يومئذٍ ﴿نَارًا﴾ هائلةً ﴿حَامِيَةً﴾؛ أي: مسعرة بالغة نهاية الحرارة، وتذوق ألمها موقدة من ابتداء خلقها، وفي الحديث: «أحمي عليها ألف سنة حتىٰ احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتىٰ ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة». قال السجاوندي: معنى حامية، أي: دائمة الحمي، وإلا فالنار لا تكون إلا حامية يقال: حمي الشمس والنهار حمياً وحمياً وحمواً: اشتد حرهما، والجملة خبر آخر لـ ﴿وُجُوهٌ﴾.

وقرأ الجمهور: ﴿تَصْلَىٰ﴾ بفتح التاء وسكون الصاد مبنياً للفاعل، وقرأ أبو عمرو وأبو بكر ويعقوب وأبو رجاء وابن محيصن: بضمها مبنياً للمفعول، وقرأ خارجة: بضم التاء وفتح الصاد مشدد اللام، وقد حكاها أبو عمرو بن العلاء،

والضمير راجع إلىٰ الوجوه علىٰ جميع هذه القراءات، والمراد: أصحابها كما تقدم، وكذا الضمير في قوله: ﴿تُسْقَىٰ﴾ أي: تسقىٰ تلك الوجوه بعد مدة طويلة من استغاثتهم من غاية العطش ونهاية الاحتراق؛ أي: سقاها الله سبحانه، أو الملائكة بأمره تعالى ﴿مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾؛ أي: من عين ماء قد انتهىٰ حرها غايتها، لتسخينها بتلك النار منذ خلقت، لو وقعت منها قطرة علىٰ جبال الدنيا لذابت، فإذا أدنيت من وجوههم تناثرت لحوم وجوههم، وإذا شربوا قطعت أمعاءهم، كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ يقال: أنى الحميم إذا انتهىٰ حرة: فهو آنٍ، والآني: هو الذي قد انتهى حره.

وحاصل معنى قوله: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾﴾؛ أي[1]: إن هؤلاء الكفار كانوا في حياتهم الدنيا يعملون ويجتهدون في أعمالهم، لكن لم يتقبلها ربهم؛ لأنهم لم يقدموا عليها الإيمان بالله ورسوله، وهو الدعامة الأولى في قبول العمل عنده، ولأنهم لم يقصدوا بها وجهه تعالىٰ، ولأنهم كانوا يجتهدون في مشاقة الله ورسوله، ويسعون في الأرض.

والخلاصة: أن هؤلاء الكفار وقع منهم في الدنيا عمل، وأصابهم فيه نصب وتعب، لكنهم لم يستفيدوا منه شيئاً، وآثار الخيبة وحبوط العمل بادية علىٰ وجوههم.

ثم ذكر مكانها في هذا اليوم فقال: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾؛ أي: إن هذه الوجوه تقاسي حر النار، وتعذب بها؛ لأن أعمالها في الدنيا كانت خاسرة غلبها الشر، وجانبها الخير، وهذه النار الحامية لا نعرف كنهها، ولكن علينا أن نؤمن بها، وبأن حلفاء الباطل يصلونها.

وبعد أن ذكر مكانها ذكر شرابها فقال: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾﴾؛ أي: إن أهل النار إذا عطشوا في تلك الدار وطلبوا ما يطفىء غلتهم وعطشهم.. جيء لهم بماء من ينبوع بلغ من الحرارة غايتها، فهو لا يطفىء لهباً، ولا ينقع غلة.

وبعد أن ذكر شرابهم.. أردفه بوصف طعامهم، فقال: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن

(١) المراغي.

ضَرِيعٍ ﴿٦﴾، وأورد ضمير العقلاء إشارة إلىٰ أن المراد من الوجوه أصحابها، وإنما أسند إليها ما ذكر من الأحوال لكونها مظهراً يظهر فيه ما في الباطن، مع أنها يكنىٰ بها كثيراً عن الذوات.

والضريع: يبيس الشبرق، كزبرج، وهو شوك ترعاه الإبل ما دام رطباً، وإذا يبس تحامته ولا تقربه، وهو سم قاتل. وفي «المراح»: والشبرق: نبت يكون في طريق مكة إذا كان رطباً تأكل منه الإبل، وإذا يبس صار كأظفار الهرة، وهو سم قاتل. ا هـ.

قال في «فتح الرحمن»: سموا ذلك الشوك ضريعاً؛ لأنه مضعف للبدن ومهزل، يقال: ضرع الرجل ضراعة: ضعف وذل، وعن ابن[1] عباس رضي الله عنهما يرفعه: «الضريع شيء في النار شبه الشوك، أَمَر من الصبر، وأنتن من الجيفة، وأشد حراً من النار» وهذا طعام بعض أهل النار، والزقوم والغسلين لآخرين بحسب جزائهم، وبه يندفع التعارض بين هذه الآية، وبين آية الحاقة، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ قال سعدي المفتي: ويمكن في قدرة الله تعالىٰ أن يجعل الغسلين إذا انفصل عن أبدان أهل النار علىٰ هيئة الضريع، فيكون طعامهم الغسلين الذي هو الضريع. انتهىٰ. يقول الفقير: ويمكن عندي أن يجعل كل من الضريع والغسلين والزقوم بالنسبة إلىٰ شخص واحد بحسب الأعمال المختلفة، فإن لكل عمل أثراً مخصوصاً، وجزاءً متعيناً، فيصح الحصر.

والمعنىٰ: أي إنهم إذا أحسوا بالجوع، وطلبوا الطعام أُتيَ لهم بالضريع، وهو ذلك المرعىٰ السوء الذي لا تعقد عليه السائمة شحماً ولا لحماً، وإن لم تفارقه إلىٰ غيره ساءت حالها، والمراد بهذه كله: أنه يؤتىٰ لهم برديء الطعام.

ثم وصف هذا الضريع بأنه لا يجدي ولا يفيد، فقال: ﴿لَا يُسْمِنُ﴾؛ أي: لا يسمن هذا الضريع آكله؛ أي: لا يحصل له سمناً، والسمن: ضد الهزال، ﴿وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾؛ أي: لا يدفع ما به من الجوع؛ أي: ليس من شأنه الإسمان والإشباع، كما هو شأن طعام الدنيا، وإنما هو شيء يضطرون إلىٰ أكله من غير أن يكون له

---

(١) روح البيان.

دفع لضرورتهم، لكن لا على أن لهم استعداداً للشبع والسمن؛ لأنه لا يفيدهم شيئاً منهما، بل على أنه لا استعداد من جهتهم، ولا إفادة من جهة طعامهم، وتحقيق[1] ذلك: أن جوعهم وعطشهم ليسا من قبيل ما هو المعهود منهما في هذه النشأة من حالة عارضة للإنسان عند استدعاء الطبيعة لبدل ما يتحلل من البدن، مشوقة له إلى المطعوم والمشروب، بحيث يتلذذ بهما عند الأكل والشرب، ويستغني بهما عن غيرهما عند استقرارهما في المعدة، ويستفيد منهما قوةً وسمناً عند انهضامهما، بل جوعهم عبارة عن اضطرارهم عند اضطرام النار في أحشائهم إلىٰ إدخال شيء كثيف يملؤها، ويخرج ما فيها من اللهب، وأما أن يكون لهم شوق إلىٰ مطعوم ما أو التلذذ به عند الأكل، والاستغناء به عن الغير، أو استفادة وقوة.. فهيهات.

وكذا عطشهم عبارة عن اضطرارهم عند أكل الضريع، والتهابه في بطونهم إلىٰ شيء مائع بارد يطفئه، من غير أن يكون لهم التلذذ بشربه، أو استفادة قوة به في الجملة، وهو المعني بما روي: أنه تعالىٰ سلَّط عليهم الجوع بحيث يضطرهم إلىٰ أكل الضريع، فإذا أكلوه يسلط عليهم العطش، فيضطرهم إلىٰ شرب الحميم، فيشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم.

وتنكير الجوع للتحقير[2]؛ أي: لا يغني من جوع ما، وتأخير نفي الإغناء عنه لمراعاة الفواصل والتوسل به إلىٰ التصريح بنفي كلا الأمرين، إذ لو قدم لما احتيج إلىٰ ذكر نفي الإِسْمَانِ ضرورة استلزام نفي الإغناء عن الجوع إياه، بخلاف العكس، ولذا كرر لتأكيد النفي.

وحاصل معنى قوله[3]: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾؛ أي: إن هذا الطعام لا يدفع جوعاً ولا يفيد سمناً، فليس له فائدة الطعام التي لأجلها يؤكل في الدنيا، وقد سمىٰ الله سبحانه ذلك الطعام بالضريع تشبيهاً له به، وإلا فذلك العالم ليس فيه نمو أبدان، ولا تحلل مواد علىٰ النحو الذي يكون في الدنيا، بل هو عالم خلود

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

وبقاء، واللذائذ فيه لذائذ سعادة، والآلام فيه آلام شقاء، فكل ما في ذلك العالم إنما يقع بينه وبين ما في عالمنا نوع مشابهة، لا اتفاق ولا مجانسة.

وقد جاء في سورة الحاقة في طعام الكافرين[١]: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦﴾، وفي سورة الواقعة: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢﴾، وفي سورة الدخان: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۝٤٤﴾، فهذا كله يدل علىٰ أن طعام أهل النار شيء يوافق النشأة الآخرة، عبر عنه بعبارة مختلفة ليصور في أذهاننا بشاعته وخبثه لتنفر عنه نفوسنا، و تطلب كل وسيلة للفرار منه، فتبتعد عن العقائد الفاسدة، والأعمال الخاسرة، كما مر ذلك آنفاً. قال[٢] المفسرون: لما نزلت هذه الآية قال المشركون: إن إبلنا تسمن من الضريع، فنزلت: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾، وكذبوا في قولهم هذا، فإن الإبل لا تأكل الضريع ولا تقربه، وقيل: اشتبه عليهم أمره، فظنوه كغيره من النبات النافع.

ثم شرع سبحانه في بيان حال أهل الجنة بعد الفراغ من بيان حال أهل النار فقال: ﴿وُجُوهٌ﴾ من المؤمنين ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ غشيت الداهية الناس ﴿نَّاعِمَةٌ﴾؛ أي: ناضرة ذات بهجة وحسن وضياء، مثل القمر ليلة البدر، لما شاهدوا من عاقبة أمرهم، وما أعده الله سبحانه لهم من الخبر الذي يفوق الوصف، فـ ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ من نعم الشيء بالضم نعومَةً؛ أي: صار ناعماً ليناً، ويجوز أن يكون بمعنى: متنعمة؛ أي: بالنعم الجسمانية والروحانية، فيكون المراد بها حقيقة النعمة. وإنما لم تعطف[٣] علىٰ ما قبلها إيذاناً بكمال تباين مضمون الجملتين، وتقديم حكاية أهل النار؛ لأنه أدخل في تهويل الغاشية، وتفخيم حديثها، وفيه إشارة إلىٰ نعيم اللقاء الذي هو ثمرة اللطافة، والتورية التي هي نتيجة التجرد، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ فإن بالنظر إلىٰ الرب جل جلاله يحصل نضرة، أي: نضرة.

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩﴾؛ أي: لعملها الذي عملته في الدنيا حيث شاهدت ثمرته ورأت عاقبته الحميدة، فاللام متعلقة بـ ﴿رَاضِيَةٌ﴾، والتقدير: راضية سعيها؛ لأنها قد أعطيت من الأجر ما أرضاها وقرت به عيونها، فلما تقدم المعمول علىٰ العامل الضعيف.. جيء باللام لتقوية العامل، ويجوز أن تكون لام التعليل؛ أي: لأجل سعيها في طاعة الله تعالى راضية جزاءها وثوابها.

وبعد أن وصف أهل الثواب وَصَفَ ديارهم بسبعة أوصاف، فقال:

١ - ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠﴾؛ أي: كائنة أو متمكنة في جنة عالية المكان، مرتفعة علىٰ غيرها من الأمكنة، فإن الجنة فوق السموات العلىٰ، كما أن النار تحت الأرضين السبع، ولأن الجنة أيضاً منازل ودرجات بعضها أعلىٰ من بعض، كما أن النار دركات بعضها أسفل من بعض، والدرجة مثل ما بين السماء والأرض، فتكون من العلو في المكان، وفي الحديث: «إن المتحابين في الله في غرف ينظر إليهم أهل الجنة، كما ينظر أهل الدنيا إلىٰ كواكب السماء»، ويجوز أن يكون معنىٰ ﴿عَالِيَةٍ﴾: علية المقدار، فتكون من العلو في القدر والشرف؛ لتكامل ما فيها من النعيم؛ لأن نعيم الجنة بعضه أرفع من بعض، فالنعيم الذي يتمتع به السابقون من الأنبياء والشهداء والصالحين، أعلىٰ منزلة وأرفع قدراً مما يتمتع به الذين اتبعوهم بإحسان.

٢ - ﴿لَّا تَسْمَعُ﴾ أنت أيها المخاطب، فالخطاب عام لكل من يصلح له، أو لا تسمع أنت يا محمد علىٰ أن الخطاب خاص، أو لا تسمع تلك الوجوه؛ أي: أصحابها، فتكون التاء لتأنيث الفاعل، لا للخطاب. ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الجنة العالية ﴿لَٰغِيَةً﴾؛ أي: لغواً من الكلام، وهو: ما لا يعتد به من الكلام الساقط، فهو مصدر كالعافية والعاقبة؛ أي[1]: إنها منزهة عن اللغو؛ إذ أنها منزل جيران الله وأحبائه، وقد نالوها بالجد والعمل، لا باللغو، ومنازل أهل الشرف في الدنيا تكون مبرأة من اللغو والكذب والبهتان، فكيف بأرفع المجالس في جوار رب العالمين، ومالك قلوب الخلق أجمعين! أو: لا تسمع كلمةً ذات لغو علىٰ أنها للنسبة، أو: نفساً تلغو علىٰ أنها اسم فاعل صفة لموصول محذوف هو: نفس.

---

(١) المراغي.

وقال الفراء والأخفش[1]: أي لا تسمع فيها كلمة لغو، قيل: المراد بذلك: الكذب والبهتان والكفر، قاله قتادة، وقال مجاهد: أي: الشتم، وقال الفراء أيضاً: لا تسمع فيها حالفاً يحلف بكذب، وقال الكلبي: لا تسمع في الجنة حالفاً بيمين برة ولا فاجرة، وقال الفراء أيضاً: لا تسمع في كلام أهل الجنة كلمة تلغىٰ؛ لأنهم لا يتكلمون إلا بالحكمة، وحمد الله تعالىٰ علىٰ ما رزقهم من النعيم الدائم، وهذا أرجح الأقوال؛ لأن النكرة في سياق النفي من صيغ العموم، ولا وجه لتخصيص هذا بنوع من اللغو خاص إلا بمخصص يصلح للتخصيص، و ﴿لَٰغِيَةً﴾ إما صفة موصوف محذوف؛ أي: كلمة لاغية، أو نفساً لاغية، أو مصدر؛ أي: لا تسمع فيها لغواً.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿لا تسمع﴾ بفتح الفوقية ونصب ﴿لَٰغِيَةً﴾؛ أي: لا تسمع أنت أيها المخاطب، أو لا تسمع تلك الوجوه، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع ـ بخلاف عنهم ـ، وأهل مكة والمدينة: ﴿لَا تُسْمَعُ﴾ مبنياً للمفعول، ورفع ﴿لاغيةٌ﴾؛ أي: كلمة لاغية، أو جماعة لاغية، أو لغو، فيكون مصدراً كالعاقبة، ثلاثة أقوال، الثالث لأبي عبيدة. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو أيضاً وابن محيصن وعيسىٰ: بالتحتية مضموم مبنياً للمفعول، ورفع ﴿لاغية﴾ لمجاز التأنيث. وقرأ الفضل والجحدري: بفتح الياء التحتية مبنياً للفاعل، ونصب ﴿لَٰغِيَةً﴾ بمعنىٰ: لا يسمع أحد فيها لاغيةً؛ أي: لغواً.

١٢ ـ ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الجنة العالية ﴿عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾؛ أي: ينبوع ماء جار، والتنوين فيه للتكثير؛ أي: عيون[3] كثيرة تجري مياهها علىٰ الدوام حيث شاء صاحبها، وهي أشد بياضاً من اللبن، وأحلىٰ من العسل، من شرب منها لا يظمأ بعدها أبداً، ويذهب من قلبه الغل والغش والحسد والعدواة والبغضاء، والمياه الجارية من الينابيع تكون صافية، وفي منظرها مسرة للنفوس، وقرة للعيون، وقد افتخر بمثلها فرعون فقال: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾.

---

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط والشوكاني.
(٣) روح البيان.

٤ - ﴿فِيهَا سُرُرٌ﴾ يجلسون عليها، جمع: سرير هو معروف ﴿مَّرْفُوعَةٌ﴾؛ أي: رفيقة[1] السمك؛ أي: عالية في الهواء علىٰ قوائم طوال، فإن السمك هو الامتداد الآخذ من أسفل الشيء إلى أعلاه، فالمراد برفعة سمكها: شدة علوها في الهواء، فيرى المؤمن إذا جلس عليها جميع ما أعطاه ربه في الجنة من النعيم الكبير، والملك العظيم، ويرىٰ من في الجنة، وفي ذلك من التشريف والتكريم ما لا خفاء فيه، وفي الحديث: «ارتفاعها كما بين السماء والأرض مسيرة خمس مئة عام» قيل: إذا جاء ولي الله ليجلس عليها تطامنت له، فإذا استوى عليها ارتفعت، ويجوز أن يكون المعنىٰ: رفيعة المقدار من حيث اشتمالها علىٰ جميع أنواع الحسن والكمال في ذواتها وصفاتها.

٥ - ﴿وَأَكْوَابٌ﴾؛ أي: وفيها أكواب وأقداح يشربون بها، جمع: كوب بالضم، وهو إناء لا عروة له ولا خرطوم، مدَوَّر الرأس ليمسك ويشرب منه من أي طرف أريد، بخلاف الإبريق، وهو مستعمل في بعض بلاد العرب الآن، ولذا وقع به التشويق. ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ على حافات العيون كلما أرادوا أن يشربوا منها وجدوها، أو موضوعة بين أيديهم حاضرة لديهم لا يحتاجون إلى أن يدعوا بها، وهو لا ينافي أن يكون بعض الأقداح في أيدي الغلمان، كما سبق في سورة: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾.

٦ - ﴿وَنَمَارِقُ﴾؛ أي: وسائد يستندون إليها للاستراحة جمع: نمرقة، بفتح النون وضمها، والراء مضمومة فيهما بمعنىٰ: الوسادة ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾؛ أي: مصفوف[2] بعضها إلىٰ جوانب بعض، كما يشاهد في بيوت الأكابر، فإن شاؤوا جلسوا عليها، وإن أرادوا استندوا إليها، وإن أحبوا أن يجلسوا علىٰ بعضها، ويستندوا إلى بعض فعلوا، كلما أراد المؤمن أن يجلس جلس علىٰ واحدة، واستند إلىٰ أخرىٰ، وعلىٰ رأسه وصائف كأنهن الياقوت والمرجان.

٧ - ﴿وَزَرَابِيُّ﴾؛ أي: وفيها بسط فاخرة، جمع: زربي وزربية. قال أبو عبيدة والفراء: الزرابي: الطنافس التي لها خمل رقيق، واحدها: زربية، قال الراغب: هو ضرب من الثياب محبر منسوب إلىٰ موضع على طريق التشبيه والاستعارة ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾؛ أي: مبسوطة علىٰ السرر زينة وتمتعاً، أو مبسوطة تحتهم، وقال الفراء: معنىٰ

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

﴿مَبْثُوثَةٌ﴾: كثيرة. وقال الواحدي: ويجوز أن يكون أنها مفرقة في المجالس، والظاهر[1] أن معنىٰ البث: التفرق مع كثرة، ومنه: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾، والمعنىٰ: أي: وفيها بسط مبسوطة في المجالس، بحيث يرىٰ في كل مجلس من مجالسهم منها شيء كما يرىٰ في بيوت المترفين وذوي الثراء في الدنيا.

وقد ذكر[2] سبحانه كل ما سلف تصويراً لترف أهل الجنة تصويراً يقربه من عقولهم، ويستطيعون به إدراكه وفهمه، وإلا فإن نعيم الجنة مما يسمو علىٰ الفكر، ويعلو فوق متناول الإدراك، فالأشياء التي عددها سبحانه تتشابه مع نظائرها التي في هذه الحياة بأسمائها، فأما حقائقها وذواتها.. فليست مثلها ولا قريباً منها، كما أثر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء.

ولما[3] ذكر الله سبحانه وتعالى أمر القيامة، وانقسام أهلها إلىٰ أشقياء وسعداء، وعلم أنه لا سبيل إلىٰ إثبات ذلك إلا بواسطة الصانع الحكيم.. أتبع ذلك بذكر هذه الدلائل، وذكر ما العرب مشاهدوه وملابسوه دائماً، فقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾، وهي الجمال، فإنه اجتمع فيها ما تفرق في غيرها من المنافع من أكل لحمها، وشرب لبنها، والحمل عليها، والتنقل عليها إلىٰ البلاد الشاسعة، وعيشها بأي نبات أكلته، وصبرها علىٰ العطش، حتىٰ إن فيها ما يرد الماء لعشر، وطواعيتها لمن يقودها، ونهضتها وهي باركة بالأحمال الثقال، وكثرة حنينها، وتأثرها بالصوت الحسن علىٰ غلظ أكبادها، ولا شيء من الحيوان جمع هذه الخصال غيرها، وقد أبان تعالىٰ امتنانه بها عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ...﴾ الآيات، ولكونها أفضل ما عند العرب جعلوها دية القتل، ووهبوا المئة منها من يقصدهم ومن أرادوا إكرامه، وذكرها الشعراء في مدح من وهبها، كقول بعضهم:

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

ٱلْوَاهِبُ ٱلْمِئَةَ ٱلْهِجَانَ وَعَبْدَهَا

وقال آخر:

أَعْطُوْا هُنَيْدَةَ تَحْدُوْهَا ثَمَانِيَةٌ

وناسب التنبيه بالنظر إليها وإلى ما حوت من عجائب الصفات ما ذكر معها من السماء والجبال والأرض؛ لانتظام هذه الأشياء في نظر العرب في أوديتهم وبواديهم، وليدل علىٰ الاستدلال علىٰ إثبات الصانع، وأنه ليس مختصاً بنوع، بل هو عام في كل موجوداته، كما قيل:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدُ

ولم يذكر الفيل مع أنه أعظم خلقة من الإبل؛ لأنه لم يكن بأرض العرب، فلم تعرفه، ولا يحمل عليه عادة، ولا يحلب دره، ولا يؤمن ضره. وقال الحسن: وخص الإبل بالذكر؛ لأنها تأكل النوىٰ والقت، وتخرج اللبن، فقيل له: الفيل أعظم منها في الأعجوبة، قال: العرب بعيدة العهد بالفيل، ثم هو خنزير، لا يؤكل لحمه، ولا يركب ظهره، ولا يحلب دره.

والإبل لا واحد له من لفظه، وهو مؤنث، ولذلك إذا صغر دخلته التاء، فقالوا: أُبَيلة، وقالوا في الجمع: آبال.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿ٱلْإِبِلِ﴾ بكسرتين، وتخفيف اللام، وروى الأصمعي عن ابن عمرو: إسكان الباء، وقرأ علي وابن عباس: بشد اللام بعد كسرتين، ورويت عن أبي عمرو وأبي جعفر والكسائي، وقالوا: إنها بهذا الضبط: السحاب عن قوم من أهل اللغة، وبالضبطين الأولين: الجمال. والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ للإنكار[2] والتوبيخ، داخلة علىٰ محذوف يقتضيه المقام، والفاء عاطفة علىٰ ذلك المحذوف، وكلمة ﴿كَيْفَ﴾[3] منصوبة بما بعدها معلقة لفعل النظر، والجملة في حيز الجر علىٰ أنها بدل اشتمال من الإبل؛ أي أينكرون ما ذكر من البعث وأحكامه، ويستبعدون وقوعه عن قدرة الله تعالىٰ، فلا ينظرون نظر اعتبار إلى الإبل

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

التي هي نصب أعينهم، يستعملونها كل حين، أنها كيف خلقت خلقاً بديعاً معدولاً به عن سنن خلقة سائر أنواع الحيوانات في عظم جثتها، وشدة قوتها، وعجيب هيئتها اللائقة بتأتي ما يصدر عنها من الأفاعيل الشاقة، كالنهوض من الأرض بالأوقار الثقيلة، وجر الأثقال الفادحة إلى الأقطار النازحة، وفي سيرها علىٰ الجوع والعطش، حتىٰ إن ظمأها ليبلغ العشر فصاعداً واكتفاءها ورعيها بكل ما تيسر من شوك شجر، وغير ذلك مما لا يكاد يرعاه سائر البهائم، وفي انقيادها مع ذلك للإنسان في الحركة والسكون، والبروك والنهوض؛ حيث يستعملها في ذلك كيفما يشاء، ويقتادها بقطارها كل صغير وكبير، وتبول من خلفها؛ لأن قائدها أمامها، فلا يترشش عليه بولها، وعنقها سلم إليها، وتتأثر من المودة والغرام، وتسكر منها إلى حيث تنقطع عن الأكل والشرب زماناً ممتداً، وتتأثر من الأصوات الحسنة والحداء، وتسير من كمال التأثر إلى حيث تهلك نفسها من سرعة الجري، ويجري الدمع من عينها عشقاً وغراماً، إلى غير ذلك كما مر كثير من ذلك آنفاً.

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ التي يشاهدونها كل لحظة بالليل والنهار ﴿كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ فوق الأرض رفعاً سحيق المدىٰ بلا عماد ولا مساك، بحيث لا يناله الفهم، ولا يدركه العقل.

﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ﴾ التي ينزلون في أقطارها، وينتفعون بمياهها وأشجارها ﴿كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ نصباً رصيناً، ووضعت وضعاً ثابتاً لا ميدان فيه ولا اضطراب، فيتسنىٰ ارتقاؤها في كل حين، وتجعل أمارة للسالكين في تلك الفيافي والقفار، وتنزل عليها المياه التي ينتفع بها في سقي النبات وري الحيوان. وقال أبو الليث: كيف وضعت علىٰ الأرض أوتاداً لها. انتهى.

﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ التي يضربون فيها، ويتقلبون عليها ﴿كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ ومهدت وبسطت علىٰ ظهر الماء بسطاً حسبما يقتضيه صلاح أمور ساكنها، وانتفاعهم بما في ظاهرها من المنافع، وما في باطنها من المعادن.

والاستدلال بكونها مسطوحة علىٰ عدم كونها كرة، مجاب بأن الكرة إذا كانت عظيمةً جداً يكون كل قطعة منها كالسطح، فيصح أن يطلق عليها البسط، ففرق بين كرة وكرة، كما أنه فرق بين بيض الحمامة وبيض النعامة.

والمعنىٰ[1]: أفلا ينظرون نظر التدبر والاعتبار إلى كيفية خلق هذه المخلوقات الشاهدة بحقية البعث والنشور؛ لإشعارها بأن خالقها متصف بصفات الكمال من القدرة والقوة والحكمة، منزه عن صفات النقصان من العجز والضعف والجهل حتى يرجعوا عما هم عليه من الإنكار والنفور، ويسمعوا إنذارك، ويستعدوا للقاء الله تعالىٰ بالإيمان والطاعة.

وقصارى ما سلف[2]: أنه لو نظر هؤلاء الجاحدون المعاندون فيما تقع عليه أنظارهم من هذه الأشياء، وفكروا فيها.. لعلموا أنها صنعة لا توجد إلا بموجد عظيم، ولا تحفظ إلا بحافظ قدير، ولأدركوا أن القادر علىٰ خلق هذه المخلوقات وحفظها ووضعها علىٰ قواعد الحكمة، قادر علىٰ أن يرجع الناس في يوم يوفّىٰ فيه كل عامل جزاء عمله، وعلىٰ أن ينشىء النشأة الآخرة من غير أن يعرفوا طريق إنشائها، فلا ينبغي أن يكون جهلهم بكيفية يوم القيامة سبباً في جحده وإنكاره.

وإنما خص هذه[3] المخلوقات بالذكر؛ لأن الناظر منهم يفكر في أقرب الأشياء إليه، فهو يرىٰ بعيره الذي يمتطيه، ثم إذا هو رفع رأسه فوق رأىٰ السماء، ثم إذا التفت يمنة أو يسرة.. رأىٰ ما حواليه من الجبال، فإذا مد ناظريه أمامه أو تحته رأىٰ الأرض، فالعربي يرىٰ ذلك كل يوم، ومن ثم أمره الله تعالى بالتدبر فيها.

وقرأ الجمهور[4]: ﴿خُلِقَتْ﴾ ﴿رُفِعَتْ﴾ ﴿نُصِبَتْ﴾ ﴿سُطِحَتْ﴾ بتاء التأنيث مبنياً للمفعول، وقرأ علي بن أبي طالب وأبو حيوة وابن أبي عبلة وابن السميفع وأبو العالية: ﴿خلقت﴾ ﴿رفعت﴾ ﴿نصبت﴾ ﴿سطحت﴾ بتاء المتكلم مبنياً للفاعل في جميعها والمفعول محذوف؛ أي: خلقتها، رفعتها، نصبتها، سطحتها، وقرأ الجمهور: ﴿سُطِحَتْ﴾ مبنياً للمفعول مخففة الطاء، وقرأ الحسن وهارون: بشدها.

ولما حَضَّهم سبحانه وتعالىٰ علىٰ النظر في هذه المخلوقات.. أمر رسوله ﷺ بتذكيرهم، فقال: ﴿فَذَكِّرْ﴾، والفاء لترتيب الأمر بالتذكير علىٰ ما ينبىء عنه الإنكار السابق من عدم النظر، فهي فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر

---

(1) روح البيان.

(2) المراغي.

(3) المراغي.

(4) البحر المحيط.

تقديره: إذا دعوتهم إلى الإيمان بالله، وبما جئتهم به من البعث والنشور والحساب، وبالاستدلال عليها بالنظر في هذه المخلوقات المذكورة، ولم يقبلوا، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: ذكرهم يا محمد؛ أي: اقتصر علىٰ التذكير، ولا تلح عليهم، ولا يهمنك أنهم لا ينظرون ولا يتذكرون ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ تعليل للأمر بالتذكير؛ أي: ما أنت إلا مبلغ، وإنما التوفيق والهداية إلينا ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: لست بمسلط عليهم تجبرهم على ما تريد، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾، وهذا منسوخ بآية السيف، كما مر.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿بِمُصَيْطِرٍ﴾ بالصاد وكسر الطاء. وابن عامر في رواية ونطيق عن قنبل وزرعان عن حفص وهشام: بالسين، وقرأ خلف وحمزة في رواية: بإشمام الصاد زاياً، وقرأ هارون الأعور: بفتح الطاء اسم مفعول، وهي لغة تميم، وسيطر: متعد عندهم، ويدل عليه فعل المطاوعة، وهو تسطر، وليس في الكلام علىٰ هذا الوزن، إلا مسيطر ومهيمن ومبيطر، وهي أسماء فاعلين من سيطر وهيمن وبيطر، وجاء مجيمر اسم واد، ومديبر، ويمكن أن يكون أصلهما: مدبراً ومجمراً، فصغرا.

والمعنى[2]: فذكر بآياتي، وعظهم بحججي، وبلغهم رسالاتي، وحذرهم أن يتركوا ذلك، ثم بعدئذٍ لا تذهب نفسك عليهم حسراتٍ إن لم يؤمنوا.

ثم علل الأمر بالتذكير، فقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾؛ أي: إنما بعثت للتذكير فحسب، وليس من الواجب عليك أن يؤمنوا، فما عليك إلا التبشير والتحذير، فإن آمنوا فقد اهتدوا إلى ما تسوق إليه الفطرة، وإن أعرضوا.. فقد تحكمت فيهم الغفلات، وتغلبت عليهم الشهوات، واستولت علىٰ عقولهم الأهواء والجهالات.

ثم أكد الإنذار وقرره بقوله: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: لست بمسلط عليهم تجبرهم علىٰ ما تريد، وتتعهد أحوالهم، وتكتب أعمالهم، فلم تؤت قوة الإكراه علىٰ الإيمان، والإلجاء إلىٰ ما تدعوهم إليه، كما قال: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾، وقال: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ﴾ وأعرض عن الحق، أو عن الداعي إليه بعد التذكير ﴿وَكَفَرَ﴾ وثبت علىٰ الكفر، أو أظهره.

وفي «فتح الرحمن»: إلا من تولىٰ عن الإيمان، وكفر بالقرآن أو بالنعمة. وفي «التأويلات النجمية»: إلا من تولىٰ عن الحق بالإقبال علىٰ الدنيا، وكفر؛ أي: ستر الحق بالخلق، وهو استثناء منقطع من الهاء في عليهم، و ﴿من﴾ موصولة[1] لا شرطية؛ لمكان الفاء ورفع الفعل؛ أي: لكن من تولى وكفر فإن الله الولاية والقهر، وهو المسيطر عليهم، وقيل: متصل؛ أي: فأنت مصيطر عليه إلا من تولى وكفر، وقيل: متصل من مفعول ﴿فَذَكِّرْ﴾؛ أي: فذكر عبادي إلا من انقطع طمعك من إيمانه، وتولى فاستحق العذاب الأكبر، وما بينهما اعتراض، وفي «الشهاب»: ﴿مَنْ﴾: مبتدأ مضمن معنىٰ الشرط، و ﴿فَيُعَذِّبُهُ﴾: جوابه. ا هـ.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿إِلَّا﴾ حرف استثناء علىٰ الخلاف المذكور فيه، وقرأ ابن عباس وزيد بن علي وقتادة وزيد بن أسلم: ﴿ألا﴾ حرف تنبيه واستفتاح. ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾ الذي هو عذاب جهنم، حرها شديد، وقعرها بعيد، ومقامعها من حديد، وإنما قيد بالأكبر؛ لأنهم قد عذبوا في الدنيا بالجوع والقحط والقتل والأسر، وقال في «فتح الرحمن»: ﴿الْأَكْبَرَ﴾: عذاب جهنم، والأصغر: ما عذبوا به في الدنيا من الجوع والقحط والقتل ونحوها، ويؤيده ما قال الراغب في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ فيه تنبيه علىٰ أن كل ما ينال الكافر من العذاب قبل ذلك في الدنيا، وفي البرزخ، صغير في جنب عذاب ذلك اليوم. انتهى. وقرأ ابن مسعود[3]: ﴿فإنه يعذب اللّهُ﴾، ومعنىٰ قوله: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾...﴾ إلخ، أي: إنك يا محمد، وإن كنت داعياً ليس لك سلطان علىٰ ما في نفوسهم، فالله هو المسيطر عليهم، وصاحب السلطان علىٰ سرائرهم، فمن تولىٰ منهم، وأعرض عن الذكرىٰ، وجحد الحق المعروض عليه، فالله يعذبه العذاب الأكبر في الآخرة، وقد يضم إلىٰ ذلك عذاباً في الدنيا من قتل، أو سبي الذرية، أو غنيمة للأموال إلى نحو أولئك من صنوف البلاء التي ينزلها بهم.

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) الشوكاني.

ثم أكد تعذيب الله لمن تولىٰ وكفر بقوله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾؛ أي: رجوعهم بعد الموت، فهو تعليل لتعذيبه تعالىٰ بالعذاب الأكبر؛ أي: إن إلينا رجوعهم بالموت والبعث، لا إلىٰ أحد سوانا، لا استقلالاً ولا اشتراكاً، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ فتقديم[1] الخبر للتخصيص والمبالغة، فإنه يفيد معنىٰ أن يقال: إن إيابهم ليس إلا إلىٰ الجبار المقتدر علىٰ الانتقام، كما أن مبدأهم وصدورهم كان منه، وفيه تخويف شديد، فإن رجوع العبد العاصي المصر إلىٰ مالكه الغضوب في غاية الصعوبة، ونهاية العسرة، وجمع الضمير فيه وفيما بعده باعتبار معنىٰ ﴿من﴾، كما أن إفراده فيما سبق باعتبار لفظها، ويقال: آب يؤب أوباً وإياباً إذا رجع، ومنه قول عبيد بن الأبرص:

وَكُلُّ ذِيْ غَيْبَةٍ يَؤُوبُ وَغَائِبُ ٱلْمَوْتِ لَا يَؤُوبُ

وقرأ الجمهور[2]: ﴿إِيَابَهُمْ﴾ بتخفيف الياء مصدر آب: بمعنىٰ رجع، وقرأ أبو جعفر وشيبة: بتشديدها. قال أبو حاتم: لا يجوز التشديد، ولو جاز لجاز مثله في الصيام والقيام، وقيل: هما لغتان بمعنىٰ، قال الواحدي: وأما إيابهم بتشديد الياء، فإنه شاذ لم يجزه أحد غير الزجاج.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا﴾ بمقتضىٰ وعيدنا، لا وجوباً، لا علىٰ غيرنا ﴿حِسَابَهُم﴾؛ أي: جزاءهم بعد رجوعهم إلينا بالبعث، فنحن نحاسبهم علىٰ النقير والقطمير من نياتهم وأعمالهم، و ﴿ثُمَّ﴾[3] للتراخي في الرتبة لبعد منزلة الحساب في الشدة عن منزلة الإياب، لا في الزمان، فإن الترتيب الزماني بين إيابهم وحسابهم، لا بين كون إيابهم إليه تعالىٰ، وحسابهم عليه تعالىٰ، فإنهما أمران مستمران، والمعنىٰ: أي: لا مفر للمعرضين، ولا خلاص لهم من الويل الذي أوعدوا به، فإنهم راجعون إلينا، وقد حق القول منا في عقابهم، وسنحاسبهم علىٰ ما كسبت أيديهم. وفي هذا تسلية لقلب رسوله ﷺ، وإزالة أحزانه وآلامه لتكذيبهم إياه، وإصرارهم علىٰ معاندته، وفي «الإرشاد»: وفي تصدير[4] الجملتين بـ ﴿إِنَّ﴾، وتقديم خبرها، وعطف الثانية علىٰ

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

(٤) أبو السعود.

الأولى بكلمة ﴿ثُمَّ﴾ المفيدة لبعد منزلة الحساب في الشدة من الإنباء عن غاية السخط الموجب لشديد العذاب ما لا يخفىٰ.

الإعراب

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥﴾.

﴿هَلْ﴾: حرف استفهام للاستفهام التعجبي التشويقي إلى استماع حديث الغاشية، وقيل بمعنى: قد. ﴿أَتَىٰكَ﴾: فعل ومفعول به ﴿حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾: فاعل ومضاف إليه، والجملة مستأنفة إنشائية، ﴿وُجُوهٌ﴾: مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة وقوعه في معرض التفصيل والوصف المقدر ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف مضاف لمثله، متعلق بـ ﴿خَٰشِعَةٌ﴾، و ﴿خَٰشِعَةٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان حديث الغاشية، ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾: خبران آخران للمبتدأ، وقيل: ﴿خاشعة﴾ عاملة ﴿ناصبة﴾ صفات لـ ﴿وُجُوهٌ﴾، والخبر جملة ﴿تَصْلَىٰ﴾، ﴿تَصْلَىٰ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود علىٰ ﴿وُجُوهٌ﴾، ﴿نَارًا﴾: مفعول به ﴿حَامِيَةً﴾: صفة ﴿نَارًا﴾، والجملة خبر رابع لـ ﴿وُجُوهٌ﴾. ﴿تُسْقَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود علىٰ ﴿وُجُوهٌ﴾، والجملة خبر خامس لـ ﴿وُجُوهٌ﴾. ﴿مِنْ عَيْنٍ﴾: متعلق بـ ﴿تُسْقَىٰ﴾ ﴿ءَانِيَةٍ﴾: صفة ﴿عَيْنٍ﴾.

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ۝٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾.

﴿لَّيْسَ﴾: فعل ماضٍ ناقص ﴿لَهُمْ﴾: خبرها مقدم ﴿طَعَامٌ﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿لَّيْسَ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً واقعاً في جواب سؤال مقدر مترتب علىٰ ما سبق، كأنه قيل: وما هو طعامهم بعدما ذكر شرابهم؟، قيل: ليس لهم طعام إلخ، ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء مفرغ، ﴿مِن ضَرِيعٍ﴾: صفة ﴿طَعَامٌ﴾، أو بدل منه علىٰ القاعدة، ويجوز أن يكون في محل النصب علىٰ الاستثناء ﴿لَّا﴾: نافيه، ﴿يُسْمِنُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود علىٰ ﴿ضَرِيعٍ﴾، والجملة صفة لـ ﴿ضَرِيعٍ﴾، وجملة ﴿وَلَا يُغْنِى﴾ معطوفة علىٰ جملة ﴿لَّا يُسْمِنُ﴾. ﴿مِن جُوعٍ﴾: متعلق بـ ﴿يُغْنِى﴾. ﴿وُجُوهٌ﴾:

مبتدأ، سوغ الابتداء بالنكرة وقوعه في معرض التفصيل. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف مضاف لمثله، متعلق بـ ﴿نَّاعِمَةٌ﴾، و ﴿نَّاعِمَةٌ﴾: خبر ﴿وُجُوهٌ﴾، والجملة مستأنفة، أو معطوفة بعاطف مقدر علىٰ جملة قوله: وجوه يومئذ خاشعة ﴿لِّسَعْيِهَا﴾: متعلق بـ ﴿رَاضِيَةٌ﴾، و ﴿رَاضِيَةٌ﴾: خبر ثانٍ لـ ﴿وُجُوهٌ﴾. ﴿فِي جَنَّةٍ﴾: خبر ثالث لـ ﴿وُجُوهٌ﴾. ﴿عَالِيَةٍ﴾: صفة ﴿جَنَّةٍ﴾: ﴿لَّا﴾: نافية ﴿تَسْمَعُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود علىٰ المخاطب تقديره: أنت ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ ﴿تَسْمَعُ﴾، ﴿لَٰغِيَةً﴾: مفعول به؛ لأنه مصدر بمعنىٰ: لغواً، جاء علىٰ وزن فاعلة، كالعاقبة والعافية، والجملة الفعلية في محل الجر صفة ثانية لـ ﴿جَنَّةٍ﴾ ولكنها سببية، ﴿فِيهَا﴾: خبر مقدم. ﴿عَيْنٌ﴾ مبتدأ مؤخر. ﴿جَارِيَةٌ﴾: صفة لـ ﴿عَيْنٌ﴾ والجملة الاسمية صفة ثالثة لـ﴿جَنَّةٍ﴾، ﴿فِيهَا﴾: خبر مقدم، ﴿سُرُرٌ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿مَّرْفُوعَةٌ﴾: صفة لـ ﴿سُرُرٌ﴾، والجملة الاسمية صفة رابعة لـ﴿جَنَّةٍ﴾، ﴿وَأَكْوَابٌ﴾ معطوفة على ﴿سُرُرٌ﴾: ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾: صفة ﴿أكواب﴾، ﴿وَنَمَارِقُ﴾: معطوفة على ﴿سُرُرٍ﴾، ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾: صفة لـ ﴿نمارق﴾، ﴿وَزَرَابِيُّ﴾: معطوف على ﴿سُرُرٌ﴾، و ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾: صفة لـ ﴿زرابى﴾.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿أَفَلَا﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري، داخلة علىٰ محذوف دل عليه السياق، و ﴿الفاء﴾: عاطفة علىٰ ذلك المحذوف ﴿لا﴾: نافية ﴿يَنظُرُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿إِلَى ٱلْإِبِلِ﴾: متعلق بـ ﴿يَنظُرُونَ﴾، و ﴿يَنظُرُونَ﴾: تعدىٰ إلى ﴿الابل﴾ بواسطة ﴿إلىٰ﴾، وتعدىٰ إلى ﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ علىٰ سبيل التعليق، وقد تبدل الجملة وفيها الاستفهام من الاسم الذي قبلها، وإن لم يكن فيه استفهام علىٰ خلاف في ذلك. ا هـ «فتوحات». والجملة الفعلية معطوفة علىٰ تلك المحذوفة والتقدير: أينكرون البعث فلا ينظرون، والجملة المحذوفة مستأنفة مسوقة لتقرير ما مضىٰ من حديث الغاشية. ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام عن الحال في محل النصب على الحال بـ ﴿خُلِقَتْ﴾، ﴿خُلِقَتْ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود علىٰ ﴿ٱلْإِبِلِ﴾، والجملة الفعلية في محل الجر بدل من ﴿ٱلْإِبِلِ﴾ بدل اشتمال، ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾: جار ومجرور معطوف علىٰ قوله: ﴿إِلَى ٱلْإِبِلِ﴾، وجملة قوله: ﴿كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ بدل من ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ بدل اشتمال، وكذا قوله ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ

سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾: معطوفان على قوله: ﴿إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ ممثالان له في إعرابه.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

﴿فَذَكِّرْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا دعوتهم إلىٰ الإيمان بالله، وبما جئت به من البعث والنشور والحساب، وبالاستدلال عليها بالنظر إلىٰ هذه المخلوقات المذكورة، ولم يقبلوا ذلك، وأردت بيان ما هو اللازم لك.. فأقول لك: ذكرهم. ﴿ذكر﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود علىٰ محمد، ومفعوله محذوف تقديره: فذكرهم، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة. ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر ﴿أَنتَ﴾: مبتدأ ﴿مُذَكِّرٌ﴾: خبر، والجملة الاسمية جملة تعليلية مسوقة لتعليل الأمر بالتذكير ﴿لَّسْتَ﴾: فعل ناقص، واسمه ﴿عَلَيْهِم﴾: متعلق بـ ﴿مصيطر﴾، ﴿بِمُصَيْطِرٍ﴾ خبر ﴿ليس﴾ و ﴿الباء﴾: زائدة، وجملة ﴿ليس﴾ معطوفة علىٰ ما قبلها بعاطف مقدر علىٰ كونها تعليلية ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء متصل ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب على الاستثناء من مفعول ﴿ذكر﴾ المحذوفة، أو من الهاء في ﴿عَلَيْهِمْ﴾، ﴿تَوَلَّىٰ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر صلة ﴿مَن﴾ الموصولة ﴿وَكَفَرَ﴾: معطوف على ﴿تَوَلَّىٰ﴾، ﴿فَيُعَذِّبُهُ﴾ ﴿الفاء﴾: تعليلية ﴿يعذبه الله﴾: فعل ومفعول به، وفاعل. ﴿ٱلْعَذَابَ﴾: مفعول مطلق ﴿ٱلْأَكْبَرَ﴾ صفة لـ ﴿ٱلْعَذَابَ﴾، والجملة الفعلية جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب، وإن شئت قلت: ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء منقطع بمعنىٰ لكن. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿تَوَلَّىٰ﴾ صلته، ﴿وَكَفَرَ﴾: معطوف على ﴿تَوَلَّىٰ﴾ ﴿فَيُعَذِّبُهُ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الخبر بالمبتدأ؛ لشبه الموصول بأسماء الشرط في العموم، ﴿يعذبه﴾: فعل ومفعول به ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل. ﴿ٱلْعَذَابَ﴾: مفعول مطلق مبين للنوع، ﴿ٱلْأَكْبَرَ﴾. صفة لـ ﴿ٱلْعَذَابَ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جملة استدراكية لا محل لها من الإعراب ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿إِلَيْنَا﴾: جار ومجرور خبر مقدم لـ﴿إن﴾ ﴿إِيَابَهُمْ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر، وجملة ﴿إِنَّ﴾ جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب، لأنها سيقت لتعليل التعذيب، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب رتبي، كما مر

﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿عَلَيْنَا﴾: خبر مقدم لـ ﴿إن﴾. ﴿حِسَابَهُم﴾ اسمها مؤخر، وجملة ﴿إِنَّ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ الأولى.

التصريف ومفردات اللغة

﴿هَلْ أَتَنْكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾ الغاشية: اسم من أسماء القيامة سميت بذلك؛ لأنها تغشى الناس بشدائدها وأهوالها، يقال: غشية يغشاه؛ أي: غطاه، وكل ما أحاط بالشيء من جميع جهاته فهو غاشٍ له، وفي «المختار»: الغشاء: الغطاء كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ بضم الغين وفتحها وكسرها، وفي «المصباح»: ويقال: إن الغاشية تعطل القوى المحركة، والأوردة الحساسة لضعف القلب بسبب وجع شديد، أو برد، أو جوع مفرط، وقيل: الغشي: هو الإغماء، وقيل: الإغماء: امتلاء بطون الدماغ من بلغم بارد غليظ، وقيل: الإغماء: سهو يلحق الإنسان مع فتور الأعضاء لعلة، وغشيته أغشاه ـ من باب: تعب ـ: أتيته، والاسم: الغشيان ـ بالكسر ـ.

﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾ والناصبة: التعبة، يقال: نصب ـ من باب علم ـ: إذا تعب في العمل، والمعنى. تعمل أعمالاً شاقة.

﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾ من قولهم: صلي النار بالكسر؛ أي: قاسى حرها، وفيه إعلال بالقلب، أصله: تصلي، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح. ﴿حَامِيَةً﴾؛ أي: متناهية في الحر، من قولهم: حميت النار إذا اشتد حرها.

وقوله: ﴿تُسْقَىٰ﴾ أصله: تسقي، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿نَارًا﴾ ألفه منقلبة عن واو لتصغيره على نويرة.

﴿مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ والعين: ينبوع الماء، والآنية: الشديدة الحر، وفي «القاموس»: وأنى الحميم: انتهى حره، فهو آن، وبلغ هذا أناه ويكسر؛ أي: غايته.

﴿إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ والضريع: شجر ذو شوك لائط بالأرض، فإذا كان رطباً سمي: بالشبرق، وفي «القاموس»: والضريع ـ كأمير ـ: الشبرق، أو يبيسه، أو نبات رطبه يسمى: الشبرق، ويابسه: الضريع، لا تقربه دابة لخبثه، والسلاء والعوسج:

الرطب، أو نبات في الماء الآجن له عروق لا تصل إلى الأرض، أو شيء من جهنم أمر من الصبر، وأنتن من الجيفة، وأحر من النار، ونبات منتن يرمي به البحر، ويبيس كل شجر، والخمر أو رقيقها، والجلد علىٰ العظم تحت اللحم. وفي «الكشاف»: الضريع: يبيس الشبرق، وهو جنس من الشوك ترعاه الإبل ما دام رطباً، فإذا يبس تحامته الإبل، وهو سم قاتل، قال أبو ذؤيب:

رَعَىٰ ٱلشِّبْرِقَ ٱلرَّيَّانَ حَتَّىٰ إِذَا ذَوَىٰ وَعَادَ ضَرِيعاً بَانَ عَنْهُ ٱلنَّحَائِصُ

﴿نَّاعِمَةٌ﴾؛ أي: ذات بهجة وحسن وجمال، اسم فاعل من نعم الشيء بالضم نعومةً؛ أي: صار ناعماً ليناً.

﴿رَاضِيَةٌ﴾: فيه إعلال بالقلب، أصله: راضوة من الرضوان، قلبت الواو ياءً لتطرفها إثر كسرة.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾﴾ فيه إعلال أيضاً، أصله: عالوة من العلو، قلبت الواو ياء لتطرفها إثر كسرة..

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾﴾؛ أي: لغواً وكذباً وبهتاناً؛ لأنه مصدر علىٰ وزن فاعلة، كالعاقبة والعافية، كما مر، وفيه إعلال بالقلب أيضاً، أصله: لاغوة من لغا يلغو، قلبت الواو ياءً لتطرفها إثر كسرة.

﴿فِيهَا سُرُرٌ﴾ جمع سرير، وهو ما يجلس أو ينام عليه، وأفضله ما كان مرفوعاً عن الأرض. ﴿وَأَكْوَابٌ﴾: جمع: كوب بالضم، وهو ما لا عروة له، ولا خرطوم من الكيزان. ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾؛ أي: معدة ومهيأة للشرب.

﴿وَنَمَارِقُ﴾ جمع: نمرقة بضم النون وفتحها، والراء مضمومة فيهما لغتان أشهرهما الأول، وهو الوسادة الصغيرة، وفي «القاموس»: والنمرقة مثلثة: الوسادة الصغيرة، أو الميثرة، أو طنفسة فوق الرحل. قال الشاعر:

كُهُوْلٌ وَشُبَّانٌ حِسَانٌ وُجُوْهُهُمْ عَلَىٰ سُرُرٍ مَصْفُوْفَةٍ وَنَمَارِقِ

﴿وَزَرَابِيُّ﴾ جمع: زربي بكسر الزاي، وزربية، وهو البساط، أصله: زرابيي بوزن فعاليل، فأدغمت ياء فعاليل في الياء لام الكلمة، وأصل الزرابي: أنواع النبات إذا احمرت واصفرت وفيها خضرة، ويقال: أزرب النبات إذا صار كذلك،

سموا بها البسط لشبهها به.

﴿مَبْثُوثَةٌ﴾؛ أي: مفرقة في المجالس بحيث يرىٰ في كل مجلس شيء منها، كما يرى في بيوت ذوي الثراء، وفي «القاموس»: الزرابي: النمارق والبسط، أو كل ما يبسط ويتكأ عليها، الواحدة: زربي بالكسر، ويضم، والطنافس أيضاً: جمع طنفسة بتثليث الطاء والفاء، ففيه تسع لغات، وهي المسماة الآن بالسجادة.

﴿إِلَى ٱلْإِبِلِ﴾ بكسرتين وتسكن الباء، مفرد يقع علىٰ الجمع، وليس بجمع ولا اسم جمع، يجمع علىٰ: آبال، كما في «القاموس»، وقال بعضهم: اسم جمع لا واحد له من لفظه، كنساء وقوم، وإنما واحده بعير وناقة وجمل.

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾ ورفع السماء: إمساك ما فوقنا من شموس وأقمار ونجوم.

﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾ ونصب الجبال: إقامتها أعلاماً للسائرين، وملجأً للحائرين.

﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ وسطح الأرض: تمهيدها وتوطئتها للإقامة عليها، والمشي في مناكبها ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ أصل ﴿لَّسْتَ﴾: ليس، فلما لحقت به تاء الفاعل المتحركة.. سكن آخر الفعل ـ وهو السين ـ فالتقىٰ ساكنان: الياء والسين، فحذفت الياء لالتقاء الساكنين، فصار: لست بوزن فلت، و﴿مسيطر﴾: اسم فاعل جاء مصغراً ولا مكبر له، كقولهم: رويد والثريا وكميت ومبيقر ومبيطر ومهيمن، وقرىء ﴿بمسيطر﴾ بفتح الطاء، وهذه القراءة غريبة شاذة، فقد قال في «تاج العروس»: سيطر: جاء علىٰ وزن فيعل، فهو مسيطر بكسر الطاء، ولم يستعمل فعله مجهولاً، وننتهي في كلام العرب إلىٰ ما انتهوا إليه، فلا نزيد علىٰ ذلك.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستفهام التشويقي في قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾﴾؛ لدلالته

علىٰ تشويق السامع إلى استماع حديث الغاشية.

ومنها: الاستعارة التصريحية في لفظ ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾؛ لأنه حقيقة في كل ما أحاط بالشيء من جميع جهاته، ككمام الثمار التي أحاطت بلبها مع الإحاطة في كل.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾، لأن المراد أصحابها، ففيه إطلاق الجزء وإرادة الكل.

ومنها: التتميم في قوله: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ۝٧﴾، فقوله: ﴿لَا يُغْنِى﴾ جملة لا يمكن طرحها من الكلام؛ لأنه لما قال: ﴿لَّا يُسْمِنُ﴾.. ساغ للمتوهم أن يتوهم أن هذا الطعام الذي ليس من جنس طعام البشر انتفت عنه صفة الإسمان، ولكن بقيت له صفة الإغناء، فجاءت جملة: ﴿وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ تتميماً للمعنىٰ المراد، وهو أن هذا الطعام انتفت عنه صفة إفادة السمن والقوة، كما انتفت عنه صفة إماطة الجوع وإزالته.

ومنها: تنكير ﴿جُوعٍ﴾ في هذه الجملة للدلالة علىٰ التحقير أي: لا يغني من جوع ما.

ومنها: تأخير نفي الإغناء عن الإسمان لمراعاة الفواصل، والتوسل به إلىٰ التصريح بنفي كلا الأمرين، إذ لو قدم لما احتيج إلى ذكر نفي الإسمان ضرورة استلزام نفي الإغناء عن الجوع إياه، بخلاف العكس، ولذلك كرر ﴿لَا﴾ لتأكيد النفي.

ومنها: تقديم حكاية أهل النار علىٰ حكاية أهل الجنة؛ لأنه أدْخَلُ في تهويل الغاشية، وتفخيم حديثها.

ومنها: ترك العطف في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨﴾ علىٰ ما قبلها إيذاناً بكمال تباين مضمون الجملتين.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾ و ﴿مُذَكِّرٌ﴾، وقوله: ﴿فَيُعَذِّبُهُ﴾، و ﴿ٱلْعَذَابَ﴾.

ومنها: المقابلة بين وجوه الأبرار ووجوه الفجار في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩﴾ قابل بينها وبين سابقتها ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾.

ومنها: حذف المفعول في قوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾؛ أي: الناس؛ لإفادة العموم.

فائدة: واعلم أنه يجوز حذف المفعول به لغرض:

إما لفظي: كتناسب الفواصل؛ أي: رؤوس الآي، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾، والأصل: ﴿وما قلاك﴾، فحذف المفعول ليناسب قوله: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾، وكالإيجاز، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ والأصل: فإن لم تفعلوه، ولن تفعلوه؛ أي: الإتيان بسورة من مثله.

وإما معنوي: كاحتقاره، نحو: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾؛ أي: لأغلبن الكافرين، فحذف المفعول زيادة في امتهانه واحتقاره، أو لاستهجانه واستقباح التصريح به، كقول عائشة رضي الله عنها: ما رأى مني، ولا رأيت منه؛ أي: العورة.

ومنها: تقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ لإفادة التخصيص والمبالغة في الوعيد، فإنه يفيد معنىٰ أن يقال: إن إيابهم ليس إلا إلىٰ الجبار المقتدر علىٰ الانتقام، كما أن مبدأهم وصدورهم كان منه تعالى.

ومنها: العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة علىٰ التراخي في الرتبة لا في الزمان، لأنه قد يكون مباشرة بعد الإياب، ولكن التفاوت بين الموقفين أمر لا تكتنه أهواله، ولا يدري أحد مداه.

ومنها: مجيء الخبر مؤكداً بـ﴿إن﴾، كأنهم بحاجة إلىٰ تأكيد هذا الأمر الذي أشاحوا عنه، ولم يتدبروه لترددهم فيه.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة من المقاصد

اشتملت هذه السورة على المقاصد التالية:

١ ـ وصف أهل الجنة، ووصف أهل النار.

٢ ـ ذكر عجائب الصنعة الإلهية.

٣ ـ أمر رسوله ﷺ بالتذكير بما أرسل إليه من الشرائع[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) إلىٰ هنا تمت سورة الغاشية بعون الله ذي العطايا الفاشية، ليلة الثلاثاء وقت السحر من ليلة عيد الفطر من شهر شوال من شهور سنة: ١/ ١٠/ ١٤١٦هـ ألف وأربع مئة وست عشرة سنة من الهجرة النبوية، علىٰ صاحبها أفضل الصلاة وأزكىٰ التحية، وصلىٰ الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله رب العالمين.

سورة الفجر

سورة الفجر مكية بلا خلاف[1]، نزلت بعد سورة الليل، وأخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي من طرق عن ابن عباس قال: نزلت ﴿وَالْفَجْرِ ۝١﴾ بمكة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير وعائشة مثله.

وآياتها[2]: ثلاثون، أو تسع وعشرون آية. وكلماتها: مئة وتسع وثلاثون كلمة. وحروفها: خمس مئة وسبعة وتسعون حرفاً.

ومناسبتها لما قبلها من وجوهٍ[3]:

١ ـ أنه ذكر في تلك الوجوه الخاشعة، والوجوه الناعمة، وذكر في هذه طوائف من المكذبين المتجبرين الذين وجوههم خاشعة، وطوائف من الذين وجوههم ناعمة.

٢ ـ أن القسم في أول هذه السورة، كالدليل علىٰ صحة ما تضمنته خاتمة السورة السابقة من الوعد والوعيد.

قال الجلال السيوطي ـ رحمه الله تعالى ـ: لم يظهر لي في وجه ارتباطها سوىٰ أن أولها كالإقسام علىٰ صحة ما ختم به السورة التي قبلها، أو علىٰ ما تضمنته من الوعد والوعيد، هذا مع أن جملة ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ مشابهة لجملة: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾. وسورة الفجر نزلت بعد سورة الليل، والفجر يعقب الليل، ويأتي بعده.

وعبارة أبي حيان: المناسبة بين السورتين: أن الله سبحانه لما ذكر فيما[4] قبلها: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢﴾ و ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ۝٨﴾.. أتبعها بذكر الطوائف المتكبرين المكذبين المتجبرين الذين وجوههم خاشعة، وأشار إلىٰ الصنف

---

(١) الشوكاني.
(٢) الخازن.
(٣) المراغي.
(٤) البحر المحيط.

الآخر الذين وجوههم ناعمة بقوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾. وأيضاً لما قال: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾﴾ قال هنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾... تهديداً لمن كفر وتولىٰ.

قال الشيخ موسىٰ جار الله ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه: «نظم الدرر في ترتيب السور وتناسبها»: وسورة الفجر فيها تاريخ التمدن بترتيب عجيب، يظهر منه أن تمدن جنوب جزيرة العرب أقدم من تمدن الفراعنة، وظاهر قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾ أن تمدن عاد كان أرقىٰ من كل تمدن كان قبله أو في زمنه، فإن كان أوتاد فرعون في هذه السورة هي أهرام الفراعنة، وهي قبورهم، فلعل ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾ هي شيء أعجب صنعاً، وأنفع للناس، وإن لم تكن أرسىٰ من الأهرام، وأصبر منها على عوادي الطبيعة، وجاءت السورة بعد سورة الغاشية ليرىٰ الترتيب أن غاشية من الغواشي غشيت التي لم يخلق مثلها في البلاد، فهل ترى لها من باقية؟ انتهىٰ.

ومن فضائلها: ما أخرجه النسائي عن جابر قال: صلىٰ معاذ صلاة، فجاء رجل، فصلى معه فطول، فصلىٰ في ناحية المسجد، ثم انصرف، فبلغ ذلك معاذاً، فقال: منافق، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، جئت أصلي، فطول علي، فانصرفت، فصليت في ناحية المسجد فعلفت ناضحي، فقال رسول الله ﷺ: «أفتان أنت يا معاذ؟، أين أنت من ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾﴾، و ﴿ٱلْفَجْرِ﴾ و ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾﴾.

ومنها: ما روي عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة الفجر في الليالي العشر غفر له، ومن قرأها في سائر الأيام، كانت له نوراً يوم القيامة»، ولكن فيه مقال.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال محمد بن حزم رحمه الله تعالى: سورة الفجر كلها محكمة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ، وسميت سورة الفجر لذكر الفجر فيها.

واشتملت هذه السورة على مقصدين:

أولهما: في إهلاك عاد وثمود وقوم فرعون، وذلك من أول السورة إلىٰ قوله:

---

(١) البيضاوي.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾.

والثاني: بيان أن كثرة النعم علىٰ العبد ليست دالة علىٰ إكرام الله له، وأن كثرة البلاء ليست دالة علىٰ إهانته، بل الإكرام في التوفيق للعمل الصالح، والإهانة في الخذلان بالكفر والمعاصي، وهو من قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥...﴾ إلىٰ آخر السورة.

والله أعلم بمراده

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى
حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨
وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا
ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ
رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ
۝١٦ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ
أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ
وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٢٣
يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ۝٢٤ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٦ يَٰٓأَيَّتُهَا
ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠﴾.

المناسبة

تقدم لك بيان المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها، وأما قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ الآيات، فالمناسبة بينها وبين ما قبلها: أن الله سبحانه وتعالىٰ لما أقسم أنه سيعذب الكافرين جزاء كفرهم وإصرارهم علىٰ مخالفة أوامره.. شرع[1] يذكر بعض قصص الأمم الماضية ممن عاندوا الله ورسوله، ولجوا في طغيانهم، فأوقع بهم شديد العذاب، وأخذهم أخذ العزيز المقتدر الجبار؛ ليكون في ذلك زجر لهؤلاء المكذبين، وتثبيت للمؤمنين الذين اتبعوا الرسول ﷺ وناصروه، وتطمين لقلوبهم بأن أعداءهم سيلقون ما يستحقون من الجزاء.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[2] أنه لا يفوته من شأن عباده شيء، وأنه يأخذ كل مذنب بذنبه.. أردف ذلك بذكر شأن من شؤون الإنسان، وبين أنه لا يهتم

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

إلا بأمور الدنيا وشهواتها، فإذا أنعم الله عليه وأوسع له في الرزق.. ظن أنه قد اصطفاه ورفعه علىٰ من سواه، وجنبه منازل العقوبة، فيذهب مع هواه ويفعل ما يشتهي، ولا يبالي أكان ما يصنع خيراً أو شراً، فيطغىٰ ويفسد في الأرض، وإذا ضيق عليه الرزق وقد يكون ذلك لتمحيص قلبه بالإخلاص، أو لتظهر قوة صبره، فإن الفقر لا يزيد ذوي العزائم إلا شكراً يقول: ربي قد أهانني، ومن أهانه الله وصغرت قيمته لديه.. لم يكن له عناية بعمله، فكيف يؤاخذه بما يصدر منه من شر، أو يكافئه علىٰ ما يصنع من خير، فلا شكره يكافأ بإحسان، ولا كفره يجازى بعقوبة، فينطلق بكسب عيشه بأي وسيلة عنت له، ولا تحجزه شريعة، ولا يقف أمامه قانون، ويسلك سبيل الجبان، ويبخس الحقوق، ويفسد نظم المجتمع، ولا تزال أحوال الناس هكذا، كما وصف الله تعالى، فأرباب السلطان يظنون أنهم في أمن من عقاب ربهم، ولا يذكرونه إلا بألسنتهم، ولا يعرف له سلطان علىٰ قلوبهم، والفقراء الأذلاء صغرت نفوسهم عند أنفسهم، لا يبالون ماذا يفعلون.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالىٰ لما بين خطأ[1] الإنسان فيما يعتقد إذا بسط له الرزق أو قتر عليه.. أردف ذلك بزجرهم عما يرتكبون من المنكرات، وأبان لهم أنه لو كان غنيهم لم يعمه الطغيان، وفقيرهم لم يطمس بصيرته الهوان، وكانوا علىٰ الحال التي يرتقي إليها الإنسان، لشعرت نفوسهم بما عسىٰ يقع فيه اليتيم من بؤس، فعنوا بإكرامه، فإن الذي يفقد أباه معرض لفساد طبيعته إذا أهملت تربيته، ولم يهتم بما فيه العناية به ورفع منزلته، ولو كانوا علىٰ ما تحدثهم به أنفسهم من الصلاح.. لوجدوا الشفقة تحرك قلوبهم إلىٰ التعاون علىٰ طعام المسكين الذي لا يجد ما يقتات به مع العجز عن تحصيله، إلى أنهم يأكلون المال الذي يتركه من يتوفىٰ منهم، ويشتدون في أكله حتى يحرموا صاحب الحق حقه، ويزداد حبهم للمال إلى غير غاية.

وصفوة القول: أن شرههم في المال، وقرمهم إلىٰ اللذات، وانصرامهم إلى التمتع بها، ثم قسوة قلوبهم إلى أن لا يألموا إلى ما تجر إليه الاستهانة بشؤون

---

(١) المراغي.

اليتامىٰ من فساد أخلاقهم، وتعطيل قواهم، وانتشار العدوىٰ منهم إلى معاشريهم، فينتشر الداء في جسم الأمة دليل علىٰ أن ما يزعمون من اعتقادهم بإله يأمرهم وينهاهم، وأن لهم ديناً يعظهم زعم باطل، وإذا غشوا أنفسهم، وادعوا أنهم يتذكرون الزواجر، ويراعون الأوامر، فذلك مقال تكذبه الفعال.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا. . .﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أنكر عليهم أقوالهم، وادعاءهم أن الغنىٰ إكرام لهم، وأن الفقر إهانة لهم، ونعىٰ عليهم أفعالهم من حرصهم علىٰ الدنيا، واستفراغ الجهد في تحصيلها؛ وتكالبهم علىٰ جمعها من حلال وحرام. . أردفه[1] ببيان أن ما يزعمونه من أنهم لربهم ذاكرون، مع فراغ قلوبهم من الرأفة بالضعفاء، وامتلائها بحب المال، والميل إلىٰ الشهوات، زعم لا حقيقة له، وإنما يتذكرون ربهم في ذلك اليوم العظيم حين يشهدون الهول، ويعوزهم الحول، ويظهر لهم مكانهم من النكال والوبال، ولكن هذه الذكرىٰ قد فات أوانها، وانتهىٰ إبانها، فإن الدار دار جزاء، لا دار أعمال، فلا يبقىٰ فيها لأولئك الخاسرين، إلا الحسرة والندامة، وقول قائلهم: ﴿يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾، ويكون لهم من العذاب ما لا يقدر قدره، ومن الإهانة ما يجل عن التشبيه والتمثيل.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ . . .﴾ إلخ، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر حال الإنسان الذي خلي وطبعه فاستولى عليه جشعه وحرصه علىٰ رغباته وشهواته حتىٰ خرجت عن سلطان الحكمة والعقل، ثم ذكر عاقبة أمره في الآخرة. . أعقب هذا بذكر حال الإنسان الذي ارتقىٰ عن ذلك الطبع، وسمت نفسه إلىٰ مراتب الكمال، فاطمأن إلىٰ معرفة خالقه، واستعلىٰ برغائبه إلىٰ المطامح الروحية، ورغب عن اللذات الجسمانية، فكان في الغنى شاكراً لا يتناول إلا حقه، وفي الفقر صابراً لا يمد يده إلى ما لغيره، وبين أنه في ذلك اليوم يكون بجوار ربه، راضياً بعمله في الدنيا، مرضياً عنده، يدخله في زمرة الصالحين المكرمين من عباده.

---

(١) المراغي.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١﴾؛ أي: أقسمت بالفجر، وهو: صبح النهار، أقسم الله به لحصول انتشار الناس وسائر الحيوانات به في طلب الرزق، فهو مشاكل لنشور الموتىٰ من قبورهم، وفيه عبرة لمن تأمل، وجواب هذا[1] القسم وما بعده هو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ كذا قال ابن الأنباري، وقيل: محذوف لدلالة السياق عليه؛ أي: ليجازين كل أحد بما عمل أو ليعذبن. قال في «كشف الأسرار»: لما كان العرب أكثر خلق الله قسماً في كلامهم.. جاء القرآن علىٰ عادتهم في القسم، والفجر فجران: مستطيل: كذنب السرحان، وهو الكاذب، ولا يتعلق به حكم، ومستطير: وهو الصادق الذي يتعلق به الصوم والصلاة.

أقسم[2] الله سبحانه بالفجر الذي هو أول وقت ظهور ضوء الشمس في جانب المشرق، كما أقسم بالصبح؛ حيث قال: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾ لما يحصل به من انقضاء الليل بظهور الضوء، وانتشار الناس وسائر الحيوانات من الطيور والوحوش في طلب الأرزق، وذلك مشاكل لنشور الموتىٰ، وفيه عبرة عظيمة لمن تأمل.

واختلف[3] في الفجر الذي أقسم الله به هنا، فقيل: هو الوقت المعروف من كل يوم، لا فجر يوم مخصوص، وسمي فجراً؛ لأنه وقت انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم، وقال قتادة: إنه فجر أول يوم من شهر محرم؛ لأن منه تتفجر السنة، وقال مجاهد: يريد فجر يوم النحر؛ لأنه يوم عظيم يقع فيه الطواف المفروض والحلق والرمي، ويروى: أن يوم النحر يوم الحج الأكبر، وقال الضحاك: فجر عشر ذي الحجة، لأن الله قرن الأيام به، فقال: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾؛ أي: ليال عشر من ذي الحجة، وبه قال السدي والكلبي، وقيل: فجر يوم عرفة؛ لأنه يوم شريف أيضاً، يتوجه فيه الحجاج إلىٰ جبل عرفات، وفي الحديث: «الحج عرفة»، وقيل: المعنى: أقسم بصلاة الفجر، قيل: أقسم برب الفجر، والأول أولىٰ، وهو[4] الظاهر، وقول الجمهور منهم علي وابن عباس وابن الزبير.

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

(٤) البحر المحيط.

وقرأ أبو الدينار الأعرابي: ﴿والفجرٍ﴾ و ﴿والوترٍ﴾ و ﴿يسرٍ﴾ بالتنوين في الثلاثة، قال ابن خالويه: هذا كما روي عن بعض العرب أنه وقف على آخر القوافي بالتنوين، وإن كان فعلاً أو كان فيه ألف ولام، قال الشاعر:

أَقِلِّي اللَّوْمَ عَاذِلَ وَالْعِتَابَن ... وَقُولِي إِنْ أَصَبْتُ لَقَدْ أَصَابَن

انتهىٰ.

وهذا ذكره النحويون في القوافي المطلقة إذا لم يترنم الشاعر، وهو أحد الوجهين اللذين للعرب إذا وقفوا على الكلم في الكلام لا في الشعر، وهذا الأعرابي أجرىٰ الفواصل مجرىٰ القوافي، وقوله: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ قسم ثانٍ معطوف علىٰ الأول؛ أي: أقسم بليال عشر من أول شهر ذي الحجة، وهذا ما عليه جمهور المفسرين، وتنكيرها[1] للتعظيم لأنها مخصوصة بفضائل ليست لغيرها، ولذا أقسم الله بها، وذلك كالاشتغال بأعمال الحج، وقال الضحاك: إنها العشر الأواخر من رمضان، ويكفيها شرفاً كون ليلة القدر فيها التي هي خير من ألف شهر، وقيل: العشر الأول من المحرم إلىٰ عاشرها يوم عاشوراء.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَيَالٍ﴾ بالتنوين و ﴿عَشْرٍ﴾ صفة لها، وقرأ ابن عباس: بالإضافة، فضبطه بعضهم ﴿وَلَيَالِ عَشْرٍ ۝٢﴾ بلام دون ياء، وبعضهم: ﴿وليالي عشر﴾ بالياء، يريد: وليالي أيام عشر، وكان حقه علىٰ هذا أن يقال: عشرة؛ لأن المعدود مذكر.. وأجيب عنه: بأنه لما حذف المعدود الموصوف، وهو مذكر.. جاز في عدده حذف التاء.

وقوله: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣﴾ قسم ثالث ورابع، معطوف أيضاً علىٰ قوله: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١﴾؛ أي: أقسم بشفع هذه الليالي العشر ووترها، فهو سبحانه أقسم بالليالي جملة، ثم أقسم بما حوته من زوج وفرد، ولكن الظاهر التعميم؛ لأن الألف واللام للاستغراق.

والمعنىٰ عليه: أي أقسم بالأشياء كلها شفعها ووترها؛ لأن كل شيء لا بد أن يكون شفعاً أو وتراً، وقال قتادة: الشفع والوتر: شفع الصلاة ووترها، منها: شفع

---

(١) روح البيان.

كالرباعية، ومنها: وتر كالثلاثية، وقيل: الشفع يوم عرفة، ويوم النحر، والوتر: ليلة يوم النحر، وقال مجاهد وعطية العوفي: الشفع الخلق، والوتر: الله الواحد الصمد، وبه قال محمد بن سيرين ومسروق وأبو صالح وقتادة أيضاً، وقال الربيع بن أنس وأبو العالية هما: صلاة المغرب، فيها شفع ركعتان، والوتر: الركعة، وقال الضحاك: الشفع: عشر ذي الحجة، والوتر أيام منىٰ الثلاثة، وبه قال عطاء، وقيل: هما آدم وحواء؛ لأن آدم كان وتراً، فشفع بحواء، وقيل: الشفع درجات الجنة، وهي ثمان، والوتر دركات النار، وهي سبع، وقيل: الشفع: تضاد أوصاف المخلوقين من العز والذل والقدرة والعجز والقوة والضعف والعلم والجهل والحياة والموت والبصر والعمى والسمع والصمم والكلام والخرس، والوتر: انفراد صفات الله سبحانه، وهي عز بلا ذل، وقدرة بلا عجز، وقوة بلا ضعف، وعلم بلا جهل، وحياة بلا موت، وبصر بلا عمىٰ، وكلام بلا خرس، وسمع بلا صمم، وما وراءها عن «تفسير القرطبي» رحمه الله تعالى، وقيل: الشفع: الحيوان؛ لأنه ذكر وأنثىٰ، والوتر: الجماد، وقيل غير ذلك من الأقوال المتلاطمة، ولا يخفىٰ عليك ما في غالب هذه الأقوال من السقوط البين، والضعف الظاهر، والاتكال في التعيين علىٰ مجرد الرأي الزائف، والخاطر الخاطىء.

والذي ينبغي التعويل عليه، ويتعين المصير إليه، ما يدل عليه معنىٰ الشفع والوتر في كلام العرب، وهما معروفان واضحان، فالشفع عند العرب: الزوج، والوتر: الفرد، فالمراد من الآية: إما نفس العدد وما يصدق عليه من المعدودات بأنه شفع أو وتر، وإذا قام دليل علىٰ تعيين شيء من المعدودات في تفسير هذه الآية.. فإن كان الدليل يدل علىٰ أنه المراد نفسه دون غيره.. فذاك، وإن كان الدليل يدل علىٰ أنه مما تناولته هذه الآية.. لم يكن ذلك مانعاً من تناولها لغيره، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم بأسرار كلامه، وبما هو المراد من كتابه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَٱلْوَتْرِ﴾ بفتح الواو وسكون التاء، وهي لغة قريش ومن والاها، وقرأ الأغر عن ابن عباس وأبو رجاء وابن وثاب وقتادة وطلحة والأعمش والحسن ـ بخلاف عنه ـ والأخوان حمزة والكسائي وخلف: بكسر الواو وسكون

(١) البحر المحيط.

التاء، وهي لغة تميم، وهي قراءة ابن مسعود وأصحابه، وحكىٰ الأصمعي فيه اللغتين، وحكىٰ يونس عن أبي عمرو وابن كثير: بفتح الواو وكسر التاء، فيحتمل أن تكون لغة ثالثة، ويحتمل أنه نقل كسرة الراء إلىٰ التاء إجراءً للوصل مجرىٰ الوقف.

وقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾ أي: وأقسمت بجنس الليل ﴿إِذَا يَسۡرِ﴾؛ أي: يمضي ويذهب، قسم خامس معطوف علىٰ ما قبله، وهو نظير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾﴾، وقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: أقسمت بجنس الليل وقت ذهابه ومضيه بإقبال النهار ومجيئه، والتقييد به لما فيه من وضوح الدلالة على كمال القدرة، ووفور النعمة، كأن جميع الحيوانات أعيد إليهم الحياة بعد الموت، وتسببوا بذلك لطلب الأرزاق المعدة للحياة الدنيوية التي يتوصل بها إلىٰ سعادة الدارين.

فإن قلت[1]: القسم بـ ﴿الليل إذا يسر﴾ عام يغني عن القسم بـ ﴿ليال عشر﴾، فلم ذكرها أولاً؟.

قلت: المقسم به في قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴿٤﴾﴾ هو ﴿الليل﴾ باعتبار سيره ومضيه، وفي قوله: ﴿وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ﴿٢﴾﴾ هو الليالي بلا اعتبار مضيها وذهابها، بل باعتبار خصوصية أخرى، فلا يغن أحدهما عن الآخر، وبهذا المعنىٰ قال الجمهور، وقال قتادة وأبو العالية في معنىٰ: ﴿إِذَا يَسۡرِ﴾: إذا جاء وأقبل، وقيل: معنىٰ ﴿إِذَا يَسۡرِ﴾: إذا يسري فيه الساري، ويسير فيه السائر، فإسناد السرىٰ إلى الليل مجاز، كما في قولهم: نهاره صائم؛ أي: هو صائم في نهاره، وليله نائم؛ أي: نائم في ليله، كما في قول الشاعر:

لَقَدْ لُمْتِنَا يَا أُمَّ غَيْلَانَ فِيْ ٱلسُّرَىٰ ... وَنِمْتِ وَمَا لَيْلُ ٱلْمَطِيِّ بِنَائِمِ

ومنه قوله تعالى: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، وبهذا المعنىٰ قال الأخفش والقتيبي وغيرهما، فالتقييد بذلك؛ لأن المسير في الليل حافظ للسائر من حر الشمس، فإن السفر مع مقاساة حر النهار أشد علىٰ النفس، وقد قال النبي ﷺ: «عليكم بالدلجة، فإن الأرض تطوىٰ في الليل»، وكذا هو حافظ من شر قطاع الطريق غالباً؛ لأنهم مشغولون بالنوم في الليل، وقال عكرمة وغيره: والمراد بالليل

---

(١) روح البيان.

هنا: هي ليلة المزدلفة خاصة؛ لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله تعالى، وقيل: ليلة القدر لسراية الرحمة فيها، واختصاصها بزيادة الثواب فيها، وقيل: إنه سبحانه أراد عموم الليل كله، وهو الظاهر الأظهر، كما مر.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَسْرِ﴾ بحذف الياء وصلاً ووقفاً اتباعاً لرسم المصحف، وقرأ ابن كثير وابن محيصن ويعقوب: بإثباتها وصلاً ووقفاً، وقرأ نافع وأبو عمرو: بحذفها في الوقف وإثباتها في الوصل، قال الخليل: تسقط الياء منها موافقة لرؤوس الآي، قال الزجاج: والحذف أحب إليَّ؛ لأنها فاصلة، والفواصل تحذف منها الياءات، وقال الفراء: قد تحذف العرب الياء، وتكتفي بكسر ما قبلها، وأنشد بعضهم:

كَفَّاكَ كَفٌّ مَا تَلِيقُ دِرْهَمَاً ... جُوْدَاً وَأُخْرَىٰ تُعْطِ بِٱلسَّيْفِ دَمَا

ما تليق؛ أي: ما تمسك.

والحاصل: أن الياء حذفت[2] هنا اكتفاء بالكسر، ولسقوطها في خط المصحف، ولموافقة رؤوس الآي، وإن كان الأصل إثباتها؛ لأنها لام فعل مضارع مرفوع، والسرىٰ: سير الليل، يقال: سرى يسري سرىً ومسرىً، إذا سار عامة الليل، والمراد هنا: ذهاب الليل أو إقباله، أو سير الساري فيه.

واعلم: أن نعمة[3] الله علىٰ عباده بتعاقب الليل والنهار، واختلاف مقاديرها بحسب الأزمنة والفصول مما لا يجحدها إلا مكابر، لا جرم أقسم ربنا بهما تنبيهاً علىٰ أن تعاقبهما بتدبير مدبر حكيم، عالم بما في ذلك من المصلحة لعباده.

انظر إلىٰ ما في إقبال الصبح من عميم النفع، فإنك لترىٰ أنه يفرج كربة الليل، وينبه إلىٰ استقبال العمل، وكذلك تدرك ما في الليالي المقمرة من فائدة، فهي تستميل النفس إلى النقلة، وتيسر للناس النجعة، وبخاصة في أيام الحر الشديد في بلاد كبلاد العرب، وكذا تعرف ما في الظلام من منفعة، فإن فيه تهدأ النفوس، وتسكن الخواطر، وتستقر الجنوب في مضاجعها لتستريح من عناء العمل، وتستعين

---

(١) البحر المحيط والشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

بالنوم علىٰ إعادة القوىٰ، وتختفي الناس من مطاردة اللصوص، ولله در المتنبي حيث قال:

وَكَمْ لِظَلَامِ ٱللَّيْلِ عِنْدَكَ مِنْ يَدٍ   تُخَبِّرُ أَنَّ ٱلْمَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ

ثم قرر سبحانه فخامة الأشياء التي أقسم بها قبل، وكونها أهلاً لأن تعظم، فقال: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ﴾ إلخ، وهذا تقرير[1] وتحقيق لفخامة شأن المقسم بها، وكونها أموراً جليلةً حقيقةً بالإعظام والإجلال عند أرباب العقول، وتنبيه علىٰ أن الإقسام بها أمر معتد به، خليق بأن يؤكد به الأخبار علىٰ طريقة قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾، كما يقول من ذكر حجة باهرة: هل فيما ذكرته حجة.

والمعنىٰ: هل فيما ذكر من الأشياء المقسم بها، فالإشارة بذلك إلىٰ تلك الأمور، والتذكير فيه بتأويله بالمذكور؛ أي: في ذلك المذكور من الأمور التي أقسمنا بها ﴿قَسَمٌ﴾؛ أي: مقسم به حقيق بأن تؤكد به الأخبار، وفي «فتح الرحمن»: مقنع ومكتفى ﴿لِّذِى حِجْرٍ﴾؛ أي: لذي عقل ولب منور بنور المعرفة والحقيقة، يراه حقيقاً بأن يقسم به إجلالاً وتعظيماً، والمراد: تحقيق أن الكل كذلك، وإنما أوثرت هذه الطريقة هضماً للخلق، وإيذاناً بظهور الأمر، أو المعنىٰ: هل[2] في الإقسام بتلك الأمور المذكورة إقسام لذي حجر مقبول عنده، يعتد به، ويفعل مثله، ويؤكد به المقسم عليه. والحجر ـ بكسر الحاء وسكون الجيم ـ: العقل: سمي به؛ لأنه يحجر صاحبه؛ أي: يمنعه من التهافت فيما لا ينبغي، كما سمي عقلاً ونهيةً بضم النون؛ لأنه يعقل وينهىٰ، وحصاةً أيضاً من الإحصاء، وهو الضبط، قال الفراء: يقال: إنه لذو حجر إذا كان قاهراً لنفسه، ضابطاً لها، مضيقاً عليه، والتنوين في الحجر للتعظيم، قال بعض الحكماء: العقل للقلب بمنزلة الروح للجسد، فكل قلب لا عقل له، فهو ميت بمنزلة قلب البهائم، والمراد: أن من[3] كان ذا لب وعقل، يفطن إلىٰ أن في القسم بهذه المخلوقات المشتملة علىٰ باهر الحكمة، وعجيب

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

الصنعة، الدالة علىٰ وحدانية صاحبها مقنعاً أيما مقنع، وكفاية أعظم كفاية، وجاء الكلام بصورة الاستفهام لتأكيد المقسم عليه، وتقريره، كما تقول لمن يحاجك في أمر، ثم تقيم له الحجة الناصعة التي تثبت ما تدعِ: هل فيما ذكرت لك كفاية؟ ومرادك: أني قد ذكرت لك أقوى الحجج وأبينها، فلَست تستطيع جحد ما قلت بعد هذا.

وجواب القسم بهذه الأمور الخمسة المذكورة محذوفة كما مر، يدل عليه قوله بعد ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ الآية، ويقدر بنحو قوله: «إن ناصية المكذبين بيدي، ولئن أمهلتهم.. فلن أهملهم، ولآخذنهم أخذ الأمم قبلهم» وقد ترك ذكره لتسترسل نفس القارىء في تأمل ما مضىٰ وما يتبع؛ ليجد الجواب بينها، فيتمكن المعنىٰ لديه فضل تمكن.

ثم ذكر سبحانه علىٰ طريقة الاستشهاد ما وقع من عذابه على بعض طوائف الكفار بسبب كفرهم وعنادهم وتكذيبهم للرسل تحذيراً للكفار في عصر نبينا ﷺ، وتخويفاً لهم أن يصيبهم مثل ما أصابهم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ الهمزة فيه للإنكار، وهو في قوة النفي، ونفي النفي إثبات، فيكون الاستفهام تقريرياً بعد أن كان إنكارياً؛ أي: ألم تعلم يا محمد علماً يقينياً جارياً مجرىٰ الرؤية في الجلاء والوضوح؛ أي: قد علمت بإعلام الله تعالىٰ لك وبالتواتر أيضاً، كيف عذب ربك عاداً ونظائرهم، فسيعذب كفار قومك لاشتراكهم فيما يوجبه من الكفر والمعاصي، والمراد بعاد: أولاد عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، قوم هود عليه السلام، سموا باسم أبيهم، كما سمي بنو هاشم هاشماً، وبنو تميم تميماً، فلفظ عاد: اسم للقبيلة المنتسبة إلى عاد، وقد قيل لأوائلهم: عاد الأولىٰ، ولأواخرهم: عاد الأخيرة. قال عماد الدين بن كثير: كل ما ورد في القرآن خبر عاد الأولىٰ إلا ما في سورة الأحقاف. انتهى.

﴿إِرَمَ﴾: عطف[1] بيان لـ ﴿عاد﴾ للإيذان بأنهم عاد الأولىٰ بتقدير مضاف؛ أي: سبط إرم، أو أهل إرم علىٰ ما قيل من أن إرم اسم بلدتهم، أو أرضهم التي كانوا فيها، وكانت منازلهم بين عمان إلىٰ حضرموت، وهي بلاد الرمال والأحقاف،

---

(١) روح البيان.

ويؤيده القراءة بالإضافة، وأياً ما كان، فامتناع صرفها للتعريف والتأنيث. وفي «المفردات»: الآرام: أعلام تبنىٰ من الحجارة، و ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾: إشارة إلىٰ أعلامها المرفوعة المزخرفة علىٰ هيئة المنارة، أو علىٰ هيئة القبور، وفيه أيضاً حذف مضاف بمعنىٰ أهل الأعلام ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ صفة لـ ﴿إِرَمَ﴾، واللام للجنس الشامل للقليل والكثير، والعماد كالعامود، والجمع: عَمَد بفتحتين، وعُمُد ـ بضمتين ـ: أي: ذات القدود الطوال علىٰ تشبيه قاماتهم بالأعمدة، أو ذات الخيام والأعمدة؛ حيث كانوا بدويين أهل عمد يطلبون الكلأ حيث كان، فإذا هاجت الريح ويبس العشب.. رجعوا إلىٰ منازلهم، أو ذات البناء الرفيع، وكانوا ذوي أبنية مرفوعة علىٰ العمد، وكانوا يعالجون الأعمدة، فينصبونها ويبنون فوقها القصور، وكانت قصورهم ترىٰ من أرض بعيدة، أو ذات الأساطين؛ إذ كانت مدينتهم ذات أبنية مرفوعة علىٰ الأسطوانات علىٰ أن إرم اسم بلدتهم.

وقال السهيلي رحمه الله تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ وهو جيرون بن سعد بن إرم، وهو الذي بنىٰ مدينة دمشق علىٰ عمد من رخام، ذكر أنه أدخل فيها أربع مئة ألف عمود، وأربعين ألف عماد من رخام، فالمراد: هذه العماد التي كان البناء عليها في هذه المدينة، وكانت تسمىٰ جيرون، وبه تعرف، وسميت دمشق بدمشق بن نمروذ عدو إبراهيم الخليل عليه السلام، وكان دمشق قد أسلم، وبنىٰ جامع إبراهيم في الشام. انتهى. لعل هذا الرواية أصح، فليتأمل.

﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨﴾ صفة أخرى[1] لـ ﴿إِرَمَ﴾، والضمير لها علىٰ أنها اسم القبيلة؛ أي: لم يخلق مثلهم في عظم الأجرام، والقوة في الآفاق والنواحي؛ حيث كان طول الرجل أربع مئة ذراع، وكان يأتي الصخرة العظيمة، فيحملها ويلقيها علىٰ الحي فيهلكهم، ولذا كانوا يقولون: من أشد منا قوة، ونظيرهم في الطيور: الرخ: هو طير في جزائر الصين، يكون جناحه الوحد عشرة آلاف باع، يحمل حجراً في رجله كالبيت العظيم، ويلقيه علىٰ السفينة في البحر. أو المعنى: لم يخلق مثل مدينتهم في جميع بلاد الدنيا، فالضمير لها علىٰ أنها اسم البلدة.

---

(١) روح البيان.

والمعنى[1]: أي ألم تعلم أيها المخاطب، أو يا محمد، كيف أهلك ربك عاداً الأولىٰ الذين كانوا أشد الناس أجساماً؛ وأطولهم قامة، وأرفعهم مكانةً، والذين لم يخلق في البلاد كلها مدينة كمدينتهم.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿بِعَادٍ﴾ بالتنوين مصروفاً، وقرؤوا: ﴿إِرَمَ﴾ بكسر الهمزة، وفتح الراء والميم ممنوع الصرف للتأنيث والعلمية، لأنه اسم للقبيلة، وعاد وإنْ كان اسم القبيلة فقد يلحظ فيه معنىٰ الحي، فيصرف، أو لا يلحظ، فجاء علىٰ لغة من صرف هنداً، و ﴿إِرَمَ﴾: عطف بيان أو بدل منه، وقرأ الحسن وأبو العالية: بإضافة عاد إلى ﴿إرم﴾، وقرأ الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك: ﴿أرم﴾ بفتح الهمزة والراء، وقرأ ابن الزبير: ﴿بعاد﴾ بالإضافة ﴿أرم﴾ بفتح الهمزة، وكسر الراء، وهي لغة في المدينة، وقرأ الضحاك: ﴿بِعَادٍ﴾ مصروفاً، و ﴿بعاد﴾ غير مصروف أيضاً ﴿أرم﴾ بفتح الهمزة وسكون الراء تخفيف ﴿أرم﴾ بكسر الراء، وعن ابن عباس: ﴿أرم﴾: فعلاً ماضياً. ﴿ذاتَ العمادِ﴾ بنصب التاء علىٰ المفعول به.

والمعنىٰ: جعل الله ذات العماد رميماً، ويكون أرم بدلاً من ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾، يقال: رم العظم إذا بلي، وأرم هو: أي: بلي، وأرمه غيره معدىٰ بالهمزة من: رم الثلاثي، وقرأ أبي: ﴿التي لم يخلق مثلهم في البلاد﴾، وقرأ ابن الزبير: ﴿لم يخلق مثلها﴾ بالبناء للفاعل: أي: لم يخلق الله سبحانه مثل إرم، وقرأ الجمهور: ﴿لَمْ يُخْلَقْ﴾ بالبناء للمفعول، و ﴿مثلُها﴾ بالرفع، وروي عن ابن الزبير: ﴿نخلق﴾ بالنون.

ثم عطف سبحانه القبيلة الآخرة، وهي: ثمود علىٰ قبيلة عاد، فقال: ﴿وَثَمُودَ﴾ عطف علىٰ ﴿عاد﴾ قبيلة مشهورة سموا باسم جدهم ثمود أخي جديس، وهما ابنا عامر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام. وكانوا عرباً من العاربة، يسكنون الحجر بين الحجاز وتبوك، وكانوا يعبدون الأصنام كعاد، وهم قوم صالح عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾.

﴿الَّذِينَ جَابُوا﴾؛ أي: خرقوا وقطعوا ﴿الصَّخْرَ﴾؛ أي: الصخور والأحجار الكبار، ونحتوها وبنوها بيوتاً ﴿بِالْوَادِ﴾؛ أي: في وادي القرىٰ بالقرب من المدينة

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط والشوكاني.

المنورة من جهة الشام، والجوب: القطع، تقول: جبت القميص إذا قطعته، ومنه سمي: الجيب. والصخر: هو الحجر الصلب الشديد، والواد: أصله[1]: الوادي، حذفت ياؤه اكتفاءً بالكسرة، ورعايةً لرؤوس الآي، وأصل الوادي: الموضع الذي يسيل فيه الماء، ومنه سمي المنفرج بين الجبلين وادياً، والمراد هنا: هو وادي أم القرىٰ بالقرب من المدينة الشريفة من جهة الشام، قال أبو نضرة: أتىٰ رسول الله ﷺ في غزوة تبوك علىٰ وادي ثمود، وهو علىٰ فرس أشقر، فقال: «أسرعوا السير، فإنكم في واد ملعون».

والمعنىٰ: قطعوا صخر الجبال وخرقوها، فاتخذوا فيها بيوتاً نحتوها من الصخر، كما قال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾، قيل: إنهم أول من نحت الجبال والصخور والرخام، وقد بنوا ألفاً وسبع مئة مدينة، كلها من الحجارة.

وقرأ ابن وثاب[2]: ﴿وثمودٍ﴾ بالتنوين علىٰ أنه اسم لأبي القبيلة، والجمهور: بمنع الصرف علىٰ أنه اسم للقبيلة، وقيل: جابوا واديهم، وجلبوا ماءهم في صخر شقوه، فعل ذي القوة والآمال.

وقرأ الجمهور: ﴿بِٱلْوَادِ﴾ بحذف الياء وصلاً ووقفاً اتباعاً لرسم المصحف، وقرأ ابن كثير: بإثباتها فيهما، وقرأ قنبل في رواية عنه: بإثباتها في الوصل دون الوقف.

والخلاصة[3]: أي وألم تر يا محمد أو أيها المخاطب، كيف فعل رب بثمود، الذين قطعوا الصخر ونحتوه، وبنوا منه القصور والأبنية العظيمة، كما قال في آية أخرى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾، وفي هذا دليل علىٰ ما أنعم الله به عليهم من القوة والعقل وحسن التدبير، فإنهم كانوا ينحتون الجبال وينقبونها، ويجعلون تلك الأنقاب بيوتاً يسكنون فيها، وقوله: ﴿بِٱلْوَادِ﴾ متعلق بـ ﴿جَابُوا۟﴾ أو بمحذوف علىٰ أنه حال من الصخر.

وقوله: ﴿وَفِرْعَوْنَ﴾ معطوف على ﴿عاد﴾ أيضاً؛ أي: وألم تر كيف فعل

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

ربك بفرعون ﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾؛ أي: ذي[1] الجنود الذين لهم خيام كثيرة يشدونها بالأوتاد، أو جعل الجنود أنفسهم أوتاداً؛ لأنهم يشدون الملك كما تشهد الأوتاد الخيام، وقيل: كان له أوتاد يعذب الناس بها، ويشدهم إليها، والمراد بفرعون: فرعون موسىٰ عليه السلام، اسمه: الوليد بن مصعب بن ريان بن ثروان أبو العباس القبطي، وإليه تنسب الأقداح العباسية، وفرعون: لقب أفرده تعالىٰ بالذكر لانفراده في التكبر والعلو، حتىٰ ادعى الربوبية والألوهية، والأوتاد: جمع وتد بفتحتين وبكسر التاء أيضاً، وصف بذلك لكثرة جنوده وخيامهم التي يضربونها في منازلهم، ويربطونها بالأوتاد والأطناب.

ثم وصف من سبق ذكرهم بأقبح الأوصاف، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟﴾، وتجبروا ﴿فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾؛ أي: في بلادهم صفة للمذكورين من الطوائف، وهو أحسن من حيث اللفظ؛ إذ لا حذف فيه، واختار صاحب «الكشاف»: كونه منصوباً علىٰ الذم بتقدير: أذم، لكونه صريحاً في الذم، والمقام مقام الذم، وهو أحسن من حيث المعنىٰ ويجوز جعله خبراً لمبتدأ محذوف، أي: هم الذين طغوا.

والمعنىٰ: طغىٰ كل طائفة منهم في بلادهم، وتجاوزا الحد، يعني: طغىٰ عاد في اليمن، وثمود بأرض الشام، والقبط بمصر، كما أن نمروذ طغىٰ بالسواد، وقس علىٰ هذا سائرهم.

﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا﴾؛ أي: في البلاد ﴿ٱلْفَسَادَ﴾؛ أي: بالكفر وسائر المعاصي، فإن الفساد يتناول جميع أقسام الإثم، كما أن الصلاح يتناول جميع أقسام البر، فمن عمل بغير أمر الله، وحكم في عباده بالظلم، فهو مفسد متجاوز عن الحد الذي حد له، وفيه تخويف شديد لأكثر حكام الزمان ونحوهم. ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ﴾ صبُّ الماء: إراقته من أعلىٰ، أي: أنزل ربك عليهم إنزالاً شديداً علىٰ كل طائفة من أولئك الطوائف عقيب ما فعلت من الطغيان والفساد، وأفرغ عليهم ﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾؛ أي: أشد عذاب لا تدرك غايته، وهو عبارة عما حل بكل طائفة منهم من فنون العذاب التي شرحت في سائر السور الكريمة، وهي: الريح لعاد، والصيحة لثمود، والغرق للقبط، وتسميته[2] سوطاً: للإشارة إلىٰ أن ذلك بالنسبة إلىٰ ما أعد لهم في

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

الآخرة بمنزلة السوط عند السيف، والسوط: الجلد المضفور، أي: المنسوج المفتول الذي يضرب به، قال أبو حيان: استعير السوط للعذاب؛ لأنه يقتضي من التكرار والترداد ما لا يقتضيه السيف ولا غيره، والتعبير[1] عن إنزاله بالصب: للإيذان بكثرته واستمراره وتتابعه، فإنه عبارة عن إراقة شيء مائع أو جار مجراه في السيلان، كالرمل والحبوب، وإفراغه بشدة وكثرة واستمرار، ونسبته إلىٰ السوط مع أنه ليس من ذلك القبيل باعتبار تشبيهه في نزوله المتتابع المتدارك، على المضروب بقطرات الشيء المصبوب.

فإن قلت: أليس أن الله تعالىٰ قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾، وهو يقتضي تأخير العذاب إلىٰ الآخرة، فبين الآيتين معارضة، فكيف الجمع بينها؟.

قلت: إنه يقتضي تأخير تمام الجزاء إلىٰ الآخرة، وذلك لا ينافي أن يعجل شيء من ذلك في الدنيا، فإن الواقع في الدنيا شيء من الجزاء ومقدماته، كذا في «حواشي ابن الشيخ».

يقول الفقير: وأوجه من ذلك: أن المفهوم من الآية المؤاخذة لكل الناس، وهو لا ينافي أن يؤاخذ بعضهم في الدنيا بعذاب الاستئصال كبعض الأمم السالفة المكذبة، قال الشاعر:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَظْهَرَ دِيْنَهُ ... وَصَبَّ عَلَىٰ ٱلْكُفَّارِ سَوْطَ عَذَابِ

وحاصل معنى الآيات: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾﴾ إلخ؛ أي: إن[2] هؤلاء الذين سلف ذكرهم من عاد وثمود وفرعون قد استعملوا سلطانهم وقوتهم في هضم حقوق الناس، واغتروا بعظيم قدرتهم، فكان سبباً في إفساد البلاد، ذاك أن من اغتر بنفسه، وتهاون بحقوق غيره، واعتدى عليها، وأخذ ما ليس له، ولم يعط الذي عليه.. يكون قد فكك شمل الجماعة، وأفسد في البلاد، فيختل نظام العمران، ويقف دولاب التعامل، ويوجس كل امرىء خيفةً من بني جلدته، ولا شك أن أمماً هذه حالها تكون عاقبتها الخراب والدمار، ومن ثَمَّ ذكر عاقبة أمرها، فقال ﴿فَصَبَّ

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

﴿عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾؛ أي: فأنزل الله تعالى بهم ألواناً من البلاء، وشديد العذاب، وقد شبه سبحانه ما أوقعه بهم من صنوف العذاب، وما صبه عليهم من ضروب الهلاك بالسوط من قبل أن السوط يضرب به في العقوبات والله يوقع العذاب بالأمم عقوبةً لها علىٰ ما يقع منها من أنواع التفريط في أوامر دينه.

ثم ذكر العلة في تعذيبه لهم، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾، والجملة[1] تعليل لما قبلها، وفيها إيذان بأن كفار قومه ﷺ سيصيبهم مثل ما أصاب المذكورين من العذاب، كما ينبىء عنه التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلىٰ ضميره ﷺ، والمرصاد[2]: المكان الذي يترقب فيه الراصدون، مفعال من: رصده، كالميقات من وقته، والباء للظرفية؛ أي: إنه لفي المكان الذي تترقب فيه السابلة، ويجوز أن يكون صيغة مبالغة، كالمطعان، والباء تجريدية، وهذا تمثيل لإرصاده تعالىٰ بالعصاة، وأنهم لا يفوتونه، شبه حاله تعالىٰ في كونه حفيظاً لأعمال عباده مجازياً عليها علىٰ النقير والقطمير، ولا محيد للعباد عن أن يكون مصيرهم إلىٰ الله تعالى، بحال من قعد علىٰ طريق السابلة يترصدهم ليظفر بالجاني، أو لأخذ المكس، أو نحو ذلك، ولا مخلص لهم من العبور إلىٰ ذلك الطريق، ثم استعمل هنا ما كان مستعملاً هناك، كما سيأتي في مبحث البلاغة، ويقال: يعني أن ملائكة ربك علىٰ الصراط يترصدون علىٰ جسر جهنم في سبعة مواضع، فيسأل في أولها عن الإيمان، فإن سلم من النفاق والرياء نجا، وإلا تردىٰ في النار، وفي الثاني عن الصلاة، فإن أتم ركوعها وسجودها وسائر أركانها وأقامها في مواقيتها نجا، وإلا تردىٰ في النار، وفي الثالث عن الزكاة، وفي الرابع عن صوم شهر رمضان، وفي الخامس عن الحج والعمرة، وفي السادس عن الوضوء والغسل من الجنابة، وفي السابع عن بر الوالدين وصلة الرحم، فإن خرج منها.. قيل له: انطلق إلىٰ الجنة، وإلا وقع في النار، والله أعلم.

والمعنى[3]: أي إن شأن ربك أن لا يفوته من شؤون عباده نقير ولا قطمير، ولا يهمل أمةً تعدت في أعمالها حدود شرائعه القويمة، بل يأخذها بذنوبها أخذ

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

العزيز المقتدر، كما يأخذ الراصد القائم علىٰ الطريق من يمر به بما يريد من خير أو شر، لا يفرط فيما رصد له.

وقد أجمل الله سبحانه في هذه الآيات ما أوقعه بهذه الأمم من العذاب، وفصله في غير موضع من كتابه الكريم، فقال في سورة الحاقة: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾﴾ إلىٰ آخر ما هنالك، وقال: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾، والحكمة في تكرار القصص في القرآن الكريم، وفي ذكر بعضها علىٰ طريق الإشارة في بعض المواضع، وبالتفصيل في بعض آخر أنه قد يكون الغرض تارة إقامة الحجة علىٰ قدرته تعالى، وتوحده في ملكه وقهره لعباده حيناً، وترقيق قلوب المخاطبين حيناً آخر، وإنذار عباده، وإعذارهم مرة ثالثة، ولا شك أن كل مقام من الكلام له لون منه من بسط أو إيجاز، لا يكون لغيره، وقد عرفت أن الغرض هنا تطييب خاطر الرسول ﷺ وأصحابه بأن الله تعالى سيمهل الكافرين، ولا يهملهم، وهو تعالى ليس بغافل عنهم، وحينئذٍ تدرك أن الإشارة إلىٰ أن هذه الأمم أخذت وعذبت، ولم تترك سدىٰ، كافية جد الكفاية لمن فكر وتدبر.

ولما ذكر سبحانه أنه بالمرصاد.. ذكر ما يدل علىٰ اختلاف أحوال عباده عند إصابة الخير، وعند إصابة الشر، وأن مطمح أنظارهم، ومعظم مقاصدهم الدنيا، فقال: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ﴾، وهو مبتدأ، والخبر جملة ﴿يقول﴾ الآتي، قال السهيلي ـ رحمه الله تعالى ـ: المراد بالإنسان هنا: عتبة بن ربيعة، وكان هو السبب في نزولها فيما ذكر، وإن كانت هذه الصفة تعم، وقيل: أبي بن خلف، وقيل: أمية بن خلف، قاله مقاتل.

والكلام متصل[1] بما قبله من قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ كما أشرنا إليه آنفاً، وكأنه قيل: إنه تعالىٰ بصدد مراقبة أحوال عباده ومجازاتهم بأعمالهم خيراً أو شراً، فأما الإنسان.. فلا يهمه ذلك، وإنما مطمح نظره ومرصاد فكره الدنيا ولذائذها، والفاء: استئنافية، وقيل: فصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن ربك لبالمرصاد لأعمال عباده خيراً أو شراً ليجازيهم عليها،

---

(١) روح البيان.

وأردت بيان أحوال الإنسان، هل هو في مراقبة ربه، فيشكر علىٰ نعمه، ويصبر على نقمه، أم لا.. فأقول لك: أما الإنسان ﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ ﴿إذا﴾: ظرف مجرد عن معنىٰ الشرط، متعلق بالخبر الآتي، و ﴿مَآ﴾: زائدة؛ أي: إذا عامله ربه معاملة من يبتليه بالغنىٰ واليسار ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾ بالقوة والجاه، و ﴿الفاء﴾ فيه تفسيرية؛ لأن الإكرام والتنعيم عين الابتداء ﴿وَنَعَّمَهُۥ﴾ بالمال وسعة العيش، والفاء في قوله: ﴿فَيَقُولُ﴾ واقعة في جوبا ﴿أما﴾ الشرطية، وجملة ﴿يقول﴾: خبر المبتدأ الذي هو الإنسان، والظرف المتوسط علىٰ نية التأخير، وإنما تقديمه للإيذان من أول الأمر بأن الإكرام والتنعيم بطريق الابتلاء؛ ليتضح اختلال قوله المحكي، ﴿فَإِذَآ﴾ لمجرد الظرفية، وإن هذه الفاء لا تمنع أن يعمل ما بعدها فيما قبلها، فكأنه قيل: فأما الإنسان فيقول مفتخراً فرحاً بما نال، ومسروراً بما أعطي ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾؛ أي: فضلني بما أعطاني من الجاه والمال حسبما كنت أستحقه وقت ابتلائه بالإنعام، ولا يخطر بباله أنه محض تفضل عليه، ليبلوه أيشكر أم يكفر.

والمعنىٰ[1]: أي إن الإنسان إذا أنعم الله عليه، وأوسع له في الرزق.. زعم أن هذا الذي هو فيه من السعة إكرام من الله له، وخيل إليه الوهم أن الله لا يؤاخذه علىٰ ما يفعل، فيطغى ويفسد في الأرض.

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾؛ أي: وأما هو إذا ما ابتلاه ربه.. فيكون الواقع بعد ﴿أَمَّا﴾ في الفقرتين اسماً، فتكون الجملتان متعادلتين ﴿فَقَدَرَ﴾؛ أي: ضيق ﴿عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ حسبما تقتضيه مشيئته المبنية علىٰ الحكم البالغة، وجعله علىٰ قدر كفايته، وقوت يومه ﴿فَيَقُولُ﴾ متضجراً حزيناً: ﴿رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾؛ أي: أذلني بالفقر، ولا يخطر بباله أن ذلك ليبلوه أيصبر أم يجزع، مع أنه ليس من الإهانة في شيء، ولذا لم يقل: فأهانه فقدر عليه رزقه في مقابلة: أكرمه ونعمه، بل التقتير قد يؤدي إلى كرامة الدارين في حق الفقير الصابر، أما تأديته إلىٰ كرامة الآخرة.. فأمر ظاهر، وأما تأديته إلىٰ كرامة الدنيا، فلأنه قد يسلم به من طمع الأعداء، فيحسن فيه اعتقاد الكبراء من أهل الدنيا، فيراجعونه ويلتمسون منه الدعاء، والتوسعة قد تفضي إلىٰ خسران الدارين بالكفران، فيكون استدراجاً، قال بعضهم: ربما يكون التضييق

(١) المراغي.

إكراماً له بأن لا يشغله بالنعمة عن المنعم ويجعل ذلك وسيلةً له في التوجه إلىٰ الحق والسلوك في طريقه لعدم التعلق.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: لقد رأيت سبعين من أصحاب الصفة، ما منهم رجل عليه رداء؛ إما إزار، وإما كساء، قد ربطوه في أعناقهم، فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ نصف الركبتين، فيجمعه بيده كراهية أن ترىٰ عورته. فتأمل يا أخي هل تكون هذه إهانةً لخواص الله، فالمؤمن إما في مقام الشكر، أو في مقام الصبر، وعنه ﷺ: «الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر».

والمعنىٰ[1]: أي وإن رأىٰ الإنسان أن رزقه لا يأتي إلا بقدر.. ظن أن ذلك إهانة من الله له، وإذلال لنفسه، وهذه صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث؛ لأنه لا كرامة عنده إلا الدنيا، والتوسع في متاعها، ولا إهانة عنده إلا فوتها، وعدم وصوله إلى ما يريد من زينتها، وأما المؤمن.. فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته، ويوفقه لعمل الآخرة.

ويحتمل أن يراد بالإنسان العموم كما مر، لعدم تيقظه أن ما صار إليه من الخير، وما أصيب به من الشر في الدنيا ليس إلا للاختبار والامتحان، وأن الدنيا بأسرها لا تعدل عند الله جناح بعوضة، ولو كانت تعدل جناح بعوضة.. ما سقىٰ الكافر منها شربة ماء.

والحاصل[2]: أن الإنسان في الحالين مخطىء مرتكب أشنع وجوه الغفلة، لأن إسباغ النعمة في الدنيا على أحد لا يدل علىٰ أنه مستحق لذلك، ولو دل علىٰ هذا.. لما رأيت عاصياً موسعاً عليه في الرزق، ولا شاهدت كافراً ينعم بصنوف النعم. ولعل من حكمة الله في بسط الرزق علىٰ بعض الناس، وتضييقه علىٰ بعض آخر: أن وجدان المال سبب للانغماس في الشهوات، وأنه قاطع عن الاتصال بالله، وأن فقدانه وسيلة لتمحيص المرء وابتلائه؛ ليكون من الصابرين الذين وعدوا بالجنة، انظر إلىٰ قول النبي ﷺ فيما كان يدعو به ربه من قوله: «اللهم أحيني مسكيناً،

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين» تدرك سر ذلك إلى أن من يمتحنهم الله تعالىٰ بإسباغ النعمة عليهم يظنون أن الله قد اصطفاهم علىٰ عباده، ورفعهم فوق سائر خلقه، ثم لا يزال بهم شيطان الغواية حتىٰ يذهبوا مع أهوائهم كل مذهب، ويسيروا في طريق شهواتهم المهلكة إلىٰ أبعد غاية، لا يرجعون إلىٰ ربهم، ولا يدركون أن ما عنده خيرٌ وأبقىٰ.

وقرأ ابن كثير في رواية البزي عنه وابن محيصن ويعقوب(١): ﴿أكرمني﴾ و ﴿أهاني﴾ بإثبات الياء فيهما وصلاً ووقفاً، وقرأ نافع: بإثبات الياء فيهما وصلاً وحذفهما وقفاً، وخير في الوجهين أبو عمرو، وقرأ الباقون: بحذف الياء فيهما وصلاً ووقفاً اتباعاً لرسم المصحف، ولموافقة رؤوس الآي، والأصل: إثباتها لأنها اسم، ومن حذفها في الوقف سكن النون فيه، وقرأ الجمهور: ﴿فَقَدَرَ﴾ بتخفيف الدال، وقرأ أبو جعفر وعيسى وخالد والحسن ـ بخلاف عنه ـ وابن عامر: بتشديدها، وهما لغتان، قال الجمهور: هما بمعنى واحد بمعنىٰ: ضيق، والتضعيف فيه للمبالغة للمتعدي، وقرأ الحرميان ـ نافع وابن كثير ـ وأبو عمرو: ﴿رَبِّيَ﴾ بفتح الياء في الموضعين، وأسكنها الباقون.

تتمة: وفي «فتح الرحمن»: إن قلت: كيف ذم من يقول: ﴿رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ مع أنه صادق فيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ ومع أنه متحدِّث بالنعمة، وهو مأمور بالتحدث بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ١١﴾؟

قلت: المراد أن يقول ذلك مفتخراً به علىٰ غيره، كما أشرنا إليه في حلنا السابق، ومستدلاً به علىٰ علو منزلته في الآخرة، ومعتقداً استحقاق ذلك علىٰ ربه، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾، وكل ذلك منهي عنه مذموم، وأما إذا قاله علىٰ وجه الشكر، والتحدث بنعمة الله تعالىٰ، فليس بمذموم، بل هو ممدوح.

وقوله: ﴿كَلَّاۖ﴾ ردع للإنسان القائل في الحالتين، وزجر له عن مقالته المحكية، وتكذيب له فيها، فإن الله سبحانه وتعالىٰ قد يوسع الرزق، ويبسط النعم

---

(١) البحر المحيط والشوكاني. (٢) روح البيان.

للإنسان لا لكرامته ـ كما في الكافر والعاصي، ويضيقه عليه، لا لإهانته، كما في المؤمن المطيع ـ بل للاختبار والامتحان. قال الفراء: ﴿كَلَّا﴾ في هذا الوضع بمعنىٰ: أنه لم يكن للعبد أن يكون هكذا، ولكن يحمد الله تعالىٰ علىٰ الغنىٰ والفقر.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنىٰ: لم أبتله بالغنىٰ لكرامته عليَّ، ولم ابتله بالفقر لهوانه عليَّ، بل ذلك لمحض القضاء والقدر، بلا تعليل بالعلل.

ثم انتقل سبحانه من بيان سوء أقوال الإنسان إلىٰ بيان سوء أفعاله، فقال: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ الذي فقد أباه، بالإنفاق عليه والكسوة ونحوهما، واليتيم من بني آدم: هو الذي فقد أباه، وكان غير بالغ، ومن البهائم: هو الذي فقد أمه، وفي الحديث: «أحب البيوت إلىٰ الله بيت فيه يتيم مكرم»، والالتفات فيه إلىٰ الخطاب علىٰ قراءة الجمهور بالتاء الفوقية؛ للإيذان باقتضاء ملاحظة جنايته السابقة لمشافهته بالتوبيخ؛ تشديداً للتقريع، وتأكيداً للتشنيع، والجمع في ﴿تُكْرِمُونَ﴾ وفيما سيأتي من سائر الأفعال باعتبار معنىٰ الإنسان؛ إذ المراد به الجنس؛ أي: بل لكم أحوال أشد شراً مما ذكر، وأدل علىٰ تهالككم علىٰ المال، حيث يكرمكم الله تعالىٰ بكثرة المال، فلا تؤدون ما يلزمكم فيه من إكرام اليتيم بالنفقة والكسوة ونحوهما.

قال في «الأشباه»: استخدام اليتيم بلا أجرة حرام ولو لأخيه ومعلمه، إلا لأمه، وفيما إذا أرسله المعلم لإحضار شريكه. انتهى.

وقرأ الحسن ومجاهد وأبو رجاء وقتادة والجحدري وأبو عمرو: ﴿يكرمون﴾، و ﴿لا يحضون﴾، و ﴿يأكلون﴾، و ﴿يحبون﴾ بياء الغيبة فيها، وقرأ باقي السبعة: بتاء الخطاب في جميعها.

والمعنىٰ: أنكم تتركون إكرام اليتيم، فتأكلون ماله، وتمنعونه من فضل أموالكم، قال مقاتل: نزلت في قدامة بن مظعون، وكان يتيماً في حجر أمية بن خلف، فيدفعه عن حقه، فنزلت.

والمعنىٰ: ﴿كَلَّا﴾؛ أي[1]: لم ابتل الإنسان بالغنىٰ لكرامته عندي، ولم ابتله

---

(١) المراغي.

بالفقر لهوانه عليَّ، فالكرامة والإهانة لا يدوران مع المال سعة وقلة، فقد أوسع علىٰ الكافر لا لكرامته، وأضيق علىٰ المؤمن لا لهوانه، وإنما أكرم المرء بطاعته، وأهينه بمعصيته، وقد أوسّع علىٰ المرء بالمال لأختبره أيشكر أم يكفر، وأضيق عليه لأختبره أيصبر أم يضجر، ثم انتقل وترقىٰ من ذمهم بقبيح الأقوال إلىٰ النعي عليهم بقبيح الأفعال، فقال: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾؛ أي: بل لكم أفعال وأحوال شر من أقوالكم، تدل على تهالككم علىٰ المال، فقد يكرمكم الله تعالىٰ بالمال الكثير، فلا تؤدون ما يلزمكم فيه من إكرام اليتيم وبره، والإحسان إليه، وقد جاء في الحديث الحث علىٰ ذلك، فمنه قوله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة» وقرن بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام.

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ﴾ بحذف إحدىٰ التاءين من: تتحاضون، والحض: الحث والتحريض، أي: لا يحض[1] بعضكم بعضاً، ولا يحث من أهل وغيره شكراً لإنعام الله تعالىٰ ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾؛ أي: علىٰ إطعام جنس المسكين، وإصلاح شأنه، ومن لا يحض غيره علىٰ إطعامه فأن لا يطعمه بنفسه أولىٰ، فيؤول المعنىٰ إلى أن يقال: ولا تطعمون مسكيناً ولا تأمرون بإطعامه، وفيه ذم بليغ للبخيل.

والخلاصة: وإذا لم تكرموا اليتيم، ولم يوص بعضكم بعضاً بإطعام المسكين، فقد كذبت مزاعمكم في أنكم قوم صالحون، وإنما ذكر التحاض علىٰ الطعام، ولم يكتف بالإطعام، فيقول: ولم تطعموا المسكين، ليبين أن أفراد الأمة متكافلون، وأنه يجب أن يوصي بعضهم بعضاً بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، مع التزام كل بفعل ما يأمره أو ينهىٰ عنه.

وقرأ أبو جعفر وشيبة والكوفيون وابن مقسم[2]: ﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾ بفتح التاء وبالألف، أصله: تتحاضون، وهي قراءة الأعمش؛ أي: لا يحض بعضكم بعضاً، وقرأ عبد الله وعلقمة وزيد بن علي وعبد الله بن المبارك والشيزري عن الكسائي كذلك، إلا أنهم ضموا التاء؛ أي: تحاضون أنفسكم؛ أي: يحض بعضكم بعضاً، وتفاعل وفاعل يأتي بمعنىٰ: فعل أيضاً.

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

وقوله: ﴿عَلَىٰ طَعَامِ﴾ يجوز أن يكون بمعنىٰ إطعام، كالعطاء بمعنىٰ: الإعطاء، والأولىٰ أن يكون علىٰ حذف مضاف؛ أي: علىٰ بذل طعام المسكين، أو علىٰ إعطاء طعام المسكين.

ثم بين أن إهمالهم أمر اليتيم، وخلو قلبهم من الرحمة بالمسكين، لم يكونا زهداً في لذائذ الحياة، وتخلصاً من متاعبها، وعكوفاً على شؤون أنفسهم، بل جاء من محبتهم للمال، فقال: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾؛ أي: الميراث، وأصله[1]: وراث قلبت واوه تاء، والميراث: هو المال المنتقل من الميت ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾؛ أي: أكلاً شديداً، واللم: الجمع، يقال: كتيبة ملمومة؛ أي: مجتمعة بعضها إلىٰ بعض.

والمعنىٰ: أكلاً ذا لمٍّ علىٰ حذف المضاف؛ أي: جمع بين الحلال والحرام، فإنهم لا يورثون النساء، ولا الصبيان، ويأكلون أنصباءهم الحرام مجموعةً إلىٰ أنصبائهم الحلال.

والمعنىٰ[2]: أي إنكم تأكلون المال الذي يتركه من يتوفىٰ منكم أكلاً شديداً، فتحولون بينه وبين من يستحق، وتجمعون بين نصيبكم منه، ونصيب غيركم.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾؛ أي: حباً كثيراً مع حرص وشره ومنع حقوق وعدم انتفاع، فإن الجم الكثير يقال: جم الماء في الحوض: إذا اجتمع فيه وكثر، والمقصود: ذمهم ببيان أن حرصهم علىٰ الدنيا فقط، وأنهم عادلون عن أمر الآخرة، وفيه إشارة إلىٰ أن الحب للمال طبيعي، فلا يتخلص منه المرء بالكلية إلا أن يكون من الأقوياء، فكأنه أشار إلىٰ أن حبه إذا لم يشتد لا يكون مذموماً؛ أي: تميلون إلىٰ جمع المال ميلاً شديداً، ميراثاً كان أو غيره.

وخلاصة ذلك: أنكم تؤثرون الحياة الدنيا علىٰ الآخرة، إذ لو كنتم ممن غلب عليه حب الآخرة.. لانصرفتم عما يترك الموتىٰ ميراثاً لأيتامهم، ولكنكم تشاركونهم فيه، وتأخذون شيئاً لا كسب لكم فيه، ولا مدخل لكم في تحصيله وجمعه، ولو كنتم ممن استحبوا الآخرة.. لما ضربت نفوسكم علىٰ المال تأخذونه من حيث وجدتموه من حلال أو من حرام، فهذه أدلة ترشد إلىٰ أنكم لستم علىٰ ما ادعيتم من

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

صلاح وإصلاح، وأنكم علىٰ ملة إبراهيم خليل الرحمن.

ثم كرر سبحانه الردع لهم والزجر، فقال: ﴿كَلَّآ﴾، فهو ردع لهم عما ذكر من الأفعال والتروك، وإنكار عليهم؛ أي: لا ينبغي[1] أن يكون الأمر كذلك في الحرص علىٰ الدنيا، وقصر الهمة علىٰ تحصيلها وجمعها، من حيث تهيأ لهم من حل أو حرام، وترك المواساة منها، وتوهم أن لا حساب ولا جزاء، فإن عاقبة ذلك الحسرة والندامة علىٰ إيثار الحياة الدنيوية الفانية علىٰ الحياة الآخروية، وسيأتي يوم يندمون فيه أشد الندم، ولكن لا تنفعهم الندامة، ويتمنون لو كانوا أفنوا حياتهم في التقرب إلىٰ ربهم بصالح الأعمال.

ثم بين ذلك اليوم، ووصفه بأوصاف ثلاثة، فقال:

١ - ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ وزلزلت ﴿دَكًّا دَكًّا﴾؛ أي: دكاً متتابعاً، وزلزلةً متواترة، وضرب بعضها ببعض حتىٰ انكسر وذهب كل ما علىٰ وجهها من جبال وأبنية وقصور، حين زلزلت زلزلةً بعد زلزلة، وحركت تحريكاً بعد تحريك، وصارت هباءً منبثاً، وهو عبارة عما عرض لها عند النفخة الثانية، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها؛ لأنها فعل شرط لها، و ﴿إذا﴾ متعلقة بالجواب الآتي، وهو قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ ما فرط فيه في الدنيا. والجملة مستأنفة مسوقة بطريق الوعيد تعليلاً للردع، والدك: الدق، يقال: دككت الشيء أدكه دكاً: إذا ضربته وكسرته حتىٰ سويته بالأرض، وقال الخليل: الدك: كسر الحائط والجبل، وقال المبرد: الدك: حط المرتفع بالبسط؛ أي: بسطت وذهب ارتفاعها، وقال الزجاج: تزلزلت، ودك بعضها بعضاً، وقال ابن قتيبة: دكت جبالها حتىٰ استوت، والمعنىٰ هنا: زلزلت، وحركت تحريكاً بعد تحريك، ودكاً الثاني ليس تأكيداً للأول، بل هو دك آخر سوى الأول، وقال ابن عصفور: وانتصاب ﴿دَكًّا﴾ الأول علىٰ أنه مصدر مؤكد لفعله، و﴿دَكًّا﴾ الثاني: تأكيد للأول، ويجوز أن يكون النصب علىٰ الحال؛ أي: حال كونها مدكوكة مرة بعد مرة، كما يقال: علمته الحساب باباً باباً، علمته الخط حرفاً حرفاً.

---

(١) روح البيان.

والمعنى: أنه كرَّر الدَّكُّ عليها حتىٰ صارت هباءً منبثاً.

والخلاصة: أنه إذا دكت الأرض دكاً بعد دك، وتتابع عليها ذلك حتىٰ صارت كالصخرة الملساء، وذهب كل ما علىٰ وجهها من جبال وقصور وأبنية.. يتذكر الإنسان ما فرط فيه.

٢ - ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ واعلم[١] أن هذه الآية من آيات الصفات التي سكت عنها وعن مثلها عامة السلف وبعض الخلف، فلم يتكلموا فيه، وأجروها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تأويل، وقالوا: يلزمنا الإيمان بها، وإجراؤها علىٰ ظاهرها، فتقول علىٰ مذهبهم: المجيء صفة واجبة لله تعالىٰ، نثبتها ونعتقدها من غير تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل، وهذا هو المذهب الأسلم الأعلم، وتأولها بعض المتأخرين وغالب المتكلمين، فقالوا: ثبت بالدليل العقلي أن الحركة علىٰ الله محال، فلا بد من تأويل الآية، فقيل في تأويلها: وجاء أمر ربك بالمحاسبة والجزاء، وقيل: جاء أمر ربك وقضاؤه، وقيل: وجاء دلائل آيات ربك، فجعل مجيئها مجيئاً له تعالىٰ تفخيماً لتلك الآيات، وقال الإمام أحمد: معناه: جاء أمر ربك وقضاؤه، فهو علىٰ حذف مضاف للتهويل.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: جاء أمره وقضاؤه، وقال النسفي: وهذا[٢] تمثيل لظهور آيات اقتداره، وتبين آثار قهره وسلطانه، فإن واحداً من الملوك إذا حضر بنفسه.. ظهر بحضوره من آثار الهيبة ما لا يظهر بحضور وزرائه وسائر خواصه وعساكره. انتهىٰ. بتصرف.

وقال الشوكاني: أي: جاء أمره وقضاؤه، وظهرت آياته، وقيل: المعنىٰ: أنها زالت الشبه في ذلك اليوم، وظهرت المعارف، وصارت ضرورية، كما يزول الشك عند مجيء الشيء الذي كان يشك فيه، وقيل: جاء قهر ربك وسلطانه، وانفراده بالأمر، والتدبير من غير أن يجعل ويفوض إلىٰ أحد من عباده شيئاً من ذلك. انتهىٰ.

﴿وَ﴾ جاء ﴿الْمَلَكُ﴾؛ أي: ونزلت ملائكة كل سماء حالة كونهم ﴿صَفًّا صَفًّا﴾

---

(١) البيضاوي. (٢) النسفي.

علىٰ حدة؛ أي: مصطفين صفاً بعد صف، محدقين بالجن والإنس، فيكونون سبع صفوف، وقال الضحاك: أهل كل سماء إذا نزلوا يوم القيامة كانوا صفاً محيطين بالأرض ومن فيها، ويكونون سبعة صفوف، وقيل: معنىٰ ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: وتجلت[1] لأهل الموقف السطوة الإلهية وقهر الربوبية، كما تتجلىٰ أبهة الملك للأعين إذا جاء الملك في جيوشه ومواكبه، ولله المثل الأعلى.

٣ - ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾؛ أي: ويوم إذ كشفت جهنم للناظرين بعد أن كانت غائبة محجوبة عنهم، كقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾؛ أي: أظهرت حتىٰ رآها الخلق وعاينوها، وليس المراد أنها نقلت عن مكانها إلى مكان آخر، فالمجيء بها عبارة عن إظهارها حتىٰ يراها الخلق مع ثباتها في مكانها، فإن من المعلوم أنها لا تنفك عن مكانها، و ﴿يَوْمَئِذٍۭ﴾ منصوب بـ ﴿جيء﴾، و ﴿بِجَهَنَّمَ﴾: نائب فاعل له والباء للتعدية.

وأخرج مسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، يجرونها حتىٰ تنصب عن يسار العرش، لها تغيظ وزفير، فلا يبقىٰ ملك مقرب، ولا نبي مرسل إلا جاء لركبتيه يقول: يا رب نفسي نفسي»، إلا النبي ﷺ فيقول: «أمتي أمتي» فالمجيء[2] بها علىٰ حقيقته، فالجر يدل علىٰ انفكاكها من مكانها، وتأوله الأولون علىٰ التجوز بأن معنىٰ يجرون: يباشرون أسباب ظهورها، وقيل: المراد بمجيء جهنم: مجيء صورتها المثالية، ولا مناقشة فيه، فيكون كمجيء المسجد الأقصىٰ إلى مرأىٰ النبي ﷺ حين سأله قريش عن بعض أوصافه في قصة المعراج.

﴿يَوْمَئِذٍۭ﴾ بدل[3] من قوله: ﴿إِذَا دُكَّتِ﴾، والعامل فيهما قوله تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾؛ أي: يوم إذ دكت الأرض دكاً دكاً، وجاء ربك والملك صفاً صفاً، يتذكر الإنسان ما فرَّط وقصر فيه من حقوق ربه، وحقوق الخلق بتفاصيله، بمشاهدة آثاره

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) روح البيان.

وأحكامه، أو بمعاينة عينه علىٰ أن الأعمال تتجسم في النشأة الآخرة، فيبرز كل من الحسنات والسيئات بما يناسبها من الصور الحسنة والقبيحة، أو يتعظ؛ أي: يقبل التذكير والإرشاد الذي بلغ إليه في الدنيا، ولم يتعظ ولم يقبله في الدنيا، فيتعظ به في الآخرة، فيقول: يا ليتنا نرد، ولا نكذب بآيات ربنا، وهذا الاتعاظ يستلزم الندم علىٰ تقصيراته، والندم توبة، لكن لا توبة هناك لفوات أوانها.

وقوله: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾؛ أي: ومن أين له العظة، وقد فاته أوانها؟، اعتراض بين البدل والمبدل منه، جيء به لإفادة أنه ليس بتذكر حقيقة؛ لخلوه عن الفائدة بعدم وقوعه في أوانه، و ﴿أَنَّىٰ﴾: خبر مقدم لـ ﴿ٱلذِّكۡرَىٰ﴾، و ﴿لَهُ﴾: متعلق بما تعلق به الخبر؛ أي: ومن أين يكون له التذكر، والاتعاظ، وقد فات أوانه، وقيل: هو علىٰ حذف مضاف؛ أي: ومن أين له منفعة الذكرىٰ، وبه يرتفع التناقض الواقع بين إثبات التذكر أولاً، ونفيه ثانياً.

وقوله: ﴿يَقُولُ﴾ الإنسان يومئذٍ ﴿يا﴾ أيها الحاضرون ﴿ليتني قدمت لحياتي﴾ بدل اشتمال من ﴿يَتَذَكَّرُ﴾، أو استئناف وقع عن سؤال نشأ عنه، كأنه قيل: ماذا يقول عند تذكره؟ فقيل: يا ليتني عملت لحياتي هذه ـ يعني: لتحصيل الحياة الأخروية التي هي حياة نافعة دائمة غير منقطعة ـ أعمالاً صالحةً أنتفع بها اليوم، علىٰ أن اللام للتعليل، ويحتمل كون اللام للتوقيت؛ أي: يا ليتني قدمت أعمالاً صالحة تنفعني اليوم وقت حياتي الدنيوية، ويجوز أن يكون المعنىٰ: قدمت عملاً ينجيني من العذاب، فأكون من الأحياء، كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ۝١٣﴾.

وحاصل معنى قوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾؛ أي: يوم إذ حدثت[1] تلك الحوادث والدواهي تذهب الغفلة عن الإنسان، ويتذكر المرء ما كان قد فرط وقصر فيه، وعرف أن ما كان فيه كان ضلالاً، وأنه كان يجب أن يكون علىٰ حال خير مما كان عليها، ثم بين أن هذه الذكرىٰ لا فائدة فيها، فقال: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾؛ أي: ومن أين لهذه الذكرى فائدة، أو ترجع إليه بعائدة، وقد فات الأوان، وحمَّ القضاء.

---

(١) المراغي.

والخلاصة: أنه إذا حدثت الأحداث.. انكشفت عن الإنسان الحجب، ووضح له ما كان عليه، وذهب عنه الغفلة، وإذ ذاك يتمنىٰ أن يعود ليعمل صالحاً، ولكن أنىٰ له ذلك. ثم بين تذكره بقوله: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾؛ أي: يتمنىٰ[1] أن يكون قد عمل صالحاً ينفعه في حياته الأخروية التي هي الحياة الحقيقة. ثم بين مآله وعاقبة أمره، فقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم إذ يكون ما ذكر من الأحوال والأقوال.. ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾. قرأ الجمهور: ﴿لَّا يُعَذِّبُ﴾ و ﴿وَلَا يُوثِقُ﴾ مبنيين للفاعل، و ﴿أَحَدٌ﴾ في الموضعين فاعل، و ﴿العذاب﴾ بمعنىٰ: التعذيب، كالسلام بمعنىٰ: التسليم، وكذا الوثاق بمعنىٰ: الإيثاق، كالعطاء بمعنىٰ الإعطاء، وهو الشد بالوثاق، والوثاق: ما يشد به من الحديد والحبل، والضميران في قوله: ﴿عَذَابَهُۥٓ﴾ ﴿وَثَاقَهُۥٓ﴾ عائدان إلىٰ الله تعالىٰ، فهما مصدران مضافان إلىٰ الفاعل.

والمعنى: لا يتولىٰ عذاب الله ووثاقه أحد سواه، إذ الأمر كله لله، فلا يلزم أن يكون يوم القيامة معذِّب سوىٰ الله، لكنه لا يعذِّب أحد مثل عذابه، وهو قول ابن عباس والحسن، وفي «عين المعاني»: لا يعذب كعذاب الله ووثاقه في الآخرة أحدٌ في الدنيا. أو عائدان للإنسان، فيكونان مصدرين مضافين إلىٰ المفعول، والمعنىٰ عليه: لا يعذب أحد تعذيباً مثل تعذيب الله هذا الكافر، ولا يوثق أحدٌ إيثاقاً مثل إيثاق الله هذا الكافر بالسلاسل والأغلال.

وقرأ ابن سيرين[2]: وابن أبي إسحاق وسوار القاضي وأبو حيوة وابن أبي عبلة وأبو بحرية وسلام والكسائي ويعقوب وسهل وخارجة عن أبي عمرو: بفتح الذال من ﴿يعذَّب﴾ والثاء من ﴿يوثَق﴾ مبنيين للمفعول، والضميران للإنسان، والمصدران مضافان للمفعول؛ أي: لا يعذب أحد مثل عذاب ذلك الإنسان، ولا يوثق بالسلاسل والأغلال أحد مثل وثاق ذلك الإنسان، وظاهره يقتضي أن يكون عذابه أشد من عذاب إبليس إلا أن يكون المراد أحد من هذا الجنس، كعصاة المؤمنين، فالمراد[3] بالإنسان حينئذٍ: الكافر؛ أي: لا يعذب من ليس بكافر كعذاب

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) الشوكاني.

الكافر، وقيل: المراد به: إبليس، ولكن يأباه ظاهر قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ﴾، وقيل: المراد به: أبي بن خلف. قال الفراء: المعنىٰ: إنه لا يعذب كعذاب هذا الكافر المعين أحد، ولا يوثق بالسلاسل والأغلال كوثاقه أحد؛ لتناهيه في الكفر والعناد، وقيل: المعنىٰ: لا يعذب مكانه أحد، ولا يوثق مكانه أحد، فلا تؤخذ منه فدية، وهو كقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة الكسائي، قال: وتكون الهاء في الموضعين ضمير الكافر؛ لأنه معلوم أنه لا يعذب كعذاب الله أحد. قال أبو علي الفارسي: يجوز أن يكون الضمير للكافر علىٰ قراءة الجماعة؛ أي: لا يعذب أحدٌ أحداً مثل تعذيب هذا الكافر.

وحاصل المعنى على القراءة الأخيرة - أعني قراءة الكسائي -: أي[1] فيومئذٍ لا يصاب أحد بعذاب مثل ذلك العذاب الذي يصيب ذلك الإنسان الذي أبطره الغنىٰ، فجحد نعمة الله عليه، أو أفسده الفقر حتىٰ عتا في الأرض فساداً، ولا يوثق أحد من الخلائق وثاقاً مثل هذا الوثاق الذي يوثقه ذلك الإنسان، ولا يخفىٰ ما في ذلك من تقوية الذكر لمن له قلب يذكر ووجدان يشعر.

وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع - بخلاف عنهم -: ﴿وِثاقه﴾ بكسر الواو، والجمهور: بفتحها.

ولما فرغ سبحانه وتعالىٰ من حكاية أحوال الأشقياء.. ذكر بعض أحوال السعداء، فقال: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: ويقال للمؤمن يومئذٍ تكرمةً له: يا أيتها النفس التي قد استيقنت الحق واطمأنت إليه، فلا يخالجها شك، ووقفت عند حدود الشرع، فلا تزعزعها الشهوات، ولا تضطرب بها الرغبات: ارجعي إلىٰ جوار ربك دار الكرامة، والاطمئنان[2]، والسكون بعد الانزعاج، وسكون النفس: إنما هو بالوصول إلىٰ غاية الغايات في اليقين والمعرفة والشهود. وفي قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ تنبيه علىٰ أنه بمعرفته تعالىٰ، والإكثار من عبادته يكتسب اطمئنان النفس، وإذا وصلت إلىٰ مقام الاطمئنان بذكر الله.. صار صاحبها

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

آمناً من الرجوع إلىٰ الشهوات النفسانية. وفي «التعريفات»: النفس المطمئنة: هي التي تنورت بنور القلب حتىٰ تخلت من صفاتها الذميمة، وتحلت بالأخلاق الحميدة، وقيل: المطمئنة[1]: هي الساكنة الموقنة بالإيمان، وتوحيد الله، الواصلة إلىٰ ثلج اليقين، بحيث لا يخالطها شك، ولا يعتريها ريب. وقال الحسن: هي المؤمنة الموقنة، وقال مجاهد: هي الراضية بقضاء الله التي أيقنت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها، وأن ما أصابها لم يكن ليخطئها.

وقال مقاتل: هي الآمنة المطمئنة، وقال ابن كيسان: المطمئنة بذكر الله، وقيل: المطمئنة: هي الآمنة التي لا يلحقها خوف ولا حزن، قال ابن زيد: يقال لها ذلك عند الموت، وخروجها من جسد المؤمن في الدنيا، وقيل: عند البعث، وقيل: عند دخول الجنة.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا﴾ بتاء التأنيث، وقرأ زيد بن علي: ﴿يا أيها﴾ بغير تاء، ولا أعلم أحداً ذكر أنها تذكر، وإن كان المنادىٰ مؤنثاً إلا صاحب «البديع»، وهذه القراءة شاهدة بذلك، ولذلك وجه من القياس، وذلك أنه لم يثنَّ ولم يجمع في نداء المثنىٰ والمجموع، فكذلك لم يؤنث في نداء المؤنث.

والمعنى: أي ويقول الله سبحانه وتعالى للمؤمن إكراماً له بلا واسطة، كما كلم موسىٰ عليه السلام، أو علىٰ لسان الملك عند خروج الروح من الجسد، أو عند تمام الحساب. ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾؛ أي: إلىٰ ما وعدك ربك من الكرامة والزلفىٰ، فكونه تعالىٰ منتهىٰ الغاية، إنما هو بهذا الاعتبار، فسقط تمسك المجسمة، واستدل بالرجوع الذي هو العود علىٰ تقدم الروح خلقاً حالة كونك ﴿رَاضِيَةً﴾ بما أوتيت من النعيم المقيم ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ عند الله تعالىٰ؛ أي[3]: ارجعي إلىٰ محل الكرامة بجوار ربك راضية بما عملت في الدنيا، مرضياً عنك عملك الذي عملت فيها، إذ لم تكوني ساخطة لا في الغنىٰ ولا في الفقر، ولم تتجاوزي حدود الشرع فيما لك حق، وما عليك من واجب، وقال عكرمة وعطاء: معنىٰ ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ

(١) الشوكاني.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

﴿رَبِّكِ﴾؛ أي: إلى جسدك الذي كنت فيه، واختاره ابن جرير، ويدل علىٰ هذا قراءة ابن عباس ﴿فادخلي في عبدي﴾ بالإفراد، والأول أولىٰ.

ثم ذكر جميل عاقبتها فقال: ﴿فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾﴾؛ أي: في زمرة عبادي الصالحين، وكوني من جملتهم، وانتظمي في سلكهم ﴿وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ ودار كرامتي معهم، كقوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، فالدخول في زمرة الخواص هي السعادة الروحانية، والدخول معهم في الجنات، ودرجاتها هي السعادة الجسمانية. وقيل: المراد بالنفس: الروح.

والمعنىٰ: فادخلي في أجساد عبادي التي فارقت عنها، وادخلي دار ثوابي، ويؤيد هذا المعنىٰ قول من قال: إن الخطاب عند البعث، وذهب بعضهم: إلىٰ أنه عند الموت، كما مر آنفاً، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: نزلت هذه الآية، وأبو بكر جالس، فقال: يا رسول الله، ما أحسن هذا!، فقال: «أما إنه سيقال لك هذا». وقيل: نزلت في حمزة بن عبد المطلب، وقيل: نزلت في عثمان بن عفان حين وقف بئر رومة، وقيل: نزلت في خبيب بن عدي الذي صلبه أهل مكة، وجعلوا وجهه إلىٰ المدينة، فقال: اللهم إن كان لي عندك خير.. فحوِّل وجهي إلىٰ قبلتك، فحوَّلَ الله وجهه نحوها، فلم يستطع أحد أن يحوله عنها. والمراد بالآية[1]: كل نفس مطمئنة علىٰ العموم، ولا ينافي ذلك نزولها في نفس معينة، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿عِبَٰدِي﴾ جمعاً، وابن عباس وعكرمة والضحاك ومجاهد وأبو جعفر وأبو صالح والكلبي وأبو شيخ الهنائي واليماني: ﴿في عبدي﴾ على الإفراد، والأظهر أنه أريد به اسم الجنس، فمدلوله ومدلول الجمع واحد. وتعدىٰ ﴿فَٱدْخُلِي﴾ أولاً بـ ﴿فِي﴾، وثانياً بغير في، وذلك أنه إذا كان المدخول فيه غير ظرف حقيقي.. تعدت إليه بفي، تقول: دخلت في الأمر، ودخلت في غمار الناس، ومنه قوله: ﴿فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾﴾ وإذا كان المدخول فيه ظرفاً حقيقياً تعدَّت إليه في الغالب بغير وساطة في، ومنه قوله: ﴿وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾، وقال بعض أهل الإشارة:

---

(١) الشوكاني. (٢) البحر المحيط.

معنى[1] الآية: يا أيتها النفس المطمئنة إلىٰ الدنيا، ارجعي إلى الله بتركها، وسلوك سبيل الآخرة، فادخلي في عبادي الأخروية، وادخلي جنتي الصورية والمعنوية.
وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: إذا توفي العبد المؤمن.. أرسل الله ملكين، وأرسل إليه بتحفة من الجنة، فيقال لها: اخرجي أيتها النفس المطمئنة، اخرجي إلىٰ روح وريحان، ورب عنك راض، فتخرج كأطيب ريح مسك وجده أحد في أنفه، والملك علىٰ أرجاء السماء يقولون: قد جاء من الأرض روح طيبة ونسمة طيبة، فلا تمر بباب إلا فتح، ولا بملك إلا صلىٰ عليها، حتىٰ يؤتىٰ بها إلىٰ الرحمن؛ أي: إلى حضوره، ومقام مخصوص من مقامات كرامته، فتسجد، ثم يقال لميكائيل: اذهب بهذه، فاجعلها مع نفس المؤمنين، ثم يؤمر، فيوسع عليه قبره سبعون ذراعاً عرضه، وسبعون ذراعاً طوله، وينبذ له فيه الريحان، فإن كان معه شيء من القرآن.. كفاه نوره، وإن لم يكن.. جعل له نور مثل نور الشمس في قبره، فيكون مثله مثل العروس، ينام فلا يوقظه إلا أحب أهله، وإذا توفي الكافر.. أرسل الله إليه ملكين، وأرسل إليه قطعة بجاد ـ بوزن: كتاب: كساء مخطط. اهـ «قاموس» ـ أنتن من كل منتن، وأخشن من كل خشن، فيقال: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلىٰ جهنم، عذاب أليم، ورب عليك غضبان.

وقال سعيد بن جبير رحمه الله تعالى: مات ابن عباس رضي الله عنهما بالطائف، فشهدت جنازته، فجاء طائر لم ير مثله علىٰ خلقته، فدخل نعشه، ثم لم ير خارجاً منه، فلما دفن.. تليت هذه الآية علىٰ شفير القبر، لا يرىٰ من تلاها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾.

وحاصل معنىٰ الآية[2]: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾﴾؛ أي: فادخلي في زمرة عبادي المكرمين، وانتظمي في سلكهم، وكوني في جملتهم، فالنفوس القدسية كالمرايا المتقابلة، يشرق بعضها علىٰ بعض، وكأنها تربىٰ في هذه الدنيا بالآلام، وتزين بالمعارف والعلوم، حتىٰ إذا فارقت الأبدان.. جعلت في أماكن متقاربة، بينها صفاء ومودة، وحسن صلة ومحبة. ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ فتمتعي فيها بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

اللهم اجعلنا من النفوس المطمئنة الراضية المرضية، وأدخلنا في جنتك مع المتقين من الأنبياء والشهداء والصالحين، والحمد لله رب العالمين آمين.

الإعراب

﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾﴾ ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم ﴿الْفَجْرِ﴾: مجرور بواو القسم، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف تقديره: أقسم بالفجر، والجملة مستأنفة، ﴿وَلَيَالٍ﴾: معطوف علىٰ ﴿الْفَجْرِ﴾ مجرور بالفتحة الظاهرة علىٰ الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين نيابة عن الكسرة؛ لأنه اسم لا ينصرف، والمانع له من الصرف علة واحدة تقوم مقام علتين، وهي: صيغة منتهىٰ الجموع؛ لأنه علىٰ زنة مفاعل، كما ذكره ابن مالك في «الخلاصة»:

وَكُنْ لِجَمْعٍ مُشْبِهٍ مَفَاعِلا أو الْمَفَاعِيلَ بِمَنْعٍ كَافِلاً

وأصله: ليالي، استثقلت الحركة علىٰ الياء فحذفت، ثم حذفت الياء طلباً للتخفيف، وعوض عنه التنوين، فصار: ليال.

﴿عَشْرٍ﴾: صفة ﴿لَيَالٍ﴾، مجرور بالكسرة الظاهرة ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ﴾: معطوفات أيضاً علىٰ ﴿الْفَجْرِ﴾، مجرورات بالكسرة الظاهرة ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنىٰ الشرط في محل النصب علىٰ الظرفية مبني علىٰ السكون، والظرف متعلق بفعل القسم المحذوف تقديره: أقسم بالليل وقت سراه ﴿يَسْرِ﴾: فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ضمة مقدرة علىٰ الياء المحذوفة لرعاية الفاصلة، أو اتباعاً لخط المصحف، منع من ظهورها الثقل؛ لأنه فعل معتل بالياء، وفاعله ضمير يعود علىٰ ﴿اللَّيْلِ﴾، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها، وجواب القسم في هذه المذكورات كلها محذوف تقديره: لنجازين كل أحد بما عمل، أو لنعذبن.

﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ

رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿هَلْ﴾: حرف استفهام للاستفهام التفخيمي والتعظيمي للأمور المقسم بها ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: خبر مقدم ﴿قَسَمٌ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿لِّذِى حِجْرٍ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لـ﴿قَسَمٌ﴾، والجملة جملة إنشائية مسوقة لتقرير ما قبلها وتفخيمه، لا محل لها من الإعراب ﴿أَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾ للاستفهام التقريري؛ أي: قد رأيت وعلمت علماً ضرورياً ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود علىٰ محمد، أو علىٰ أي مخاطب مجزوم بـ﴿لم﴾، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، والجملة جملة استئنافية لا محل لها من الإعراب ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل نصب علىٰ المصدرية بـ ﴿فَعَلَ﴾، والمعنىٰ: قد علمت أيَّ فعل فعل ربك بعاد. ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾: فعل وفاعل ﴿بِعَادٍ﴾: متعلق بـ ﴿فَعَلَ﴾، والجملة الفعلية المعلقة بـ ﴿كَيْفَ﴾ الاستفهامية سدت مسد مفعولي ﴿تَرَ﴾، ﴿إِرَمَ﴾: بدل من ﴿عاد﴾ بدل كل من كل، أو عطف بيان له مجرور بالفتحة؛ لأنه اسم لا ينصرف للعلمية والتأنيث المعنوي ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾: صفة لـ ﴿إِرَمَ﴾ مجرور بالكسرة ﴿ٱلْعِمَادِ﴾: مضاف إليه ﴿ٱلَّتِى﴾: صفة ثانية لـ ﴿إِرَمَ﴾، وجملة ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا﴾ صلة الموصول ﴿يُخْلَقْ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة ﴿مِثْلُهَا﴾: نائب فاعل ﴿فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾: متعلق بـ ﴿يُخْلَقْ﴾، ﴿وَثَمُودَ﴾: معطوف علىٰ ﴿عاد﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾: نعت لـ ﴿ثَمُودَ﴾: ﴿جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به صلة الموصول ﴿بِٱلْوَادِ﴾: متعلق بـ ﴿جَابُوا۟﴾، و ﴿الباء﴾ بمعنىٰ في، وحذفت الياء من ﴿الواد﴾؛ لأنها من ياءات الزوائد، ﴿وَفِرْعَوْنَ﴾: عطف علىٰ ﴿عاد﴾، ﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ صفة لـ ﴿فِرْعَوْنَ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة للمذكورين من عاد وإرم وثمود، أو منصوب على الذم، وجملة ﴿طَغَوْا۟﴾ صلة الموصول ﴿فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾: متعلق بـ ﴿طَغَوْا۟﴾، ﴿فَصَبَّ﴾: ﴿الفاء﴾ عاطفة ﴿صب﴾ فعل ماض ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ ﴿صب﴾ ﴿رَبُّكَ﴾: فاعل ﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾: مفعول به ومضاف إليه، والجملة الفعلية معطوفة علىٰ جملة ﴿طَغَوْا۟﴾، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: ناصب واسمه ﴿لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء ﴿بالمرصاد﴾: جار ومجرور خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ جملة تعليلية لا محل لها من الإعراب.

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ
فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ

﴿طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾.

﴿فَأَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية، أو فصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت أن ربك لبالمرصاد لأعمال عباده خيراً أو شراً ليجازيهم عليها، وأردت بيان أحوال الإنسان، هل هو في مراقبة ربه فيشكر علىٰ نعمه، ويصبر على نقمه، أم لا؟ فأقول لك: أما الإنسان. ﴿أما﴾: حرف شرط وتفصيل ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾: مبتدأ ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنىٰ الشرط متعلق بـ ﴿يقول﴾ ﴿مَآ﴾: زائدة ﴿ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾: فعل ومفعول به وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها مجردة عن معنى الشرط، ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿أكرمه﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الرب، ومفعول به، والجملة في محل الخفض معطوفة علىٰ جملة ﴿ٱبْتَلَىٰهُ﴾. ﴿وَنَعَّمَهُۥ﴾: معطوف علىٰ ﴿أكرمه﴾ ﴿فَيَقُولُ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿أما﴾ واقعة في غير موضعها، وجملة ﴿يقول﴾ في محل الرفع خبر عن ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، ولا يمنع تعلق الظرف بـ ﴿يقول﴾ كونه خبر المبتدأ؛ لأن الظرف في نية التأخير، والتقدير: فأما الإنسان.. فقائل ربي أكرمني وقت الابتلاء، والجملة من المبتدأ والخبر جواب ﴿أما﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿أما﴾ في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿رَبِّىٓ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿أَكْرَمَنِ﴾ خبره، وحذفوا الياء من ﴿أَكْرَمَنِ﴾ اجتزاءً بكسر نون الوقاية، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ ﴿يقول﴾ وجملة قوله: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦﴾ معطوفة علىٰ جملة ﴿فَأَمَّا﴾ الأولىٰ مماثلة لها في إعرابها ﴿كَلَّا﴾: حرف ردع وزجر للإنسان عن قوله المذكور. ﴿بَل﴾: حرف إضراب من قبيح إلى أقبح منه ﴿لَّا﴾: نافية ﴿تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان ما هو أقبح من قول الإنسان المذكور، ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف علىٰ ﴿تُكْرِمُونَ﴾. ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ متعلق بـ ﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾، ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿تُكْرِمُونَ﴾ ﴿أَكْلًا﴾: مفعول مطلق ﴿لَّمًّا﴾: صفة ﴿أَكْلًا﴾، ﴿وَتُحِبُّونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿لا تكرمون﴾ ﴿ٱلْمَالَ﴾: مفعول به ﴿حُبًّا﴾: مفعول مطلق ﴿جَمًّا﴾ صفة ﴿حُبًّا﴾.

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ

﴿بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴿٢٣﴾﴾.

﴿كَلَّا﴾: حرف ردع وزجر لهم عن ذلك كله ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مضمن معنىٰ الشرط، متعلق بـ ﴿يَتَذَكَّرُ﴾، وجملة ﴿دُكَّتِ﴾ في محل الخفض بإضافة الظرف إليها ﴿دُكَّتِ الْأَرْضُ﴾: فعل ونائب فاعل ﴿دَكًّا دَكًّا﴾: حال مركبة من ﴿الْأَرْضُ﴾ في محل النصب مبني على فتح الجزءين؛ أي: مدكوكةً دكاً بعد دك، بني الجزء الأول لشبهه بالحرف شبهاً افتقارياً؛ بافتقاره إلى الجزء الثاني، وبني الجزء الثاني لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً؛ لتضمنه معنىٰ الحرف، وحركا ليعلم أن لهما أصلاً في الإعراب، وكانت الحركة فتحة للخفة مع ثقل التركب، وليس الثاني تأكيداً للأول، بل التكرر للدلالة علىٰ الاستيعاب، كقرأت النحو باباً باباً، وعلمته الخط حرفاً حرفاً، وأعرب ابن خالويه ﴿دَكًّا﴾ الأول: مصدراً، والثاني: تأكيداً، وليس بعيداً. ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾: فعل وفاعل، معطوف علىٰ جملة ﴿دُكَّتِ﴾، ﴿وَالْمَلَكُ﴾: معطوف علىٰ ﴿رَبُّكَ﴾. ﴿صَفًّا صَفًّا﴾: حال مركبة من الملك؛ أي: مصطفين، أو ذوي صفوف، نظير ﴿دَكًّا دَكًّا﴾ والمجوز لمجيء الحال جامدة دلالتها علىٰ الترتيب، وضابطه: أن يأتي التفصيل بعد ذكر المجموع بجزأيه مكرراً، وفي إعراب هذا المكرر خلاف طويل، اقتصرت علىٰ الراجح منها، فراجعه في محله ﴿وَجِيءَ﴾: فعل ماض مغيَّر الصيغة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف مضاف لمثله، متعلق بـ ﴿وَجِيءَ﴾، و ﴿بِجَهَنَّمَ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل لـ ﴿جيء﴾، والجملة في محل الخفض معطوفة علىٰ جملة ﴿دُكَّتِ﴾، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف مضاف لمثله بدل من ﴿إذا﴾ في قوله: ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ﴾ بدل كل من كل، وجملة ﴿يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ﴾ جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب؛ أي: يوم إذا دكت الأرض دكاً دكاً، ويوم إذ جاء ربك والملك صفاً صفاً، ويوم إذ جيء بجهنم يتذكر الإنسان تفاصيل أعماله التي عملها في الدنيا، ﴿وَأَنَّى﴾. ﴿الواو﴾: حالية ﴿أَنَّى﴾: اسم استفهام للاستفهام الإنكاري في محل النصب علىٰ الظرفية المكانية، مبني علىٰ السكون؛ لتضمنه معنىٰ حرف الاستفهام، والظرف متعلق بواجب الحذف لوقوعه خبراً مقدماً. ﴿لَهُ﴾: متعلق بما تعلق به الظرف، ﴿الذِّكْرَى﴾: مبتدأ مؤخر، ولا بد من تقدير مضاف؛ أي: ومن أين حاصلة له منفعة الذكرىٰ، وإلا فبين ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ و﴿﴾ تناف وتناقض، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿يَتَذَكَّرُ﴾.

﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾.

﴿يَقُولُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود علىٰ الإنسان، والجملة الفعلية بدل اشتمال من جملة قوله: ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، أو مستأنفة. ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾: ﴿يا﴾: حرف تنبيه، أو حرف نداء، والمنادىٰ محذوف تقديره: يا هؤلاء، وجملة النداء في محل النصب مقول القول لـ ﴿يَقُولُ﴾، ﴿ليت﴾: حرف تمنٍ ونصب، و ﴿النون﴾ للوقاية؛ لأنها تبقي الحرف علىٰ حركة بنائه الأصلي، وياء المتكلم في محل النصب اسمها، وجملة ﴿قَدَّمۡتُ﴾، خبرها ﴿لِحَيَاتِي﴾: متعلق بـ ﴿قَدَّمۡتُ﴾، وجملة ﴿ليت﴾ في محل النصب مقول القول ﴿فَيَوۡمَئِذٖ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾: ظرف مضاف لمثله، متعلق بـ ﴿يُعَذِّبُ﴾، ﴿لَّا﴾: نافية ﴿يُعَذِّبُ﴾: فعل مضارع مبني للفاعل، ﴿عَذَابَهُۥٓ﴾: مفعول مطلق، والضمير فيه عائد إلىٰ الله، فيكون مصدراً مضافاً إلىٰ الفاعل ﴿أَحَدٞ﴾: فاعل، وقرىء ﴿يعذب﴾ بالبناء للمفعول، فيكون ﴿أَحَدٞ﴾ نائب فاعل، والضمير في ﴿عَذَابَهُۥٓ﴾ للإنسان الكافر، فيكون مصدراً مضافاً إلىٰ المفعول، والجملة الفعلية علىٰ كلا القراءتين مستأنفة، وجملة قوله: ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾﴾ معطوفة علىٰ ما قبلها مماثلة له في إعرابه في كلتا القراءتين. ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أية﴾: منادىٰ نكرة مقصودة مبني علىٰ الضم، و ﴿الهاء﴾: حرف تنبيه زائد تعويضاً عما فات، أي: من الإضافة ﴿ٱلنَّفۡسُ﴾: بدل من ﴿أي﴾ ﴿ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾: صفة لـ ﴿ٱلنَّفۡسُ﴾، وجملة النداء في محل النصب مقول لقول محذوف تقديره: يقول الله سبحانه للمؤمن بلا واسطة، أو بواسطة الملك: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾...﴾ إلخ، وجملة القول المحذوف مستأنفة. ﴿ٱرۡجِعِيٓ﴾: فعل أمر مبني علىٰ حذف النون، والياء فاعل ﴿إِلَىٰ رَبِّكِ﴾: متعلق بـ ﴿ٱرۡجِعِيٓ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول للقول المحذوف على كونها جواب النداء ﴿رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾: حالان من فاعل ﴿ٱرۡجِعِيٓ﴾، ﴿فَٱدۡخُلِي﴾: فعل أمر وفاعل، معطوف على ﴿ٱرۡجِعِيٓ﴾، ﴿فِي عِبَٰدِي﴾: متعلق بـ ﴿ادخلي﴾، ﴿وَٱدۡخُلِي﴾: معطوف أيضاً علىٰ ﴿ٱرۡجِعِيٓ﴾، ﴿جَنَّتِي﴾: مفعول به علىٰ التوسع. والله أعلم.

﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١﴾ الفجر: هو الوقت الذي ينشق فيه الضوء، وينفجر فيه النور، وقد أقسم ربنا به؛ لما يحصل فيه من انقضاء الليل، وظهور الضوء، وما يترتب علىٰ ذلك من المنافع، كانتشار الناس وسائر الحيوان من الطير والوحش لطلب الرزق، كما مر.

﴿وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ۝٢﴾ جمع: ليلة، وهي الزمن الذي بين غروب الشمس إلى طلوع الفجر أو طلوع الشمس، وهذه الليالي العشر غير متعينة، بل في كل شهر، وهذه العشر يتشابه حالها مع حال الفجر، فيكون ضوء القمر فيها مطارداً لظلام أول الليل إلى أن تغلبه الظلمة، كما يهزم ضوء الصبح ظلمة الليل حتىٰ سطع النهار، ولا يزال الضوء منتشراً إلىٰ الليل الذي بعده، وضوء الأهلة في عشر ليال من أول كل شهر يشق الظلام، ثم لا يزال الليل يغالبه إلىٰ أن يغلبه، فيسدل على الكون حجبه.

﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ۝٣﴾؛ أي: والزوج والفرد من هذه اليالي، فهو سبحانه أقسم بالليالي جملة، ثم أقسم بما حوته من زوج وفرد، والشفع: الزوج من العدد، يقال: أشفع هو أم وتر؟؛ أي: أزوج هو أم فرد، ويجمع علىٰ أشفاع وشفاع، ومصدر شفع يشفع ـ من باب فتح ـ شفعاً الشيء؛ أي: صيره شفعاً؛ أي: زوجاً بأن يضيف إليه مثله، يقال: كان وتراً فشفعه بآخر؛ أي: قرنه به. وفي «القاموس»: والشفع: خلاف الوتر، وهو الزوج، وشفعه كمنعه ﴿وَٱلۡوَتۡرِ﴾ وفي «القاموس»: والوتر ـ بالكسر ويفتح ـ الفرد، أو ما لم يتشفع من العدد.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤﴾ يقال: سرىٰ يسري سُرىٰ ومسرى: إذا سار عامة الليل. وفي «المصباح»: سريت الليل، وسريتُ به سرىٰ، والاسم السراية: إذا قطعته بالسير، وأسريت بالألف لغة حجازية، ويستعملان متعديين بالباء إلىٰ المفعول، ويقال: سريت بزيد، وأسريت به، والسرية ـ بضم السين وفتحها ـ أخص، يقال: سرينا سريةً من الليل وسرية، والجمع: السرىٰ مثل: مدية ومدىٰ.

قال أبو زيد: ويكون السري أول الليل وأوسطه وآخره، وقد استعملت العرب سرىٰ في المعاني تشبيهاً لها بالأجسام مجازاً واتساعاً. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤﴾، والمعنى: إذا يمضي. ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ۝٥﴾؛ أي؛ لصاحب

عقل، وسمي العقل بذلك؛ لأنه يحجر صاحبه عما لا يحل ولا ينبغي، كما سمي عقلاً؛ لأنه يعقل صاحبهُ عن القبائح، وينهاه، وسمي أيضاً نُهْيَةً؛ لأنه ينهىٰ صاحبهُ عما لا يليق ولا يحل.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ وعاد: جيل من العرب البائدة، يقولون: إنه من ولد عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، ويلقب أيضاً: بإرم.

﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾؛ أي: سكان الخيام، وكانت منازلهم بالرمال والأحقاف إلى حضرموت، والعماد كالعمود، والجمع: عَمَد وعُمُد بفتحتين وبضمتين.

﴿وَثَمُودَ﴾: قبيلة من العرب البائدة كذلك، وهي من ولد كاثر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، ومنازلهم بالحجر بين الشام والحجاز.

﴿جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ﴾؛ أي: قطعوه ونحتوه ﴿بِٱلْوَادِ﴾؛ أي: في الوادي الذي كانوا يسكنون فيه، وفي «المختار»: وجاب: خرق وقطع، وبابه: قال، وأصل جابوا: جوبوا، قلبت الواو ألفاً لتحركها بعد فتح، ففيه إعلال بالقلب.

﴿وَفِرْعَوْنَ﴾ هو حاكم مصر الذي كان في عهد موسى عليه السلام.

﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾؛ أي: ذي المباني العظيمة المشيدة الثابتة جمع: وتد بالتحريك وبكسر التاء أيضاً.

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١﴾؛ أي: تجاوزوا الحد في الظلم والعتو، وأصل طغوا: طغيوا، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح، ثم حذفت الألف لما التقت ساكنة بواو الجماعة.

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ﴾؛ أي: أفرغ وأنزل وألقىٰ، وصبُّ الماء: إراقته من أعلىٰ؛ أي: أنزل عليهم إنزالاً شديداً ﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾؛ أي: أنواعاً من العقوبات التي أنزلها عليهم جزاء طغيانهم، والسوط في الأصل: الجلد المضفور؛ أي: المنسوج المفتول الذي يضرب به، كما مر.

﴿لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ والمرصاد: هو المكان الذي يقوم فيه الرصد، والرصد: من يرصد الأمور؛ أي: يترقبها ليقف علىٰ ما فيها من الخير والشر، ويطلق أيضاً علىٰ الحارس الذي يحرس ما يخشىٰ عليه، وهو مفعال من رصده، كالميقات من وقته،

ويجوز أن يكون صيغة مبالغة، كالمطعان لكثير الطعن.

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾؛ أي: اختبره ببسط الرزق، أصله: ابتليه بوزن افتعل، قلبت الياء ألفاً لتحركها بعد فتح.

﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾؛ أي: صير مكرماً يرفل في بحبوحة النعيم.

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾؛ أي: اختبره بتضييق الرزق عليه. ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾؛ أي: صيره فقيراً مقتراً عليه في الرزق، تقول: قدرت عليه الشيء؛ أي: ضيقته عليه، وكأنك جعلته بقدر لا يتجاوزه. ﴿أَهَٰنَنِ﴾ أصله: أهوَيُ، بوزن: أفعل، نقلت حركة الواو إلى الهاء فسكنت، فقلبت ألفاً لتحركها في الأصل، وفتح ما قبلها الآن.

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ﴾ أصله: تتحاضضون بوزن: تتفاعلون، حذفت إحدى التاءين للتخفيف، وأدغمت الضاد في الضاد، فصار تحاضون. وقرأ غير الكوفيين: ﴿تحضون﴾ بضم الحاء وأصله: تحضضون بوزن: تفعلون بمعنىٰ: تحاضون المتقدم، نقلت حركة الضاد الأولى إلىٰ الحاء، ثم أدغمت لما سكنت في الضاد الثانية من الحض، وهو الحث والتحريض. ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ التراث: بوزن فعال الميراث، وأصله: وراث كتجاه في وجاه، قلبت واوه تاءً، والميراث: هو المال المنتقل من الميت. ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ واللم: الجمع، يقال؛ كتيبة ملمومة؛ أي: مجتمعة بعضها إلى بعض، وفي «المختار»: ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ فعله من باب رد، يقال: لم الله شعثه؛ أي: أصلح وجمع ما تفرق من أمره، وقال أبو عبيدة: لممت ما علىٰ الخوان: إذا أكلت جميع ما عليه بأسره. ﴿حُبًّا جَمًّا﴾ الجم: الكثير، يقال: جم الماء في الحوض إذا اجتمع فيه وكثر. قال الشاعر:

إنْ تَغْفِرِ ٱللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمَّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمَّا

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾ الدك: الدق، يقال: دككت الشيء أدكه دكاً: إذا ضربته وكسرته حتىٰ سويته بالأرض، وقال الخليل: الدك: كسر الحائط والجبل وتسويته بالأرض، ومنه: اندك سنام البعير: إذا انغرس في ظهره ﴿دَكًّا دَكًّا﴾؛ أي: دكاً بعد دك؛ أي: كرر عليها الدك، وتتابع حتىٰ صارت كالصخرة الملساء. ﴿صَفًّا صَفًّا﴾؛ أي: صفاً بعد صف، بحسب منازلهم ومراتبهم في الفضل.

﴿وَثَاقَهُۥ﴾ في «المصباح»: وثق الشيء بالضم وثاقه: قوي وثبت، فهو وثيق ثابت، وأوثقته: جعلته وثيقاً، والوثاق ـ بفتح الواو وكسرها ـ: القيد والحبل ونحوه، والجمع: وثق، مثل: رباط وربط، ويطلق هنا: علىٰ الشد والربط بالسلاسل والأغلال.

﴿ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ من الاطمئنان: وهو الاستقرار والثبات.

﴿مَّرْضِيَّةً﴾ اسم مفعول من رضي، وأصله: مرضوية بوزن: مفعول اجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياءً، وأدغمت في الياء، ثم كسرت الضاد لمناسبة الياء، ولام المادة واو، وعليه فـ ﴿رَاضِيَةً﴾ أصله: راضوة، قلبت الواو ياءً لتطرفها إثر كسرة، كما فعلوا في رضي أصله: رضو من الرضوان.

البلاغة

وقد تضمنت هذه السورة الكريمة ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التنكير في قوله: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ للدلالة علىٰ تعظيمها؛ لأنها مخصوصة بفضائل ليست لغيرها، ولذلك أقسم الله بها، وذلك كالاشتغال بأعمال الحج في عشر ذي الحجة.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾.

ومنها: تقييد الليل بالسرى في قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾ لما فيه من وضوح الدلالة علىٰ كمال القدرة، ووفور النعمة؛ كأن جميع الحيوانات أعيدت إليهم الحياة بعد الموت في الليل، وتسببوا بذلك لطلب الأرزاق المعدة للحياة الدنيوية التي يتوسل بها إلى سعادة الدارين. ذكره في «الروح».

ومنها: الاستفهام التقريري في قوله: ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥﴾ لتحقيق فخامة شأن المقسم بها، وكونها أموراً جليلة بالإعظام والإجلال عند أرباب العقول، وللتنبيه علىٰ أن الإقسام بها أمر معتد به، حقيق بأن يؤكد به الإخبار.

ومنها: التنوين في قوله: ﴿حِجْرٍ﴾ للدلالة علىٰ تعظيمها، قال بعض الحكماء: العقل للقلب بمنزلة الروح للجسد، فكل قلب لا عقل له، فهو ميت

بمنزلة قلب البهائم.

ومنها: الاستفهام التقريري في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝﴾؛ لأن الهمزة فيه للإنكار وفي قوة النفي، ونفي النفي إثبات، فصار تقريرياً إثباتياً، أي: قد علمت يا محمد بإعلام الله تعالىٰ، وبالتواتر أيضاً كيف عذب ربك عاداً.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝﴾، فقد استعمل الصب، وهو خاص بالماء لاقتضائه السرعة في النزول علىٰ المضروب. قال الشاعر:

فَصَبَّ عَلَيْهِمْ مُحْصَرَاتٍ كَأَنَّهَا   شَآبِيْبُ لَيْسَتْ مِنْ سَحَابٍ وَلَا قَطْرِ

وقال آخر في وصف الخيل:

صَبَبْنَا عَلَيْهِمْ ظَالِمِيْنَ سَيَاطَنَا   فَطَارَتْ بِهَا أَيْدٍ سِرَاعٌ وَأَرْجُلُ

واستعار السوط للعذاب؛ لأنه يقتضي من التكرار والترداد ما لا يقتضيه السيف ولا غيره.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝﴾ شبه كونه تعالىٰ حافظاً لأعمال العباد مراقباً عليها، ومجازياً علىٰ ما دق وجل منها، بحيث لا ينجو منه بحال من قعد على الطريق مترصداً لمن يسلكها ليأخذه، فيوقع به ما يريد، ثم أطلق لفظ أحدهما علىٰ الآخر علىٰ طريقة الاستعارة التمثيلية.

ومنها: المقابلة بين قوله: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ...﴾ إلخ، وبين قوله: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ...﴾ إلخ، فقد قابل بين توسعة الرزق وإقتاره، وبين الإكرام والإهانة.

ومنها: الالتفات من الغيبة في قول: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ﴾ إلى الخطاب في قوله: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۝﴾ للإيذان باقتضاء ملاحظة جنايته السابقة لمشابهته بالتوبيخ تشديداً للتقريع، وتأكيداً للتنشيع، والجمع فيه باعتبار معنىٰ الإنسان، إذا المراد به الجنس، وكان مقتضىٰ السياق أن يقال: بل لا يكرمون اليتيم.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ﴾، وقوله: ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ﴾، وقوله: ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ ﴿الذِّكْرَىٰ﴾.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾﴾.

ومنها: إخراج الكلام مخرج الإخبار عن الأعظم الأكبر للمبالغة، والإخبار عنه مجاز في قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾، وهو نظير قول من رأىٰ موكباً عظيماً، أو جيشاً خضماً، فقال: جاء الملك نفسه، وهو يعلم أنه ما جاء إلا جيشه، فقد جعل في الآية مجيء جلائل آياته مجيئاً له سبحانه وتعالىٰ، فأسند المجيء إليه على سبيل المجاز، كذا قالوا، وهذا إنما يتمشىٰ علىٰ مذهب المؤولين.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالىٰ أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

* * *

خلاصة ما تضمنته هذه السورة من المقاصد

تشتمل هذه السورة علىٰ مقاصد ستة:

١ ـ القسم علىٰ أن عذاب الكافرين لا محيص منه.

٢ ـ ضرب المثل بالأمم البائدة، كعاد وثمود.

٣ ـ كثرة النعم علىٰ العبد ليست دليلاً على إكرام الله له، ولا البلاء دليلاً علىٰ إهانته وخذلانه.

٤ ـ وصف يوم القيامة وما فيه من الأهوال.

٥ ـ تمني الأشقياء العودة إلىٰ الدنيا.

٦ ـ كرامة النفوس الراضية المرضية، وما تلقاه من النعيم بجوار ربها(١).

شعرٌ

وَإِنِّـي وَإِنْ كُـنْـتُ أَخِـيْـراً زَمَـانُـهُ ... لآتٍ بِـمـا لَـمْ تَـسْـتَـطِـعْـهُ ٱلأَوَائِـلُ

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) إلى هنا تم تفسير سورة الفجر بعون الله سبحانه ذي المن والقهر، عصر يوم الجمعة قبيل الغروب، اليوم الثاني عشر من شهر شوال المعظم من شهور سنة: ١٢/ ١٠/ ١٤١٦هـ. ألف وأربع مئة وست عشرة سنة من سني الهجرة النبوية علىٰ صاحبها أفضل الصلاة، وأزكىٰ التحية، وصلى الله تعالى وسلم علىٰ سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين. آمين يا رب العالمين ألف ألف آمين.

وبتمام تفسير هذه السورة الكريمة تم المجلد الحادي والثلاثين من هذا الكتاب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، ويليه المجلد الثاني والثلاثين، وأوله سورة البلد.

الفهرس

سورة النبأ ٥

- المناسبة ٦
- المناسبة ٨
- أسباب النزول ١٠
- التفسير وأوجه القراءة ١١
- الإعراب ٤٦
- التصريف ومفردات اللغة ٥٢
- البلاغة ٥٧

خلاصة ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة ٦٠

سورة النازعات ٦١

- المناسبة ٦٢
- أسباب النزول ٦٤
- التفسير وأوجه القراءة ٦٥
- الإعراب ٩٧
- التصريف ومفردات اللغة ١٠٤
- البلاغة ١٠٩

موضوعات السورة الكريمة ١١٣

سورة عبس ١١٤

- المناسبة ١١٥
- أسباب النزول ١١٧
- التفسير وأوجه القراءة ١١٨
- الإعراب ١٤١
- التصريف ومفردات اللغة ١٤٦

ـ البلاغة	١٤٩
خلاصة ما جاء في هذه السورة الكريمة من المقاصد	١٥٢
سورة التكوير	١٥٣
ـ المناسبة	١٥٤
ـ التفسير وأوجه القراءة	١٥٥
ـ الإعراب	١٧٨
ـ التصريف ومفردات اللغة	١٨١
ـ البلاغة	١٨٥
خلاصة ما اشتملت عليه السورة الكريمة من الموضوعات	١٨٨
سورة الانفطار	١٨٩
ـ المناسبة	١٩٠
ـ أسباب النزول	١٩١
ـ التفسير وأوجه القراءة	١٩٢
ـ الإعراب	٢٠٤
ـ التصريف ومفردات اللغة	٢٠٧
ـ البلاغة	٢٠٨
خلاصة ما في هذه السورة الكريمة من المقاصد	٢١٠
سورة التطفيف	٢١١
ـ المناسبة	٢١٣
ـ أسباب النزول	٢١٥
ـ التفسير وأوجه القراءة	٢١٥
ـ الإعراب	٢٣٨
ـ التصريف ومفردات اللغة	٢٤٤
ـ البلاغة	٢٤٨
خلاصة ما تضمنته هذه السورة الكريمة من المقاصد	٢٥١

سورة الانشقاق ٢٥٢
- المناسبة ٢٥٣
- التفسير وأوجه القراءة ٢٥٤
- الإعراب ٢٧٠
- التصريف ومفردات اللغة ٢٧٤
- البلاغة ٢٧٨
خلاصة ما اشتملت عليه السورة الكريمة من المقاصد ٢٨١
سورة البروج ٢٨٢
- المناسبة ٢٨٣
- التفسير وأوجه القراءة ٢٨٥
- الإعراب ٣٠٤
- التصريف ومفردات اللغة ٣٠٧
- البلاغة ٣٠٩
مقاصد هذه السورة ٣١٢
سورة الطارق ٣١٣
- المناسبة ٣١٥
- أسباب النزول ٣١٦
- التفسير وأوجه القراءة ٣١٧
- الإعراب ٣٢٩
- التصريف ومفردات اللغة ٣٣٢
- البلاغة ٣٣٦
مقاصد هذه السورة ٣٣٩
سورة الأعلى ٣٤٠
- المناسبة ٣٤٤
- التفسير وأوجه القراءة ٣٤٥
- الإعراب ٣٦٢

- التصريف ومفردات اللغة ٣٦٥
- البلاغة ٣٦٧
خلاصة ما تضمنته هذه السورة من المقاصد ٣٦٩

سورة الغاشية ٣٧٠

- التفسير وأوجه القراءة ٣٧٢
- الإعراب ٣٨٩
- التصريف ومفردات اللغة ٣٩٢
- البلاغة ٣٩٤
خلاصة ما تضمنته هذه السورة من المقاصد ٣٩٧

سورة الفجر ٣٩٨

- المناسبة ٤٠١
- التفسير وأوجه القراءة ٤٠٤
- الإعراب ٤٣٣
- التصريف ومفردات اللغة ٤٣٨
- البلاغة ٤٤١
خلاصة ما تضمنته هذه السورة من المقاصد ٤٤٤